

ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب

تاريخ . ثقافة . دين

حاييم الزعفراني

ترجمة

أحمد شحلان

بد الغني ابو العزم

MILLE ANS DE VIE JUIVE AU MAROC

HISTOIRE CULTURE ET RELIGION

Haïm ZAFRANI



تحتفظ يهودية المغرب (اليهودية التاريخية كما هو مفهوم)، بروابط وثيقة
مع الفكر اليهودي العام، ووسائل تعبيره المختلفة. كما تحتفظ مع
بصلات ممتازة في ميدان الكتابة العبرية والابداع الأدبي الكلاسيكي
والتقليدي. وبتعبير آخر، يشاركان معا في الانسانيات اليهودية. وعلي
أن نقول أولا، أن هذه اليهودية، هي أيضا وليدة تربة المغرب، حين
ولدت وترعرعت وعاشت حوالي ألفي سنة. فتربت وتفاعلت م
المحيط، في ظل التقارب اللغوي وتشابه التكوين العقلي، والتضام
الفعال، مع قدر لا يستهان به من المساواة، بل الانسجام الديني. وهي
أمور تبلورت في مظاهر العيش اليومي، والمناسبات الفريدة في الحياة
مثل الولادة والزواج والموت وما يرافقها من طقوس واحتفالات، ك
تبلورت في مستوى الابداع الأدبي الشفاهي الشعبي والعامي. وكله
أرضية أنبتت إجماعا وتراضيا، حيث تكونت شخصية متباينة المكونات
ولكنها أصيلة، هوية اجتماعية ثقافية متميزة ومتعددة الجوانب. هذ
الشخصية اليهودية ـ المغربية التي يمكن أن نقول أنها ذات قطبين
وتتميز بوعي وذاكرة. وهذا الوعي والذاكرة، يتجليان في عدة مستويات

مستوى المنظور التاريخي، وذلك عندما نلقي نظرة على مصيره
وأصولها وأسماء الأماكن والرجال.

ومستوى المتخيل الاجتماعي، المتميز بالطابع الديني والاعتقاد في
الخوارق، اللذين يجتمعان معا في أهم لحظات الوجود، في الطقوس
الخاصة بكل مجموعة دينية، لاعطاء هذه الطقوس امتدادها الشامل
وفي نفس الوقت لونها المحلي.

ومستوى المنظور الثقافي، وذلك عندما نختبر المساهمات المشترك
التي ساهمت فيها كل من الحضارة العبرية والعربية والبربرية والقشتالية
وكذا عندما نختبر العطاءات الفكرية والابداع الأدبي.

الثمن: 59 درهما

ألف سنة

من حياة اليهود بالمغرب

تاريخ - ثقافة - دين

الطبعة الأولى

ـ الدار البيضاء ـ

1987

حاييم الزعفراني

ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب

تاريخ - ثقافة - دين

ترجمة

أحمد شحلان عبد الغني ابو العزم

Mille ans de vie juive au Maroc

HAÏM ZAFRANI

Ed. G.P. Maison neuve. et Larose
1983
15, Rue Victor - Cousin,
Paris (V)

رقم الايداع القانوني
676/86

الإهداء

إلى حفيدتي، لارا





مــــقــــدمــــة

الاحساس الذاتي والذاكرة الجماعية لدى يهود المغرب

قطبا يهودية المغرب

يتناول التحليل الذي قمنا به في هذه الدراسة، يهودية المغرب الاقصى، أي يهودية جزء محدود من الحيز الجغرافي - السياسي الذي كان يشمل كافة العالم العربي الاسلامي، حيث عمرت الدياسبورا (الشتات) المعروفة بالشرقية، حوالي الفي سنة. ويبدو لي ان ما سأقدمه في موضوع المجتمعات اليهودية في الغرب الاسلامي، سيكون متميزا بالمقابلة التي يمكن ان نقوم بها بين مختلف جماعات المحيط السفرادي* والشرقي. إذ يبدو لي، منذ البدء، ان تلك وهاته ترتبطان ارتباطا وثيقا بوحدة المصير، ان لم نقل بالهوية الاجتماعية الثقافية، وبنفس الوضع السياسي والقانوني، ذلك الذي اعترفت به الشريعة الاسلامية، الخاص بالذميين (اهل الكتاب). واعتقد ان الغرب الاسلامي الذي اعرفه، كان بالنسبة لي، يمتاز بمثالية وانموذجية. اذ ما فتأت هذه الاوساط اليهودية التي عاشت فيه اكثر من الفي سنة، تحت راية الاسلام، تحتفظ بنفس الظواهر الحضارية والثقافية.

واقول بادىء ذي بدء، ان يهودية المغرب الكبير، والمغرب الاقصى، ظلت تعيش، كباقي اخواتها، تحت نفوذ قواعد وقوانين مستقاة من التوراة والتلمود والهلخا. ويتكون محتوى هذه الاخيرة، من عديد من التشريعات وبعض الاجتهادات القانونية العبرية.

تحتفظ يهودية المغرب (اليهودية التاريخية كما هو مفهوم)، بروابط وثيقة مع الفكر اليهودي العام، ووسائل تعبيره المختلفة. كما تحتفظ معه بصلات ممتازة في ميدان الكتابة العبرية والابداع الادبي الكلاسيكي والتقليدي. وبتعبير آخر، يشتركان معا في الانسانيات اليهودية. وعلينا ان نقول اولا، ان هذه اليهودية، هي أيضا وليدة تربة المغرب، حيث ولدت وترعرعت وعاشت حوالي الفي سنة. فتربت وتفاعلت مع المحيط، في ظل التقارب اللغوي وتشابه التكوين العقلي، والتضامن الفعال، مع قدر لا يستهان به من المساواة، بل الانسجام الديني. وهي امور تبلورت في مظاهر العيش اليومي، والمناسبات الفريدة في الحياة، مثل الولادة

*- السفردي نسبة الى «سفرد»، وهي اللفظة التي تطلق على اسبانيا باللغة العبرية. والسفرديون يهود شبه الجزيرة الايبيرية. وعمم هذا الاسم ليشمل كل يهود الشرق وافريقيا منذ القرن التاسع عشر. المترجم

والزواج والموت وما يرافقها من طقوس واحتفالات، كما تبلورت في مستوى الابداع الادبي الشفاهي الشعبي والعامي. وكلها ارضية انبتت اجماعا وتراضيا، حيث تكونت شخصية متباينة المكونات، ولكنها اصلية، هوية اجتماعية ثقافية متميزة ومتعددة الجوانب. هذه الشخصية اليهودية-المغربية التي يمكن ان نقول انها ذات قطبين، وتتميز بوعي وذاكرة. وهذا الوعي والذاكرة، يتجليان في عدة مستويات:

مستوى المنظور التاريخي، وذلك عندما نلقي نظرة على مصيرها واصولها واسماء الاماكن والرجال.

ومستوى المتخيل الاجتماعي، المتميز بالطابع الديني والاعتقاد في الخوارق، اللذين يجتمعان معا في اهم لحظات الوجود، في الطقوس الخاصة بكل مجموعة دينية، لاعطاء هذه الطقوس امتدادها الشامل، وفي نفس الوقت لونها المحلي.

مستوى المنظور الثقافي، وذلك عندما نختبر المساهمات المشتركة التي ساهمت فيها كل من الحضارة العبرية والعربية والبربرية والقشتالية. وكذا عندما نختبر العطاءات الفكرية والابداع الادبي.

باريس 15 مارس 1982.

الفصل الأول

اليهودية المغربية ومصيرها

I. التيارات التاريخية الكبرى:

تمتد جذور يهودية الغرب الاسلامي في ماض سحيق، إذ يعتبر اليهود تاريخيا، أول مجموعة غير بربرية وفدت على المغرب وما تزال تعيش فيه الى يومنا هذا. وليست لدينا اية نقوش مكتوبة أو شواهد أخرى تدل على اقامة مستعمرات يهودية كاملة على الشواطىء الافريقية في عهود مدنيات صور وصيدا. ويعتبر تاريخ تلك الفترة ضربا من الاساطير، ولم تجمع اخبارها الا في وقت قريب منا. وتتحدث الاخبار عن وجود آثار لاحجار كانت علامات لحدود يقال بان الذي كان قد وضعها هو يواب بن سرويا قائد جيش الملك داوود. وتختلف الأقوال أيضا في المكان الاصلي الذي وضعت فيه من ارض المغرب الكبير، فقد زعم أنها وضعت بجزيرة جربة (تونس) وطنجة، وفاس، وفي وادي درعة أو في التخوم الصحراوية المغربية، تلك الأماكن التي ارادت هذه الاخبار ان تكون الموطن الذي وصل اليه القائد المذكور متعقبا سكان فلسطين الاصليين. ويعتقد بعض اليهود، سكان الجبال، ان البرابر، ما هم في الحقيقة الا بقايا اولئك الفلسطينيين (تجدر الاشارة انهم هنا يترجمون اللفظة العبرية: «فلستيم» التي جاءت في التوراة، بلفظة «برابر»

اما عن العهد الاغريقي الروماني، فاننا نتوفر على معلومات هامة، سواء في التلمود وكتابات الأحبار الأخرى (مدرش وهگدا) أو النقوش والاثريات المتوفرة حاليا، أو في أخبار المؤرخين قدماء ومحدثين، يهودا وغير يهود، اولئك الذين تناولوا تلك الفترة التاريخية بالدرس، حيث تعرضوا لذكر اليهودية ببرقة، وثورة اليهود في عهد ترجان Trajan وأخبار Procope الخ... كما تعرضوا لذكر طائفة يهودية كانت تسكن مدينة وليلي في العهد الروماني. وقد عثر في بقايا ذلك الموقع، على شمعدان برونزي ذي سبعة عروش. كما عثر أيضا على بقايا شاهد قبر يحمل الكتابة العبرية: مترونا بت ربي يهوده نخ... (السيدة بنت الربي يهوده لها السكينة...).

ويظهر آن المستعمرة اليهودية ظلت بوليلي الى ان ورد العرب على المغرب. وقد اشار المؤرخون العرب انفسهم الى وجود قبائل بربرية متهودة في زرهون غير بعيد عن هذا المكان في زمن تأسيس فاس سنة 808.

ويظهر ان السلطات الرومانية كانت متسامحة، بوجه عام، مع اليهود الذين خلدوا الى اعمالهم، حيث كان البعض منهم يتمتع بكامل الحقوق المدنية. فازداد عدد اليهود والمتهودين بمجيء يهود آخرين مهاجرين، أو بالتهود المتزايد للسكان المحليين والاجانب. ونستشف بعض هذا من قولة تلمودية للربي يهودا، رواية عن راف، (منحوت 110 ا)، وكانت تتحدث عن الامبراطورين Septime Sevére وابنه Caracalla (193 – 217 ب م) والقولة هي: «كان يعرف اسرائيل واله اسرائيل بين صور وقرطاج، ومن صور غربا الى قرطاج شرقا لا يعرف لا اسرائيل ولا اله اسرائيل». وربما يقصد من هذا: ان كل المتهودين لم يتهودوا على مقتضى الشريعة (الهلاخا) وكانوا على الخصوص لا يختتنون.

وقد أصبحت النظرية التي تفترض بان جل اليهود المغاربة برابرة أصلا، والتي يقول بها بعض المؤرخين، متداولة ومسلمة ثابتة. غير ان بعضا آخرين ينزلونها منزلة الشك، مثل H.Z.Hirschberg الذي يقول: «يظهر انه لا وجود لأي أساس متين لنظرية تهود البرابرة، هؤلاء الذين سيصيرون يهودا بالمعنى الكامل، والذين قد يكونون بناء عليه، العنصر الاثني الاساسي ليهودية المغرب الكبير... والدليل القاطع على غياب أي نوع من تماثل مجموعات كبيرة بربرية، هو الغياب الشامل لأي تسرب للغة البربرية في الآداب اليهودية، بينما هناك نصوص بالعربية اليهودية المغربية». (تاريخ يهود افريقيا الشمالية، القدس 1965، بالعبرية الجزء 2 ص 36 وص 86. ويجدر بنا، دون أن نكون طرفا في النقاش، ودون ان نتناول عمق الموضوع هنا، ان لم نعترض على بعض مزاعم H.Z.Hirschberg ، ان نتمم على الاقل، في نقطة معينة، المعلومات التي يقدمها في موضوع لهجات يهود المغرب الكبير، وما تتضمنه من محتوى ثقافي. لقد اظهرت ابحاثنا الميدانية في اوساط اليهود الناطقين بالبربرية في المغرب بجلاء (ملاح جنوب المغرب ووديان الاطلس)، ان التعليم التقليدي كان يستعمل، لدى هذه المجموعات، اللغة البربرية أداة لتفسير وترجمة النصوص المقدسة، كما كانت المجموعات اليهودية الاخرى في باقي البلاد تستعمل اللغة اليهودية–العربية أو اليهودية–الاسبانية لنفس الاهداف. (انظر

- Journal Asiatique 1964, Fascicule 1.

- revue des etudes juives, 1964, Fascicule 1, et 2, et pedagogie juive en terre d'islame Paris 1964.

ونجدنا امام فراغ هائل وصمت مطبق فيما يتعلق بالفترة الفاصلة بين العهد الروماني الاخير وبداية الفتح العربي.ويلزم في هذا الصدد، أن نترك للاساطير ما يتعلق بالمأثرة العجْيبة، والاخبار الخرافية التي تحوط تاريخ الكاهنة، والتي جعلت من هذه الملكة و «الكاهنة» اليهودية البربرية، شخصية بارزة قاومت الفتح الاسلامي مقاومة عنيفة.

ويمكن ان نفترض بانه كان هناك تمازج بين المسيحية واليهودية والوثنية في مغرب ما قبل الاسلام. إذ يحكي اخباريو القرن 14، ان ادريس الأول وجد امامه، عندما فتح المغرب، قبائل مسيحية ويهودية ووثنية. وقد ترك ادريس الثاني اليهود داخل اسوار فاس القديم، حيث سكنوا الى ان اسس المرينيون الملاح الحالي، ملاح فاس الجديد، ويقع في المنطقة الواقعة بين القرويين وباب الگيزة، تلك التي لا زالت تسمى: «فندق ليهودي». وكان بين يهود فاس اشهر علماء وادباء القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر، مثل الرابي اسحق الفاسي المزداد بقلعة بني حماد سنة1013، والذي كان على رأس «يشڤه» (مدرسة) في فاس. ولا زال بالمدينة القديمة منزل نصف متهدم يكلل حافته العلياثلاثة عشر ناقوسا نحاسيا، يقال انه كان سكنى ابن ميمون مدة اقامته بهذه المدينة.

وقد آسس يوسف بن تاشفين المرابطي مدينة مراكش سنة 1062، وظلت ممنوعة على اليهود الذين كانوا يسكنون مدينة اغمات الواقعة في الجنوب الشرقي على بعد نحو 40 كم من مراكش. الا أنه كان مسموحا لهم بقضاء اليوم بها للحصول على اغراضهم التجارية. وقد كتب زكرياء بن يهودا الاغماتي باغمات، سنة 1190، شرحا لفصول من التلمود وهي: «بابا قاما»، «بابا مصيعا» «بابا بترا». وقد سمح السلطان احمد الذهبي السعدي (1578–1603) ليهود اغمات بالاقامة في مراكش، ويظهر ان تاريخ تاسيس الملاح الحالي المجاور لقصر السلطان، قصر البديع، يعود الى تلك الفترة. وقد ظلت عاصمة الجنوب طيلة قرون، منـاراً تشـع منـه العلوم اليهـودية على مناطق سوس، والأطلس، ومدن ساحل الجنوب الأطلنتيكي.

ومن نافلة القول ان نذكر ما كان من مدارس عليا (يشڤوت)أشرف عليهااعلام اشتهروا في العالم اليهودي، في فاس وسلا وسجلماسة ودرعة وغيرها، في عصر الاندلس الذهبي، عندما كانت الاندلس والمغرب يكونان بلدا واحدا. وقد عاشت بسجلماسة التي أسسها بنو واصل في القرن 9 طائفة يهودية كبرى. وكانت هذه المدينة مشهورة بتجارتها مع بلدان ساحل النيجر ووسط افريقيا، ومع مصر والهند. وكان لليهود بها النصيب الاوفر في المبادلات والتبادل التجاري، وكان احبارها على اتصال دائم مع اخوانهم بالقيروان وبغداد. وكان

«بيشقت» صموئل بن علي ببغداد، طالب من سجلماسة. كما كان الربي سلمون بن يهودا كَؤون الفاسي، رأس «يشقه» بفلسطين ما بين 1025 و 1051.
وكان يوجد بوادي درعة سلسلة من القرى، كانت تسكنها مجموعات يهودية هامة منذ تاريخ طويل. وكتب احدهم من مدينة درعة ويدعى دوناش، الى الراب الفاسي اسحق الفاسي يستفتيه في أمور شرعية. كما افادنا ابن ميمون في «رسالته الى يهود اليمن» بمعلومات عن موسى الدرعي المبشر و المشهور بالمخلص المسيح ، وعن اخبار اسماء اعيان درعيين استقروا بالفسطاط بمصر. وجاء في معجم الجغرافي العربي ياقوت (اوائل القرن 13)، ان معظم تجار درعة كانوا يهودا.

لقد عرف يهود دار الاسلام وضع الذمة الذي فرضه الاسلام، وهو وضع دوني ومؤقت في غالب الاحيان، ولكنه على اي حال، وضع قانوني متسامح (استقلال قانوني واداري وثقافي كامل) اذا ما قورن بالذي عرفه يهود البلدان المسيحية الاشكناز. وقد سمحت، من جهة اخرى، حضارة العصر الوسيط العلمانية في الشرق والغرب الاسلامي، لاهل الذمة (يهودا ومسيحيين) بان يحسوا بأنهم ورثة تقليد ثقافي عظيم ومحترم، كما كانت اللغة العربية الغالبة، على خلاف اللاتينية لغة الكنيسة سواء في روما أو الشرق، اقل ارتباطا بالدين، فاستعملوها باستمرار ودون تحفظ، في دراسة نصوصهم المقدسة بعد ما كانوا يستعملون لغة تخاطبهم القديمة الارامية، التي حصروها منذ ذلك، في النصوص التلمودية (القبالية)، متخذين اللغة الجديدة، لغة حضارة وثقافة العالم العربي الاسلامي.

وقد شغل المغرب الكبير، في فترة «الكَؤونيم» (ق 6–12م)، مكانة ذات اهمية في علاقاته مع الاكاديميات البابلية، مثل مدرسة سورا **Sura** وبمبيدتا **Pumbedita** (العراق)، وكذلك مع اكاديميات فلسطين. وتجلي ارتباطهم الوثيق بمراكز العلوم اليهودية المعاصرة لهم في وثائق «الكَنيزة» (مخزن الوثائق) التي اكتشفت في البيعة القديمة بالقاهرة، أواخر القرن الاخير، ولم يصلنا منها الا جزء يسير بفضل اعمال **S.D.Goitein** منها:

فتاوى الكَئوونيم، ومقالات هلاخية كاملة أو جزئية، ومراسلات تجارية أو عقود توثيقية لمحاكم رابية يهودية. وهي وثائق اتممت ما كنا نعرفه سابقا عن المبادلات التي كانت بين المغرب والشرق، وجلها كتابات تشريعية. وتشهد كل هذه الوثائق بقدم الاماكن اليهودية في شمال وجنوب المغرب الاقصى، كما تشهد بأصالتها في هذا البلد. وتدفعنا نتائج هذه الاعمال ايضا، الى الاعتقاد بان احبار المغرب كانوا اساتذة اليهودية الاندلسية، فمن المغرب الاقصى، انطلق في القرن العاشر، أوائل النحويين واللغويين والشعراء، وأصحاب المؤلفات الفقهية التشريعية الذين يعدون بحق مؤسسي المدرسة الاندلسية.

لقد عرفت اذا، اليهودية الاندلسية في مجموعها حياة أكثر رخاء واكثر اطمئنانا، كما لم تعرفها في مكان آخر. ونظرا للوضع القانوني المتسامح، فان يهود الاندلس لعبوا دورا اساسيا في الحياة الاقتصادية المزدهرة في البلاد كما كان لهم دورهم في الشؤون العامة. ويرجع الفضل اليهم في جزء لا يستهان به من الازدهار الشامل، ولقد تركت لهم سعة اليد فراغا للدرس وليبلغوا درجة عليا في الثقافة الشاملة، المتمثلة في تلك العهود، في العلوم والاداب العربية الاندلسية التي ملكوها فاثروا تأثيرا كبيرا في تطوير الفكر اليهودي، وانماط تعبيره المختلفة، مما ساهم في اغناء هذا الفكر.

وتجدر الاشارة من جهة اخرى، الى حرية الحركة والتواصل الكبرى التي ميزت اذ ذاك عالم البحر الابيض المتوسط، وميزت وحدته الثقافية والاجتماعية - الاقتصادية. وهي ظواهر مثيرة للانتباه، وتفسر الى حد ما، الاستقلالية الكاملة التي كانت تتمتع بها المجموعات اليهودية. ويكفي دليلا على هذا سرد الحادثة الاتية: جاء في خاتمة رسالة هامة كتبها احد ممثلي المدارس البغدادية بالقيروان، وارسلها سنة 1016-1017 الى ابن أوقال، رئيس الهيئات الافريقية التي كان مقرها بالقاهرة القديمة، ومؤداها ان تاجرا يهوديا من بغداد مات بسجلماسة (تخوم الصحراء المغربية) في الجانب الآخر من العالم الاسلامي. واعلمت السلطات المحلية اليهودية صاحب الرسالة بان التاجر المتوفي ترك مالا في عين المكان، كما سلم ايضا بضائع الى تجار قيروانيين. ويطلب كاتب الرسالة من ابن أوقال، ان يخطر السلطات اليهودية ببغداد، وذلك حتى يعينوا من ينوب عن الورثة الشرعيين أو يعينوا أسماءهم لتدل على قرابتهم العائلية، الى «نكّيد» تونس، وشيوخ القيروان الذين يتكفلون بالسهر على سير القضية.

تؤكد هذه المراسلة البسيطة (ان كان الامر يحتاج الى تاكيد) واقعا مهما، تجلى في وقائع اخرى غيرها، وهو ان المجموعات غير المسلمة، لم تكن تشكل دولة داخل الدولة الاسلامية وحسب بل كانت تمتد الى ما رواء حدودها احيانا. وكان الامر يحتاج للسفر من بغداد الى القيروان، ومن القيروان الى سجلماسة عدة اشهر، وكانت حدود كثيرة تفصل بين البلدان التي كانت تقطع للذهاب من المغرب الكبير الى المشرق، دون ان تقدم اية وثيقة لحكومات البلدان المعنية. وظلت القضية الخاصة بممتلكات التاجر المذكور، من شأن السلطات اليهودية الربية والدنيوية، وعوملت على انها محض قضية يهودية، فهل هناك شاهد افصح من هذا على الاستقلالية الكاملة للمجموعة غير المسلمة في ارض الاسلام ؟

ازدادت تعاسة اليهود مع التفتيش وسقوط الاندلس، واخذوا يرتدون حتى قبل مراسيم 1391، ويتجهون نحو بلدان المغرب التي تركها اجدادهم قبل قرون. ووصل مهجرو 1492-1497 الاسبان والبرتغاليون في موجات متتابعة، واستقروا مؤقتا أو نهائيا في أرض

البربر (المغرب) وفي الموانىء المتوسطية أو الاطلنتكية، وفي مدن البلاد الداخلية. وقد حملوا معهم لغتهم القديمة القشتالية، وعلومهم ومؤسساتهم الجماعية كما حددتها مراسيمهم الربسية « تقنوت » واعرافهم وعاداتهم وروح المبادرة التي جعلت منهم، عكس اخوانهم يهود المغرب المحليين، مجموعة اجتماعية ثقافية مهيمنة، حيث استقطبت النخبة المثقفة وبرجوازيةالنبلاءمن هذه الطبقة التي لعبت دورا من الاهمية بمكان سواء في المجالات التجارية أو المالية أو السياسية، وهو دور لم يقم به اي يهودي في البلدان المسيحية، بل حتى في المناطق الاسلامية الاخرى.

وإذا كان وصول مهجري الاندلس قد اثار بعض البلبلة في حياة الجماعات المحلية، فانه كان فوق هذا، عامل اغناء روحي لا يستهان به. لقد بقي يهود المغرب المحليون (توشڤيم) والمهجرون (مڭورشيم) مختلفين في عديد من مسائل التعبد (طقوس وقوانين تخص الذبائح)، الا ان القادمين الجدد اخذوا في النهاية قيادة الجماعات اليهودية اين ما قاموا، خصوصا في شمال البلاد.

ولا زال يستعمل في بيعة اليهود «التوشفيم» (المحليين) بملاح فاس، «سدور» (كتاب صلوات) طبقا لعادات سكان فاس الاقدمين المحليين (المحليون هنا في مقابل المهجرين من الاندلس) وعنوانه: حب الاجداد، وهو مطبوع بالقدس سنة 1889.

وقد حدث نزاع حاد بين اليهود المحليين والمهجرين من اسبانيا، في موضوع يتعلق بالذبائح، خصوصا في شروط اختبار رئة الحيوان المذبوح، وانتهى هذا النزاع بانتصار رأي اليهود المهجرين من اسبانيا، وأصبح قاعدة مشتركة معتمدة لدى كل الطوائف.

كانت السررة الاميرية وهي حق موروث يخول للاحبار ولكل من يخدم الامور الدينية -وسنتكلم عنها فيما بعد- وقفا على بعض عائلات من اصول اسبانية، وهي العائلات التي كانت تضيف الى اسمها الرمز المكون من حرفين س،ط، ويبدو ان هذين الحرفين كانا منذ الاصل، مختصرا للكلمتين الآراميتين /سفه طاب/ (ومعناه الحرفي نهايته سعيدة) وهو مختصر يضاف الى اسم شخص لا زال احيا، تمنيا له بنهاية حياته، تلك التي كرسها لخدمة الله، نهاية سعيدة، وليكون اهلا للدار الاخرى.

وهناك من يفسر معنى الحرفين «بسفرادي [اندلسي] طاهر» وهولقب كان يعتز به بعض يهود اسبانيا (الاندلس). والظاهر ان هذا التأويل لا يعتمد على أساس، إذ نجد التفسير الاول منسجما مع ما يلفظ اثناء قراءة عقد الزواج يوم عقد القران. فالعبارة س ط (نهايته طيبة (طابت نهايته) تستعمل كلما كان الامر يتعلق بشخصية لا زالت تنعم بالحياة، في مقابل العبارة: «نوحو عدن»، (ليرتح في عدن) ومختصرها نون عين، وهي عبارة ترفق ذكر من مات.

واغلبية نخبة مشاهير يهود المغرب من هذه العائلات، فمنهم علماء في الشريعة وسفراء

ورجال اعمال ومستشارو الملك، وقناصل وملحقون تجاريون... نذكر من بينهم علماء ورجال مهمات، مثل ابن عطار وابن دنان، وابن سور وسريرو ومنسانو وبرديكو وسرفاتي وطوليدانو وابن زميرو وكنسينو وسومبال وخلقون وأزريلوس وعوزيل بباس وقوريات والمليح وازولاي وميمران وبلاجي وغيرهم.

لقد عرفت اليهودية المغربية كذلك الاضطهاد والابتزاز والانزعاج. وتعايشت الطائفتان اليهودية والمسلمة –بالرغم من وضعهما غير المتكافىء، في ظل علاقة هي علاقة الغالب بالمغلوب، سواء في الجانب السياسي أو الديني– في تعاون مثمر تجمعهما الطمأنينة والسلام في غالب الاحيان، باستثناء فترات العنف والغضب التي كانت تميز اللحظات الخطرة، اثناء غياب النظام والسلطة، وفي فترات الانقلابات وسقوط الدول. فقد لوحظ اثناء هذه الأزمات المتكررة، اغارات ونهب وتقتيل، كان ضحاياه عديد من الابرياء، منهم مسلمون من بين مناوئي السلطة الجديدة. وكان اليهود يؤدون ثمنا باهضا، أو يجدون انفسهم في حالات نادرة مخيرين بين الاسلام او النفي، عندما ينقلب الامر الى جهاد، وعندما تتعاظم الاضطرابات السياسية وتصبح حربا دينية، كما حدث اثناء ظهور المتعصب ابن تومرت (القرن 12).

وكانت الفاجعة الاكثر ايلاما في الحقيقة، هي تلك التي تعرض لها اليهود أيام حكم الموحدين، ولم تكن اقل هولا، ولم تكن عواقبها اقل قساوة بالنسبة لليهود بالمغرب، من تلك التي عرفها اليهود الاوروبيون ابان الحروب الصليبية الاولى.

ولم نتعرف على هذه الاحداث الا بواسطة بعض الوثائق، وهي قليلة، مثل: «قينة» (مرثية) ابراهام بن عزره، وبعض اشارات لمح اليها ابن داود في كتابه: سفر هقبله (كتاب القبلا)، وفي فقرتين جاءتا في مؤلف: «شفط يهودا»/سبط يهودا/ لسلمون بن وركا. وعلمنا منها أنه رحب بالموت مائة وخمسون شخصا في «سبيل الله» بسجلماسة، واسلم الباقون، وكان أولهم قاضي المدينة الذي ما لبث ان رجع الى الديانة اليهودية.

وقد احتفظ اليهود بذكرى مريرة، خصوصا في فترة ملك مولاي اليزيد القصيرة (1790–1792)، وكانوا يسمون هذا الملك «مزيد» (وتعني باللغة العربية المسيىء عن قصد) نظرا لما كانوا يكنون له من كراهية. وقد كتب الشاعر الاديب الذي كان يعيش بمكناس ايامها، داود بن حسين (1730– 1790) مرثية تذكر بهذه الاحداث المؤلمة التي البست الحداد كل الطوائف اليهودية في ذلك الوقت. وقد كان لأفول اليهودية السريع بارض الاسلام عموما، اسباب سياسية واقتصادية. وهذا موضوع يتعدى مجال دراستنا هاته.

عاش اليهود ثقلا مضاعفا: انعزال البلد باسره عن كل حضارة غربية أولا، وانحباس اليهود انفسهم داخل الملاح الذي لم يسمح لهم باي اتصال مثمر مع الخارج ثانيا. كان اليهود

المغاربة يجهلون التيارات الايديولوجية التي هزت هز العواصف اليهودية الاوربية في فرنسا والمانيا وايطاليا في عصر الانوار. واقتحمت الحضارة والثقافة الاوربيتان، مع نهاية القرن الاخير، المغرب الكبير، وهو عالم ما زالت به إذ ذاك علائم القرون الوسطى ظاهرة للعيان سواء في بنياته الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية. وقد توغلت هذه الثقافة بين الطوائف اليهودية أولا في الجزائر، ثم في تونس، وأخيرا في المغرب، باستعمال اللغة الفرنسية التي جعل منها اليهود لغة حظوة وتحرر ورقي اجتماعي، خصوصا في اوساط النخبة البرجوازية. لقد كانت الدنياوية والعلمانية نتيجة من نتائج الحضور الفرنسي الذي غير وجه هذه المجتمعات سياسيا واقتصاديا. وعلينا أن لا نغفل المقاومة التي واجه بها شيوخ الطوائف تغلغل سلطة العالم الغربي والحيطة الكبيرة التي ابدوها تجاه الثقافة الغربية، حيث اعتبروا المدرسة الحديثة «السكويلا»، «اش كله»، وهي عبارة عبرية تعني: نار كلها. كما اعتبروا هذه المدرسة طريقا للنار.

وبعد قيام اسرائيل (1948) واستقلال بلدان المغرب الكبير، هاجرت مجموعات يهودية متكاملة هجرتها المكثفة، فاتجه معظم اليهود الى اسرائيل، واستقر البعض الآخر بفرنسا واسبانيا وكندا، أو في اماكن اخرى. ومع ذوبان هذه المجتمعات التي عمرت الفي سنة، اختفى اسلوب كامل لبنيات قديمة وتقاليد لغوية وثقافية غنية واصيلة.

II نظرة يهود المغرب إلى الذات

(التجربة الداخلية)

تلاحظ نظرة الذات هذه في العوالم الثقافية والابداع بمفهومه الشامل، اي من خلال الادب المكتوب والشفاهي، في التعبير العبري أو العامي، وهي جميعا تستقي وحيها ومشاربها من تاريخانية لها خصوصياتها

ويسمح الاتصال المباشرلهذه الآداب بالمحيط والحياة وحقائق الوجود، بالتعرف على مختلف الطوائف اليهودية المغربية من الداخل، كما يسمح بفهم بعض المظاهر الثابتة لتصرفها وافكارها وتاريخها، وهي امور لم يتعرض لها أو لائك الذين وصفوا «الملاح» وساكنيه في رحلاتهم، ولم تتعرض لها أيضا تلك البيانات التي اعدهاالدبيلوماسيون والقناصل والتجار الذين كانوا يرجعون خيبتهم الى اليهود كلما فشلت مهماتهم في المغرب.

1- الاحداث

لقد غابت الوقائع التاريخية الحقة، تلك التي تهم البلاد كلها والاسر الحاكمة والواقع الجغرافي السياسي، عن تلك المصنفات التاريخية النادرة التي وصلتنا، وهي مصنفات دبجها بعض من المتادبين، اذ لم ينشغل هؤلاء الاخباريون الذين كانوا يهتمون، بحكم الظروف، بالاحداث الواقعية اليومية، والذين كانوا يكتبون اذا كتبوا لانفسهم أو لوسطهم المحدود،بنفس الاهتمامات السياسية والشخصية التي كانت تحرك المؤرخين المسلمين. ولم تهتم هذه المصنفات التي كانت تعكس خاصة، الحياة الداخلية للمجتمع اليهودي، بالنشاطات التي تتعدى الطائفة، بل لم تهتم بتلك العلاقات التي كانت تربط اوساط رجال الاعمال اليهود بغيرهم من المجموعات العرقية والاجتماعية والدينية الاخرى.

لاتستطيعالادبيات التشريعية، مثل «التقنوت» (القرارات الربسية) و «الرسبونسا» (الفتاوي الشرعية، والاحكام التي اصدرتها المحاكم)، وهي التي تكوّن مصدر معلوماتنا الامثل، فيما يتعلق بالتنظيم الاجتماعي – الاقتصادي، والحياة الدينية والطقوسية للجماعات اليهودية، بالرغم من أنها جميعا وثائق ثمينة، ان تقدم لنا الا اشلرات عابرة ومختصرة، أو جد نادرة عن تاريخ الاحداث المغربية، وعن العالم خارج الملاح. ولم تشكل هذه الاشارات في المجمل، الا نقط استدلال تاريخية، تعرض لحالة من الحالات أو لظروف نزاع من النزاعات، أو تلمح الى حروب اهلية أو أزمات اقتصادية مثل تلك التي تترك بصماتها في فترات المجاعات والأوبئة المتعاقبة في سنوات الجفاف.

وكان اليهود اكثر بؤسا من السكان المسلمين الذين كانوا هم انفسهم ضحية هذه الكوارث الدورية المتكررة. واذا حدث ولم يكونوا ضحية الافلاس الذي لم ينج منه الا بعض منهم، فانهميكونونضحية بعض المضايقات وعدم الاطمئنان اليومي، والسلب المتكرر والابتزاز الذي تحملوه نتيجة للتعسف غير المحدود.

وقد استرعت انتباهنا في هذا الصدد، بعض الشهادات حول هذه النظرة الى الذات وهي هنا أقل تفاؤلا، حيث تتعرض لظروف العيش وكذا لبعض الوقائع التاريخية.

يذكرنا مرسوم 1691 «بسوء الحظ و الكوارث التي تتابعت، فقسمت ظهر الجماعة بثقل الضرائب المتزايدة وصعوبة الحياة وشح موارد العيش... وعجز رجال، كانوا اغنياء من قبل، عن مساعدة فقراء المدينة الذين يتزايد عددهم بدون حصر، ولا يمر اسبوع دون ان يتقاطر ستة أو سبعة فقراء من احدى مدن المغرب الاخرى، بالاضافة الى ان مبعوثين اشكناز وبولونيين كانوا يحملون من بلدانهم رسائل،ويطالبون اموالا لعتق اسراهم... وكانت سنة 1722 سنة ازمة اقتصادية ومجاعة كبرى... ولم يبق لدى عدد من ارباب الاسر ما يقيمون به أود عائلاتهم، بل لم يبق لهم ما يشترون به قليلا من خبز يطعمونه ابناءهم...»

وتتعرض فتوتان اخريان لمجاعة سنة 5497 (1736– 1737)، حيث تشير الى هجرة عائلة مكناسية هاجرت خلال شتاء هذه السنة بعد ان ارغمتها المجاعة فانتقلت اولا الى دكالة،ثم الى سوس فدرعة.

كما اضطرت المحكمة الربسية الى النظر في الخلافات الناتجة عن ضياع اموال شركاء في اعمال شركة تجارية بعد نهب الاوداية لمدينة فاس سنة 1727، وبالخصوص نهب لعبدات لمدينة مكناس سنة 1728.

وتشير وثيقة اخرى متاخرة مؤرخة ب 1791، حررت بالرباط، الى حادثة لها خصوصياتها إذ تقول: «توضع الفضة والذهب في سراديب بعد موت الملك حتى لا تتعرض للنهب».

ولقد وضعت مجموعة من المراسيم سنوات 1605-1606-1609- على اثر المضاربات المالية التي حدثت في المغرب في بداية القرن 17. وتتناول هذه المراسيم الصراعات الناتجة عن اداء بعض الديون، وتصفية حسابات منصوص عليها في عقود الزواج.
وتشير احدى هذه الوثائق الى استيلاء السلطان مولاي عبد الله على مدينة فاس بتاريخ 18 تموز 5369 / صيف 1609.

كما تتحدث مقدمة احدى الفتاوي الصادرة ب 1669 عن دخول السلطان مولاي رشيد الى تطوان، وعن استيلائه على ممتلكات عائلة نقسيس Naqusis الغنية ذات السلطة والجاه.

«توجه ممثلو طوائف الشمال الى السلطان الذي استولى على طنجة، ليقدموا له الهدايا تبعا للعرف، فحمل اليه ممثلو يهود تطوان 800 أوقية (قطع فضية) ويهود طنجة 200 أوقية ويهود اصيلا 100 أوقية، وحمل بغل من الشمع. ولم يجزل يهود الشاون والقصر العطاء، فشتمهم أحد خدام السلطان، لانه وجد ان هداياهم غير كافية وفرض على مبعوثيهم الزيادة في تلك المبالغ».

كما ذكرت فتوى حررت بالرباط وتحمل تاريخ 1795، موت مولاي اليزيد السلطان «القاسي»، الذي لم يترك حكمه القصير (1790 - 1792) الا ذكرى مريرة لدى الطوائف اليهودية المغربية. وتجدر الاشارة الى ان مقدمات المؤلفات التي الفها اليهود كلها صالحة لتكون مصدرا تاريخيا ثمينا جدا.

فهذه مثلا مقدمة مجموع فتاوى وعظات من تصنيف اليهو بن اموزيك، وكان شاهد عيان، تصف حلقة من الصراع الفرنسي المغربي، ايام عبد الرحمن بن هشام الذي ناصر عبد القادر (1844): «لقد انقضت البواخر الفرنسية مثل حمائم الوادي على المدينة، واغرقتها بوابل من النار والحديد... وقد تقاطر من البادية على المدينة حشد من البدو المتوحشين الذين نشروا الرعب، وابتزوا ونهبوا وذبحوا السكان اليهود الابرياء...»

كما تذكر مقدمة مجموعة اخرى من الفتاوى، الاضطرابات التي ميزت فترة ما بعد موت مولاي الحسن الاول (1894) واستطاع كاتبها أن يتطرق الى الأحداث ببعد نظر، فوصفها بذعابة مشربة بالمرارة: «يعلق أمن الحياة وحفظ الممتلكات والاعراض وكل المكتسبات والقيم الانسانية في المغرب، بخيط، أوهى من خيط العنكبوت.... في مثل هذه الفترات لاتكاد تتحرك الورقة الجافة فوق غصنها في العالم المتحضر، الا ان الارض هنا تهتز هزا، وينتشر الرعب والفوضى اوساط السكان... في اي مكان، بعد موت السلطان، يتوج ولي العهد أو اي أمير يستحق العرش، في جو من الفرح والبهجة، حيث تصحب الحفلات ولاية الملك الجديد، اما في المغرب، فبمجرد سماع خبر مرض العاهل أو موته، تقوم الثورات،

وتزعزع المؤسسات، وتتمرد القبائل البربرية المتوحشة الفظة، فيقطعون الطرقات، ويغزون المدن، ينهبون ويقتلون...

هذا ما حدث بعد موت الملك الصالح الرحيم مولاي الحسن، فولي عهده لازال حدثا ولم يبلغ بعد سن الخامسة عشرة عندما خلف اباه، فرفضت القبائل الخضوع الى ملكه.... فعمت الفوضى، وتوالت الحرب الاهلية طيلة اربع سنوات... ولسوء حظنا، من تعتقدون ستكون الضحية المقصودة إن لم يكن بنو اسرائيل، كبش الضحية المعتاد؟ فقد نهب اليهود، واغتصبت عذاراهم، وقتل عدد من الرجال والنساء في المدن والقرى، وفي نواحي دمنات والقلعة ومسفيوه... وما ان هدأت الامور حتى حلت مصيبة الجفاف والمجاعة... وضرب وباء التيفوس [الحمى الصفراء] ملاح فاس، فحلت به الكآبة ما بين بداية سيوان و15 سباط / 1901 فقضى الوباء على حوالي 3000 ضحية، ولم ينج الا القليل، اي ما يقارب الثلاثة أو الاربعة بالمائة من السكان اليهود.»

2- الاهالي واماكن استقرارهم .

ا- مجموعات اثنية ولغوية واجتماعية-ثقافية:

بغض النظر عن التحولات الحديثة المتابعة في فترة الاحتلال أو الحماية الفرنسية الاسبانية، والتي لا تهم مع ذلك الا جزءا يسيرا من السكان، فاننا وجدنا انفسنا منذ حوالي عشرين سنة، وهي الفترة التي اشتغلنا فيها بدراسة منطقة الغرب الاسلامي، امام ثلاثة تيارات كبرى اجتماعية ثقافية، تتطابق في مجملها مع ثلاث مجموعات اثنية ولغوية، تختلف فيما بينها اختلافا بينا: الطوائف العربية اللسان، البربرية اللسان، وطائفة اتخذت لها اللغة الاسبانية اداة للاستعمال (يتجاوز عدد اليهود اذ ذاك000 250نسمة)، ويكوّن اليهود المنتمون للطائفة الناطقة بالاسبانية جزءا من المنحدرين من اصل (المگورشيم): المهجرين من الاندلس والبرتغال، وقد استقروا بصفة عامة، في الشمال وهي المنطقة التي كانت خاضعة للاسبان، أو في اماكن اخرى على سواحل المحيط أو بالداخل، وانتشروا هنا على اثر تنقلاتهم خلال عهود مختلفة. وقد احتفظوا باللغة القشتالية القديمة واستعملوها اداة للتخاطب والعرفان والتعليم التقليدي اللادينو. ونجد هؤلاء في طنجة وتطوان واصيلا والقصر الكبير وشيشاون (الشاون) ومليلية، وكذلك بفاس والبيضاء والرباط وسلا ومراكش الخ....

وتضم الطوائف الناطقة بالعربية احفاد المهاجرين من الاندلس والبرتغال الذين تعربوا، وعددا كبيرا من يهود محليين لم يجد التاريخ جوابا شافيا لحد الان، لبدايات استقرارهم بالمغرب، ولا لاصولهم العرقية. ومازال تاريخهم يعد ضربا من الاساطير (انظر ما سبق).

وتنتشر هذه المجموعة المعربة في مجموع البلاد، جبالا وسهولا. ومع أنهم يتكلمون لغتين أو ثلاثا، فانهم يستعملون مع لهجاتهم الخاصة، اللهجات المحلية الاخرى، واللغة اليهودية-العربية أو اليهودية-الاسبانية.

وكان لليهود الناطقين بالبربرية الذين كانوا يقطنون بلاد «الشلوح» و«تمازيغت» والاطلس وسوس، بالاضافة الى لهجتهم المستعملة وفلكلورهم الذي لا يقل عن ذلك الذي كان لجيرانهم المسلمين، آداب شفوية تقليدية ودينية لم يجحدها المؤرخون واللسانيون يهودا وغير يهود، ولم يبق منها للاسف، الا بقايا حصلنا عليها اثناء بحثنا، خصوصا «هگدت البصح»/ (طقوس ليلة الفصح)، وهي وثيقة لم يسبق نشرها، عثرنا عليها بتنغير تدغا (الاطلس الكبير)، بشكليها الشفاهي والكتابي. وقمنا بدراستها اللسانية والادبية والتاريخية بتعاون مع السيدة Penet Galand، وكان اليهود بصفة عامة،في وادي تدغه (تنغير) ونواحي تزنيت (وجان أسكا) وورززات (إميني) ودمنات (آيت بولي) وأوفران بالاطلس المتوسط والغ، وغيرها مزدوجي اللغة بربرية - عربية، باستثناء اقلية لم تكن تتكلم الا البربرية. فكون هؤلاء اليهود في السابق، مناطق سميت «الملاح»، في اماكن اقاموا بها منذ الف أو الفي سنة.

وقد ظلت اللغة العبرية اللغة الاولى للشعائر، ولغة التعليم التقليدي لكل يهود البلاد، مهما كانت لهجتهم المستعملة.

ب- الهجرات الداخلية والتوزيع الجغرافي للطوائف :

سنتعرض بادىء ذي بدء الى التحركات الكبرى لليهود المغاربة داخل حدود البلد، كما سنتعرض أيضا الى تنقلاتهم المنتظمة والمتكررة نحو الخارج، وسنرى انهم فعلا كانوا يغادرون مسقط رأسهم بدون ادنى صعوبة، فيتوجهون نحو الشرق أو اوربا أو الى الامريكيتين.

كان اليهود يعبرون المغرب دون عناء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، من تطوان الى تارودانت ومن سجلماسة الى مكناس وسلا، بالرغم من صعوبات المواصلات،

خصوصا، بالنسبة لذمي ويهودي يترقبه الخطر على الطرق التي تصبح مهلكة في فترات التسيب المهيمنة اثناء تغير السلطة أو الحروب الاهلية.

وقد عم الامن والسلام عهود بعض الملوك المعروفين بقدرتهم، مثل عهد مولاي اسماعيل (1672 – 1727) الذي يتحدث المؤرخون المسلمون عن عهده قائلين: «تستطيع المراة واليهودي ان يذهبا من وجدة الى واد نون دون،ان يسألهما اي كان عن وجهتهما... ولا يوجد اي أثر في المغرب كله، لسارق أو قاطع طريق...»

ولدينا في هذا الصدد شهادات استقيناها من مصادر ربية /حبرانية/مغربية، مثل هذه الشهادة التي تقول:

«كان الامن يعم طيلة حياة عاهلنا، كل اطراف المغرب، كنا نسافر ونتجه من فاس الى مناطق تبعد بحوالي اكثر من عشرين يوما، وكنا نسافر في قوافل تحمل كثيرا من المال، وكنا نلتقي بعصابات من الاجانب، ولم يكن أي واحد منهم قادرا على التلفظ ببنت شفة، ولا حتى بمجرد تنهيدة، لان رهبته كانت تعم كل الناس (گويم)، كان الخوف منه لهم بالمرصاد، لقد كان في حقيقة الامر ملكا عظيما وحليما وذكيا، كان يسهر باستمرار على مشاغل الناس... ولكنه اصيب بسبب كثرة ذنوبنا– بمرض مع استهلال شهر طبت من سنة 5487 للخليقة، ومات مع استهلال شهر نيسان من نفس السنة (1727)...)

كانت الهجرة الداخلية نتيجة لاسباب متعددة. وتزودنا «التقنوت» (المراسيم والاحكام الربية) و«الرسبونسا» (الفتاوي الشرعية) بمعلومات قيمة في هذا الموضوع وفي مواضيع اخرى.

كان ثائرو مدينة ما يرغمون، في كثير من الاحيان، على تركها بأمر ملكي، وكانت هذه العملية ترحيلا حقيقيا للسكان. وانطلاقا من معلوماتنا، فان اليهود لم يكونوا وحدهم، هم الضحايا، بل كان هذا الانتقام موجها لمعاقبة جماعة الثائرين المسلمين ضد المخزن. ولم يكن ترحيل اليهود الاجباري من هذه المناطق التي سببتها هذه التدابير القهرية، يكتسي طابعا عنصريا، بل كان في بعض الاحيان، يرفق بامتيازات خاصة، ويخول للمهجرين الذميين بعض الحظوة. ونذكر بهذا الصدد، مغادرة الجماعات اليهودية زاوية الدلاء، واتجاهها نحو مكناس وفاس في عهد مولاي رشيد (1668)، واجتذاب سكان اكادير نحو الصويرة ايام مولاي محمد بن عبد الله (حوالي 1765)

ويحدث في فترات الاوبئة والمجاعات، وهي آفات ترتبط عامة بالجفاف، أن يتقاطر

الافراد والجماعات من جهة قريبة أو بعيدة على مناطق اقل مصابا، بحثا عن الغوث عند اخوانهم الاسعد حظا أو الاكثر غنى.

«غادر اليهود مكناس سنة 1738 هربا من المجاعة التي حلت بها إذ ذاك، واتجهوا بحثا عما يقيم أودهم، الى دكالة أولا، ثم ضربوا بعيدا نحو الجنوب حتى وصلوا درعة»

«واتجه يهود مدينة بني سنوس الى وجدة ليقيموا بها مدة المجاعة التي سبقت موت السلطان» (كما جاء في مرسوم فتوى مورخة ب 1731)

«عم الجوع والعوز مدينة صفرو المحاصرة سنة 1845، مما اضطر موسى بن حمو الى مغادرة المدينة التي لم يعد له بها ما يسد الرمق، واتجه الى فاس، غير ان زوجته رفضت مرافقته، محتجة بالشرط المعروف المثبت في عقد الزواج، وعليه لا يمكن للزوج ان يغير مكان اقامته دون موافقة زوجته»

وتعد الزيارات الدينية أيضا سببا من الاسباب الرئيسية للترحل عبر المغرب، إذ كانت عائلات باكملها تتحمل في بعض الاحيان، الاسفار الطويلة المهلكة، لتفي بنذر قطعته على نفسها، في وقته المحدد له، وهو عادة الهيلولا (انظر فيما ياتي) والنذر هو زيارة قبر ولي من الاولياء، قد يقع في اماكن صعبة الوصول.

وكان المسافرون غالبا ما يتنكرون في ثياب المسلمين، فيتعمم الرجال وتتحجب النساء، كما تشهد على ذلك الحكايات التي كانت تحكيها جدتي عن هذه الرحلات الطويلة التي كانت تقوم بها من الصويرة الى مسكلا (عين الحجر) في الجنوب، لزيارة قبر الولي الربي نسيم.

وكانت «يشقوت» (مدارس) بعض الاماكن الروحية لدى يهود المغرب، مزارا يتردد عليه الطلبة الذين ياتون من النواحي المجاورة، وفي بعض الاحيان من مناطق جد بعيدة، ليتلقوا تعليما تلموديا وهالاخيا (شرعيا) ينتهي بالحصول على سِمِخَة (اجازة)، ثم يرجعون بعد ذلك الى الملاح، في مسقط رأسهم ليقوموا بالمهام الربنية، أويقيمون نهائيا بمستقرهم الجديد حيث تلتحق بهم عائلاتهم.

وكذا كان من المعتاد ان ينتقل الشخص من مدينة الى اخرى ليحصل على مهنة من المهن، فقد اشارت وثيقة مورخة ب 1701 الى: «ان المسمى مخلوق بن يوسف ابن عطية من تافلالت، التزم باجبار ابنه على الدخول في خدمة داود بن يعقوب بطبول من فاس، مدة احد عشر شهرا، مقابل الحصول على اجر مقداره 15 اوقية وتعليمه المهنة».

ويسافر الشخص أيضا من اجل نزاع كبير هام، ليفصل فيه امام محكمة مدينة كبيرة، او ليستفتي علما من الاحبار في الامور العائلية، وقد يرحل دون سبب معين، (لم تكن النصوص واضحة في هذا الموضوع)

«وصلت عائلة من دبدو ذات ممتلكات كثيرة (دور ومساكن ، حقول وكروم)، وترجع اصولها الى الطائفة الاشبيلية، الى فاس سنة 1752، وذلك من أجل قضية من قضايا الارث» ويبدو انها قررت الاستقرار بها نهائيا.

«توجه أحد يهود تطوان وهو ابن اخ احدهم يدعى يعقوب بوزي من فاس الى تارودانت، وتزوج هناك، ورزق طفلة...» (فتوى مؤرخة ب 1728)

وهاجرت عائلة كوهن الصقلي، حوالي سنة 1619 من دبدو، لتستقر بدار بن مشعل.

«هاجر زوجان الى صفرو، بعد ان تزوجا باحدى قرى تافلالت موطنهما الاصلي، ثم رغب الزوج في العودة الى مسقط راسه مع زوجته، غير ان هذه الاخيرة رفضت الرجوع معه... فحكمت محكمة فاس للزوجة، بدعوى قلة السكان اليهود بقرى تافلالت (هكذا) وفرضت على الزوج الاقامة بصفرو أو فاس، والا وجب عليه ان يؤدي مبلغ الصداق المضروب في عقد الزواج».(فتوى مؤرخة ب 1746)

ونقرأ في حكم مورخ ب 1727 ما ياتي: «يصرح المسمى موسى بن يسحق بن حيون من مدينة سجلماسة، بان ظروف العيش دفعته وزوجته الى اراضي الغرب، وبعد ان عاشا مدة بهذه المدينة (فاس) رجعت زوجته الى مسقط رأسها، وقد تعذر على زوجها اللحاق بها بسبب مخاطر الطريق... إنا نسمح له بان يتزوج امرأة اخرى بهذه المدينة (فاس)....

وعليه يمكن أن تفسر حركية السكان اليهود الهائلة اساسا، انطلاقا من اعتبارات اجتماعية اقتصادية، وتبعا لتنظيمات الانشطة والحاجيات التجارية والصناعية. فقد كان الصناع المتنقلون والباعة المتجولون الذين كانوا يوزعون السلع المستوردة والمصنوعة بمعامل المدن المغربية الكبرى، ووكلاء التجار الذين كانوا يجمعون لشركائهم الممولين، المنتجات المحلية (حبوب شمع زيت لوز صمغ زرنيخ الخ...) والفلاحون الملاكون (أو مجرد دائنين حصلوا على اراضي فلاحية رهونا)الذين يسيرون اعمال حقولهم وبساتينهم، أو الذين يخدمونها بانفسهم، يسافرون دوريا الى اماكن جد بعيدة عن سكناهم الدائمة داخل المدن أو بملاح البادية. وكانوا يتوغلون في بعض الاحيان في مناطق اقل امنا داخل القبائل المتمردة الثائرة على سلطة المخزن المركزية. وكان هؤلاء التجار المتجولون والمتنقلون على اختلافهم، معرضين في غالب الاحيان، الى حوادث مزعجة، هي في افضل الحالات، اعمال نهب وسرقة. وقد تنتهي هذه التنقلات بفاجعة، مثل الاغتيالات والاختفاء الذي لا يترك وراءه اي أثر ، كما تدل على ذلك الاصداء

التي نجدها في الفتاوى واحكام المحاكم، المتعلقة باوضاع النساء «العكّنوت» (العكّنة: هي المرأة التي لازالت في عنق زوج غائب، بحيث يستحيل عليها ان تتزوج ما دام الدليل على موت الزوج لم يقم)

ونعرف حال «السواقة» و«الدوازة» وتنقلاتهم الموسمية، فقد كان الصناع المتجولون والباعة والسواقة المتنقلون يغادرون قراهم غداة عيد الفصح، ويعودون عشية رأس السنة. ثم يعاودون التنقل بعد عيد المظلات (سكوت) ليعودوا عشية عيد الفصح، محملين بمختلف السلع (شعير فواكه جافة، عسل سمن الخ...) وببعض المال.

وتخبرنا من جهة اخرى، فتوى شرعية، يعود تاريخها الى بداية القرن 18، بان التجار اليهود كانوا يستعملون الطريق البحري أيضا في تنقلاتهم بين مدن الساحل المغربي. وهكذا: «كان اسحق مندس يستعمل الباخرة عادة في تنقله من اكادير الى سلا، وفي رحلته الى ادوم (اوربا).

وتزودنا الفتاوي التي تعرضت لمصير «العكّنوت»، والاعترافات التي تجمعت لدى المحاكم، تلك المسجلة في نصوصنا التي اخذت من افواه الشهود وبلغتهم مباشرة، وهم على العموم مسلمون، بمعلومات قيمة، عن تنقل اليهود في البوادي المغربية، وعن الاخطار التي كانت تهددهم اثناء تجوالهم. كما اخبرتنا عن المساعدات التي كان يقدمها لهم في بعض الاحيان حاموهم واصدقاؤهم المسلمون في فترات الخطر.

وهذه وثيقة موقعة بفاس، ومورخة ب 1732 - 1733، تقيم الدليل على موت مسافرين يهوديين وذاك لتحل زوجاتهما «العكّنوت» من الروابط الزوجية، فيتمكنا من الزواج ثانية. ومضمون هذه الوثيقة هو أن: داود بن كمون وابنه يعقوب، توغلا في بلاد لحياينه وغياثه، مجازفين بحياتهما، بعد ان دعتهما حاجة اعمالهما الى ذلك، وقد اغتالهما قطاع الطريق من قبيلة غياثة، بعد ان دافعا دفاع الابطال عن نفسيهما...»

كما اتخذ المسمى موسى بن ابراهام الكَرساني (او الكرّسياني) حاميا مسلما اثناء احدى الغزوات، وقد دافع عنه هذا الحامي بالعبارات الآتية: «ان اليهودي موسى واحد من اهلنا، وليس له ان يخاف من اي كان، ولن يحل به مكروه، وان من حمل يده عليه كمن اصاب لسان عيوننا»

كما تذكر فتوى اخرى تعود الى نفس الفترة، وتتحدث عن نفس الموضوع: (وضع

العگنوت)، وجود مساكن يهودية في المناطق الشمالية بالمغرب في بني سناسن وقدارا واجبل. وكان سكان هذه الجهات يذهبون الى تلمسان ومليلية وتطوان للتقاضي في ما يحدث بينهم من خلافات امام محاكم الاحبار.

ويقدم لنا نص متأخر مورخ بنهاية 1842 له وهو مكتوب بعامية لا تختلف ادنى اختلاف عن اللهجة العربية اليهودية المعاصرة بجنوب المغرب، شهادة موسى بن يوسف وموسى بن مردخاي، التي تعد دليلا على الموت الفاجع لمسعود بن مناحم ربيبو، أثناء رحلة كان يقوم بها في شرق المغرب عند بني وراين، إذ قضى العطش على القافلة التي كان يسافر فيها. وقد نقل الحادثة مسلمان نجيا، للشاهدين المذكورين، فسمح للارملة بالزواج اعتمادا على ما صرحا به.

التوزيع الجغرافي للطوائف اليهودية

سبق ان زودتنا دراسة مشكل الهجرات اليهودية في اقاليم المملكة الشريفة، ببعض المعلومات عن التوزيع الجغرافي «للملاح» داخل الحدود المغربية.

وهناك وثائق اخرى مختلفة جديدة بان تزيد الموضوع توضيحا اكثر.
وتعتبر القائمة الربية المورخة ب 1728، والتي تتوفر على احصاء 26 مكانا، مع ذكر الانهار التي تقطعها أو المياه الجارية بها، وكلها تفاصيل ضرورية لتحرير عقود الزواج (كتوبوت) او الطلاق (گيت)، جزءا من المصنف التشريعي الربي المعنون ب: «عت سوفر» (قلم الكاتب) الذي صنفه يعقوب ابنسور، وهو فقيه عاش في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر.

وقد اعتمد لوي ماسنيون Massignon كثيرا هذا المسرد عندما استعمل النتائج التي نقلها عن N. Sloush (Archives marocaines V L, 1905/ 6) في مولفه: Nomenclature des mellehs au temps de léon l'Africain et Marmol، أو عندما كان يرجع الى Tableau méthodique de mallahs التي سردها Charles de Foucauld وقد اعاد اختبارها H.Z.Hirschberg في مولفه: تاريخ يهود افريقيا الشمالية، ونجح في التغلب على ما فيها من صعوبات، مما سهل قراءتها وتحقيقها. وبين ، على سبيل المثال لا الحصر، ما يعتريها من نقص وخلل، مما سمح بانجاز وثيقة يمكن للباحثين الاعتماد عليها. وهذه اسماء الاماكن التي اقام بها اليهود، مرتبة كما جاءت في مسرد 1728: فاس مراكش تلمسان أكمري (لا يعرف أين كانت) ترودانت سلا تفلالت

غرسلوين غريس دمنات ايت عتاب ازاغين القصر الكبير تفزا (إفزا) دبددوايت كفرا مكناس أمزميز وجدة تازة بوتات (أوتات لحدج) بويحيا بني عياط (بني عياد) تطوان صفرو ازرو.

وتصلح المعلومات الواردة في عديد من المختصرات، لتكميل مسرد هذه الاماكن التي اقام بها اليهود في المغرب، وتتجلى أهميتها القصوى فيما نتوصل اليه من معلومات دقيقة، اعتمادا على الكتابات الربية المغربية التي لازالت بين ايدينا، وما نحصل عليه بالتقصي الدقيق في الوثائق الشرعية المتوفرة لدينا، خصوصا «التقنوت» (المراسيم الاحكام) و«الرسبونسا» (الفتاوى) التي تعكس صورا صادقة عن الحياة اليومية للفرد وللجماعة. وتعكس ظروف معيشتهم وصدى تطلعاتهم ومغامراتهم في اي مكان كانوا، أو ارتحلوا اليه.

وهناك مصدر آخر للمعلومات، كثيرا ما يهمل، ولم يعد هناك مجال للشك في اهميته، ذلك هو مقدمات المؤلفات والمداخل وشهادات السماح بنشر المصنفات. ومن اهم هذه المصادر، قوائم المساهمين افرادا وجماعات، اولائك الذين يساهمون في نفقات طبع مؤلف من المؤلفات «محزقيم» [المساعدون]، هذه القوائم التي يحرص معظم المؤلفين على تحريرها بكثير من العناية، حيث يذكرون أسماء المتبرعين واماكنهم، ولم يقل حرص المساهمين على تسجيل اسمائهم عن حرص المولفين في هذا النوع من اللاوائح، ولم يكن هذا التسجيل رغبة لذات الرغبة، بل كان بباعث سحري أو ديني يرجى: إذ كان شغلهم الشاغل، ان يروا اسماءهم بارزة في حاشية مكتوب (عبري) يعتبر دائما مقدسا، لينالوا حظهم من البركة والتقديس، وهي أمور ترتبط في هذه الاوساط باي مكتوب رباني، يعتقد انه اوحي به الى صاحبه من السماء.

وقد قمنا بجرد لعدد كبير من وثائق هذا الصنف أثناء بحثنا، وهي وثائق نستطيع ان نستخرج منها معلومات غزيرة عن التوزيع الجغرافي للمجموعات اليهودية داخل حدود المغرب، وعلى تخومه الجزائرية الصحراوية.

ونكتفي هنا بعرض عينات تمكننا من القاء نظرة على التوزيع الهائل «للملاح»، خصوصا، ذلك الذي يقع في مناطق لم يعرف عنها الكثير، مثل اودية الاطلس، والمغرب الشرقي، والمناطق المتاخمة للصحراء، حيث اختفت الآن أو هاجرت الى اسرائيل أو تشتت في اماكن اخرى، مجموعات يهودية كانت تعيش هنا منذ قرون، ان لم يكن منذ الف او الفي سنة.

ونستخرج من مقدمة احد مؤلفات المواعظ (مصنف مواعظ لكل المناسبات) عنوانه:

يوسف حين، طبع بتونس سنة 1915، لمؤلفه يوسف بن داود ناهامياس، وهو ربي طيب الذكر عند يهود مراكش والجنوب الغربي، قائمة بأسماء الجماعات المساهمة في طبعه دون ذكر لاسماء الافراد:

تلوات مزكيتا تمنكولت أكيدز (أكدز) واسليم دادس /تدغا (تودغا) فركلا تفيلالت الكيرفا كي-إكلان اولاد حسين مزكيدا إرارا بوزملا كلاكلا تزويمي امعديد زريكات قصر السوق تعلالين كرما (كورما) تولال تيت نعالي أوتات دايت زديك القصيبا بودنيب بوعنان بسار (كولرمب بشار) بني ونيف (اونيف) عين القفرا المسري (المشرع) بورتا دمنات بني ملال قصيبت تادلا بورعد (بوجعد) مزاب زتات (زطاط).

كما يسرد شلوم بن نسيم ابي سرور- وهو مؤلف معاصر لسابقه واصله من أقا، في مؤلفه الذي يضم مراثي وعظية واخبارا مستقاة من التوراة، وقد عنونه بسبل السلام(نتبوت شلوم) وطبع بالبيضاء سنة 1953- قائمة باسماء مساهمين كانوا يسكنون الاماكن الاتية: درعة تمسلا اخلوف لعروميات بني صبيح، امزرو ترودانت أقا (يشير المؤلف الى انها مسقط رأسه) أو فران تزنيت اكدير... الخ)

وتجدر الاشارة الى ان من طبيعة اسماء الاماكن، ان تتعرض لكثير من التغيير، وامر التحقق منها يحاط بكثير من الصعوبات (اختلاف خطوط المؤلفين، انعدام الشكل، انعدام الحرف المقابل اللازم لكتابة الحروف العربية بالخط العبرى).اما التعرف على الاماكن المذكورة في قوائمنا، فهو اسهل نسبيا، اذ يمكن أن نعثر على هذه الاسماء في خرائط مشلان العادية (المغرب 170 - 171) وعلى خرائط المغرب 000 200 وفي اماكن مسرد الاماكن المغربية الالف بائي، الذي اخرجته مصلحة الشغل بالمغرب 1936.
كما توجد ايضا مصنفات لمسالك القوافل، الفها بعض المؤلفين،مثل الطريق من فاس الى تافيلالت المسمى: طريق السلطان.

مملكة تمكَروت اليهودية

جمعنا بعسلقون (اسرائيل) كثيرا من الاخبار التي رواها لنا حبر طاعن في السن من جنوب المغرب، عن يهود بني صبيح التي ينتمي اليها محدثنا، وعن كتامة وكَلاوة وتفنوت وتمكَروت، وقد قال لنا مخبرنا الربي يعقوب ابن حمو، بان تمكَروت كانت بلاد «سلطان ليهود»، سموئل بن يوسف الذي قتل في معركة مع المسلمين في احد ايام 9 اب. ويذكر في هذا الصدد اسطورة تسمى قصة ابراهيم البردعي.وقد اشتهرت قصة المملكة اليهودية حتى عند المسلمين

الذين يرددون اخبارها. وهناك امر آخر مهم، يستحق الذكر: فقد كان يوم الموسم (السوق الاسبوعي) بهذه المنطقة، يضيف محدثي، يصادف يوم السبت، وذلك لمنع اليهود من القيام بنشاطاتهم الاعتيادية، بل لمنعهم من التنقل فيه. وقد اورد هذا الخبر عديد من المؤلفين مثل P.Flamand, M. toledano وغيرهم.

ج- الرحلات الكبرى والاتصال بالخارج:

يظهر ان هجرة اليهود لم تنقطع منذ الاضطهاد الموحدي، واصبح الغرب الاسلامي بالنسبة لعديد من مهجري شبه جزيرة ايبريا (مكورشيم) مجرد ارض معبر ومرحلة على الطريق الطويل المؤدي الى الارض المقدسة، حيث يذهبون ليقيموا «يشفوت» (مدارس التلمود) أو ليقضوا بقية عمرهم. واستمرت الهجرة نحو الشرق الاسلامي أو الامبراطورية العثمانية المعطاء، طيلة أربعة قرون. وقد دفع انعدام الامن كثيرا من العلماء والادباء الى أراضي أكثر أمنا، حيث وجدوا ملجأ لهم في اوربا الغربية، خصوصا في ايطاليا وهولندا، بل ذهب البعض منهم الى ما وراء المحيط، الى الامريكيتين.

ولم تنقطع الاتصالات مع المجموعات اليهودية الاخرى طيلة القرون الطويلة، سواء بواسطة الفتاوي المتبادلة بين الاحبار، أو العلاقات التجارية، او التبادل الثقافي، و خصوصا تبادل المؤلفات.

ونظرا لعدم وجود مطابع في عين المكان، فان الاحبار اليهود، كانوا يطبعون مخطوطاتهم «بليفورن» أو امستردام أو القسطنطينية أو براغ أو برلين أوكراكوفي أو في مكان اقرب، هو جربة... وكانوا يشترون خفية كتب الصلوات والتلمود، والكتب الشرعية الربية أو كتب العظات والقبلة (الزهر) التي كانوا يحتاجون اليها من خارج البلد، وبأثمان باهضة، بالرغم من كل الصعوبات ومن الاجراءات التي فرضتها الكنيسة طويلا لمنع انتشار الكتب العبرية.

د- العلاقات مع يهود الارض المقدسة، الاحبار المبعوثون لجمع الأموال

تعود علاقات الديسبورا المغربية بالارض المقدسة الى حوالي الف سنة، اي منذ ظهور الاحبار الذين خصوا انفسهم لجمع الاموال لفلسطين، هؤلاء المثلون المتجولون الذين كانوا ينطلقون من القدس أو طبرية أو صفد أو حبرون، ويقطعون الاوطان التي كان بها يهود، لجمع العطايا الخاصة بمهامهم، أو للمساهمة في نشر المعارف اليهودية، خصوصا نشر افكار الاحبار الفلسطينيين عن طريق التعليم أو الوعظ أو بإعارة وتوزيع الكتب التي كانت تطبع في هذه الاوطان التي كانوا يمرون بها.

جمع الهبات وطريقة هذا الجمع.

يعد جمع الهبات مهمة اساسية للحبر الرسول، حيث كان يتلقاها من الافراد والجمعيات والمؤسسات الدينية، كما كان يتسلم تلك التي تخصص له من ميزانيات الجماعات، ويتلقى ايضا كل الاموال الموصى بها والهبات والصدقات. وكان يلزمه بعد ذلك بعث الاموال المجموعة باسرع الوسائل واكثرها أمناء الى الجماعة أو الى المؤسسة الفلسطينية التي يمثلها.

وتخص الجماعات اليهودية المغربية الحبر الرسول، عامة باحترام وتقدير كبيرين، لما كان لهم من حب «لارض الاجداد» وهو حب عفوي وعميق نابع من ايمانهم الثابت.
وتعود كذلك هيبة و نفوذ هذا الحبر، لمعارفه التلمودية، ولهالة القداسة التي تضفيها عليه قدرته على صنع المعجزات، كما كان يعتقد العامة، ويتلقى كثيرا من الحفاوة اين ما حل، فيقدم له الطعام والمسكن، ويعطى بسخاء قد يكون غير متكافىء مع الوسائل المتوفرة المتواضعة، ولا يعترض عليه في جمع الاموال التي يريد أو الاقتطاعات التي تكون في بعض الاحيان أكبر من المداخل الضعيفة التي تتوفر عليها الجماعة، الا نادرا جدا وذلك في وقت الشدة. انه في الحقيقة مفوض من الارض المقدسة التي يطلب باسمها، حق مساعدة يهود «ادياسبورا» لاخوانهم الذين يقيمون هناك، وكان هذا الطلب يعتمد الشرع والتقاليد: (يجب على كل يهودي أن يستقر بارض اسرائيل، والذين لا يستطيعون القيام بهذا العمل حقيقة، عليهم أن يحققوه باموالهم، وذلك بضمان عيش اولئك الذين يسكنون أرض اسرائيل، بحيث يكون هذا العمل بمثابة اقامتهم فيها).

غير ان شيوخ يهود اديسبورا، كانوا احيانا في فترات الاحتياج، يدلون ضد القول السابق بالماثورة الربية الآتية: (ان لفقراء مدينتك سبقا على فقراء المدن الاخرى) كما فعل احبار فاس سنة 1691، «لحصر قدر الهبات في ريالين»، مجيبين بهذه الطريقة، على «الالحاح المتكرر وطلبات الاحبار الرسل القادمين من بولونيا والمانيا، المبالغ فيها، في حين كان اليهود المغاربة انفسهم في املاق من كثرة الضرائب، وفي وضع يستحيل عليهم فيه ان يعينوا يهود المغرب انفسهم وقد كان عددهم يزداد باستمرار». وتحدد «تقنة» (مرسوم) سابقة زمنيا عما تقدم، حررها احبار فاس القشتاليون، سنة 1603، الشروط التي بموجبها تجمع تبرعات جاء لجمعها حبران مبعوثان من القدس. وينبغي بهذه المناسبة ان نذكر التفاصيل الآتية:

يكن اليهود المغاربة كثيرا من الاجلال لصلب الربي عمرام بن ديوان، وكان حبرا رسولا

من مدينة حبرون، وقبره باسجن (قرب وزان)، كما يكنون نفس الاجلال لاسرتين اخريتين يرجع اصل الاولى الى طبرية، وهي اسرة الربي مائر بعل حنس، وترجع اصول الثانية لصفد، وهي اسرة الربي سيمون بريوحاي (مدفون بمرون قريبا من صفد) وهذان الاخيران علمان من اعلام المعارف اليهودية في عهد الرومان. وذكرهما مبجل لاسباب كثيرة، خصوصا عند اليهود المغاربة.

كثيرا ما يزور المغرب حبران مبعوثان في نفس الوقت، احدهما اشكنازي [اوروبي] والاخر اسفرادي شرقي،وكان الاحبار السفرديون الذين ياتون الى المغرب في غالب الاحيان من اصل مغربي، حيث كانوا يؤدون مهامهم في هذا البلد الذي غادروه هم انفسهم أو غادره اجدادهم، ويمكن ان نقتفي آثار رحلاتهم ايضا في افريقيا واسيا.

ومما يسترعي الانتباه الشخصيتان البارزتان الآتيتان

أولا: يوسف بن موسى ميمران الذي ولد بتطوان،وهاجر الى صفد، وقام ببعثته الأولى الموجهة الى البلدان العربية في سن العشرين، وكان أول حبر رسول يصل آسيا الوسطى، وما ان وصل بخارى، حتى اختلط بيهودها واصبح لهم مرشدا روحيا، حيث قام بثورة حقيقة بين هذه الطائفة التي يعتقد بان اصولها تعود الى القبائل العشر الضائعة، فعلمهم العبرية التي كانوا لا يعرفون منها الا القليل، وبيّن لهم الشريعة واطلعهم على التقاليد اليهودية التي كادت ان تصبح لديهم نسيا منسيا، وهكذا علمهم، على الخصوص، الطقوس اليهودية السفردية.

ثانيا: رفائيل أحانا، وقد ولد بمكناس سنة 1850 وهاجر مع جده الى طبرية سنة 1865، ورحل رسولا في سن الثلاثين، مقتفيا آثار سابقه يوسف ميمران الى بخارى، ووجد سنة1894 في الهند وبورما وكردستان، ثم قطع بعد ذلك كل بلدان الشرق العربي والغرب الاسلامي.

وقام برحلة الى المغرب سنة 1897، وحصل في مكناس، على اجازة الاحبار بطبع كتابه: طفت مرئه (جميلة المحيا)، وهو تقريض لمدينة طبرية. ونجد في آخر كتابه فقرات تخص رحلته في اسيا الوسطى، واشعار مدح مدح بها كبار الطوائف التي استقبلته، وكلها مورخة ب 1876 مثل اسخر بن جودا هناسي الطشقندي، وسلمون حيم بن اهرون قزي الطشقندي، وبنيمين بن شمعون التركستاني (هكذا)... ولرفائيل مولفات اخرى من بينها مقالة في الطب والسحر.

لقد قاد الترحال كثيرا من الاحبار الرسل الذين ترجع اصولهم الى المغرب، كما قاد كثيرا من زملائهم، الى كل الاوطان التي توجد بها مجموعات يهودية، فقد رحل د.ميمران

و ا. بن دنان الى الهند.و ا. قرياط الى عربستان.وه. ش عمار والراب حدا المشهور ب(يوسف حيم داود ازولاي) الى أوربا الغربية.وأ. ميمران الى البلدان الجرمانية الخ. وتجدر الاشارة أيضا الى ان بعض الجماعات، سلمت مقاليد امورها للاحبار الرسل الذين نجحوا في فرض انفسهم بعلومهم ومعارفهم وتأثيرهم في العامة، فقلدوا وظيفة قاضي القضاة، أو مهام مشابهة (مثل الربي رفائيل حيم موشي بن نعيم بجبل طارق سنة 1881.وموشي حي اليقيم بالصويرة والبيضاء حوالي 1920...)

نشاطات الاحبار الرسل الربية في تعميم العلوم اليهودية والفكر اليهودي الفلسطيني

حرر الاحبار الرسل، هم انفسهم بعض التقنوت (المراسيم الربسية)، كما ساهموا في تحرير اخرى، باضافة اسمائهم الى جانب اسماء الاحبار المحليين، لاعطاء تلك النصوص مصداقية اكبر.

وكان احبار «الديسبورا» (الشتات) يلجأون في غالب الاحيان، عندما تتعارض الاعراف والتقاليد (عندما لا تتخذ التوراة والتلمود موقفا واضحا) الى الاحبار الرسل ليعرض عليهم هؤلاء مذهب اليهود الفلسطينيين في الأمر، ويصبح حكمهم اذ ذاك قاعدة يقاس عليها. وكانوا غالبا ما يكتفون بالاطلاع على ما كان يفعله الاحبار الرسل في موقف من المواقف، ليقلدوا اعمالهم ويتخذوا ما اتخذوه من اجراءات.

وهؤلاء الاحبار الرسل هم الذين نقلوا الى المغرب مؤلفات مدرسة صفد القبالية، وتشريع كارو، ومكتوبات كبار اعلام الفقه الربحي «الملخية» (الفقهية) ومؤلفات الارشاد والتفاسير التوراتية والتلمودية، وعديدا من الادبيات التي تمجد «ارض اسرائيل المقدسة السامية». وبفضل تأثير الاحبار الرسل الذين كانوا يفعلون فعلهم بواسطة الارشاد والتعليم، دخلت العادات والاعراف الفلسطينية في الطقوس اليهودية المغربية (الصلوات والادعية القبالية والصلوات الليلية والطقوس الخاصة)، وبواسطتهم انتشرت في المغرب افكار سبتاي، وقد كانوا هم انفسهم ممثليها في غالب الاحيان. وكان هؤلاء الاحبار الرسل يحملون فيما يحملون، الكتب المنشورة في العالم اليهودي، فيبيعونها ويبادلونها بغيرها ويهدونها الى المحسنين الكرماء. أو يعيرونها لاولائك الذين لا يستطيعون اقتناءها. وكانوا يستنسخونها جزئيا أو كليا، كما كانوا يحملون معهم المخطوطات التي يجدونها في لگنزوت[مكان بالمقبرة تخفى فيه كل المكتوبات العبرية] أو تلك التي سلمها لهم مؤلفوها اليهود المغاربة، لينشروها في الشرق أو أوربا.

وكانوا يشرفون مضيفيهم باهدائهم اكياسا صغيرة بها قليل من تراب فلسطين، يحتفظ به متقدمو السن ليدفن معهم في قبرهم عندما يحين أجلهم. وكان يعتقد أيضا ان للاحجبة السحرية والتعاويذ وجوالب السعد (سكلوت وقمعوت) الفلسطينية، فعاليات أكثر من فعاليات

تلك الاحجبة التي يوزعها القباليون المحليون. وكانت هذه الاحجبة شيئا ثمينا ينتقل من يد الى اخرى بالمغرب ويوضع في حرز مكين.

طوائف اليهود المغاربة بفلسطين:

لم تنقطع الهجرة ابدا الى فلسطين طيلة كل القرون، وكان مصدرها عموما، جماعات الطلبة الذين كانوا يرسلون الى «يشفوت» حواضر الثقافة اليهودية الكبرى (القدس، طبرية صفد) أو اولائك الذين غالبا ما كانوا يرحلون املا في أن يقضوا بقية حياتهم في الارض المقدسة.

فقد تكونت بصفد في القرن 16 جالية مغربية مهمة، وكان على رأسها عديد من ادباء، جذبهم التعليم والمدارس القبالية التي ازدهرت إذ ذاك في الجليل. وقد ذاعت شهرة ثلاثة منهم هم: يوسف بن تبول، تلميذ لوريا مؤسس المدرسة القبالية الجديدة التي تحمل اسمه، ومسعود ازولاي البصير Saggi nehon وس. ابو حنا المغربي.
كما استقر الربي ابراهام ازولاي المولود بفاس (1570 - 1643) بحبرون، وهو مؤلف لرباعيات قبالية ذات اهمية كبرى.

واتجه الربي يعقوب حجيز (1620 - 1674) الى القدس ليؤسس بها مدرسة، بما بقي له من اموال قدمتها له طائفة ليفورن حيث اقام بعض الوقت لنشر احد كتبه.

وغادر المغرب حيم بن عطار في القرن 18، حوالي 1739، متجها الى الارض المقدسة، ومعه عديد من تلامذته الذين تزايد عددهم على طول المسافة التي كان يقطعها. وبعد ان أقام مدة بايطاليا، حيث نشر كتابه «اورهحيم» [نور الحياة] وهو تفسير توراتي، اصبح من امهات التفاسير الربانية، انتقل الى القدس، فأسس بها، بواسطة الأموال التي وهبها له يهود ايطاليا، «يشفت» (كنيست اسرائيل). ثم مات هناك سنة 1743 بعد ان لم يلبث بالمدينة المقدسة الا قليلا.

وبلغ عدد المهاجرين في القرن 19، حوالي 1860، المئات. واستقر ثلاث مائة منهم في السنة المذكورة بالجليل.

كانت ظروف العيش في فلسطين تحت الحكم العثماني قاسية في معظمها، وكانت تحدث تبعا لذلك، كثير من المنازعات بين الجماعات اليهودية المختلفة الاصول، وتردد صدى هذا

في رسالتين مؤرختين ب 1860، ارسلهما احبار مكناس الى اخوانهم بطبرية. وتتحدث الرسالتان عن كثير من انواع الميز والتفرقة التي كانت تستهدف المهاجرين المغاربة، وذلك بابعادهم عن القيام بالتعليم في «اليشفوت» وعدم تمتعهم بما يؤمن سبل عيش المتادبين منهم، وبالاخص في طبرية.

وكانت العودة الى مسقط الرأس، أو كما يقال اليوم في اللغة الاسرائيلية: (النزول)، على ما يظهر، جدنادرة، اذ تتعرض رسالة مورخة ب 1823، ارسلت من طبرية، الى حالة احد المهاجرين من شمال افريقيا الذي بعد «ان أكل كل ما كان معه» بفلسطين، رجع خاوي الوفاض الى مسقط رأسه.

وكانت النساء كثيرا ما ترفض مرافقة ازواجهن الراغبين في الذهاب الى الارض المقدسة، فكان هؤلاء الازواج مضطرين اما الى التخلي عن السفر والاقامة النهائية بفلسطين، واما الى طلاق زوجاتهم، واداء ما شرط عليهم من صداق في عقد النكاح.

هـ - الهجرة نحو بلدان اخرى:

لم تكن وجهة الهجرة دائما هي فلسطين، إذ يحدث ان لا يبلغ المرء نهاية السفر اما نتيجة لقلة ذات اليد، واما بسبب الانجذاب نحو البلدان التي يمر بها، او نتيجة لبواعث اخرى، من بينها الرغبة في تأسيس معاهد ثقافية يهودية بين ظهراني مجموعات يهودية قد تعتبر في «طريق التفسخ». وقد يتوقف المرء في الطريق ويقيم على شواطىء البحر الابيض المتوسط، وهذا ما حدث لشمعون لبي بطرابلس، في القرن 16، ولمسعود الفاسي واهارون برص، بتونس وجربة في القرن 18.

ونظرا لما تميز به يهود المغرب من خفة في التنقل، فانهم كانوا سرعان ما ينتقلون الى اوربا أو الامريكيتين. وقد اشتهر التجار ووكلاؤهم برحلاتهم الطويلة، تلك التي كانت تمتد الى ما وراء البحار «مدنوت هيم». كما اشتهر أيضا بعض الأحبار برحلات طويلة، ويسرنا ان نقدم بعضا منهم هنا، نظرا لما تميزوا به من مميزات مثل:

– اسحق اوزيل Uziel الفاسي، وهو نحوي وشاعر، عين حبرا بمدينة امستردام حيث توفي بها سنة 1620. وتلميذه اسحق اتياس Atias (القرن 17) وكان حبرا بهمبورغ والبندقية. واليهو بن اموزيك Amozeg الناشر المشهور اللفورني الذي نشر كثيرا من مؤلفات اليهود المغاربة، وقد ترك مدينة مولده الصويرة، وذهب ليستقر بايطاليا. وكان ذلك بعد الاحداث التي لمحنا اليها أعلاه (غارة قبائل البربر على المدينة التي قصفها الامير de joinville سنة

1844) والتي ذكرها ابن اموزيك في مقدمة احد المؤلفات المغربية التي نشرها.

كانت ايطاليا تشكو نقصا من الاحبار، خصوصا في القرن 18 و 19، وقد استقدمت الطوائف اليهودية الليڤورنية وطوائف الجنوب احبارها خصوصا من شمال افريقيا والشرق، في حين استقدم يهود شمال ايطاليا احبارهم من يهود اوروبا.

و- رحلة يهودا برص الافريقية والاوروبية، وهو حبر سفرادي من الاطلس الكبير، عاش في القرن السابع عشر:

يحكي يهودا بن يوسف برص، في سيرته التي افتتح بها كتابه الوعظي المعنون ب برح لبنون (وردة لبنان)، الذي نشره ببرلين سنة 1712، مسيرة اجداده الطويلة اولئك الذين طردوا من اسبانيا، وجاءوا ليستقروا في المغرب بدادس. كما يحكي لنا عن رحلاته الخاصة في المغرب الكبير والشرق واوروبا، بعدما قرر هو وعائلته، مغادرة وادي الاطلس الكبير الزاهر، الموطن الذي فتح صدره اليهم وحيث عاشوا اكثر من قرنين.

في الوقت الذي كان فيه اليهود التعساء يبحثون لهم عن ملجأ بمدن السواحل المغربية، او بالمدن الداخلية الكبرى، خصوصا فاس، كانت عشيرة برص التي يرجع نسبها الى بيت الملك داود، تقطع المحيط لتصل الى السواحل الافريقية، ثم تضرب في اعماق البلاد حيث استقرت ما وراء أدر المنيع... (قرية بربرية في الاطلس الكبير من بلاد كلاوة) في مملكة سلطان مراكش، حيث اشترت العائلة أراضي دادس، فاقام بها ابناء برص دورهم التي استقروا فيها في أمن وسلام، يعيشون على الفلاحة وتربية المواشي، دون ان يختلطوا بغيرهم، ولم يتزواجوا الامن عشيرتهم، ليحافظوا على نقاء دمهم ونسبهم الملكي. وقد تكاثروا وازداد عددهم الى ان ضاقت بهم الارض التي كانوا يستغلونها، فلم تعد قادرة على اعالتهم جميعا. فاشتروا إذ ذاك أرضا مجاورة لتليت، وادوا ثمنها غاليا للسلطان، ولا زالوا يعيشون الى اليوم بهذه الاماكن. وكان من بينهم علماء كبار ظلوا يتمتعون بالقدرة على تفسير التوراة في وجوهها المختلفة ويطبقون حرفيا ما اتت به من تعاليم.

وغادر يوسف برص مع مجموعة من عشيرته وادي تدغه، ليحققوا الحلم الغالي لليهود الأتقياء، وهو الذهاب إلى الأرض المقدسة، أرض الأجداد زينة الأرض. فوصل إلى تلمسان حيث اضطر الى الاقامة مدة من الوقت، بسبب البلبلة والحررب الواقعة بين سلطان فاس ورأس قبائل قدرا. ثم تابعت العائلة رحلتها في المغرب الكبير في حال من العوز، الى ان وصلت

تونس. ويظهر أن رأس العائلة استطاع ان يجمع بعض المال عن طريق التجارة، فتمكن به من متابعة الطريق نحو ايطاليا، حيث تزوج ثانية من بنت احد الاعيان يدعي سلمون شمعيهو اللوسيني Le lucena.

ولما كان يوسف راجعا من احدى رحلاته من مصر، من نوامون (الاسكندرية) بالضبط، غرقت الباخرة التي كانت تنقله، على مقربة من سواحل مملكة نابلي، وكانت تابعة لاسبانيا التي مازالت تخضع إذ ذاك لمحاكم التفتيش. فكان كمن فر من الذئب ليلتقمه الاسد، أو كما قال هو نفسه، مستشهدا بقول النبي عموس، الاصحاح الخامس، الاية 19 «كالانسان الذي هرب من الاسد فصادفه الدب، أو الذي دخل البيت فوضع يده على الحائط فلذغته الحية».

وتوجه-بعد ان نجا باعجوبة من المحرقة، وبعد ان رافع عن نفسه في البلاط الملكي حيث قادته كتيبة خطرة من الجند الجفاة، وحيث استغربوا ان يسمى الاسم المفضل «برص» وقد كان خاصا بالعائلات المشهورة في قشتالة القديمة-الى ليفورن، ومنها الى البندقية التي عاش بها عيشة ضنك، مكتسبا من التعليم والوعظ... ثم غادر البندقية حاملا عصا الترحال في اوربا، ليجمع المال من اجل نشر كتابه (بيرح لفنون) [وردة لبنان] وكتاب الواعظ الذي سبقه والذي كان يحتل نفس وظيفته الوعظية ببيعة الطائفة الاشكنازية بالبندقية، اسحق كفلرو Cavallero. وتزودنا مقدمة كتابه أيضا ببعض المعلومات المتعلقة برحلاته باوربا، ففيها يعبر عن شكره لعديد من شيوخ الطوائف اليهودية، احبارا واعيانا، اولئك الذين اكرموه اثناء اسفاره، واغدقوا عليه بسخاء، مثل سمويل توسك Tausk شيخ جماعة يهود براغ، وباروك سكال أو استرليز، رئيس المحكمة الربية وعميد يشفاه كلونيا، واسحاق ابنهايم وابنه دفيد البراغى de praque وقعت شهادة إجازة كتابه، السلطات الربية ب: Poznan (بزنان) وMittelmark (ميتلمرك) و Poméranie (وبوميراني) Francfort-sur-le-main (فرانكفورت-سير لو مان) وBerlin (برلين) وNeumarkt (نومركت)الخ.

ز- رحلات ومخاطرات احد الادباء اليهود من اكادير في القرن الثامن عشر:

تتكون حياة التجوال والصخب التي عاشها موسى ابن اسحاق الدرعي،من مخاطر وتقلبات

غريبة. فقد ولد سنة 1774 باكادير التي اضطر سكانها الى مغادرتها في السنة الموالية، بامر من الملك محمد بن عبد الله السلطان العلوي (1757 - 1790)، الذي اراد صرف كل تجارة جنوب المغرب الى الصويرة، بعد أن اتم بناءها. وكان هدفه من ذلك،تقييد التجارة التي لم تكن تحت مراقبته. ونشأ موسى الدرعي وتربى بالصويرة، ثم الرباط سلا، ورافق في سن السادسة عشر، أحد الاحبار الرسل بعد أن قدم من صفد واتجه معه الى لندن ودرس هناك بيشفاه سفردية، تسمى «شعار هشميم» (باب السماء). وأوحى اليه زواجه الفاشل بالعاصمة الانجليزية ،بكتاب سماه «معس نشيم» (مغامرات نسائية) وهو مؤلف لم يطبع لحد الآن

وغادر لندن لاسباب غير معروفة متوجها سنة 1802 الى امستردام حيث كان يتردد على يشفاه سفردية عص حيم (شجرة الحياة)، وهناك اسند اليه سنة 1807 تصحيح النسخة الاولى لطبعة «تهله لدفيد» (تسابيح لداود) وهو مجموع اشعار بيوطيم الفها المغني المشهور المغربي المكناسي داود حسين. وفي امستردام نشر موسى الدرعي سنة 1809 كتابه «يدموشه» (يد موسى)، وهو مجموع يضم اربع عشرة موعظة. وتحتوي مقدمته على تفاصيل من سيرة حياته. وقد جمع، وهو الحبر المتجول، بحثا عن القبائل العشرة الضائعة، مجموعة لابأس بها من النصوص المتعلقة بهذا الموضوع، ونشرها بامستردام سنة 1818 تحت عنوان «معاس نسيم» (كتاب المعجزات) الذي ظهر في عديد من الطبعات المتتابعة في العبرية والييدشية والانجليزية. وتحمل الترجمة الانجليزية التي تصفحناها عنوان: An Historical Account of the Ten tribes, settled beyond the River sambatyon in the East وقد طبعت بلندن عام 1836،وتوجد في مقدمة هذا الكتاب معلومات غزيرة تتعلق بسيرة المولف،وتستحق الاشارة، إذ تحمل اول صفحة منه، وهي صفحة العنوان مايأتي: «العلامة الدكتور موسى الدرعي الذي ازداد في المغرب، عضو فى الاكاديمية التلمودية في لندن وامستردام واستاذ للغات الشرقية والمعاصرة، وعضو في لجنة جامعة كبردج ومؤلف شريعة الحياة ويدموشي...الخ وضمن المؤلف الصفحات اللاحقة عديدا من الوثائق بالانجليزية والفرنسية منها: رسائل وتوصيات تلقاها اثناء تجواله الكثير وفي مهامه الكثيرة والمتنوعة التي شغلها طيلة حياته، واشادات من شخصيات سامية، واعترافات وشهادات تشهد بما قام به من مهام متعددة، قدمها له (أعضاء في الاكاديميات التلمودية لدى الطائفة الاسرائيلية البرتغالية، والطائفة الاشكنازية بامستردام، وممثلو جماعات محلية و عمداء وضباط شرطة...) ثم شهادات تقدير واعتراف بما له من معرفة وعلم، وجهها اليه اساتذة معاهد، ورجال علم، من امستردام ولندن ولهاي وروتردام واترخت وأرفهيم ونيمك وكليف و كلونيا وماينس وستراسبورغ و نانسي وباريس.

وتعرف بباريس على (البارون سلفستر دو ساسي لنكلس عضو المعهد والمدير المحافظ للمخطوطات بالمكتبة الملكية، ومدير وعميد مدرسة اللغات الشرقية. (تحمل الشهادة تاريخ 2 فبراير 1814)...

كما يشهد رئيس قسم ادارة الشرطة: «... بان موسى الدرعي المغربي الجنسية، اشتغل مرتين بادارة الشرطة مترجما عربيا اثناء استجواب احد الايرانيين)

وسلم له كاتب الملك ومترجمه من اللغات الشرقية، شهادة تشهد بما قام به من اعمال لادارته (وثيقة مورخة ب 2 يبراير 1817)

ويشهد ضابط شرطة المنطقة الخامسة بمدينة بروكسيل أن السيد موسى الدرعي أقام مدة ثلاث سنوات بالحي (فاتح يناير 1821).ويشهد ضابط شرطة حي Feydeau بباريس إن «السيد موسى الدرعي من المغرب، كان يملك دكانا وسط سوق بشارع الايطاليين. وان السوق كان طعما للنار يوم 1 من الشهر المذكور، وان ما كان من بضاعة بدكان السيد موسى الدرغي (هكذا) قد أحترق، وهذا ما جعله في حالة يرثى لها، لانه فقد كل مصدر للعيش. (باريس 5 يناير 1825).

ثم تنقل بعد ذلك ما بين ليون ومرسليا وجنيف وليفرون ومالطا وازمير ويافا ثم القدس التي وصلها سنة 1841 مريضا فقيرا، فمات بها بعد زمن من وصوله اليها.

3– اسماء الاعلام اليهودية المغربية

أسماء وألقاب يهود الغرب الاسلامي:

تعتبر اسماء والقاب يهود الغرب الاسلامي صورة حقيقية للمكان والزمان اللذين عاشوا بهما، فهي تذكر بمواطن اقامتهم وتاريخهم، باصولهم القريبة والبعيدة، بجذورهم العميقة في ارض المغرب الكبير، بحياة التوافق والانسجام بين سكان اختلفت اصولهم واعراقهم ولغاتهم ومشاغلهم وهمومهم، وتكوينهم الاجتماعي الثقافي، ومنظورهم العقلي ورؤاهم للطبيعة.

إذ تتحدث الاسماء عن مصير الجماعات وحياة الفرد العادية وعن العلاقات التي تربطه مع اخوانه في الدين ومع الطوائف الدينية الاخرى، كما تتحدث أيضا عن هجرات اليهود وتنقلاتهم القريبة والبعيدة، وترسم أيضا مسالك تحركاتهم الكبرى داخل مجتمعات محيط البحر الابيض المتوسط وغيرها.

ا- سلطان الاسم:

يحتل اسم الفرد مكانة رئيسية في الحياة اليهودية في المغرب الكبير، فهو مدرج في لفائف نسب العائلات الكبرى، وفي دفاتر الختان المعدة لهذا الغرض (وكان كل هذا تطوعا كما في علمي) حيث تسجل اسماء الاطفال الذكور الذين ختنوا، وفي القوائم التي تحررها السلطات الربية عند تحرير عقد زواج او طلاق، وفي السجلات التي تسجل فيها اسماء الشهداء والذين وافاهم الاجل طبيعة أو بسبب حادثة ما، الخ.

وقد جردت انا نفسي عقود اسماء اثناء مراجعاتي لوثائق قانونية وادبية،راجعتها للقيام بدراساتي وبحوثي المتعلقة بالحياة الفكرية ليهود الغرب الاسلامي، وخصوصا وثائق التقنوت (مراسيم الاحبار) والرسبونسا (فتاوى ومراسيم المحاكم الربية).

وتعد ايضا اسماء موقعي هذه الوثائق أو مراسليهم أو أسماء المنازعين أو الشهود أو أسماء اولائك الذين لهم علاقات بالمحاكم، والذين جاء ذكرهم عرضا في هذه النصوص، مصدرا ثمينا للمعلومات الخاصة باصول وتشكيل وتركيب اسماء العائلة والاسماء الخاصة والكنى والانباز اليهودية التي اخذت تختفي منها اسماء أو اتخذت لها مظهرا أجنبيا.

وهكذا تتجلى في الوثائق التي تزخر بالاسماء، ومنها ما هو معروف، ومنها ما لم ينشر بعد، (ولكننا قد استطعنا الاطلاع عليها) الاهمية القصوى التي يوليها اليهودي المغربي للاسم الذي يحمله، والدور الرئيسي الذي يلعبه هذا الاسم في حياته وفي مهامه الدينية والاجتماعية-الاقتصادية التي ينهض بها.

والظاهر أن الشعور ب «سلطان» الاسم، هو شعور أتى مما لاسم الجلالة من قوة وسلطان وكذا من سيل الالفاظ الدائرة في موضوع المعاريف المتعلقة بالملائكة والجن، كما جاء ذلك في التقاليد الربية والادبيات الصوفية والقبالية. وتستعمل «القبالة» التطبيقية – وتقترب من العلوم السحرية – اسماء الملائكة وتراكيبها وتقاليبها الدقيقة والمختلفة في كتابة الادعية والاحجبة والتعاويذ، للوقاية من الشر، وطرد العين الشريرة، وابعاد الخطر، وتقريب عناية العوالم الاخرى، وعناية اصحاب السلطة في هذه الارض. ولا يتردد في الاستنجاد ب «الاسماء النجسة»، اسماء كائنات العالم السفلى، عالم الظلمات، عالم النسياطين، تلك التي يزعمون انها اصبحت خاضعة لهم، والتي يتواصلون معها باستظهار عبارات غامضة ملائمة.

ويعتبر الاسم، العنصر الاساسي للهوية، ومن الضروري رسم حروفه المختلفة رسما صحيحا (الاسم واللقب وأيضا الكنية) في المناسبات الكبرى من حياة الفرد، في الولادة، أو بالاحرى في الختان وفي الزواج او الطلاق، وفي حالة المرض الخطر أو في لحظات الوفاة.

ومن الاكيد ان الطفل الذكر يدخل في عهد ابراهيم (عهد الكلمة) بعد ختن الغرلة، ولكنه يدخله علنا عندما يتلقى اسمه الذي سيحمله طول حياته. وتسمى البنت أيضا، غير ان ذلك يتم في حفل متواضع، ان لم نقل غير ضروري. ولاختيار الاسم قواعد تختلف حسب الظروف (احياء ذكرى حدث تاريخي وطني أو محلي) وكذا حسب اصل الطائفة التي ينتسب اليها. فالتقاليد السارية المفعول عند اليهود البلديين تختلف عن تلك المتبعة بكل دقة عند اليهود «المكورشيم» المهجرين الذين تعود اصولهم الى الاندلس والبرتغال.

ويدرج اسم العروسين واسما ابويهما بالتتابع في عقد الزواج (الكتوبة) كما تُدرج فيه بعض العائلات شجرة نسب العشيرة والقبيلة الى ان تبلغ اللقب الأعلى الاكثر شهرة، أو الاكثر احتراما، وهو اللقب الذي عرف منذ قرون سابقة. وتسمى بعض العائلات، ذات النسب، «ميوحصيم» ويشير هذا المصطلح الى مصداقية النسب ونبالة الميلاد. وتقوم بعض العائلات على أساس من الفضيلة والعلم، وهي التي تعد عادة من العائلات الكريمة.

ويحاط تحرير «كُت» (عقد طلاق) المرأة بكثير من الحيطة الشديدة، سواء في جوانبه المادية أو عباراته، وخصوصا في دقة كتابة اسماء الاشخاص والاماكن. ولقد سبق أن رأينا الاهمية التاريخية والمواقعية التي تقدمها، اضافة الى ما سبق، وثيقة مثل هذه، حيث يسجل اجباريا اسم المدينة واسم مجرى الماء الاقرب اليها.

وقد يلجأ الى «تغيير الاسم» في حالات المرض الخطير، حسب طقوس دقيقة جدا. ولنتذكر البعد الصوفي الذي تكتسبه هذه العملية، في الآداب التوراتية، وما توصل اليه من قدرة على المكاشفة، والارتقاء الروحي الذي خص به المعني، بل اتحاده بالسكينة، كما في حالة الاباء الاوائل: ابراهيم ويعقوب، وذلك بادخال حرف الهاء الموجود في رسم (اسم الله الجليل) في اسم الاول: أبرام، وبتغيير اسم الثاني الذي يعني الاخير: يعقوب، وهو يفيد العقب والمكيدة، باسم اسرائيل، الذي يفيد القوة والنبل المخولين باقتران اسم الله «إل».

وتتجلى الخاصية الدينية التي يكتسيها الاسم في لحظة الوفاة، ويمتد تأثيرها الى عالم ما بعد الموت. ويبقى اسم المؤمن مرتبطا به حتى في الدار الاخرى. ومن هنا جاءت اهمية هذا القسم

من الشعائر المتعلقة باسم المتوفى، وما يرافقها من طقوس «هشكبه» (صلاة على روح الموتى) ومن هنا جاءت أيضا أهمية قراءة الفقرات المبدوءة بحروف اسم المتوفى، وحروف اسم أمه من المزمور الالفبائي التاسع والخمسين، وهو تلفظ يضمن حسب التقاليد، الهوية الدينية للشخص.

واخيرا فان اليهودي المغربي، كباقي اخوانه، يعتقد بان للاسم الذي يحمله تأثيرا قويا في عمله ومصيره، في هذا العالم وفي العالم الآخر. ولهذا الاعتقاد أيضا اصوله في فقرة من فقرات التلمود (بركوت 7ب).

ب- الاسم -قوالب وبنى، تاريخ وهوية-:

يظهر تحليل الاسماء اليهودية المغربية، منذ اللحظة الاولى، تنوعا ملحوظا في اللغات حسب تواترها وترددها، كاللهجات العربية (ع) والبربرية (ب) واللهجات الاسبانية (ا) والعبرية (ع) والارامية (ارا) وأيضا الاغريقية واللاتينية والفينيقية مع مختلف التركيبات والتغييرات التي تلحق تداخل هذه الاسماء. ويعرف من خلالها أيضا وبنفس الدرجة، تنوع أصول اليهود المغاربة، وهي كتاب مفتوح يمكّن من قراءة المراحل المختلفة لاستقرار اليهود في البلاد منذ القدم الى يومنا هذا. كما تطلعنا على تاريخهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية. ويعرف كذلك من هذه الاسماء، كيفية امتداد اروستهم في ارض الامازيغ عندما جاء الفينقيون لاقامة مستوطناتهم على شواطئها، وعندما احتلها الرومان طوال قرون عديدة. وكيف طبع الفتح العربي بعمق حياة يهود المغرب وثقافتهم ولغتهم دون ان تمس اطلاقا تعاطفهم الوقاد مع اليهودية وتضامنهم الروحي مع مدارس التلمود بفلسطين والعراق. لقد عرف إذ ذاك عالم البحر الابيض المتوسط، تحت راية الاسلام، وطوال سبعة قرون، وحدة حضارية ولغوية سهلت التواصل بين الشرق والغرب، واخصبت تبادل الافكار والممتلكات، ونوعت ونظمت حركات السكان.

ويتعرض علم الاعلام اليهودية المغربية، بما له من غنى في التركيب العرقي والمواقعي، لحيز كبير جغرافي اساسي، كما يتطرق للسكان الذين كانوا يعيشون في هذا الموطن، وفي عديد من الاماكن في الغرب والشرق الاسلاميين واسبانيا، وخصوصا في المغرب الكبير، وأيضا في باقي القارة الاوربية.

وإذا استفسرنا الاسماء أيضا، فانها تضع أمام اعيننا عديدامن الاخبار المتعلقة بالوظائف العامة، والحرف، والفنون، والمهن المختلفة التي اشتغل بها اليهود المغاربة خلال فترات مختلفة

من تاريخهم، كما تفيدنا أيضا بكثير من الدروس والطرائف الاجتماعية اللسانية مثل (الكنية واللقب) والاسماء المنتحلة، واسماء الانباز. وهي اسماء اصبحت هي نفسها القابا تذكر بالفضائل والعيوب والعلامات الجسمية الخاصة والعاهات، او الرفعة والغنى والقوة والمنعة، أو الظواهر الطبيعية (مثل السماء والضوء وغيرها...) أو الحيوان أو النبات أو الملابس والحلي أو الاحجار الكريمة والمعادن أو الموسيقى والاعداد (اسماء الاعداد وغيرها...)

ويجدر بنا أن نلاحظ ملاحظة حول دلائل النسب، واخرى في موضوع اسماء كوهن ولاوي، وما يتألف منهما من اسماء أقل مكانة.

غالبا ما يكون الاسم مسبوقا بلفظة الانتساب بالعبرية أو العربية بن/إبن أو ما يقابلها بالامازيغية أو وو، والارامية بر. وكلها تعني ابن، مثل: اوحيون (اوهيون) بن حيون (بنايون) أوسعدن (اوسعدون)، بن سعدون (بن سدون)، أو يوسف (بن يوسف / بريوسف).

واستعمل أيضا لفظ النسب بلغتين مختلفتين في الاسم الواحد مثل: ابراهام بن دفد أو يوسف، حيim بر يعقوب ابن حيون.

وقد يكون الاسم مسبوقا باداة التعظيم الارامية: مَر (تنطقها الطائفة المغربية مُر) وهكذا نجد الالقاب مر يوسف (مر يوسف) مر على (مرلي، مريلي) وغيرها...

ويعني لفظ الابوة العبري العربي: ابي/ابو/بو: اب فلان، مؤلف المؤلف وصاحب الشيء الخ... وجاء أيضا: ابيسرور، ابودرهم بوهدن الخ... ويجب على «الكوهن» وهم نسل الحبر الاكبر اهرون، وسدنة الهيكل الاوائل، ان يحافظوا على نقاء طبقتهم وان لا يدنسوها بالزواج مع غيرهم، وإذا حدث وخرقت هذه القواعد المنصوص عليها في الشريعة التوراتية والتقاليد (سفر اللاويين 21، وسفر الاعداد، الاصحاح 6 اية 22 . 27، والاصحاح 18 الاية 15 – 16 وغيرها...) فان على الكوهن ان يتنازل عن لقبه الشريف، وا ن يسمى باسم آخر. ومن المعروف في المغرب، ان القاب البطان وكِسوس هي أسماء لعائلات كانت تحمل اسم كوهن. وقد يحدث ان يرفق لقب كوهن بالقاب اخرى زيادة في تعريف حامله، وهكذا يوجد لقب كوهن الصقلي، كوهن صلال، كوهن دألكن، كوهن الخلاص الخ... وكذلك بالنسبة للقب لوي نجد لوي – سوسان، لفي بن يولي الخ...

ونختم، لتوضيح ظاهرة الالقاب اليهودية المغربية، بمجموعة مختارة اضطررنا الى انتقائها رغما عنا، وهي أسماء والقاب مأخوذة، على الخصوص، من احدى القوائم المذكورة أعلاه،

تلك التي حررها يعقوب ابنصور، وهو سلطة ربانية كان بفاس (1673 - 1753). وقد نضيف اليها، عند الاضطرار بعض الشروح المختصرة، وأحيانا أيضا، كتابة النطق المعاصر. مجموعة هذه الاسماء والالقاب مدرجة في الملحق الآتي :

ج- الالقاب:

أبنصور (نسبة الى فينقيا اسبانيا). ابحصر (صاحب الحصير، كنية اصبحت لقبا وكان الاسم الاصلي الفيلالي، الباز تعود على تافيلالت) ابيقصيص / ابيكسيس / عبرية عربية من الحبر، الشيخ، العميد). أبيصور (بوحزمة؟ حامل الرزم). ابوهب / ابوواب /(عربية الواهب).ابو درهم (عربية درهم). ابو ربيع (عربية). أبو زكْل / بوزكل /(عربية-بربرية بوعصا). الدهان / دهان (عربية: الدلاك). الدرعي / الادري /(نسبة الى درعة). العلوف / اللوف /(عربية العلاف). العلوش / الوش /(بربرية عربية الحمَل). العنقري / لنكري /(نسبة الى Lancara). العسري / لَسْري /(عربية). البلنسي / فلنسي /(نسبة الى اسبانيا). البرهنس / برنس /(البرانس). الباز / إلباز /(عربية). الفاسي (نسبة الى فاس). ألغرابلي / إلغرابلي /(عربية). الغريسي (نسبة غريس). الحداد (عربية). بن الحاج / الحدج /(عربية). الكروجي / كروتشي /(نسبة اسبانيا). الكسلاسي /(نسبة الى اسبانيا؟). الخراساني (نسبة خراسان). لخريف / كريف /(عربية). المدادسي / الدادسي /(نسبة دادس). النقار (عربية اسم صانع، نقاش). علال / بن هلال /(تصغير الاسم العربي عبد الله والعبري عبديه). المديوني / مديني /(نسبة قبيلة مديونة). القايم / الكيم /(عربية، الموجود، الثائر). امرلو /(اسبانيا اصفر). امغار / امكار /(بربرية: الشيخ، الرئيس). املال / ملول /(بربرية، ابيض). عمار / امار /(عربية، معمر، بستاني). امزيك / بنموزيك /(بربرية عرقية، ابن البربري). أنهري (عبرية النور). النظام / ندم /(عربية جواهري، ناظم الاحجار). النقاب / نكب /(عربية مفتش، مراقب). النجار / نجار / اندجار /(عربية). عقنين / واعقنين / اكنين /(بربرية مشتقة من العبرية يعقوب). اغلو / اغيو /(اسبانيا من النهر). ارومي / رومي /(عربية، الاوربي). اشبيلي / اشبيلي /(نسبة ال اشبيليا). الشريقي / شرقي /(عربية من الشرق). الصباغ / سباكْ /(عربية). الصياغ /(عربية من الصياغة). الصراف / صراف / بنزرف /(عربية). اسولين (بربرية من الحجر). اسردي / سوردي /(عربية بربرية: الوشاح). عطية / بن عطية /(عربية، الهبة أو نسبة الى بني عطية). عطار / بنتار /(عربية). التدغي / تدغي /(نسبة تدغا). أوداي /(بربرية، اليهودي). الزاوي / زاوي /(نسبة الى الزاوية). الزناتي / زناتي /(قبيلة زناتة). بهلول (بربرية، البسيط، الابله). برجلون / برشلون /(نسبة الى برسلونا). بن بروخ / بروخ /(عبرية مبارك). بروخل / بروجل /(عبرية: بركة الله). بن بنستي / بنستي / بن ڤنست /(اسبانيا). بن دافيد

وحيون (عبرية بربرية). بن دافيد أيوسف (عبرية بربرية). بردكو / فردكو /(اسبانيا: الجلاد بيباس (اسبانيا من الحياة). بن بدوخ / بدوخ /(اسم من الاسماء التوراتية مردخاي، اخذت صيغة بربرية). بطون (اسبانيا من الحياة). بنون (بربرية-فينقية). بطبول / بطبل / ابطبول /(عربية: من الطنبور). بورجل / ابي رجل /(عربية). كبس(اسبانيا، رأس). (من) كستر (اسبانيا اسم مكان). كركوس (مكان، اسبانيا). دبلا / دفلاء من أفيلا (اسبانيا مكان). (ابن) دنان (عبرية-آرامية، القاضي) ديان (عبرية، القاضي).

فرج / فرجي، فرجون، فرج، فرش (عربية من السعادة والصحة). فحم (عربية)فحم فرنكو (اسبانيا).

ݣباي (عبرية، الجابي). ݣبزون (اسبانيا) كدالي (عبرية). ݣنون (بن) (مكان، اطلس) ݣيݣي / بن (مكان، اطلس).

حديدا (عربية، شفرة). حجيز / حدجز (عربية، حاج). حجول / حتشول (مكان، اسبانيا) حليوا (عربية، عذوبة). حمو / بن (عربية-بربرية، قبيلة بالاطلس). حمرون / بن (عربية، الحمرة، الاحمرار). حرار / الحرار (عربية، صناعة الحرير). حروش / هروش (عربية، Lâpre، لقب). حسان / حسين / حسون / بن (عربية، طيبة، جمال، قوة). حيم / بن حيم /أبنهيم (عبرية، الحياة). هروس (عربية-بربرية، الهرس،الافتراس، لقب).حزان (عبرية امام، خادم بالبيعة). إفلح /بن عربية من الفلاح). إفرح /بن (عبرية من الورد، الازدهار). إللوز /بن، مكان، اسبانيا، المغرب). إطاح /بن (عربية، السقوط؟).

كرسينت /كرسينتي (موقع اسبانيا)، خلفون (عربية، خلف، عوض). كسوس (يهودية-عربية، من نسل الكوهن «كسر» تضائل).

لبي /ابن (عبرية من الاسد). لحسن / بن (عربية الاحسن). لنيادو (اسبانيا، السمك المملح). لردو (موقع، اسبانيا). ليومبروزو (اسبانيا، من الضوء)

ملكا /ملقي /بن (موقع، مالقه، اسبانيا)، يمان (موقع، اسبانيا). منسانو (موقع اسبانيا «شجرة تفاح »). مرسيانو (موقع، مورسية، اسبانيا). مركوس /مركو (اسبانيا، قياس الموزونات)، ميمران /يمران (أصل غير معروف-آرامية، سيدنا؟). مراجي /مرادجي /مراش (موقع اسبانيا). مرجي/مركي (عربية، المرج) ميرا (موقع، اسبانيا). منسون (موقع، اسبانيا). منسونݣو (موقع، اسبانيا). مورنو (اسبانيا، اسمر). مويل/بن (موقع اسبانيا). مشيش/ميشاش/مساس/بن (موقع عربي-اسبانيا).

نحمياس (عبرية-اسبانيا من نحميا)، نهون (موقع اسبا)، عبديا (عبرية توراتية).
عليل /بن (تصغير علال وعبد الله).

برينت (اسبانيا). برص/برّتص/ابرز (عبرية توراتية).بلو (من الاغريقية فلو/فيلون؟، من العبرية يديديه). بمينت،(اسبانيا من الابزار)پنيا/پنير (تصغير اللفظ العبري بنحاس). پرتال (موقع البرتغال).

قدوش/ كدوش (عبرية، مقدس) قمحي/ قمحى/ كمحي/ (عربية، قمح)
قنديل/ كنديل (عربية) قرو/ كرو (اسبانيا، المحبوب، الغالي). قطن/ كطن (عبرية صغير)
قريات/ كريات (موقع مغربي، أو تصغير من العربية لقيرات «كرات»).

ربوح (عربية، الربح والنجاح). رموخ (بن) غير معروف ويستعمل بكثرة عند اليهود القادمين من الاندلس) روف/ روفِ (عبرية، طبيب، مطبب).روش ((بن)عبرية، رأس) روزيليو/ روزيو (موقع اندلسي أو من اللون الاحمر).
سبع (من الارامية، من الرضى،الشبع ٠أو من العربية، السبع). صباح (عربية)

سمحون/ بن(عبرية وعربية، من الفرح والسعادة والسماحة). سناني (موقع Sens فرنسا). سرفتي (عبرية، فرنسي) سسبتورتاس (اسبانيا من الباب، الأبواب الستة) سسون بن (عبرية من البهجة) سريرو (اسبانيا الشمع، اسم الحرفي).

صرويا (عبرية-توراة). شعنان-بن (عبرية-فينيقية، من المساعدة والدعم)
شبات/ بن شبات (عبرية-السبت)، شربية / (عبرية، سيادة أو عربية،ضخم وغليظ)
شقرون / بن-(عبرية اشهب، أصهب)، شتريت/ بنشتريت (غير معروف الاصل)
شمعوني/ سمعوني (عبرية من شمعون) شوشنا/ سوسنا/ شوشنه (عبرية، سوسن) شّلما/ سَلما (عربية، السلام) سريانو (موقع اسبانيا) سوتو (موقع اسبانيا) اسقلى/ اسكلي (بلد صقلية أو من العربية «خيوط الذهب»)سوزن/ سوسن/شوشن -بن (عبرية، نسبة الى مدينة سوس، والعربية السوسن).

طنجي/ طنجي (طنجة).تبييرو (اسبا اسم حرفة البناء) ترگنو/ ترِگنو ترگانو (مكان اسبانيا).
طاطا/ بن (بربرية، اسم شخص مؤنث) توريل/ توريل (مكان-اسبانيا) تازي/ بن (مكان مغرب تازة) تمسيت/ تمستيت (مكان المغرب الشرقي والجنوبي). طوبي (عبرية،شخصية توراتية) طوليدانو (اسبانيا طليطلة) طوليلا بن (مكان اسبانيا) ترجمان (عربية) تواتي/ تواتي (مكان توات ج الجزائر)

يحيا/ بن (عربية-بربرية) يولى/ بن يولي (مكان الاطلس) يونس/ بن (عبرية عربية-حمام) واحنيش (عربية-بربرية، حنش) وليد/ بن (عربية، اب) واقراط (بربرية، مكان المغرب) زقين/ بن زقين (عبرية-شيخ، قديم)زكرى/بن (عبرى-عربي زكرياء) زمرا/ بن (عبرية-آرامية، موسيقى) زيري/ بن (قبيلة المغرب) زميرو/ بن (مكان اسبانيا)

الاسماء الشخصية

أكثر الاسماء الشخصية المستعملة في المغرب مأخوذة من الكتاب المقدس أو المكتوبات التي كتبت فيما بعد (المشنا والتلمود) ولن نذكرها هنا الا إذا اخذت صورة اسم عربي أو بربري.

الرجال: علال، عمور، عمرام، عيوش (اسم نذري، بربري-عربي، من الحياة ويرادف الاسم العبري حيم أو الاسباني ڤيدال، مثله مثل صيغه الاخرى وعيش، يحيا يعيش الخ...) عزيز/ العزيز وعزوز (يذكر بالحب والحنان والقوة)، حسن ادار، خليف (اسم نذري (خلف) مسعود/ مسود مثل سعدون وسعيد (سعيد) وكلها اسماء تذكر بالسعادة والحظ الحسن الخ... سليم، سلام وسليمان، وهي مقابلات للاسماء العبرية شلوم وشلومه وشلومون الخ...

والالقاب المصغرة أو الالقاب العربية-البربرية المقابلة للالقاب المصغرة العبرية التي لاحظنا تكرارها عند يعقوب ابن سور في فتاويه وأحكامه الشرعية هي: بخخا، بدوخ، دوخو، وأوخا وهي بدل مردوشي، مشان/ ميسان بدل موشه/ موسى. هدان هدوش بدل يهودا، جوده. به وبرهمات بدل ابراهام. إگو بدل يعقوب. باباليو بدل مخلوف. إسان وإسو بدل يوسف/ جوزيف. إششو بدل يهوشوع ويوشوع الخ...

النساء: ولاسماء النساء الشخصية اهمية خاصة. وتكوّن، وهي مسبوقة بلفظ النسب العربي: بن، او البربري: أو- اكثر مما يتجلى ذلك في اسماء الرجال- العنصر الاساسي للألقاب، في «ملاحات» الاطلس وجنوب المغرب، مثل ابن طاطا وبن كوتا

ونشير ايضا الى ان اسم الشخص يسبق دائما باسم امه في مراسيم الدفن وكذا في العمليات السحرية وكتابات الاحجبة والتمائم.الخ...

ونذكر هنا الاسماء اللاتينية (لا) والعربية (ع) والبربرية (ب) دون ذكر للاسماء العبرية مثل: البا(لا) علو(ب) عاليا(ع ب) عَيْشَ(ع) عزيزة(ع) بونا(لا) كلارا(لا) كوتا(غ) دونا، دونيا(غ) إسترلا(لا) فادونيا(لا) فلورا وفلور وفلوريدا(لا) فرانس(لا) فريحا(ع) كراسيا(لا)

هنو(ع.ب) هرموزا(لِا) إطو(ب) إزا(ب) جميلا وجمول(ع) لودسيا/ ليتيتيا(غ) ليندا(لا) لومبر(لِا) لونا(لا) مقنين/ مكنين؟، مرزوقا(ع) مسعودا(ع) مليحا(ع) ميرا/ أميرَ ومريم(ع) نحلا(ع) نجما(ع) نونا(لِا) أورا/ أورو و وأوروفيدا/وفيدا(لِا) پلوما(لا) برسيادا(غ) قمرا(ع) رحما(ع) رقوس(؟) رينا(لِا) روزا(لا) سعدا/ سأدا(ع) ست؟ شونا(؟) سول (لا) سلطانَ(ع)، طامو(ع.ب) طاطا(ب) يمنا(ع) ياقوت زهرا(ع)

الفصل الثاني

المجتمع اليهودي والمتخيل الاجتماعي اليهودي المغربي

I – الطفولة والمراهقة

1– الميلاد

تتيح مناسبة الولادة والختان والفطام في المجتمعات اليهودية، في كل العهود، من المرحلة التوراتية الى يومنا هذا، الفرصة لاقامة احتفالات ضخمة، وهي بالاساس احتفالات ذات طابع ديني وتاريخي ووطني، إذ جاءفي سفر التكوين:

«وختن ابراهيم اسحق ابنه،وهو ابن ثمانية أيام حسب ما أمره الله به»
(التكوين (4,XXI)
«وكبر الصبي وفطم، وصنع ابراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام اسحق»
(التكوين (8,XXI)

وتعد هذه الاحتفالات ايضا مناسبة لتكافلية، بل واكثر من ذلك لتوفيقية تامة، حيث يلتقى السحر بالدين، وبالاخص عندما يتعلق الامر ببعض التقاليد والعوائد والشعائر ذات الطابع المحلي والمشترك في المجتمعات المغربية اليهودية والاسلامية.

والولد في هذه المجتمعات مرغوب فيه، وبالاخص الذكر، وينتظر بشغف، بل وبنوع من القلق، انه واجب جوهري لمن سيعمل على تخليد النوع، وَهَمٌ أكبر لكي يستمر ذكر العائلة طويلا في ظل سلالة معطاء.

ويعتبر العقر والاجهاض المتكرر لعنة، ولا تتوقف الامثال والحكم والاقوال الماثورة في هذا الصدد عن ترديد:«ان من لا ولد له،لا حياة له، وان المرأة العاقر شجرة ميتة». وعليه فان

على المرء ان يحتاط لهذا الأمر كثيرا،وان يتقي شره بكل أنواع الادوية الطبيعية (التغذية المناسبة، وتناول جروعات خاصة)،أو في حالة الضرورة،عليه ان يلجأ الى قوة فوق طبيعية عليا، او ان يتشفع للاولياء الفلسطينيين، أو ان يتجه الى مزار الصالحين المحليين، او ان يقوم بممارسات متعددة، وبأشكال غريبة مختلفة، مثل علم الباطن/ القبالي. والسحر أو الشعوذة الشعبية.

ولقد اطلعنا على كناش من هذا النوع،كتب في مراكش، يحتوي على بعض هذه الوصفات، وقد صيغ نصه بلهجة عبرية آرامية عربية، وهو يتعلق بالعقم والاجهاض،(و المرأة التي لا تلد الا البنات): (هكذا)

عندما تحمل المرأة، فان الخبر ينتشر حالا وسط عائلتها وعائلة الزوج،ويكون هذا الخبر مناسبة لاظهار علائم الفرح. وتحاط المرأة الحامل أثناء الحمل، بسياج من المحرمات،وبمجموعة من الوصايا الموصوفة،والمحددة حسب التقاليد والعوائد.

وتقسم المرحلة التي تسبق الوضع، حسب العادة، الى: ثلاثة أشهر للوحام، وثلاثة اشهر لبروز البطن، وثلاثة أشهر للعياء التام.

والاشهر الثلاثة الاولى كما يعتقدون أصعب الشهور وادقها، بسبب ظاهرة التوحم، وما تشكله من نتائج غير ملائمة، ان لم تكن خطرة، يمكن ان تنعكس على جسم الطفل الوليد،وعلى صحته وصحة الام، او على مصير الجنين نفسه،اذا حدث ما لم يكن في الحسبان، أو اذا لم يستجب لرغبات الوحم.

ومع اقتراب الولادة، تبدأ عملية تقطيع القماط،(ما يسمى بتقطيع الكْداور بفاس وتقطيع التكْامط في الجديدة) كما يتم تحضير التعاويذ والطلاسيم والاحجبة والكتابات السحرية الوقائية التي تكتب على «ورقة الواضع»،وتسمى بالعبرية: «شميراه» من شمر العبرية التي تعني حرس،وتهدف الى وضع الام والوليد تحت حماية الالاه،وعدد من الملائكة الحراس، كما يقصد منها ابعاد الشياطين الشريرة، وخصوصا الجنية ليلث التي خلقت لتقضي على الاطفال اثناء الايام الثمانية الاولى التي تلي الولادة، مالم يدخلوا في عهدة ابراهيم (الاختتان) وتلعب العروض الرمزية المتمثلة في الحيوانات والنباتات وادوات مختلفة، دورا مهما فيما يتعلق بتحضير «الشميراه»، خاصة السمك الذي يحفظ الوليد من «العين الشريرة». وهذا الاعتقاد الشعبي يستمد اصوله ايضا من نص تلمودي،كان يجمع بين رمز السمك،وبين مؤدى فقرة توراتية تتعلق بيوسف الذي كان هو بدوره تجسيدا للخصوبة، يقول النص:

«كما ينجو السمك الذي يعيش في الماء وتغطيه المياه من سيطرة ومصائب العين الشريرة، كذلك تنجو ذرية يوسف».(بيراكوت 20أ)

عندما تشعر الحامل بآلام الوضع، يستدعي الزوج القابلة ذات التجربة واليد الموفقة، ويسرع الاهل والاقرباء،وكذلك الجيران،الى جانب الواضع التي ينبغي ان تصيح وتدعو الله والصالحين، بينما تقوم النساء اللواتي يحطن بها ببعض الصلوات والدعوات، الى حين الولادة التي تتم في اغلب الاحيان بسرعة وبدون تعقيدات كبيرة. يسقط الجنين، وتحتفظ الام بغلافه، بعناية فائقة، وخاصة، اذا كان المولود بكرا. اذ يملك هذا الغلاف، حسب الاعتقاد، فضائل مباركة، ويحمي من الامراض، ويعجل باطلاق سراح السجين. والواقع ان اللفظ العبري العربي الذي هو لَخْلاَص يعني كذلك: الخلاص. ويبلغ الفرح اقصاه، عندما يكون الوليد ولدا، وتتلقاه القابلة، وهي تصيح ثلاث مرات: «مبارك هذا الاتي». باللغة العبرية، وتسلمه للحاضرين الذين يطلقون الزغاريد. اما عندما يكون المولود بنتا فانها تستقبل عادة ببرودة. وتتم التهاني بعبارة:مباركة مسعودة.وإذا عسرت الولادة وطال انتظارها،يبدأ الرجال في ترتيل الادعية والصلوات.أما إذا طالت الالام،فانهم يتوسلون لتخفيفها،بالقيام بطقوس خاصة تتضمن ترتيل (العقيدة)،وهي قصيدة من القصائد التي ترتل في «الفترات الشديدة» و«راس السنة» و«يوم الغفران»،وتستقي موضوعها من التوراة، من قصة اسحاق، وقد افتداه هو نفسه الملاك الذي اعترض سيف أبيه ابراهيم بعد ان تله للجبين. وتصيح الواضع في هذه الاثناء ويداها مشدودتان على حبل معقود على عمود السرير، أو على مصراع الباب[1].

ويتضمن كتاب مراكش المشار اليه اعلاه،وصفة توضع تحت لسان الواضع،وهي عبارة عن ورقة،عليها كتابة مكونة من اربعة احرف عبرية الف وميم ونون وطاء وهي نوع من المربع السحري،والاسماء السرية المستقاة من لغة «القبالة» التطبيقية المتضمنة للحروف الاولى لاسماء الملائكة، أو تتضمن آيات توراتية. وتهدف هذه الكتابة الى التعجيل بالنهاية السعيدة،أي الولادة وينبغي ان تستخرج الورقة مباشرة من الفم بعد الخلاص.

1- قارن في هذا الموضوع، الطقس المتبع في الرباط، في الوسط الاسلامي،وقد تعرض له L. Brunot ويتمثل في: «ربط منديل المرأة، في احدى الصوامع، وتلاوة الادعية لها». وفي البلدان المسيحية، تتمثل العملية الاكثر تداولا، لتسهيل الولادة، في دق النواقيس. وكانوا في القديم يربطون حزام المرأة في ناقوس كنيسة المنطقة، ويدقون هذا الناقوس ثلاث مرات (Sebillot, le paganisme contemporain, cité par L.P.unot).

2- التحديد (2)

وهناك شعائر اخرى تصاحب الولادة، وعلى الخصوص، اذا كان المولود ذكرا، ولنذكر من بينها شعيرة «التحديد»،وفيها تستعمل شفرة أو نصل من حديد، ويلعب هذا المعدن دورا مهما في بعض الاعتقادات والمراسيم المشتركة في المجتمعات اليهودية والاسلامية. وتعود عادة «التحديد» الى اصول دينية مشوبة بطقوس خاصة،واعتقادات سحرية ترافقها ممارسات احتفالية تصاحب هذا النوع من الطقوس، وهما معا يهدفان الى حماية المولود الذكر الذي يكون اكثر تعرضا للخطر من البنت، حسب ما يبدو،اثناء الايام السبعة الاولى،اي قبل دخوله في العهد الابراهيمي، والختان المنقذ الذي لابد منه. اذ ان حياته تكون مهددة باستمرار في هذه المرحلة، خصوصا على يد الجنية «ليليث».

انهزام ليليث وتجريدها من سلاحها.

عندما تشيرالساعة الى الثانية عشرة ليلا، تقفل الابواب والنوافذ، ويستعمل اثناء القيام بهذه الطقوس، سيف قديم أو سكين غليظة [3] تمرر على جدران ومنافذ الغرفة المحكمة السد، والتي توجد بها «النفيسة». ثم بعد ذلك توضع الاداة المعدنية تحت وسادة المولود المشدود الى امه.

تعد هذه الشعيرة، ككل الشعائر المتبعة داخل هذه المجتمعات التي نعرفها جيدا، تعبيرا عن المتخيل الشعبي المحلي، والتضامن الفعال مع المحيط الثقافي الاصيل المغربي والعربي البربري، كما تعد في نفس الوقت تعبيرا عن التعلق بالفكر اليهودي الانساني، الشامل والى الذاكرة الجماعية التي تعود اصولها الى الأزمنة التاريخية،وما قبل التاريخ، والى الذاكرة التوراتية نفسها. انها اعتماد سياق هذه جميعا.

ونظرا لذلك ، يفتتح الاحتفال بهذه الاية من الكتاب المقدس،تلك التي تروي قصة نوح، وتتحدث عن السفينة، التي التجأت اليها المخلوقات الحية التي كان ينبغي أن تنجو من الطوفان: «أقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك، ومن كل حي من كل ذي جنس اثنين، وكل من تدخل التابوت لتحيا معك، ذكرا وأنثى تكون، من الطير

2- نريد أن نعطي لهذا الطقس الفريد من نوعه، وقد اخذ استعماله يتضاءل في مجتمعاتنا المعاصرة، وصفا يفسح المجال لفهم مظاهره ذات المغازي المتعددة، وقد تعرضت بعض الدراسات الاتنوغرافية التي تناولت المغرب بالدراسة، مرة أو مرتين لهذه الظاهرة، ولا توجد اية دراسة قيمة تناولته بالتحليل حسب علمنا.

3- و«التحديد» ايضا هو وضع الحدود الفاصلة لمساحة ما، وتحديد حدود لمكان ما، بحيث يمنع تجاوزها لكل اجنبي، ويتعلق الامر هنا بمنع ليليث.

باصنافها، ومن البهائم بأصنافها، ومن جميع ذبابات الارض بآصنافها، يدخل اليك اثنان من كل لتحيا (التكوين VI، 18–19–20)

وفي هذه اللحظة بالذات، حيث تنتهي قراءة هذا النص، تتم عملية اغلاق كل المنافذ، لمنع تلك الاخرى من الدخول الى الغرفة (الاخرى التي لا تسمى، ليليث التي يجب الا تذكر) وشعيرة «التحديد» والاساطير التي تصاحبها، حية في كل جهة من العالم اليهودي في حوض البحر الابيض المتوسط، و في الغرب والشرق الاسلاميين.

ويشهد على ذلك، اذا كان الامر يحتاج الى شهادة هذه القصة التي رواها لنا، منذ عدة سنوات، رسام حالم، يدعى يوسف مانور، وهو يهودي من اصل عراقي، واسرائيلي، يعيش في باريس: قال لي بلهجة لا يعوزها الاعتقاد، ان جده استطاع ان يتحكم في الجنية ليليث المسؤولة عن موت عدد من الصبيان اليهود في بغداد، وقد نزع منها سيفها القاتل، وسلم هذا السيف للعائلة حيث لا زالت تحتفظ به بعناية. وحسب قول محدثنا، ان بطل هذه المعركة التي انتهت بانهزام ليليث، وتجريدها من السلاح، كان فقيها كبيرا في «القبالة» التطبيقية وعارفا بالنصوص الباطنية والاسرار الخفية، وكانت تتحقق على يده معجزات شفاء المرضى.

ولقد تعرفنا على هذا النوع من الابطال الذي يجمع بين صنع المعجزات والمعرفة العميقة بالعلوم الربية ، بالاضافة الى كونه مطببا عاديا[1]، في المغرب بالصويرة ومراكش وغيرها.

ويتابع جزء من طقوس هذا الاحتفال بترتيل نصوص من الكتاب المقدس تخص المناسبة، مثل سفر التكوين، الاصحاح الثامن والاربعين، 16، والتاسع والاربعين، 22، (مقتطفات من بركة يعقوب) والاصحاح الواحد والتسعين والواحد والعشرين والمائة من سفر المزامير، والاصحاح السادس من سفر العدد 22–27 (البركة الكهنوتية) والامثال (3 و24)، وتنتهي بالموسيقى والاغاني والالحان ذات التعبير العبري، بيوطيم والموشحات والقصائد الغنائية والعروبيات بالعامية، والاغاني البربرية أو القشتالية، حسب اصول المجموعات الاثنية–اللغوية المعنية.

ولن نتناول من كل هذه الادبيات، إلا جزءا يسيرا منها، نظرا لاهميته، وذلك لضيق المجال، ومنها:

مباركة يعقوب المشهورة، وهي جزء خاص بمباركة يوسف وابنيه افرايم ومناسي، وتكرر قراءتها ثلاث مرات، ونصها:

«ليبارك الملاك الذي خلصني من كل شر هؤلاء الصبيان وليحل فيهم ذكر اسمي واسم ابائي

ابراهيم واسحاق، وليتكاثروا «كالسمك» ولينتشروا في البلاد. انه فرع خصب كيوسف فرع خصب على حافة العين، يتجاوز كل الفروع الاخرى على طول السور».

ويعد نص المزامير XCI ، أكثر النصوص استعمالا ، لوقاية الانسان. وتستعمله القبالة التطبيقية لصناعة الشميروت، كتابات وقائية (الاحجبة والتعاويذ) الخ.. وذلك بادماج الكلمات التي تكون الايات في كتابات رموزية ومربعات سحرية تعتمد علم الجُمّل وهذه بعض الايات ذات الطابع الخاص: ليحرسك الله من شرك قناص، ومن طاعون قاتل، لن تخاف لا من رعب الليل، ولا من السهم الذي تخرق النهار، ولا من الطاعون الراكض في الظل، ولا من الوباء الذي ينشر اهواله في وضح الظهيرة. لا شر يقرب ساحتك، ولا بلية أو آفة تقترب خيمتك..»

وجاء على الخصوص في (المزامير 5, CXX) «الرب حافظ لك، الرب ظل لك عن يدك اليمنى، فلا تؤذيك الشمس في النهار، ولا القمر في الليل، يحفظك الرب من كل سوء، هو يحفظ نفسك». وليس خاف ما تتمتع به البركة الكهنونية من قوة وبأس وهاتان فقرتان منها .

«سيباركك الرب ويحفظك، وسيتلألأ نور وجهه فوقك ويمنحك فضله»
وتتضمن الامثال هذا التمنى البسيط: «إذا ضجعت فلا تذعر، بل لتضجع ويكون نومك عذبا» (الأمثال III– 24)

ونقتطف من أحد هذه الاناشيد العبرية ، البيوطيم وهي أكثر شعبية، المقدمة اللازمة التي تتصدر المقطع الاول

مقـــدمـة

ليحرسكم الاله جميعا يا مجلس اوفيائي
فالشكر والحمد لله
ليكن الوليد بشارة خير
وليترعرع، مثل بستان ندى ويكبر
ليعلو، وينجح وينجو من كل شر
امين، لتكن مشيئة الله هكذا وكما يأمر

وختاما لهذا الجزء، هذه بعض المقاطع من بين عدة أغاني عبرية-عربية خاصة بالقابلة (اغنية القابلة).

يا القابلة يا السوسية
كل ما سديت شوية
نقوم نهار السبت نخرجك مكسية
يا القابلة يا المقبولة
يا المبشرة يا ميمونة
بشرتني الله يعطيك الخير
نعطيك حاجة مضمونة

وتبدأ السهرة في المساء الباكر، وتمتد الى مابعد احتفال التحديد في جلسة طويلة، حيث تروي النساء تحت قيادة امرأة حكواتية متخصصة، حكايات وخرافات تناسب المقام، في الوقت الذي يقوم فيه الآخرون باعداد الدقيق للختان، والاحتفالات المرافقة له. ويصبح «التحديد» كذلك تحديثا، حكاية حكايات واحجيات خاصة.

3- الختان: طقوس احتفالية، خرافة، وشعر:

يعد الاحتفال بالختان الذي يتم عادة، في اليوم الثامن بعد الولادة احتفالا دينيا ضخما، وحفلة عائلية ترافق الافراح السعيدة، والابتهاجات السارة التي يحتفي بها الفقير، كما يحتفي به الغني، بمناسبة ولادة الولد. وتقام مراسيم الاحتفال عادة في بيت الأبوين [4] في غرفة الواضع التي تزينها الستائر الملونة «السفاريم»، (لفائف التوراة) التي تستعار من البيعة، كما تزين بستائر ملونة.

ويطلق على الختان الحقيقي، اي استئصال القلفة، اسم « مهيله» بالعبرية و«الختان» بالعربية، كما يسمى في الوسط الاسلامي، حيث يجري عادة عندما يبلغ الولد سن السابعة أو التاسعة، «اطهاره» و«ازيانه». تقدم الأم ولدها الى البتر الشعائري، الى فدية الختان لحفظه من الموت. ويسلم دور «السّندَق» (الذي يضع الطفل على ركبتيه) عادة الى الجد، أو يباع في المزاد العلني لصالح صندوق الفقراء الخاص بالطائفة، ويجلس هذا «السندق» فوق (كرسي النبي ايليا) ويأخذ الطفل بين ركبتيه، في حين يتولى «الموهل» (المقترح للختان) انجاز العملية

4- قد يجرى الاحتفال بالبيعة التي تعود الأب الصلاة فيها.

ويقوم بامتصاص دم الختانة ورش العضو التناسلي المجروح بكحول يسمى الروم أو «ماء الحياة» لوقف النزيف بضمادة مسكنة(5). ويردد اب الطفل بركة الختان، شكرا لله الذي أتاح له «ان يدخل عضوا جديدا في العهد الابراهيمي». وتدور المشاورة في شأن التسمية بعد مباركة الخمر التقليدية ومباركة النباتات المعطرة،وهي أوراق الورد اليابسة،ويبدأ في البحث عن الاسم، ويخضع اختيار الاسم الى قواعد معينة، وهي تتنوع حسب التقاليد، وتختلف حسب الاصول الاثنية، حيث نجد «الميگورشيم» (قدماء المهجرين من شبه الجزيرة الايبيرية) يطلقون اسم الجد الذي لازال حيا، وعلى العكس من ذلك «التوشابيم» (السكان الاصليون) الذين يمتنعون عن ذلك،ولا يسمون الاباسم الجد المتوفى. ويرفق احتفال الختان كباقي الاحتفالات الاخرى، اجباريا، بشعيرة أخرى تدخل «بيوطيم» «أشعار» الختان ليغنيها الحاضرون وقد خصص المغنون والتربادور المغاربة عديدا من المنظومات الشعرية العبرية والقصائد اليهودية العربية للاحتفال بـ «بريت مهيل» (عهد الختان)،وقد أصبحت احدى هذه القصائد التي اعدت لهذه المناسبة، وهي قصيدة يعقوب ابن سور (ق18–19) ذات شعبية كبيرة. وقد أدمجت منذ عهد بعيد في طقوس البيعة المغربية، وتغنى هذه القصيدة في جو من البهجة والفرح في والوقت الذي يصعد فيه أب الطفل الى منصة «لفائف التوارة» يوم السبت السابع ليوم الختان.

وتتضمن هذه القصيدة اربع رباعيات قصيرة جدا، من بحر متساوي المقاطع وهي:

1- لتنشرح جماعتنا ليستبشر جمعنا! إذ ان ولدا قد ولدلنا/ لقد رزقنا ولدا/لقد رزقنا ولدا/.

2- الالاه العلي الذي انشأ من السحاب مطيته /ليغدق على هذا الولد من نعمه/وليمنحه فضيلة الدخول/في العهد الابراهيمي، عهد ابينا.

5- يعتقد اليهود ان لدم الختان عديدا من الفضائل والمزايا، وهي تبرز من الشعيرة التي تمزج، مثل معظم الشعائر الأخرى، بين المتخيل الاجتماعي والروحانية التشريعية الدينية. وقد روى الربي يوسف بنعيم في معجم تراجمه «ملك ربنان» ان أحد حكماء صفرو وهو الربي اسحق الكوهن المدعو الربي «يسحق مول لمهيلا» (سيد الخاتنين) المدفون بسفح الجبل المعروف قرب المدينة، كان قد اشتهر منذ القدم بولايته وان سكان صفرو كانوا يتجهون الى مزاره في فترات الجفاف ومعهم خرقة مبللة بدم الختان ينشرونها على شاهدة قبره مرددين المزامير والابتهالات استنزالا للمطر وتعرف حضارات أخرى امثال هذا الولي ممن اشتهروا بتوسلهم لاستنزال المطر. وقد خص **Herman Hesse** فصلا كاملا لهذه الشخصية في قصته: **Le jeu des perles de verre,p 433-475.**

3- خالقه يفعم امانيه/يتمم امانيه، وفي السعادة يقضى ايامه/الى ارض المسرات يصعد/ مع كل الأسرائيليين اخواننا.

4- لينهض والده اليوم على نغمات الطرب/ليقرأ في التوراة/وفي ظل الاحترام والكرامة/ليبارك اسم الاهنا/في احترام وتبجيل وخشوع/

ويكوّن البعد الاخلاقي والديني للختان، واهميته الاجتماعية والاثنية، وعمليته الشعائرية نفسها التي هي «مهيله» (ختان) و«بريئة» (قطع الجلد وطيه لاظهار تاج القضيب)، مواضيع كثيرة تناولتها منظومات اخرى من هذا الادب الذي يستوحي مواضيعه ومعجمه اللغوى من الكتاب المقدس، والتلمود و«المدراش» و«الملاخا». ويظهر تناول هذه المواضيع في هذا النوع من الشعر الذي يغنى جماعيا في هذه المناسبات والاحتفالات، الطابع التعليمي والتربوي. كما يلاحظ فيه أيضا، الاهتمام باضفاء صبغة القداسة على كل عمل وفعل يصاحب هذه المناسبة ذات الاثر الكبير في الحياة اليهودية. وتعتبر القطعة التي نورد هنا مقدمتها ومقطعيها الثاني والثالث دليلا على هذا:

- مدخل:

بخاتمك يا ايها القادر قد ميزتنا
ليمجد اسمك الى الابد يا مالكنا

2 - سنقطع الجلد الاغلف بموسى حادة
طبقا لارادتك ومشيئتك،
يا الله ياحي يا خالق كل المخلوقات
لكي نخلد عهدا ابرمه آباؤنا الاوفياء المخلصون
ولنضعف قوة نوازعنا الشريرة

3 - نخرق الغشاء الطري بيد ماهرة
لكي نكشف حشفة كل التاج
ولنضاعف القوة بالتطهر والطهارة
ذلك هو العهد الذي وضعت علامته في اجسادنا.

ويفتدى الولد الذكر البكر بعد واحد وثلاثين يوما من ولادته، وذلك بان يقدم الاب فدية للكاهن، وهو من احفاد هارون، حليّ زوجته (ذهب وفضة واحجار ثمينة)، ثم يأخذه منه بعد ذلك بقليل، مقابل بعض من المال يعطى لصندوق فقراء الطائفة.

انها شعيرة ذات طابع اجتماعي-ديني. وقد خص الشعراء المغاربة هذا الاحتفال أيضا بقصائد شعرية، تستوحي موضوعها من النصوص التوراتية التي تتحدث عن تقديم المولود الاول قربانا، و وجوب فديته. (الخروج XIII والاعداد III وXXIII

وعندما يتعلق الامر بالبنت، فان اختيار «التسمية»، يتم باقل ما يمكن من الحفاوة، ويسمى الاحتفال بذلك بالعبرية «زِبِدهَبَتْ» (قربان البنت) ويتيح الفرصة لاقامة شعائر سريعة مصحوبة بوجبة طعام خفيفة، وباحتفالات بهيجة تنشد فيها «بيوطيم» (اشعار) بالمناسبة. ومن هذه الاشعار مقطوعة تغنى في يوم الزفاف، وقد نظمها شاعر مغربي، وتبدأ هكذا:

غزالة ظريفة، صبية وديعة
فيك تتحد قدرة الاجداد الخالدة بالفتنة الرائعة

ويسجل الاب أو الجد اسم وتاريخ الولد أو البنت، على صفحة من صفحات كتاب الصلوات أو كتاب التوراة (لم تكن إذ ذلك الحالة المدنية موجودة) وكان التاريخ المستعمل في المجتمعات اليهودية في الغرب الاسلامي، هو التاريخ اليهودي، أي تاريخ الذي يبدأ ببدء الخليقة.

II- تربية وتعليم

1- أسس التعليم التقليدي

نصت التوراة والآثار اليهودية على المبادىء الاساسية لكل تعليم يهودي. وكانت تعني كلمة التربية، زمن التوراة، تكييف الفرد داخل الجماعة، واعداد العضو في المجموع، لينسجم مع الآخرين، ويتشبع بنفس الروح التي تهدف الى تكوين شعب متميز ونشيط، يسير على هدي المثل والفضائل والتقوى، كما أمر الله بذلك: «كونوا قديسين لانى أنا الرب المحكم قدوس» اللاويون (2,XIX).

و لم توضع الاسس التربوية الحقة الا بعد الرجوع من النفي البابلي ايام كتابة «المشنا» والتلمود، على يد الشيوخ الفريسيين والاحبار الذين جاءوا فيما بعد.

ثم ابتدع عزرا قراءة التوراة امام اليهود المجتمعين:
(انظر ايضا سوكا 120)

وكان رجال الهيكل يحاولون في خطبهم حث الناس على تأسيس دور العلم ومرابط العلماء (برق ابوت 4,1,I)...

وعمل الائمة الروحيون اليهود، بعد تحطيم الهيكل الثاني، على انقاذ العقيدة والشريعة، معلنين بأن أول واجب على الفرد أن يتقيد به هو أن يكتسب المعارف النافعة، وأن المسؤولية الأولى التي تتحملها الطائفة هي توفير هذه المعرفة،واعداد العدة اللازمة لتشجيع هذا التعليم، وبوضع مشروع منهج عام للتربية... بل يذهب احد النصوص التلمودية (عفوده زره 36) الى حد القول ب«أن الله نفسه خصص، منذ تحطيم الهيكل، الربع الرابع من وقته لتعليم الاطفال»... لقدنفذت المعارف اليهودية الى عامة الناس،وكان لابسيط طائفة في الشتات «بِيتْ مِدْرَاش» (مكان للدراسة) خاص بها، سواء في العراق أو اليمن أو في المغرب.. وتوارثت المدارس التقاليد التعليمية اليهودية، كما نص عليها الكتاب المقدس والتلمود، خلال كل العصور،وفي كل الاماكن حتى جيل الاحبار في وقتنا الحاضر.

2- المفاهيم المثالية للتعليم

بعدما قنن الربسيون والمشرعون الاوائل الارث البيداغوجي الذي اقره علماء التلمود ورؤساء المدارس الدينية (انظر هلخوت تلمود توراة لابن ميمون)انكب مفكرون آخرون من اليهود انكب مفكرون اخرون من اليهود في القرون الوسطى، على هذه القضايا، وكونوا نظريات واسسوا انظمة مستوحاة من المصادر الاساسية للتقاليد، ولكنهم في الوقت نفسه استعاروا كذلك نظريات معاصريهم الفلسفية. وبطبيعة الحال،ان هذه المناهج لم تطبق ابدا كما هي ذلك ان النموذج المثالي لثقافة عليا،كما ورد عند فيلسوف يهودي من القرن الثاني عشر أو الثالث عشر،لا يمكن أن يتوجه به الا الى نخبة صغيرة،بامكانها أن تستوعبها اثناء حياة الدراسة. ونجد نموذجا لبرنامج مثالي لهذا التعليم في مؤلف كتب في سنة 1250 عنوانه(يئير نتيف)وهو للربي يهودا بن سموئل بن عباس، عاش في الاندلس والمغرب. كما نجد ربيا آخر هو الربي يوسف بن عقنين،من اصل مغربي معاصر لابن ميمون، يحلل بنفس العقلية فضائل المعلم والمتعلم في مولفه: طب النفوس.

المدرسة التقليدية اليهودية في الغرب الاسلامي

تعد المدرسة التقليدية اليهودية التي ظلت قائمة الى وقت قريب في الغرب الاسلامي صورة من صور المدارس الاصلية التي تمتد جذورها الى بداية استقرار اليهود بالمغرب العربي أو على الاقل منذ الفتح الاسلامي.

وهنا كذلك،فان التربية تعني في اغلب الحالات تكيف الفرد اجتماعيا،وادماجه في الجماعة، بل ويمكن القول عموما ان الوسط المرتبط بهذه الدراسة،لا يملك تصورا واعيا للتربية. ان احترام التقاليد هو الذي يتحكم في حياة الطائفة، ويتربى الطفل بالمعاشرة والمثال والاوامر والنواهي، ان اكتساب التقاليد، والتكيف مع الاعراف والعادات، والتشبع بالمعتقدات والشعائر، وأخيرا ادماج البالغين في الجماعة، بواسطة احتفالات التأهيل، اضافة إلى المساهمة في العبادة، كل هذا يشكل ما من شأنه أن يجعل من الفرد عضوا في الجماعة، وشخصا له عقلية جماعية، وشعور عميق بالانتماء إلى جماعة، وأساس قوي بالتماسك وتضامن فعال مع أعضائها.

1 — الطفل في العائلة:

بمجرد ما يبدأ وعي الطفل بالحياة، يجد نفسه يعيش في وسط تحكمه مجموعة من الافعال والممارسات،ترتبط ارتباطا وثيقا بالاوامر والنواهي الدينية.وتبدأ معرفته الاولية للحياة التقليدية اليهودية في البيت،وسط العائلة الكبرى التي تشمل الجد والجدة وكل الاقرباء والمتعايشين،وهم في اغلب الاحيان يستظلون سقفا واحدا. ولا يوجد أي فاصل يفصل الصغار عن البالغين اذ ان الطفل يكون معرفته للنظام القائم والعوائد والقوانين بمحاكاته لمن هم اكبر منه أولئك الذين يحترمهم،ويخاف منهم،ولذلك فهو مدعو الى ان يتقيد بمثالهم تقيدا كاملا.

ويتكون الطفل في العائلة على الاقل بمقدار ما يتعلم ويتربى في المدرسة،وياتي تاثير المعلم فقط لاتمام التربية التي بدات وتتابعت في الوسط العائلي، وتنحصر مهمته في تعليمه قراءة التوراة. وهو يتلقى تربيته الاولية في البيت، والام هي التي تلقنه الفضائل الاولية للاحسان، احترام مال الاخر، وحب الارض المقدسة،ويكتسب الطفل معرفة جيدة بواجبات العبادات عن طريق القدوة بالاباء وممارستهم اليومية،وبذلك فان اداء الصلوات ليس من مهمة المدرسة والمعلم. وفي بعض الحالات الخاصة،حالة اليتامى على سبيل المثال، فان دور الاجداد والاعمام

والخالات يمكن أن يكون عظيما. ولا يقف التعلم وبما في هذه الكلمة من معنى عند باب المدرسة، اذ ان الطفل أو اليافع عندما يصل الى البيت في المساء، يجد الاب أو الجد مشغولا ومهتما باكمال تعليمه الديني، وتهيئه لمراسيم الرشد الديني (بار مصواه)، وهو بمقدار ما يكبر ويتطور ثقافيا يتم تزويده ببعض الدراسات غير الواردة في البرامج التعليمية بالمدرسة، وخاصة قراءة الزهار، أو الشروح الصوفية للتوراة، اذ ان انتقالها يتم بشكل فردي بالنسبة للمريد ويكون عادة هو الابن المختار.

2- احتفال ذو دلالة: الكتاب

زواج مصغر : خطوبة التوراة واختيار الزوجة

يهتم الاباء في جماعات وادي تودغا (جبل الاطلس الكبير) بمجرد ما يبلغ الولد سن الخامسة بشيئين اثنين:

تعليمه التوراة واختيار زوجة له طبقا لأحد الاوامر التلمودية. لقد جرت العادة ان ينظم ليلة «شافعوت» (ذكرى احياء نزول الوحي فوق جبل سيناء) نوع من الزواج المصغر «جوباه بيزعير انقيم» إذ يتم اختيار قرينة للولد من نفس السن، ويرتبط أحدهما بالآخر أثناء حفلة زواج حقيقية تتبعها احتفالات.

وبعد صلاة الصباح/ شاخريت/ يقصد الرجال بيت الخطيب، ويخط الربي بالعسل فوق لوح نظيف، الحروف الابجدية العبرية، ويطلب من الولد ان يلحس الحروف قائلا:

« لتكن كلمة التوراة حلوة في حلقك مثل هذا الشهد. » (الامثال 13,XXIV).

ولقد تحدث عن هذا الاحتفال، كل من برونوت ومالكا، في كتابهما (النصوص العبرية - العربية بفاس)، ويبدو أنه لم يحتفظ في هذا المدينة الا بعادة واحدة من هذين المظهرين، تلك العادة التي يقرر فيها الاباء ربط صبي بصبية أثناء طفولتهما، على أمل أن يتزوج أحدهما الاخر، وحسب مخبرين لنا، أحدهما من تودغا والآخرين من محاميد الغزلان بتخوم الصحراء، إن الأمر يتعلق قبل كل شيء بعرس رمزي للطفل مع التوراة[1].

1- في بني اونيف، على تخوم الصحراء الجزائرية المغربية يكتبون الابجدية على بيضة، ويعطونها للطفل ليأكلها.

3- التعليم الاولي:

(يتجسد جوهر التعليم في البيعة وعن طريق البيعة ومن اجل البيعة) هذه العبارة التي ذكرها س- كوتياذ S.D Goitein فيما يتعلق باليمن، هي ما يميز التعليم الابتدائي بالمغرب الى حد بعيد. لا تهدف الوظيفة المنوطة بهذا التعليم الى اعداد الصغار للحياة، لان هدف هذا التعليم ومحتواه لا ينبغي ان يستجيب الا لخاصة واحدة وهي المشاركة السليمة في العبادة واكتساب التقاليد؛ والتقيد بنظام التعاليم أوامر و نواهيا. وليست قراءة الصلوات في البيعة قصرا على الحبر الامام، بل هي موزعة بين الاعضاء الحاضرين، كما هو الشان بالنسبة للمقطوعات الشعرية الدينية في ايام الاعياد والاسبات. ويدعى المومن الى صعود السفر، وينبغي عليه ان يقرأ بنفسه مقطع التوراة الذي اعطى له (من المفروض في كل واحد، إن يعرف قراءة التوراة) أو أن يرتل (الهفتاره (فصل الانبياء) مع ترجمته باللغة الارامية واللهجة اليهودية العربية اليهودية الاسبانية أو اليهودية البربرية حسب المناطق.

ويعد استظهار النصوص المقدسة عن ظهر قلب، بالاضافة الى شروحها وفهمها، المفتاح والشرط الاساسي لمشاركة اليهود في اداء واجبات عبادة الله وهي تتطلب تعلما طويل النفس، ومعارف جوهرية ، وتظهر كذلك العلاقة الوثيقة ما بين التعليم والشعائر في التقسيم السنوي للمواد المدروسة حسب الفصول

● صلا: مدرسة وبيعة

نجد في الملاحات القديمة بالمدن الكبرى، أو في أماكن تجمعات السكان المتواضعة بالقرى، أو في قصور تخوم الصحراء أو في أودية الأطلس، مكانا مخصصا للتعليم، يتراوح ما بين البناية الكبيرة في المدينة، وبين الحجرة الصغيرة في القرية.

انها المدرسة المسماة بالصلا، وهذا اللفظ يعني كذلك مكان الصلاة، البيعة، وكل عمارة يلقن فيها التعليم التقليدي ،ولو كان الامر يتعلق بمحل خصوصي اكتراه المعلم لهذا الغرض حتى بيته الخاص.

وتجدر الاشارة الى ان البيعة باستمرار هي مكان ادارة المدرسة، مما يقوى ايضا الترابط ما بين الشعائر والتعليم. وتوجد هذه الظاهرة وهذا الاستعمال المزدوج للمصطلح في كل مكان في العالم الاسلامي. وتحمل البيعة والمدرسة في اليمن نفس الاسم كنيس، ومصطلح

مسيد (المدرسة القرآنية)،ليس الا تغييرا لكلمة المسجد، وفي المناطق البربرية تسمى ب: تيمز كيدَا(2)

● مكان التعليم.

انه مجرد غرفة، كيف ما كانت، في الاسفل أم في الاعلى، ذات كوات ،ذات كوات ضيقة، تقفل في الشتاء،وتفتح في الصيف، ولا تدخلها الشمس الا اختلاسا، ويكتظ بداخلها الاطفال في جو مختنق، حيث ان عددهم قد يصل احيانا من مائة الى مائة وخمسين طفلا في بعض ملاحات المدن الكبيرة، وهم يجلسون جماعات جماعات، على أرض مطروقة مغطاة بحصائر من القش، أو الحلفاء، وتبدو على اجسامهم ووجوههم صفرة ونحافة كما تظهر على عيونهم علامات الرمد مع ما يشعرون به من الم، وقلما توجد كراسي ضخمة ورفوف للكتب أو الواح للقراءة. ويجلس المعلم القرفصاء مستندا الى جدار قرب الباب على فراش صغير، يراقب كل عالمه، ويتجول من حين الى اخر وسط المجموعات بجلبابه الاسود، كطيف، وبمنديل ازرق به دوائر بيضاء، يلوح بعصا أو بسوط. وفي زاوية من الغرفة، تنتصب جرة مغطاة بلوحة ممتلئة بالماء وهو مؤونة اليوم المعدة للشرب، وفوقها قدح، أو قصعة معلقة بمسمار. وفي المساء عندما يخيم الليل، تشعل قناديل الزيت أو الشموع التي عوضت اخيرا بقناديل النفط أو الغاز، وفي اثناء القيظ في مسيد من مسائد مراكش، قد تجد بيد التلاميذ والمعلم مروحة، وهي عبارة عن ورق غليظ مثبت على قضيب، يلوح بها باستمرار، وفي مسيد اخر يقوم التلاميذ بالتناوب على احداث التهوية، على ما في ذلك من تعب مضني، اذ انهم يقومون بدفع حصير من قصب مستطيل، كارجوحة معلقة في السقف فوق رؤوس رفاقهم.

ولقد عرفت الاجيال المتاخرة هذه الصورة للبيعة المدرسة، مما يجعلنا نعتقد انها عبرت قرونا دون ادنى تغيير يذكر، وهي بعينها في الزمان والمكان مع اختلافات بسيطة من ملاح الى اخر، وكانت الكتب قليلة ومرتفعة الثمن، ويلاحظ دوما خمسة أواربعة رؤوس منكبة على نفس «الحماش»، (السفر) وكان المحظوظ هو الذي يملكه، ويجتهدون بكد على قراءته من جوانبه المختلفة، ونقص الكتب هو ما يفرض على الطالب نقل نص من الدين أو «الجمارا» الذي ينبغي ان يدرسه مقدما.

(2) اخذ اسم «حدر» من الالفاظ الاشكنازية، وهو حديث الاستعمال، ويظهر لنا انه افضل من استعمال «اصلا»، على أي فاننا نجدنا مضطرين في اغلب الاحوال، تسهيلا للخطاب، الى استعمال المصطلحات التربوية الملائمة لمفاهيمنا التعليمية المعاصرة، مشيرين الى ان الامر هنا يتعلق بمفاهيم نسبية وبعلاقات المستويات التعليمية فقط.

● تعليم اجباري ولكن غير مجاني.

يدخل الولد الى المسيد في سن ما بين الثالثة والسادسة،ويبدأ في تعلم الابجدية في السن الرابعة، وينبغي ان تستمر الدراسة على الاقل الى حدود سن الرشد الديني،وهو محدد مبدئيا في الثالثة عشر. وتفرض واجبات على الاهل أو الجماعة بالنسبة لليتامى والمحتاجين. لقد اصدر حبر مكناس الربي يعقوب ابنسور في شهر ايار 5481 (1721) مرسوما ربيا يدين الاباء الذين يخرجون ابناءهم من المسيد،وذلك من اجل تعلم صنعة عند صناع القرشال.ويمنع منعا كليا على كل صانع أن يشغل في دكانه طفلا قبل سن الرشد،(بارمشفاه 13 سنة) ويدفع الاباء (او الجماعة عند اللزوم) للحزان اجرة تسمى الشرط،وهي كما يقول التلمود ليست للتعليم الذي يعطيه (فالتعليم من حيث المبدأ مجاني) ولكن من اجل حراسة الاطفال،أو (كمكافأة للوقت الذي يختزله من اوقات اهتماماته الاعتيادية)،ويتلقى المعلم علاوة على ذلك في بعض الملاحات في الجنوب المغربي (خبز المعلم) في كل يوم جمعة،وهو تقليد متبع كذلك في اليمن.

● وضع معلم المسيد:

لا تخضع الوظيفة التعليمية لاي قانون، ولا تحظى بالاضافة الى ذلك لاي احترام يذكر، ومن المحتمل أن ذلك يعود غالبا الى وضع المعلم،لانه ليس الا مجرد انسان بسيط،لا يملك القدرات المطلوبة ليعلم،ولم يتلق اي تكوين ليقوم بذلك انها /مهنة البؤس/،كما يقول احد الاحبار بمكناس، وليس من الغريب ان يغير المعلم مهنته عندما يملك امكانية ما حيث ينتقل من تعليم براشا (شرح نص من التوراة) الى تجارة الاثواب، ومهنة صناع القراشل والخياطة،الى اسكافي أو صائغ متمرن. ولا تسمح له المكافأة التي يتلقاها ان يعيش حياة لائقة، وهو مضطر على الدوام ان يقوم باشغال هامشية أو ثانوية،كتجارة الورق المتواضعة الصنع أو الحبر الذي يقوم بصناعته،وكتابة التعاويذ والاحجبة،كما يقوم بالذبيحة الشعائرية للدواجن أو المواشي،ويصنع الخيوط الجندية التي يستعملها اليهود للصلاة أو الخمائل (صيصيوت، بتليم)،واغطية الصلاة، وهو احيانا منشد،ينشد المقطوعات والاغاني الدينية،أو سوفر، (موثق أو كاتب عمومي).
لقد ادى على الاقل الوضع القانوني. للفقيه ، المطبق على معلم الحدر،(اليشفاه)الى اصدار بعض القرارات الربية المنبثقة عن سلطة مغربية يهودية، وهي تمس على الاخص قضايا الاعفاء من الضريبة،التي ينبغي أن يستفيد منها الفقيه،وقضايا اخرى لها علاقة باستقطاب المعلم وحقوقه والاحتفاظ بمنصبه،وبتقنين المنافسة الشديدة التي يثيرها بعض المعامين.في نفس المكان،ومساهمة /صندوق الدولة/ هذه المساهمة التي تعتبر غير شرعية لمكافاة بعض الاحبار الخ...

● بيداغوجية:

يقتضي التعليم اساسا في المرحلة الابتدائية، ان يتعلم الطفل القراءة لكي يتمكن في النهاية بان يشارك في اقرب وقت ممكن في قداس البيعة،ويكون التدرج على الشكل التالي: الاكتساب الالي لقراءة الاحرف والحركات والكلمات، والتدريب المكثف لقراءة نص مقدس. وتفرض القراءة الصحيحة للنصوص الدينية المقدسة للتوراة معرفة كاملة / للدقائق / «اللغة والنحو»، والنبرات الخاصة بذلك. وتعتبر القراءة المجودة للفائف التوراة، حيث لا تظهر بها نقاط الحركات، ولا علامات الوقف، عنصرا من العناصر الاساسية للقداس. ويتمرن الطفل تدريجيا بالتكرار والاستظهار، ويحرس المومنون الحاضرون على احترام اصول التجويد بدقة، وينبهون بفظاظة عن الاخطاء التي قد يرتكبها القارىء الذي عليه أن يعيد المقطع الذي قرأه خطأ، ويبدأ التفسير بدراسة القسم التوراتي الاسبوعي، مصحوبا بشروحه اللغوية، انه التفسير أو الشرح، ولا يتعدى هذا الشرح أن يكون ترجمة باللهجة المحلية، وقد تحدد الترجمة الموازية للاصل،في خطوطها الاساسية،عبر تقاليد عريقة غير مكتوبة، تواترها شفاهة اجيال الاحبار.

ولا يفهم التلاميذ في الغالب هذه الترجمة، إذ ان لغتها بعيدة الى حد ما عن اللغة المتكلم بها، في حين انها وضعت اصلا لشرح النصوص، وافهام معناها ومغزاها،(وهذا في الغالب هو الهدف منها). وتسود هذه الظاهرة عامة لدى الطوائف المعربة، وهي الاكثر عددا ، وهي شائعة تقريبابالنسبة لترجمات اللهجة اليهودية الاسبانية لدى الطوائف القديمة بالمنطقة الاسبانية بالمغرب، أو في اللهجة اليهودية البربرية للقبائل اليهودية القديمة في الاطلس، وتخوم الصحراء. وظلت الترجمة الارامية سارية المفعول شفويا (تركوم أو نكلوس)، (وشرح الانبياء) التي كان الغرض منها ايضا في الاصل فهم النصوص المقدسة، مع ان اللغة الارامية لم تعد مفهومة منذ نهاية الالف الاولى للتاريخ الميلادي. (انظر رسالة يهوداه بن قريش من تاهرت الى يهود فاس القرن العاشر) ولم تكن هذه الترجمة جزءا في التعليم الابتدائي، الا انها كانت بالنسبة للثقاة، فريضة قائمة على اوامر ربية، وهي تشير الى (قراءة كل اية من الفقرة مرتين بالعبرية، ومرة بالارامية) ولا تعلم الكتابة الا في مرحلة متأخرة، لاعتبارها غير ضرورية في المرحلة الابتدائية لمتابعة الدراسة، وكان الخط الاندلسي (نصف قلم) هو المستعمل لدى الطوائف القديمة التركية والاغريقية، والذي كان يستعمله الاشخاص في مراسلاتهم العائلية، ومعاملاتهم

التجارية، وتستعمل الحروف المسماة بالراشي في كتابة الوثائق الادبية، او نسخ نصوص الدراسة، وينسخ الطالب بسبب قلة الكتب وانعدامها، فصولا من «شولحان عروخ» (الطاولة المنضودة) ومن المشنا أو التلمود، وبهذا النهج المستخدم في مجال النسخ، يتم تحقيق ثلاثة اهداف في آن واحد: ربح الكتب، واعادة انتاجها واستحضار جيد للمحتوى، وتعلم مهنة سوفر (ناسخ وموثوق وكاتب عمومي).

● الطاعة واختبار المراقبة الشفوية:

يعتبر التلميذ شخصا ينبغي ان يزود ببعض الاليات،وأن يتعلم عددا من المعارف،مما يفرض عليه الخضوع لبعض القواعد، ويلجأ الى الترهيب،كوسيلة اولية،وبذلك يكون التلميذ مجبورا على الانتباه،وبذل مجهود اكبر في دراسته خوفا من العقاب،بالاضافة الى وسائل اخرى زجرية كممارسات الاذلال.

ويتبني بعض المعلمين تجاه الاطفال الصغار على الخصوص،نظاما اقل خشونة،كتوزيع بعض الحلويات،أو مكافات اخرى،وذلك من اجل اشاعة بيداغوجية مقبولة اكثر وان كانت في حد ذاتها تفتقد وسائل الاغراء. ولا يدخر اي مجهود في ايجاد حوافز اخرى غير الترهيب، ويشترى للتلميذ حق صعود المنبر «السوفر»،وذلك لتشجيعه،وخلق رغبة التعليم لديه،وتنظم بانتظام منافسات ما بين كبار تلاميذ حدر المدينة، ويبقى العقاب والتاديب الجسدي الى الان هو القاعدة العامة، اذ يطوف المعلم في القاعة والسوط فوق كتفه، ويكون التلميذ معرضا للسوط بمجرد ما يضبط في حالة الشرود،أو عندما يحدث ترثرة أو اشياء اخرى، ويستخدم المعلم باستمرار عصا طويلة،(قضيب من اربعة امتار كما كان الامر في أحد «الحدرات» بالدارالبيضاء.) ليتمكن من الوصول الى كل التلاميذ الموجودين امامه،في صفوف متراصة وليحفزهم عندما تدعو الحاجة الى ذلك، ويعاقب على كل الاخطاء الفادحة بسلسلة من العقوبات،منها التحميلة والفلاقة والقرما.

– التحميلة= يشد تلميذان المذنب شدا محكما،بينما الثالث يجلده بعدد معين من ضربات السوط على اخمص قدميه،ويبيع المعلم احيانا حق القيام بالجلد بالمزاد العلني.(عاين هذه النازلة بوزكلو بسطات) .

– الفلاقة= عصا غليظة مشدودة من طرفيها بحبل،وتشد قدما المذنب في وسط الحلقة المكونة من الحبل والعصا الخشبية،بينما تسقط على صحيفة الارجل تسع وثلاثون ضربة من السياط (ملقوت) .

- القرما= قطعة من الخشب،منجورة لادخال قدمي المذنب، لمنعه من الفرار، يعاقب بهذا النوع من العقاب التلاميذ المتسكعون الذين يفرون من المدرسة. ولا يتصرف المعلم الذي يعاقب بهذه الانواع من العقوبات بسوء نية أو خبث، ولا تدفعه الى ذلك الرغبة في السيطرة والقهر، ويعتمد نظامه على المأثور من التقاليد والعادات المحلية،وهي تفرض عليه أن يخضع لها. وفي الطوائف المتكلمة باللغة الاسبانية يقال (ان التعليم لا ينفذ الا بالدم)ويوازي هذا القول المأثور مثلا آخر عند اليهود العرب(الحرف ما يدخل غير بالضرب)[3] يخاف التلاميذ من المعلم ويحترمونه، ويقبلون يده عند الوصول والذهاب، وعندما يدخلون الى الحدر، ينبغي عليهم أن يسلموه كل ماقي جيوبهم من المال،وقطع الحلوى،أو الالعاب التي تسلم اليهم عند الخروج.

● المراقبة الشفوية -التسميع-:

بما ان التعليم في معظمه شفوي ان لم يكن مقصورا عليه،فهو لا يعرف أصلا تمارين كتابية، وللتأكد من ان الدروس والمعارف التي درست قد تم استيعابها،وتحصيلها في الذاكرة،فان الوسيلة الوحيدة هي المراقبة الشفوية أو التسميع.

ويبقى الامر بالنسبة للمبتدىء محصورا في سرد اللوح ويستظهرها واقفا على رجل دون ان يتحرك،ثم يعمل المعلم على ان يعيد التلميذ ما قراه طردا وعكسا وتقاطعا واختلافا، والسبابة تتنقل بين السطور، وكل خطأ يقابله ضرب على الايدي.

4 بار مصواه (احتفال بلوغ سن الرشد)

تقترن نهاية التعليم الابتدائي باحتفال بار مصواه الذي هو بلوغ (الرشد الديني)، ويصبح اليافع مفروضا عليه منذ ذلك الوقت،ان يقوم بالواجبات التي تامر بها التوراة،وهو كالراشد مسؤول عن افعاله،ويشارك في شعائر البيعة مع من هم اكبر منه،بنفس الحقوق والواجبات.

يحدد الرشد الديني عادة بسن الثالثة عشرة (مقالة الاباء 26,V) اما فيما يتعلق ببعض الافراد المتقدمين عقليا،فانهم قد يبلغون سن الرشد قبل السن المذكور اعلاه، وقد ذكر ربيان مغربيان بان احدهما بلغ بار مصواه في سن السابعة،والاخر في سن الثامنة. وفي الواقع يسمح شيوخ التلمود (سوكاح44)للاب ان يضع التيفلين على ابنه بمجرد ما يصبح قادرا على الاعتناء

3- يبدو ان بول فاليري نفسه قد اشتكى من التعليم بدون دموع: نهيء (الفكر) بتسليات بدون مجهود، بل وبتعليم بدون دموع (œuvres, i, 1386, pleiade).

بذلك، وينبغي ان يقود اليافع القداس يوم الاحتفال،ويقدم درسا،وهو عبارة عن وعظ حقيقي يبدأ بمليصاه (فاتحة من النثر المسجوع)، تدور حول مبحث طويل لاية توراتية، تتضمن نصوصا تلمودية،وموضحة بقصص وعظية، ويفرض هذا المقطع الادبي تحضيرا جادا،وعلى الفتى ان يحفظه عن ظهر قلب.

وفي اثناء الأحتفالات التمهيدية التي تجرى قبل الاحتفال الرسمي بستة اشهر، يتم تفصيل كسوة البار مصواه (مول التيفلين)،كما يسرد السطور الاولية لخطبته تحت المراقبة العينية اليقظة للحبر، وهي بالنسبة اليه مناسبة لجمع بعض القطع النقدية التي يضعها المدعون في صينية،كنوع من الغرامة/هدية.

ويقام الاحتفال الرسمي في البيعة في احد ايام الاثنين،أو الخميس،أي في يوم من أيام الاسبوع حيث تقرأ فيها التوراة،ويسمح فيهما بحمل(التيفلين)،يرتدي الطفل الذي خضب كف يده بالحناء افخر ملابسه ليلة الحفل، في جمع عائلي بهيج ويكون مغطى بطاليت «وشاح الصلاة» ومتوجا بالتيفلين،ومحاطا باطفال الشرف الذين يحملون شموعا كبيرة مشتعلة، ويصل الى البيعة بعد أن يعبر الموكب ازقة الملاح، ويقود القداس،ويصعد الى المنبر(سوفر). مرتلا خطبته،ويوزع الاباء على المومنين السكر،والارز واللوز والتمر، وتكون النساء أيضا حاضرات في زاوية من البيعة خاصة بهن،ويعود البار مصواه الى بيته مصحوبا بكل الحاضرين حيث يوزع عليهم الاسفنج والشاي والفواكه اليابسة، ويصدع البيت بالغناء والرقص،ويستمر الجوق الاندلسي في غنائه الى صباح اليوم التالي، ويصبح الولد راشدا شرعا،وبهذه الصفة يشارك في قداس البيعة بنفس الحقوق والواجبات،مثل كل رفاقه الاكبر منه سنا. وتفتح امامه طريقين: تعلم مهنة،والبدء في كسب قوته،أو الاستمرار في دراسته في اليشفاه، اذا كانت عنده بعض الامكانيات، ومهما يكن من الأمر، فهو ليس اميا. ان اطفال اليهود قبل سن الرشد لا يشتغلون، ولا يوجد في اي مكان اخر من الدنيا بين الشعوب طفل مثل الطفل اليهودي، له المام بالمعارف الدينية، وهو مع ذلك لم يتعد سن الثالثة عشرة.

.L.ADDISON the present state of the jews iw AABARY Londres 1675

5 التعليم العالي «اليشفاه»:

ينبغي على القضاة الربيين ، وكل الذين يشتغلون في وظائف دينية،وكل المتادبين الذين ليست لهم وظيفة جماعية،أو تعليمية محددة،والذين لم يشتغلوا بتعليم التوراة وهم يرغبون في تلقى تعليم عال و أعمق مما هو موجود في الحدر، ان يكرسوا عددا من السنوات من زهرة شبابهم،

بل وكل حياتهم لاكتساب المعارف اللازمة،لممارسة وظيفتهم،أو تكوين انفسهم،وهم المسمون بالمتادبين(تلميذ حاخام).
ويؤخذ هذا التعليم في اليشفاه،وهي تكاد تتخذ على الدوام صفة مؤسسة وقفية،أو مؤسسة انشئت بقرار من طرف مجلس الجماعة.

● اساتذة وطلاب:

يكون الاستاذ ربيا معروفا بعلمه واخلاقه وفضله، ووضعه المادي احسن بكثير مما عليه معلم الحدر، واجرته افضل،وتكفيه شر العوز، ولا تعرف انقطاعا، ويؤهله علمه لوظائف المفسر(درشان)ويتقاضى على ذلك مكافات هامة في بعض الظروف. وهو بجانب هذا ناظم(بيطان)ودارس الشعر والاغاني، وخطاط ماهرونقاش، يخط اجمل عقود الزواج أو ينقش اهم شواهد القبور، كما يمارس كذلك مهن السوفر(نساخ)ويتولى الذبح الشرعي للحيوانات والدواجن ويقوم بمهمة الختان. وهي وظائف اغلبها لا يتم بالمجان، وقد يضيف الى هذه المهمات مهنة التجارة.

يضمن للطالب الذي ياتي من مكان بعيد جدا الماوى والطعام عند رب البيت (باعل هابيت)،وهو تاجر او صانع يتولى واجب شرف ايواء طالب اجنبي عن المدينة. ويتلقى هذا الاخير علاوة على ذلك مساعدة مالية. والتعليم مجاني من حيث المبدأ ، وتزود هيئة اليشفاه الطلاب بكتب الدراسة في حالة وجودها.

تقوم العلاقات السائدة بين المعلم والمريد على الاحترام المطلق والتبجيل. والمريد هو خادم للمعلم، ومدين له بكل وقته خارج ساعات الدراسة.

● مضمون التعليم:

يدور تعلم «اليشفاه» حول محورين متمايزين،تبعا لمنهجين تعليميين مختلفين: الأول مادي وبرغماتي، يولى مكانا هاما لتوضيح الشريعة،وذلك لتطبيق وممارسة فروض الاوامر والنواهي؛ وهو يعتمد أدبيات الربيين المشرعين(بوسقيم). أما المنهج الثاني فهو شكلي، يهدف إلى تطوير الرغبة المعرفية للطالب، وتعويده على ممارسة الجدل الصرف(للبيلوبول) واعطائه الفرصة لاظهار قدراته لاكتشاف/الحيدوش/ (تاويل مستحدث، فكرة جديدة أو على الاقل استدلال اصيل).
وكان معلمنا باليشفاه بالصويرة، وهذا امر اكده اناس آخرون، يطلب على غرار مصلحين آخرين من كل تلاميذه المتقدمين أن يعطوا الاهمية القصوى لسبر أغوار التلمود، وأن

يجدوا لهم منهجهم الخاص في الدراسات الفقهية، معتمدين على مصادر «الكمارا» وأن لا

يولوا اهتماماتهم فقط للدراسات التشريعية التي ليست لها الا آهمية ضئيلة. ولا تشاطر الأغلبية الساحقة من الربيين المغاربة هذا الموقف تجاه المصادر الثانوية. حقا لقد كانت دراسة التلمود في «اليشفاه» أمرا زائدا، غير أن الذي كان يدور حوله الدرس غالبا، هو «شلحات عروخ» ونصوص فقهية أخرى، وهي المصادر نفسها التي يلجأ اليها عندما يتعلق الأم بفتوى فقهية. وتستغرق دراسة النص المختار «مشيخت» (فقرة تلمودية) فصلين من السنة، أو سنة كاملة حسب العرف المحلي. وهذا امر يترك دائماً الى تقدير المعلم. وتتميز نهاية دراسة الفقرة التلمودية باقامة حفل سمي «سيوم» الختم حيث يرتل فيه الطلاب المتفوقون المتفوقون «خيدوشا»، (تأويل مبتكر نص من النصوص) وهي مناسبة توضع فيها معارفهم على محك الاختبار أيام الوجهاء والسلطات الربية، وينتهي هذا الحفل بمأدبة فاخرة.
ويمنح الاعتراف برتبة الربي «سميخاه لرابونوت.. (الاجازة في الدراسات الاسلامية) علنيا ويتم ذلك بمباركة/براخا/ مع وضع اليد على رأس المعنى، كما جاء ذلك في مقدمة مولف كتب في بداية هذا القرن. ويوجد في هذا المجال كذلك احتكار تحتفظ به بعض العائلات القديمة، السرارة، وهذا ما سوف نتناوله في مكان آخر.

6- طرق التعلم:

اننا نجد انفسنا امام مفاهيم عتيقة في التربية وقروسطية لهذه «المدرسة التلقينية»، والتي ترفضها التربية الحديثة. لقد ظلت الطرق التقليدية للتعلم في القرون الوسطى حية تلقى تأييدا في المدارس المسيحية والاسلامية أو اليهودية الى يومنا هذا في الحدر، وفي اليشفاه، ونفس الشيء في المسيد أو المدرسة، وتتمثل في تشكيل ذهنية آلية وعادات تعليمية، حيث يحتل التكرار والاستظهار مكانا هائلا، وتفرض مشاركة كل اعضاء الجسم ايماءات واشارات ونطقا صوتيا في آن واحد حسب التقاليد المتبعة اثناء ترتيل النصوص المقدسة.

ونقرأ في احد المؤلفات النحوية/معاسه افود/لمؤلف اندلسي مغربي بروفيات دوران من القرن الرابع عشر ما يلي: « ينبغي للطفل ان يحرك كل جسمه اثناء المذاكرة والتعليم، لماذا؟ لأنه قيل في موضوع نزول التوراة بطور سيناء «ولما رأى الشعب[طريقة نزول الوحي] ارتعد...». ومن جهة اخرى فان التلفظ نفسه يسهل الحفظ... وتجلب هذه القراءة المرتلة السرور ومتعة التعلم للمتعلم، وتنبه قواه الروحية وتسهل استيعابه، بالاضافة الى انها تساعده على الحفظ.»

وتسير الدراسة على مستوى اليبشفاه بنفس هذه العقلية، ويبدأ دائما بحفظ فقرات من التلمود أو الهلاخا قبل كل شيء آخر، ويدرك المعلم في هذه المرحلة ما يمكن أن يقدمه

الفهم الى الذاكرة من مساعدة، ويعلق على النص،ويضع في حيز التطبيق الجدلية التلمودية ويستعمل كل امكانيات النقاش والمماحكة، غير ان الكلمة الاخيرة تبقى للذاكرة،وينبغي للطالب ان يستعرض امامه مجموع البراهين التي ترافق دراسة سوكيا (كلمة تعني بالارامية الموضوع المحلل) وينبغي كذلك أن يردد كا تلاقاها، ولينطق هكذا أمينا لطرق اجداده بالييشفاه البابلية أو بارض اسرائيل منذ ستة عشر قرنا.

وبما ان مجموع المعارف التي عليه ان يحفظها على جانب كبير من الضخامة وعلى الخصوص في مادة «الهلاخا بسوقاه»،(شرائع واحكام الفقه الربي)،فان المربي يلجأ الى اجراءات جد دقيقة مساعدة للذاكرة. يجتهد ببراعة في وضع المادة المقصود تحصيلها للطالب بيسر، من ذلك وضع الموضوع مختصرا في كلمات وحروف،ونظمه لبعض الاحكام من التشريعات خاصة المتعلقة منها بأحكام «الشحيطة» الذبح الشرعي للمواشي والطيور رجزا أو وضعها في نثر مسجوع، وكل هذه الوسائل تضمن حفظا مهما للموضوع المدروس.

7- البنت والتربية:

اننا نعرف وجهات النظر المختلفة لفقهاء الشريعة فيما يتعلق بموضوع هذا المشكل، والرأي العام السائد في مجموع الطوائف اليهودية. وبما ان البنت غير خاضعة لضرورة المشاركة في القداس،وهو الموضوع الاساسي للتعليم، فهي معفاة من تعلم التوراة او التلمود. وتتم تربيتها الى غاية الزواج المبكر، بين العاشرة والثانية عشرة، في الوسط العائلي، وذلك عن طريق العلاقات والاتصالات مع النساء الاخريات، وهي بذلك لا تعرف لا القراءة. ولا الكتابة، الا في الحالات الاستثنائية النادرة،وينحصر واجبها في السهر على تدابير شؤون البيت والاعتناء به،وإليها تعود مهمة تحمل اعباء الكشروت المأكولات الحلال والعمل على احترام الشرائع والتقاليد المتعلقة بالحفاظ على المظهر الحقيقي للبيت اليهودي، وهي التي سوف تتحمل وحدها دون غيرها تطبيق اكبر عدد من التعاليم والمبادىء المتعلقة بالسبت (بينها اشعال الشموع) وفي الاعياد الكبيرة (على الخصوص في عيد الفصح والبساح) والشعائر ومحرمات الطعام. ولا يمنع عليها بأن تمارس مهنة ما،وتحاط السيدة الخياطة أو الطرازة باستمرار بالمتعلمين، وهي تشتغل لفائدة الزبناء اليهود أو المسلمين (اعداد الملابس، الطرز بخيط الذهب أو الفضة على غطاء السرير،أو الجلد والطرز الانجليزي على انوال صغيرة من الخشب) وتدعى المغنيات والحكواتيات الممتهنات الى اعياد العائلة والنادبات النائحات للسهر على المآتم. وتلعب

النساء كذلك دور/الخطابات/ولقد راينا وظيفة القابلة على ما تمتاز به من تشريف،وهي في الوقت نفسه تتمتع بتقدير في المجتمعات المغربية. ولا تلغى امية المرأة مشاركتها في الحياه الروحية للبيت، ودورها في مجال تربية ابنائها يحظى باهمية كبيرة، ويستحق عدد كبير من النساء صفة (المرأة المدبرة) ايشيت حايل، (انظر الامثال 10,XXXI).

انها روح البيت، وحياته اليومية ومرتبته، وهناك من يمارس منهن الصيام غير المنقطع ستة ايام،مثل الحكماء والمتعبدين والفقهاء الزهاد والذي يسمى بالعبرية(تاعنيت هافسقاه) واللفظ العبري – العربي يشير اليه بالستية – (مدة ستة ايام)،ولهذه التسمية دلالتها. ان الامر يتعلق في الواقع بالانقطاع الكامل عن الطعام والشرب طوال ستة أيام متتابعة،بما في ذلك الليالي.

ويبدأ الصيام يوم الاحد في الفجر،وينتهي باقامة احتفال مناسب وطقس خاص يوم الجمعة مساء مع غروب الشمس وقت دخول السبت. لقد عرفت شخصيا امرأة عجوزا من وسط اجتماعي متواضع، ومهنتها التصبين في البيوت،كانت تقوم بانتظام بالستية،وتحتفظ بجزء مهم من اجرتها لشراء كفنها،وموقع قبرها في مقبرة الصويرة.

وندين بخلق مؤسسات التعليم المسماة–ام الاطفال–ام هاباشيم لامهات من فاس ومكناس وصفرو، ولمبادرة ربي روسي اسمه رابي زيف هابيران اثناء مروره بالمغرب في بداية هذا القرن، وفضلا عن ذلك لم تكن المرأة جاهلة في كل مكان، ففي طنجة وتطوان تتلقى البنت تعليما يسمح لها بقراءة النص العبري للصلوت مع الترجمة اليهودية الاسبانية،ولقد راينا نساء مجتمعات في صحن دار، يخصصن ظهر يوم السبت أو ايام الاعياد،لقراءة فصل من كتاب (معام لوعز)(مجموعة من المنتخبات باللهجة اليهودية الاسبانية، كتبها اسحاق كولي، انجزت أول طبعة من هذه المجموعة بالقسطنطينية سنة 1730). ولذلك لا ينبغي ان نتصور المراة اليهودية المغربية على انها قاصرة ابديا، وفي اطار مجتمع يسيطر فيه الرجل، فهي ليست غائبة كما يعتقد من اول وهلة. وتحظى المراة العجوز في حضارة يعطى فيها للمشيخوخة ولها وحدها حقوقا كاملة من بين كل الذين يتوسل اليهم ويستمع الى ارائهم،بل كان من بينهن من قمن بدور المومنة على الاسرار والمستشارة لامرأة حاكم مدينة كبرى مثل فاس ومراكش والصويرة بل قمنا بهذا الدور للملكة الام بالقصر الملكي بالرباط.

8 التعليم «المستمر» عن طريق الدراشا (ارشاد ووعظ)

يتابع الطفل والمراهق دراسته الى سن النضج، أما المتادب الحقيقي فتستمر دراسته طوال الحياة. وهكذا تعرف المجتمعات اليهودية نوعا من /التكوين المستمر/ عن طريق الوعظ في ايام

الاحتفالات، (السبت وايام الاعياد) والحلقات الليلية التي تتم فيها دراسة التوراة والزهار والموسار (علم الاخلاق الربي) واغاني البيوطيم (الحان صوتية مرتبطة بالشعر) وهي تجري اما في البيـــعـــــة واما في اطار طوائف الصناع أو التجار، أو في داخل زوايا خاصة. ان المرشد الروحي للجماعة سواء كان قاضيا أو معلما في الييشفاه أو شخصا اخر أو صانعا أو تاجرا، فان علمه واخلاقه هو ما يوهله لمثل هذه المسؤولية، ورسالته تهدف الى تثقيف وتكوين مجموع المريدين الراشدين، ويقدم تعليمه على شكل خطب ومواعيظ /دراش لجمهور العامة المجتمعة في البـــيـــعـــــة بعد ظهر ايام السبت أو الاعياد والتي لا تكرس ابدا للراحة والحياة العائلية فقط، ويشرح الواعظ نصا دينيا «درشان» ويحلله، ويعلق عليه ويوضحه بالنوادر التاريخية والاساطير (هكادا ومدراش) ولا يسعى الى تعميق درسه بل هو يعمل على تبسيطه ليكون في مستوى الحضور، ولا يهدف ان ينقل الى البيـــعـــــــة أمام جمهور العامة قضايا النقاش التلمودي للييشفاه، ويمكن ان يكون الواعظ ربيا اجنبيا أو أحد الممثلين لطائفة من الطوائف، أو احد الاحبار المتجولين الرسل الذين اعتمدتهم الاكاديميات/ والطوائف الفلسطينية بشيفوت، وقد سبق ان اشرنا الى هذا.

9- التعليم الليلي:

يدرج التعليم الليلي لدى الطائفة على رأس الانشطة الثقافية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالعبادة والدين، ويعتبر الاحبار المغاربة على غرار كل المشرعين والاوفياء للتقاليد التلمودية والمدراشية كل عمل فكري ينجز بالليل، وكل فريضة درس، تتم في الليالي الطويلة، فضيلة من الفضائل الكبرى.

ومن الامثلة التي تدل على هذا التقليد، نكتفي بسرد الفقرة الاولى من «سنهدرين» 94ب اية (27,X) من سفر اشعياء، والتي فسرت تفسيرا مجازيا زيت حزقيال لدراسة الليلية على ضوء مصباح الزيت وقد حث عليها حزقيال) قد حطمت نير العبودية التي فرضها سنحريب كما فسر المدراش اية من نص اللاويين (2,XXIV) واية اخرى من سفر الخروج (20,XXVII) بان محتواهما صالح لكل الاجيال، ولكل اماكن العبادة، (لا ينبغي أن يغيب ضوء قناديل الزيت حتى لا تنقطع ابدا الدراسة) ويصرح في هذا الصدد ابن ميمون في كتابه (المعرفة) بقوله (لا يكتسب الانسان معرفته الاساسية الا اثناء الليل، وان كان يريد الفوز بتاج الشرع عليه ان يسهر، والا يضيع لياليه في النوم، ويكرسها كلها لدراسة الشريعة وأقوال الحكمة) وتعطى عادة في المغرب دروسا منتظما للعهد القديم (كتاب الانبياء)، خصوصا تلك التي لم يتح تعلمها

في الحدر، أو في (البيشفاه) وشولحان عروخ والتلمود في الهزيع الاول من الليل. وينكب اعضاء الزوايا الذين يطلق عليهم /اخبروت رابي شيمعون بار يوخاي/ اثناء الثلث الاخير من الليل على قراءة الزهار بعد قراءة (نيقون حاصوت)[4] الى غاية الفجر. وتجتمع جماعات اخرى في الساعات الاخيرة من الليل قبل صلاة الصبح لسماع دروس الموسار (علم الاخلاق الربي) التي يلقيها احد الاحبار حيث يقرأ ويترجم ويحلل ويعلق على احد مؤلفات هذا العلم. وتحتفظ الزوايا حبروت بتدريس البيوتيم (الاغاني الشعائرية وحتى الدنيوية) والتي يسيرها معلمون ذائعو الصيت، ومنشدون ونظامون.

ويجتمع المومنون محبو هذه الاغاني حول المعلم ومريديه ليسهروا ليالي طويلة، تقام عادة ليلة ما بين الجمعة والسبت وتستغرق ثلاث أو اربع ساعات قبيل الفجر في اكبر بيعة بالمدينة. وهذه اسماء بعض المنشدين من الجيل الاخير.

داوود بن بروخ افلاح وداوود القيم – وحاييم افرياط بالصويرة وداوود بوزاكلو بالدار البيضاء ونسين نقاب بفاس.

ويغنى البيتان «المنشد» في احتفالات الختان وبار مصواه (بلوغ من الرشد) وحفلات الزواج وايام الاعياد وفي البيعة أو في دور الوجهاء والاغنياء، وهو بذلك يعيش بالعطاءات التي تسلم اليه في هذه المناسبات، ويعد هذا مصدرا ماليا للعيش لا يستهان به. واذا كان الراشدون والصغار والشيوخ يشتركون اثناء الليالي في سهرات الزهار والبيوطيم، وفي دروس التلمود والفقه أو يستمعون باجلال لدروس الموسار (الاصناف) وكذلك اثناء النهار في ساعات الفراغ أو بعد نهاية السوق، فليس من النادر أن تشاهد حلقة دينية في دكان تاجر، أو صانع تتردد اصداؤها في جنبات الزقاق، وهم يناقشون الهلاخا أو يتحاورون حول قضية من قضايا التلمود أو يعلقون على نص من النصوص، أو فقرة من التلمود، وقد يوجد على رف أو تحت طاولة التاجر مكان لفصل من فصول التلمود، أو الموجز من شولحان عروخ أو المقصية (لفظة جارية في اليهودية العربية تطلق على العهد القديم) ويرجع اليها عند الحاجة وبالمناسبة.

ويخصص الرجال الاتقياء الذين يوجد بين ايديهم باستمرار مزمورا من المزامير ما يتاح لهم من الوقت لقراءة نشيد من اناشيد داوود. لقد حضرت اثناء رحلتي الاخيرة الى الصويرة في شهر غشت سنة 1963، في دكان احد تجار خشب البناء، نقاشا تلموديا كان يشارك

4– «نقون حاصوت» قراءة خاصة تتالف من نصوص المزامير وبعض المرثيات ويدور موضوعها حول تحطيم الهيكل بيت المقدس.

فيها جزار ووسيط لبيع الحبوب وربي ، وكان ذلك في ظهر يوم عمل، وفي وقت انهى فيه الجزار اشغاله حيث كان يفتقد زبناءه ليسترجع منهم بعض ما بقي عليهم من ديون.

10– تعليم المهن:

يعتبر تعليم الابن مهنة من المهن،فريضة شرعية، وفي هذا الصدد، نجد الادبيات الربانية غنية بالدروس(5). وعموما يتعلم الولد مهنة والده مثل الصياغة والنجارة، وخياطة ملابس السكان،وصناعة المشط «القرشال» لنقش الصوف الخ... واذا اختار التجارة، فانه يبتدىء بصندوق صغير من الحلوى، يبيعها في احدى زوايا زقاق من الازقة. أو يرافق والده أو أحد اقربائه الى أسواق المنطقة.

ويستمر التعلم طويلا، ويكتسب المتعلم المهنة بمراقبته للصانع وهو يشتغل، وعندما يتعرف على اسرارها يفتح دكانا اذا كانت لديه الامكانيات أو يستمر في خدمة معلمه في نفس المعمل.

ويرتبط التعليم وتعلم مهنة ارتباطا وثيقا في بعض المجالات، كما يوجد بينهما تنافس في مجالات اخرى. ويتم في دكان أو مكتب التاجر، تعلم آلية العمليات الحسابية (الجمع والطرح والضرب ونادرا القسمة)، وصرف النقود،وقد تنتهز الفرصة لتحرير المراسلات، وتعلم مبادىء اللغة العربية الا ان هذا الامر نادرا ما يقع، (قراءة العقود أو الوثائق التجارية) ومن جهة اخرى، يحرص الاباء الروحيون على محاربة التعليم المهني السابق لاوانه، لما له من انعكاسات مضرة بسلامة السير الدراسي. كما لا يمنع تعلم مهنة من متابعة الدراسة، وهكذا يستمر الفتى والراشد في التعلم اثناء الليالي والسبت وايام الاعياد، وكذلك في لحظات الفراغ التي تتركها الاهتمامات المهنية.

لقد حدثني احد كبار العلماء المغاربة –وهو الربي يوسف مساس، وتوفي في اسرائيل منذ بضع سنوات، بعدما احتل وظائف الحبر الاكبر بحيفا– عن اسلوب تعليم زملائه في «الحدر» و«البيشفاه». وأضاف بشيء من الاسف والسخرية، موجزا اية(اشيعاء 13,XXIX) قائلا: «ان تعليمهم ليس الا درسا محفوظا من صنع رجال». ومهما يكن من امر، فان هذا التعليم موجود في كل مكان. ويضمن تكوين مرشدي الجماعة الروحيين، ويوفر لليهودية اجيالا من اليهود المخلصين لعقيدتهم،والمرتبطين بتقاليد اجدادهم. ويمنع اليهودي المحروم من ان يغرق في الظلامية والعبودية.

5– بما انه لا يتم الحصول على اية فوائد مادية من المعارف المكتسبة في «بي-. هامدراش» (المدرسة) فانه ينبغي على الانسان ان يتعلم مهنة ما ليتمكن من تامين معاشه «بيرقه افوت» (فصول الاباء)، ومقالات تلمودية اخرى (براكوت وقيدوشين)

ولليهودي المتعلم والطالب حياة روحية تعزيه عن خيبة معيشة قاسية، وتملأ حياته باستمرار بهذا النور، وهذا الفرح الذي قلما يخطر على بال الملاحظ العادي، وقلما يتنبه اليه الزائر الاجنبي. انه شعور يجعل هذا المواطن العادي في الملاح، يردد مع ناظم المزامير: «هاهنا عزائي في بؤسي»(مزامير 50.CXIX.)

II- زمن التحولات والاصلاحات

منذ العقد الاخير من القرن التاسع عشر، وبينما كان يتابع الحدر القديم والييشفاه العتيق وظيفتهما أخذت الرابطة الاسرائلية العالمية مكانها في المغرب وبدأت تنشر حاملة معها روح ومناهج التعليم الفرنسية والعلمانية، الشيء الذي اثار اولا بعض التحفظات واحدث بعض الاضطراب والبلبلة بين الربانيين واليهود المتشبتين بتقاليد ابائهم، غير ان الجميع تلاءم معها في نهاية الامر.

واكثر من هذا،ان الطوائف التي حفزها نموذج المدرسة العصرية التي أقامتها الرابطة الاسرائيلية العالمية أو تلك التي خلقت عندها رد فعل اضطرت الى فتح بعض انواع المؤسسات /تلمود توراة/ اكثر منهجية من الحدر العتيق،ووضعت بادىء ذي بدء تعليما تقليديا مجددا، واتجهت برامجه بالتدريج الى تخصيص مواد علمية معاصرة. وفي نفس المرحلة بدانا نرى انتشار مؤسسة تعليمية في المدن الكبيرة انشأت بمبادرة من المرأة اليهودية المغربية واطلق عليها لهذا السبب /ام هابانيم/ (ام الابناء).

وأسست منذ الحرب العالمية الثانية منظمتان يهوديتان ارتودكسيتان امريكيتان،تدعى الاولى «أوصار هاتوراه»، والثانية «اهول يوسف اسحاق»، شبكة من المدارس حيث اعطيت الاسبقية للدراسات الدينية في الملاحات والاطلس وتخوم الصحراء،وهي باستمرار كانت تحل بالاخص محل الحدر القديم والتي كانت تحتفظ على مظهرها، ونشير الى ان منظمة اهول يوسف اسحاق المعروفة اكثر باسم لوبافيتش كانت مهمتها تنحصر في ضمان استمرارية تعليم تقليدي،والذي اصبح يفقد مكانه لصالح المدرسة العصرية. وبدأت تنفذ شيئا فشيئا محاولات التغيير والاصلاح في الييشفاه التي لم تعد تجذب الشبيبة التي أصبح يغريها المظهر الجديد كما هو خارج الغيثو. وعلى الرغم من الاجراءات التي اتخذتها السلطات لوقف انتشار الاصلاحات الجديدة،فان الافكار الصهيونية بدأت في التسرب الى داخل الملاح وتجلى ذلك في انتشار اللغة العبرية الحديثة وادابها.

أسس مجلس الطوائف المعهد العالي للدراسات الربية بالرباط،من أجل تكوين قضاة المحاكم وكتاب الضبط وموظفين دينيين اخرين. وأصبحنا نشاهد احياء للتعليم العبراني والديني بفضل مجهودات الرابطة الاسرائيلية العالمية ومسؤوليها،وذلك بتأسيس مدرسة المعلمين العبرية بالدار البيضاء والتي كانت تهدف الى اعطاء اطر لهذا النظام التجديدي،حيث يتلقى التلميذ – المعلم تكوينا عبرانيا متينا وتربية عامة مصادق عليها بشهادات رسمية ليؤدي مهامه الجديدة.

وعندما حصل المغرب على استقلاله بدأ اليهودي المغربي يستعيد علاقاته مع اللغة العربية الفصحى،وقد اكتشف بذلك انسانية جديدة غذاها بواسطة معرفته للغة العبرية الأخت، وبما اكتسبه من تعلمها،كما أغناها بالمعارف العامة التي حصلها معا على مقاعد المدرسة الجديدة.

الزواج

المصادر الاساسية للاحوال الشخصية: الاعراف والعادات

كان اليهود (البلديون) الطوشابيم يطبقون الاحكام التلمودية القديمة، وقد استكملت صيغها وأشكالها على ضوء العادات المحلية، وقد تواقفت هذه الاحكام بعد وصول مهجري الاندلس /الموكوراشيم/ مع الاحكام الشرعية المحددة في التاقانوت القشتالي، والتي نفذت تدريجيا الى الفقه العبراني المغربي، وقد عرفت هذه الاحكام بدورها تطورا تبعا لمتطلبات البيئة وما ساهمت به أحكام شولحان عروخ (تشريع يوسف كارو في القرن السادس عشر) الذي قنن ووحد مابين الاحكام المتعددة والمتناقضة في اغلب الأحيان مع الفقه المطبق سابقا.

وما لبث هذا التشريع المسمى /القشتالي/ ان فرض سلطته لدى مجموع السكان اليهود المغاربة على اختلاف اصولهم.

أقرت المجامع الدينية الكبرى للاحبار بالمغرب، في مرحلة متأخرة عددا من المراسيم والمتعلقة بتوحيد أنظمة الزواج والمواريث.

2 – الخطوبة

تثبت شرعية طلب الزواج (الشيدوخيم) بالعبرية (والخطبة بالعربية) تلك التي تختم بحفلة الخطوبة (عروسين) والتي تسمى باللهجة المغربية ملاك أو الرشيم، بما يقدمه الخطيب لخطيبته من هدايا /سابلونوت/، حيث يلتزم بالتعهد والقبول الصريح بالزواج. وتتضمن هذه الهدايا حلي (وهي سبعة اسورة رمز الاسبوع وخاتما يحمل جوهرة ثمينة وخمارا من الحرير) وتحتوي /صينية الخطوبة/ بالاضافة الى ذلك، على خمسة قوالب من السكر، والحناء والعطور والحلويات والفواكه المجففة (اللوز والجوز والتمر والتين).

ويخضع الالتزام للاعراف والمعاهدات، إذ أن خرقها يؤدي الى نزاعات، مما يدفع بالسلطات القضائية الدينية الى التدخل لمعالجتها، وذلك باصدار احكام شرعية. وهذه بعض انواع الحالات وجدناها في سجلات الطوائف اليهودية الجماعية، خلال القرون الاربعة الاخيرة:

حاولت اسرة ابعاد الخطيب عن خطيبته، إذ انه لم يتمكن الا من تسديد جزء من السابلونوت، قدر بخمسين أوقية من فضة العملة بمملكة فاس، فاراد اهل الخطيبة ابعادها عن

خطيبها بسبب ذلك وتزويجها لانسان آخر، الا ان القاضي ادان هذه المحاولة وهدد اصحابها «بالحرم» /النبذ/-ويسمح بفسخ الخطوبة تحت ضغط اسباب خطيرة، من شأنها ان تمس بشرف العائلة، ومن بين هذه الاسباب على سبيل المثال، اسلام احد افراد الاسرة، وفي حالة ما إذا تواعد أبوا طفل وطفلة على تزويج أحدهما الآخر، فان المحكمة الربية تعتبر وعد هذا الزواج لاغيا، وكأنه لم يكن، إذا ما كبر الولد، ووجد أن تلك الفتاة / الطفلة / التي اختيرت له في صباه لم تعد تعجبه وإذا حدث وتوفي الخطيب قبل الزواج فان أبويه أو أقرباءه لهم الحق بان يسترجعوا هدايا الخطوبة أو اي شيء اخر كان متعلقا بوعد الزواج.

وانه لمن العادة في المجتمعات المغربية اليهودية والاسلامية ان يعين الاباء لابنائهم زوجة المستقبل، وينبغي للشاب ان يتكيف مع اختيارهم، ويحدث احيانا الا تتوافق ارادة الشاب مع رغبة الوالدين، وينشأ عن ذلك نزاعات مثل الحالة السابقة التي نظرت فيها المحكمة بفاس. ولا يحدث هذا الامر بالنسبة للبنت التي لا يطلب منهاراي في مثل هذه الحالة، وما عليها الا ان تخضع لقرار أبويها مرغمة والاب هو الذي يتقدم الى اب البنت مباشرة لطلب الزواج اذا كانت العائلتان تتعارفان ويحدث في اغلب الاحيان ان تسند هذه المهمة الى اشخاص اخرين هذه مهنتهم: الخطاب المحترف والخطابة المحترفة.

وتعرف مجتمعات اخرى بعيدة عن الجو المغربي نفس العادة، ولقد تحدث ميلان كوندورا عن ذلك في كتابه «الفكاهة» بالعبارات التالية «لايكون الشاب المقبل على الزواج صاحب الاختبار ابدا، فهو لايملك حق زواجه بنفسه، فهو لا يتزوج وانما يزوج وهو في هذه الحالة عليه الا يظهر اية رغبة والا يتكلم والاب هو الذي يطنب في الكلام ويعالج الامور، وان كان هذا الاخير في الحقيقة ليس هو صاحب القرار، من اذا؟ انه تقليد الجدود يجتازه الناس واحدا وراء الاخر، ويجره في مجراه السلس،وهنا يصبح كل فرد مشابها للاخر ويصبح الجميع في خضم الانسانية».

لا ينبغي للخطيبين ان يلتقيا اثناء فترة الخطوبة،والا يرى احدهما الاخر، ولا ينبغي للبنت باية حجة ان تظهر في الشارع، وتشتغل العائلتان في تحضير الزفاف : اعداد جهاز العروس كميات المربى والمعلبات التي يتم تخزينها في القرورات الزجاجية والجرات.

3 – الزواج بين النظام التقليدي اليهودي والصداق الاسلامي :

يبارك الزواج وهو تعاقد أساسه التشريع الديني بالمباركة الزوجية اولا،وبالصيغة الشعائرية ثانيا،وهما مظهران لاحتفال شعائري واحد، يكرسان رسميا الاتحاد الشرعي والقانوني

للزوجين، ويتوافق ذلك بما يقدمه الخطيب لخطيبته من قطع نقدية او شيىء ذي قيمة (حليه معدنية)، وعليه يبارك الزواج بالقدوش،(وهي مباركات الخمر السبع) وبالصيغة الخاصة لذلك والتي تحددها العبارة التالية (ها أنت مباركة لي بهذا الخاتم طبقا لشريعة موسى واسرائيل) ويصبح هذا الاتحاد قائما بالاتصال الزوجي والذي يشار اليه عادة باللفظة العبرية / نسوئين / المشتقة من فعل عبري يعني / حمل / الزوجة الى بيت الزوجية، والزواج هو كذلك عقد يتضمن عددا من الاجراءات تحمي المصالح المالية للمرأة بالاساس. ويمكن ان يختار الزوجان وعائلتهما بين مختلف انظمة الزواج وهي : - الصداق او النظام التقليدي والقشتالي. يحدد الكتوبة / عقد الزواج / مبلغ المهر الشرعي الذي يضاف اليه المقدم وحصة الزوجة، واذا ما توفي الزوج او حدث طلاق فان مجموع المقدار المسجل في الكتوبة يعود من حيث المبدأ الى المرأة،والتي تظل تملك من مقدار المبلغ رهانا شرعيا موقوفا على املاك زوجها. ويمكن حسب هذا المخطط للكتوبة،وعلى ضوء كل الانظمة التقليدية او القشتالية ان تضاف باتفاق مشترك بعض التغييرات العامة على شكل بنود،تهدف الى حماية بشكل افضل مصالح المرأة ويحدث ان يحرر المعنيون بالامر، بالاضافة الى عقد الزواج اليهودي / الكتوبة /، عقدا يسمى بالصداق يقدمه الزوج لزوجته ويبرم امام قضاء اسلامي مكون من قاض وعدليين،او من هذين الاخيرين فقط.

وبقيت اثار من هذا التقليد مستمرة الى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر،لدى الطائفة اليهودية بفاس، واشارت اليه مراسيم 1585-1603 على الصورة التالية : «يمكن ان يطالب الأب من زوج ابنته، ان يبرم عقد الصداق امام سلطة قضائية مدنية (اسلامية)، اذا كان يعرف ان صهره انسان غير موثوق به،او تنقصه بعض المصداقية ويترك مبلغ الصداق الى تقدير المحكمة».

ان النظام التقليدي الذي يستمر تطبيقه على الطوشابيم،هو التشريع المتبع عند كل اليهود، وهو يرتكز على التشريع التلمودي القديم الذي تكيف مع الاعراف المحلية اضافة الى «تشريع كارو» فيما بعد.

4 - نظام الزواج القشتالي

ان ما يحكم الخلية الزوجية، او العائلية، فيما يتعلق بالاحوال الشخصية والاملاك، هو مجموع القواعد الشرعية،يحكمها ايضا ما عرفه الميكوراشيم ومهجرو الاندلس في بلدهم الاصلي. ومما يعطي الاصالة للنظام القشتالي ويجعله يراعي بشكل افضل وضع المرأة والطفل داخل العائلة هما الاجراءات العظيمان والهامان اللذان جرى بهما العمل لدى الطوائف المحلية،

ويعتبران من الاجراءات المحددة والمختلفة عن النظام التقليدي التلمودي وهما يتمثلان في خلق مساواة قانونية حقوقية عند فسخ الزواج بسبب وفاة احدهما من جهة، وتحريم تعدد الزوجات من جهة اخرى. وتطبق القواعد التي تحكم المساواة في الحقوق اثناء توزيع الارث عند وفاة احد الزوجين، ويتم اللجوء الى تصفية التركة، وهي عملية جد معقدة. وتتطلب تدخل السلطات الربية، وذلك لعد الاملاك والاموال في نفس يوم الوفاة. واجراء القسمة طبقا للاحكام والمراسيم القشتالية.

5 – الزواج الاحادي والثنائي وتعدد الزوجات

يسمح التشريع التلمودي بتعدد الزوجات في حدود معينة، ويمكن لليهود البلديين ان يتزوجوا باكثر من زوجة طبقا لنظام الزواج المطابق لهذا الحق. غير ان عائلة الزوجة كانت دائما حتى قبل مجيء اليهود الاندلس المهجرين تعمل للحصول على ضمانات تمنع الزوج من تزوج امرأة ثانية. وكثيرا ما كانوا يضيفون في (الكتوبة)، (عقد الزواج) البند الذي يمنع الزوج من التزوج من امرأة ثانية، ما لم يحصل على رضا مسبق من زوجته الاولى. والحقيقة ان تعدد الزواج كان محصورا في حالات معينة، مثل عقر الزوجة الاولى، او عندما تدعو الضرورة الى احترام الوصية الخاصة «الليفرا»، وهي الزام يفرضه الدين اليهودي على كل اخ توفي اخوه بحيث يلزمه بتزوج الارملة التي لم تنجب من اخيه المتوفى، حتى يضمن لهذا الاخير دوام النسل (سفر التثنية 5,XXV).

وتجدر الاشارة الى ان تعدد الزوجات كان عموما يمثل نوعا من الحفاظ على العفاف وعلى الاخلاق، كما كان يمثل نوعا من التسامح، والا فان التشريع كان دائما يميل الى الحد من استعماله وممارسته.

وقد جعلت المراسيم القشتالية المورخة بـ 1494 من البند المانع للتعدد (كان اختياريا) بندا اجباريا، وقد جرت العادة بان تدرجه مع الشرط الذي يفرض على الزوج ان ينال موافقة زوجته مسبقا، في حالة ارادة تغيير مكان اقامته. وقد نص على هذه الشروط في العقود القشتالية كالتالي :

يمنع على الزوج المسمى ... ان يعقد اي زواج اخر ما دام زواجه مع زوجته المسماة قائما، ويمنع عليه مغادرة هذه المدينة ليسكن غيرها بدون موافقتها، والا اضطر الى طلاقها، وعليه ان يؤدى لها حالا وبالتمام، مهرها المؤجل المحدد بـ ... وقد قبل ووافق على هذا العقد كل من الزوجين المسميين تبعا للتشريع الموسوي المعروف بالتشريع القشتالي».

ويبدو ان هذا التشريع اصبح ساري المفعول، دون ادنى صعوبة، لدى اليهود القادمين من شبه الجزيرة الايبرية، مدة قرن، فاختفى نظام تعدد الزوجات، على الاقل، في اوساط هؤلاء. غير ان هذا التشريع سيتعرض فيما بعد الى معارضة الرأي العام، (ويحتمل انهم فعلوا ذلك نتيجة لتاثير اعراف وعادات اليهود البلديين الذين ظلوا اوفياء للنظام التقليدي) الذي سيحصل سنة 1593، تحت شروط معينة، على بعض التسامح فيما يتعلق بزواج زوجتين، وستتبع هذه الشروط سنة 1599، باتخاذ اجراء جديد يسمح باتخاذ زوجة ثانية في حالة عدم انجاب ولد ذكر.

وقد ادت معارضة الاحبار للتسامح المتزايد تجاه تعدد الزوجات،الى تدخل السلطات بايعاز من بعض الاعيان اليهود ذوي النفوذ الذين اتهموا الاحبار بانتهاك حرمة التشريع التلمودي. ولذلك سمح مرسوم ملكي، للرعايا اليهود باتخاذ زوجتين (بل اكثر). ولم يكن امام الاحبار الا الادعان تبعا للمبدأ القائل : «شريعة السلطان هي الشريعة» غير ان الزوجات اللائي أهن، هددن بالخروج عن الديانة اليهودية، فسمح تدخل آخر قام به وفد من الاحبار واعضاء مجلس الطائفة (المعمد)، باعادة الاعتبار لصلاحيات السلطة الربية فيما يتعلق بقانون الاحوال الشخصية. ويبدو ان المرسوم لم يلغ،غير انه ظل بدون مفعول. وحصل فيما بعد اتفاق اتخذ شكل مرسوم مورخ في سنة 1600 ترك للمحكمة الربية حق الموافقة على الخروقات الجديدة الخاصة بمنع الزواج بزوجتين،(يسمح للزوج بتزوج زوجة ثانية في حالة ما انعدم اي نوع من المعاشرة الزوجية «العلاقات الجنسية»،او اذا اتضح بأن الزوجة لم تعد ولودا،ولو سبق لها ان انجبت ذكورا) . ويعد هذا الخرق لتشريع اهل الذمة (اليهود) على يد التدخل السلطاني في هذا الموضوع الاول من نوعه في تاريخ الطائفة اليهودية، وقد دفع الخوف من ان يشكل ذلك سابقة خطيرة تدفع بالفرقاء المتنازعين في مثل هذا النوع من النزاع الى ايجاد تسويات تلائم ما يودون فرضه من رغبات. وهكذا فقدت المراسيم الاولى لسنة 1494-1497 والتي تحرم الزواج بزوجتين تحريما مطلقا فعاليتها.ووجد مجلس الاحبار نفسه عمليا مضطرا الى الموافقة او المصادقة على مجموعة من الحالات،فرضها الامر الواقع وذلك بالالتجاء الى تبريرات تتخذ شكل حيل قانونية،لحالات خرقت بوضوح كامل الابراءات السابقة للمراسيم القشتالية.

ويقدم لنا التشريع اللاحق في هذا الصدد عدة امثلة :

1) يسمح بالزواج بزوجة ثانية في حالة عقر الزوجة الاولى.

2) ضمان ممارسة زواج السلفة (1).

1) زواج السلفة = اذا مات زوج عن زوجته دون أن ينجبا اطفالا، فان اخاه الشقيق أو أخاه من أبيه، يتزوج زوجته، ولا تحل لغيره ما دام حيا الا اذا تبرأ منها. المترجم.

3) اذا وجد الزوج بعيدا عن زوجته الاولى،ويصعب عليه الاتصال بها لاسباب قاهرة (طرق مقطوعة او غير امنة).

4) اذا كانت الزوجة الاولى مريضة،مما يعسر معه اقامة علاقات زوجية طبيعية.

لقد احتفظ الطوشابيم بمقتضى نظامهم الخاص وعلى الاقل نظريا بحرية اخذ ما ملكت أيديهم من النساء و لم يخضعوا للمراسيم القشتالية. وتعرضت وثيقة في هذا الصدد «الى ان سكان البلد الاصليين الطوشابيم ،كانت من عادتهم ان يطلقوا زوجاتهم،عندما يجدون امرأة اخرى اجمل، وان يتزوجوا امرأة ثانية،ولو كان لهم اولاد مع الاولى». وتعد ظاهرة تعدد الزوجات نادرة (ثلاث او اربع زوجات)،ومع ذلك نجد بعض الحالات في القرن السابع عشر،عرفتها المحاكم الربية اثناء مواجهتها لاحدى قضايا الارث.

6 – شعائر الزواج وحفلاته

تجرى حفلة الزواج على ايقاع من الاهازيج، في لحظات متتابعة من المتعة، وتبلغ أوجها في يوم من ايام الاربعاء، وهو يوم / البركات السبع / باقامة شعيرة تعرف بألف عملية وعملية، وهي فترة تستمر فيها الاحتفالات وتدوم ثلاثة او اربعة اسابيع، وأقل ما تستغرقه ثمانية ايام،تتنوع بهرجتها وبذخها وأبهتها حسب امكانيات العائلات وتباهيها. وتجدر الاشارة انه باستثناء الاجراء المزدوج «للكتوبة» والقدوشين(المباركة)فاننا نجد انفسنا امام مجموعة من الممارسات والعادات والاعراف،وهي مجموع اشكال من الشعائر، تكتسي طابعا مقدسا او رمزيا،وتنتمي الى محيط سحري – طقوسي،حيث تلتقي كل المجتمعات المغربية بغض النظر عن اصولها الاثنية او الطائفية،سواء كانت عربية / بربرية ام يهودية / اسلامية... انه عالم ثقافي و/ ملتقى مشترك / انتروبولوجي حيث تلتقي مجموعات انسانية من الاهالي الاصليين على عتبة رهبة من عالم تحكمه اسرار الجن،مملكة تتملكها قوة خارقة. ذلك ان فترة الزواج تعتبر مرحلة خطيرة جدا وصعبة،مثل كل منعطف من منعطفات الحياة، وينظر الى الزوجين على انهما شخصان قابلان للتعرض لادنى اذى، ومهددان بكل انواع الشرور والاذية،وكل العمليات السحرية الموذية وعلى الخصوص «الاثقاف» او «الرباط». ويهدف هذا النوع من السحر «التثقيف» الى خلق، حالة من العجز الجنسي ومنع الاتصال الجنسي، وعليه ينبغي حماية الزوجين بالتعاويذ والتمائم والشيمروت،/ كتابات سحرية / شبيه بتلك التي «تحفظ» الام وطفلها عند الولادة. وينبغي كذلك جلب البركة والسعاده والنجاح للزوجين، وهذه العادة معروفة في المجتمعات العربية الاسلامية.

وهنا يكمن هدف الطقوس المتعددة والمتنوعة،والتي تكون مصحوبة دائما بالموسيقى والاغاني والرقص ايضا، مما يقوي طابع السحر فيها، وبالقصيدة والعروبى باللهجة العربية والبربرية،والاغاني الاسبانية الخاصة بالطوائف الاندلسية ذات الاصل القشتالي،وعلى الاخص البيوطيم،وهي قصائد العرس المكتوبة باللغة العبرية،وقد اصبحت جزءا من طقوس الاحتفال بالزواج،وتغنى في البيعة،او اثناء القداس الذي يقام في بيت العروسين الجديدين.

ولا يسعنا هنا الا ان نشير باختصار شديد الى بعض العلامات الدالة والسمات البارزة الخاصة بهذه المراسيم الطويلة والمعقدة،التي تختلف عناصرها،وتتنوع من مدينة الى اخرى او من ملاح الى اخر.

تبدأ الاحتفالات في السبت الثاني السابق ليوم الزواج الحقيقي، والذي يتم في يوم الاربعاء،ويسمى هذا السبت بسبت الرشيم (سبت التعيين او الاشهار)،ويحتمل انه سمي بهذا الاسم،لان الخطيب وهو / سلطان / ويطلق عليه بالبربرية اسلي، يعين في هذا اليوم وزراءه اسلان بالبربرية جمع (اسلي)،ويسمى رفاقه ايضا «باحوريم» بالعبرية،وبالعربية العزارة،وتعني هذه المفردات «فتيان وعزاب».

والخميس التالي،هو يوم ازموميغ وهذه اللفظة بربرية،نجهل اشتقاقها واصلها،وهي تطلق على احتفال تكسر في أثنائه بيضة على رأس الخطيبة،حيث يسيل السائل على الشعر المسدل، وتبلل الحاضرات ايديهن واحدة بعد الاخرى،في اناء من الحنة،ويضعن العجين المعطر على رأس العروس،حيث يشد الشعر فيما بعد بقماش من القطن الذي ينبغي ان يحتفظ به كما هو، الى غاية يوم الثلاثاء «يوم الحمام والحنة»،ويسمى عادة يوم السبت التالي بسبت ايسلان (سبت الملك ووزرائه) وهو يوم يتميز باجتماع العروسين واصدقائهم من العزاب. ويتميز كذلك ايسلان في مدينة الصويرة بهدية نقدية تقدمها العائلة والاصدقاء لاباء الخطيب، ويسمى احيانا هذا السبت بسبت الرأي (سبت التداول والمشورة). ويتم في يوم الاثنين التالي

/ اداء اليمين / (نهار شيفونعا) او (نهار فينيان)،ويتعلق الامر هنا بالفاظ عبرية، شيبوعاه / اليمين / وحنيان / التملك الشرعي، عقد التملك ويحرر عقد النكاح ويصادق عليه قبل حفلة الزواج، والعقد عبارة عن تعاقد رسمي يقوم به «السوفر» العادل،وهو الذي يمثل السلطة الربية وتشمل (الكتوبة) عقد النكاح (قنيان شطار وقنيان سودار في آن واحد. الوجه الاول هو التملك بعقد عدلي شطار، وهو الوثيقة التي يسلمها الخطيب بيده لخطيبته،ويحتفظ بها الاباء بعناية فائقة. ويلتزم المعنيان في نفس الوقت بقنيان سودار (العقد الرمزي للتملك) اذ يعلن الخطيبان عن قبولهما للشروط المسجلة في الكتوبة،وهما ما سكان لمنديل (سودار). يسطه

لهما العادل،ويجسد هذا الامساك اتحادهما. ويضاف الى هذه العملية الرمزية،رموز اخرى، كما انه يمكن تغييرها بغيرها،ففي فاس مثلا يمنطق الخطيب بثوب ابيض،يلف حوله سبع مرات وهو نفس الثوب الذي حملته الخطيبة فوق رأسها عشية اليوم المسمى بـ/ نهار الطرف الابيض /.

وتعرف مجتمعات اخرى نفس العملية،وهي التي تحدث عنها جاك سوستيل Jaques Soustelleاذ يشير الى ان الازتيك يعقدون في هذه الحال معطف الرجل وصدار المرأة الشابة...

حدد مقدار الكتوبة بتاقناه مؤرخة في سنة 1497 بمقدار ادناه عشرين اوقية فضة موزعة حسب العادة ما بين «توسيفت» «اضافة على المهر الشرعي»،والماتاناه «هدية ثمينة من الزوج» وندونيا المهر - (الجهاز وما الى ذلك) اضافة الى مائة زوز،(الزوز هو قطعة نقدية من الفضة القديمة تذكر بالعهود التوراتية وما بعد العهود التوراتية مباشرة وهي تساوي ربع شاقل وتبلغ قيمتها حوالي 3،5 غ من الفضة مهرا للعذراء،ومائة زوز مهرا للارملة والمطلقة.

وليس لهذا القدر حد اقصى، وهو يتنوع حسب ثروة الخطيب،وما تشترطه الخطيبة وعائلتها،وتبعا لواقع المرحلة والظروف الاقتصادية. يذكر قاضي محكمة فاس يعقوب ابنسور في نهاية القرن السابع عشر،الى ان العادة قد جرت عند بعض العائلات على تسجيل مقادير خيالية في(الكتوبة)للتباهي والتفاخر، فقد سجل مثلا في فاس 5000 اوقية في فاس و15000 في سلا،و18000 في تطوان، وقد نبه / مجمع الاحبار / باستمرار المعنيين بخطورة هذا النوع من الممارسات التي ينتج عنها نزاعات خطيرة عندما يتعلق الامر بتصفية الكتوبة عقد النكاح والذي كان يقدر بالملايين من الفرنكات، الى غاية السنوات الاخيرة (حوالي 1940-1950) .

يكون احتفال تقديم اليمين مصحوبا بالذبيحة،وتقدم البقرة التقليدية في موكب كبير داخل صحن الدار، وتكون مزينة بحلي النساء وبمنديل من الحرير والجواهر والاشرطة والورود الخ... ويذبح الشوحيط وهو / مامور / رسمي لهذه الوظيفة البقرة شرعيا،ويستعمل لحمها لتحضير عدد من الطواجين تقدم للضيوف.

ويتم حمام العروس الذي يمثل الشعيرة الرئيسية للطهارة،يوم الثلاثاء بعد الظهر، في صهريج الجماعة المخصص لهذا النوع من الاغتسال في الملاح، وهو كذلك مناسبة لمجموعة من الممارسات السحرية،الهدف منها حماية العروس من القوى الشيطانية الغيورة من سعادتها.

وترمي اكبر النساء من اللواتي يصاحبن العروس، في ماء الصهريج.قربانا للشياطين / شديم /.وهو عبارة عن طبق من المربى.وكاس من الخمر ومشط وخضاب ثم يغسلوا رأس العروس، وكل ما يسقط منه من شعر وحناء وفضلات البيض، يخلط بالسكر والقمح.ويوضع في سرة من القماش.ويحشى في فراش الزوجية.وبمجرد ما تعود العروس من الحمام،يمشط شعرها،وتغير ملابسها،وتتزين وتتعطر، وتتحلى بالجواهر الثقيلة،من الفضة والذهب،لتكون مستعدّة للاحتفال الكبير، المسمى حفل الحناء الذي يتم في عشية يوم الثلاثاء / ليلة الحناء / او الليلة الكبيرة».

وتفتح مراسيم احتفال العرس في يوم الاربعاء / بالبركات السبع /،وتلاوة (عقد النكاح جهريا)، ففي هذا اليوم تلتحق الزوجة ببيت الزوجية، ولكي لا يكون الزواج لاغيا لابد ان يتم الاحتفال بحضور عشرة افراد من الذكور البالغين «المنيان»، والمنيان هو اكتمال النصاب اي عشرة من البالغين،يشترط وجودهم أثناء عقد الزواج،وهو نفس العدد اللازم لصلاة الجماعة، ويلزم أن يكون من بينهم حبر وقاض،او احد اعضاء المعمد (مجلس الطائفة) «إن أيا كان تزوج بحضور شاهدين فقط تفرض عليه غرامة،يترك تقديرها للنكيد (أمير او رئيس الطائفة)» وللقضاة، ويسجن اياما بما في ذلك ايام السبوت والاعياد الى ان يوافق على الادلاء بعقد الطلاق للزوجة. واذا وافق الاباء على تزويج بنتهم له فان عليه على الاقل القيام باجراءات الطلاق الشرعي،قبل زواجه بها من جديد مراعيا احترامه للشرع، وتتخذ اجراءات كذلك ضد الشاهدين،وهي عقوبات جسدية وغرامة مرتفعة تقدر ب(50 اوقية من الفضة) والى عهد قريب، لم تتوقف المحاكم الربية عن ادانة هذا النوع من الزواج،/ زواج على عجل / ومقاومة عناد بعض الأوساط التي تطبق التعاليم التلمودية المتسامحة جدا في هذا المضمار، والتي تسهل امكانية تحايل المدعين الذين يحاولون استغلال ثقة البنت بالتامر مع شاهدين من هذا النوع.

وبعد حمام التطهير (طبيلة)،وبعد القيام بشعيرة خاصة يقودها احد المغنيين، حيث تعد المقطوعات المغناة اكثر اهمية من الشعيرة ذاتها، يرتدي العريس كسوة الاحتفال،وهي لباس محلي يتكون من سروال عريض وصدرية / بدعية / مطرزة ومزينة بأزرار من الحرير، وسترة طويلة (زوخا) مشدودة على الخصر بحزام من الحرير. تستوي العروس على كرسي الزوجية (تالامون) وهي كلمة من الاسبانية – تالامو talamo تعني اريكة،وهذا عرف حمله الموكوراشيم معهم من الاندلس،(مهجرو قشتالة) وتكون معطرة ومزينة بالذهب والاحجار الكريمة،متالقة في كسوتها البهية، ويطلق على هذا اللباس الفاخر الزاهي،(الكسوة الكبيرة) والتي تتكون قطعها من : صدرية مخملية مطرزة بالذهب (كتف) وصدار مخملي احمر رماني

او اخضر مزين باشارات مذهبة،وازرار فضية (الخونباج)،وتنوره مخملية من نفس اللون (زلطيطا)،مزخرفة بأزرار مذهبة،حيث تختفي بداخلها عدد من التنورات (صايات)،وحزام عريض ومقوى من المخمل المطرز بالذهب واللؤلؤ (حزام او مضمة)،وبلغة مطرزة بالذهب (الشربيل)،واكمام واسعة من الحرير المطرز (اكمام وتشميرة)،واكليل مثقل بالجواهر والزمرد والياقوت،وقطع من الذهب الخ... (خمار او سوالف) ووشاح من الحرير الرفيع،يشد الشعر (فستيل)،وخمار من الحرير الابيض او الاخضر / سبينيا / يغطى بحجاب شفاف ابيض (البولو من الاسبانية (فيلو) يدلي على الوجه، وليس في متناول كل الناس في الملاح هذا النوع من اللباس،الا ان بعض العائلات الغنيات كانت تملك منه نماذج تعيرها لمن لايستطيع اقتناءه.

تحدد (الكتوبة)على رق جديد،ويزخرفه ناسخ موهوب،وهي صورة من صور الفن اليهودي، ويقرأها حبر،او احد المتادبين من العائلة علانية،ويتلو البركات السبع شخص آخر، يشرب العريس / الحاتان / الخمر المبارك،ويقدم للعروسة / كالاه / لتشرب منه ايضا،ويكسر الكأس من اجل التذكير بخراب هيكل القدس، وينتقل فيما بعد لاجراء الشعيرة الدائرية (الهاقافوت) والتي تتضمن القيام بسبع دورات في صحن الدار، ثم تحمل العروس في موكب الى مسكنها الجديد لتقضي فيه الليلة الاولى هاته،والتي يطلق عليها ليلة الراحة،ويصوم العريس ولا يفطر الا في المساء حيث يتناول وجبة شعائرية يتقاسمها مع زوجته،وهي وجبة متبلة جدا،/ حضرت خصيصا لهما تتضمن حماما محشوا باللوز والزبيب /. ويعتبر اليوم التالي،

نهار الصباح، (الصباح الاول) يوما هاما في الحياة الزوجين. واذا كان «الصباح» يعني حرفيا الصبيحة،فان اللفظة تعني كذلك الثوب / القمشا / الملطخ بالدم،وهو البرهان الساطع على عذرية وطهارة الزوجة، انه شرفها وافتخارها واعتزازها،وتطلق لفظة «الصباح» على هدية العرس النقدية، الهدية التي يتلقاها العروسان من الاصدقاء والاباء الاقربين والابعدين، تستمر مراسيم العرس،وهي دائما مصحوبة بالاحتفالات في الايام التالية : (سبت العروس) و(نهار الربطة)،وفيه يشد الرجل المرأة بالحزام (المضمة)،ويطأ قدمها، ويوم الاربعاء (نهار الحوت) واليوم السابع للعرس،يمثل يوم الخروج الاول للعريس،حيث يذهب الى الحدائق المجاورة بعد صلاة الصبح،مع جوقة من فتيان الشرف وعائلته واصدقائه،الا ان مساء هذا اليوم يتميز بطقس له دلالة كبرى،اذ فيه تقدم للعروسين سمكتان من الشابل،او اي نوع اخر من السمك :

ومن ينتهي منهما قبل الاخر من تقطيع وفسخ سمكته، هو الذي يفرض ارادته في تدبير شؤون المنزل،ولا يخلو هذا الاختيار مع ذلك من بعض التحايل،مراعاة للحساسيات المشروعة لكل واحد من المنافسين، ويعرض فتيان الشرف في (سبت الندامة) مسرحية درامية،يسخرون بها من الزواج.

وتتميز «تونابودا»، وهي كلمة اسبانية Tornaboda التي تعني / عودة العرس / باول حمام شعائري، تقوم به الزوجة بعد الزواج، وتشكل هذه العملية نظام مراسيم العرس، ونهاية فترة الافراح التي رافقته.

7 - قصائد العرس - شعر واغاني الاعراس

تشكل اغاني الاعراس المنظومة باللغة العبرية والمدرجة هنا، جزءا من المجموعات الشعرية القديمة التي تحمل عناوين مستوحاة من التوراة، ومن سفر ارميا نبي المراثي، بل وحتى من مراثيه، مع ما في ذلك من تنافض كبير، انها ابتهاجات العروسين : «صوت الاستبشار، وصوت الفرح صوت العروس والعريس»، وتذكر احدى القطع ذات لازمة، وهي منتشرة جدا في مجتمع المغنين / المنشدين المغاربة، وفي منتخبات الشرق والغرب الاسلامي، بسناريو نشيد الاناشيد، ولقد تمكنا من تسجيل نص موسيقي منها، مغني سنة 1957، قام بادائه اداءا رائعا المغني المغربي المشهور الربي دافيد بوزاكلو، وهو يبدأ بهذا السطر الملحن :

انه زمن الحب واللوعة، تعالى يا خطيبة الى حديقتي، ازهر الكرم، وبرعمت رمانة.

تدور المواضيع الأساسية مثل معظم الشعر العبري الخاص بشعر المناسبات، سواء في المقطوعات المغناة بمناسبة الختان «بريت ميلام»، أو تلك التي تكرس «لبار مصوا»، حول الاهتمامات التعليمية، وهذا ما يهيمن على المقطوعات الشعرية الخاصة بالزواج والتي تخلد اتحاد الزوجين «الحتن» و«الكاله» ويشكل مواضيعه التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا الطقس الخاص الذي يميز هذا الاحتفال وما يرافقه من مظاهر مختلفة.

يوجد عدد هائل من اشعار واغاني الاعراس التي وضعها شعراء مغاربة، ويعود سبب ذلك بدون شك، الى طول الفترة التي تستغرقها حفلات الزواج، والشعائر المتعددة التي تميز اسبوع اعتزال الزوجين الجديدين : تلك الفترة التي تلي مباركة الزواج، ويمنع الزوجان خلالها ان يغادرا بيت الزوجية.

تحتوي منتخبات يعقوب ابنسور، وهو شاعر من شعراء فاس (القرن 17، 18) على ثلاث وعشرين قطعة، جمعت تحت عنوان / بركات حاتانيم / (مباركة العروسين)، وقد اعدت اغلب هذه المقطوعات، وهي عبارة عن مقدمات / ريشويوت / لكي تفتتح بها تسابيح الحمد والصلوات التي تتلى بعد الوجبات، ومختلف القطع التي تتلى اثناء صلاة الصبح او الغروب، وخاصة تلك التي تفتح بها كل أية من آيات الدرس الديني المخصص للعريس. (التكوين (7-1XXIV) والاغاني المصاحبة له عندما (يصعد الى منبر البيعة / سوفر / وتتغنى احدى هذه المقطوعات الاخيرة، وهي من نوع الموشحات، بملذات الحياة الزوجية وهذا مقطع منها :

من طعام لذيذ المذاق، تلتذ به روحك دائما
من قمح المن،ومن عسل،ومأكل شهي.

ونذكر من بين هذه المجموعة مقدمة شعرية يدعى مؤلفها انه وضعها في الحلم،وقد خص المقطع الاول،وقصيدة طويلة ذات طابع صوفي بالعروس،تمثل هنا وكما هو الشأن في رمزية /القبالة/،تارة التوراة وتارة جماعة اسرائيل المتحدة في الله حبيبها ويحمل النص المستخدم كمدخل لهذه المقطوعة دلالة كبيرة في هذا الصدد،وهي كما يلي : «انه صوت حبيبي ها قد وصل كما هو، مثل زوج منتصب امام زوجته يخاطب قلب البنت الصبية، عذراء اسرائيل عن ميثاق الزواج» ويليق بنا ان نذكر كذلك قصيدة عرس،لها غاية تعليمية نظمت «لموكب الزواج».

ويعود عرف اجراء التقديس الشرعي للزواج عند اهل العروس قبل مرافقتها في المساء الى منزل زوجها الى تقليد قديم يبدو انه كان خاصا بعائلات الموكوراشيم الاندلسية الاصل. ومهما يكن من امر، فان حمل العروس في موكب التطواف يتقيد بمظاهر دقيقة،ويخضع الى شعائر معينة،ويصحب السير البطيء بالموسيقى والغناء. وعندما يكون الزوجان من عائلة الاعيان او الاحبار، فان الاحتفال، يأخذ طابعا رسميا جدا،ويعود شرف اجتياز العروس عتبة منزل اهلها الى القاضي الاول بالمحكمة الربية /. يبدأ الموكب بانشاد اغاني الأعراس العديدة والمتنوعة،والاناشيد التي حددتها الشعائر منذ تاريخ طويل،او الالحان المقتبسة من التقاليد البلدية واللغة القشتالية او اللهجة اليهودية / العربية التي اغنت على مر الاجيال فوكلور الزواج ، قد ينظم قصيدة العرس بالمناسبة شاعر محلي مشهور ويغنيها هو نفسه بصحبة تلامذته.
وتنتمي قصيدة العرس التي نتعرض لها هنا الى هذا النوع من الانتاج الادبي.

ونجد شاعرا،كان قبل كل شيء أبا روحيا للطائفة (إذ كان رئيس المحكمة الربية بفاس) وهو بهذه الصفة حارس من حراس الشرع والتقاليد، انه يعقوب ابنسور الذي جعل من شعره /بيوط / منبعا للحكم المسجعة، التي تعظم القيم الاخلاقية الدينية اليهودية، وخطيبا باعثا على التقوى،معددا الأوامر والوصايا التي أصبحت المرأة ملزمة بها في بيتها الجديد مثل: «مناسك الطهارة والاغتسال والحمام الشعائري واستعمال الانوار المقدسة،وعشية يوم السبت،والحفاظ على عجين الخبز الرمزي،وذلك بازالة «الحالاه» (جزء مخصص للحبر الاكبر في عهد هيكل القدس) وكذلك الحفاظ على فضائل الحشمة،والعفة والاحسان والحلم وواجب الرأفة،ومساعدة المعوز الذي يدق بابك الخ...

وإذا هي امتثلت لهذه الاوامر، فانها تستحق ان تعطى ذرية من العلماء ترث البركة الالهية، وسيكون غير مجد أن نعيد تقديم هذه القصيدة التعليمية إذ أن خطوطها العريضة بارزة هنا، وفي المقابل نقدم النص الكامل لمقطوعات شعرية جميلة سبق ان تعرفنا على البيتين الاولين منها، وهي مهداة مجازا للتوراة والى جماعة اسرائيل، وهي تغنى كدلك في مناسبة تسمية البنت المولودة،والمباركة الزوجية «سمحة تورا» و(فرحة التوراة)،وفي العيد الذي يصادف اليوم التاسع لسكوت:

غزال ناعم، حلوة انت
في جمالك الفاتن،فيك انت يا بنت
قوة اساطير الاجداد اتحدت
قومي، هذه ساعة نورك وبهائك قد حلت
قومي،هللي،غني أغاني الطرب
قومي،وتزيني بتاج الملك
والبسي رداءا قرمزيا هبت لك
واقمصة من نسيج مزركش بخيوط رفيعة وديباج

انت من بين كل البنات
اجمل منك لا
انت اكثر بهاء وجمالا
انت مشدودة من عصور خالية، بسلاسل حبك

وها كل العذارى ينشدون هناءك
على نغمات الطبل والقيثارة
والدف والمزمارة
ايتها البنات، ماذا تقلن عن عشيقي؟
انا لعشيقي،وعشيقي لي
لاعشق،لا غرام له،الا عشقي وغرامي

انت الكافور، انت العبير والشذا
وانت الرخام وانت الزمرد
انت لؤلؤ يتلألأ من البريق شعلة
عيناك انت، عيناك تقذفان بالسيوف والرماح
واسنانك انت، اسنان من البلور
وخدك انت خد جنان من الرمان
وها هو قوامك، لا اروع منه في النخيل
يا انت يا اجمل وردة، من بين الورود

وتحظى الموسيقى الاندلسية في المجتمع اليهودي المغربي بحب واعجاب كبيرين. إذ ينشد المنشدون «البيوطيم» على نغماتها، ويغنون على الحانها الشعر العبري الديني، أو ذاك الخاص بالمناسبات الكبرى، في الحياة العائلية، مثل الختان وحفلة بلوغ سن الرشد، وحفلات الاعراس بطبيعة الحال. وسنتحدث عن العلاقة الموجودة بين الموسيقى والشعر، والتقاليد الموسيقية اليهودية المغربية، في الفصل الذي خصصناه للحياة الفكرية في مؤلفنا هذا.



IV - الطـــلاق

تفسخ الرابطة الزوجية بوفاة احد الزوجين،أو بطلاق مكتوب، يملك الزوج وحده من حيث المبدأ حق التصرف فيه. وظلت المحاولات جارية عبر العصور، وبمختلف الوسائل للحد من ممارسة هذا الحق الاحادي الجانب الذي يعطيه بوضوح التشريع الربي التقليدي للزوج، حماية للمرأة ونصرة للاخلاق الحميدة.

ويبقى هذا الحق على الأقل مجحفا، ويمكن أن تكون أسباب الطلاق التي يقدمها الزوج، ونادرا ما تطرحها المرأة، على قدر كبير من عظائم الامور الى توافهها ، منها:

- الزنا وهو أحد الاسباب الخطيرة، وبسببه تصبح المرأة محرمة عن زوجها الذي عليه ان يسلمها عقد الطلاق /كيت/. وتصبح محرمة كذلك على العاشق الذي تفرض عليه ذعيرة بالاضافة الى انه يصبح معرضا الى عقوبة النبذ من الديانة اليهودية إذا ما اتصل بها من جديد.

- الامتناع عن المعاشرة، وهو السبب الثاني للطلاق، ويكتسي عدة مظاهر منها: رفض الزوجة للعلاقة الجنسية، وادعاؤها احيانا بانها ضحية سحر، أو مغادرتها لبيت الزوجية. وإذا كان الزوج هو المتهم برفض المعاشرة فان السلطة الشرعية تقضى لغير صالحه بالطلاق، ويجب عليه ان يسلمها عقد الطلاق وان يؤدي مجموع ما عليه من حقوق حسب اتفاقية (الكتوبة) (عقد النكاح).

يعتبر العيب أو العاهة من بين اسباب الطلاق أيضا، وبالاحرى العقم ،وتختصر الفترة الزمنية الشرعية للتيقن منه، من عشر الى سبع أو خمس سنوات، ويمكن ان تحصل الزوجة بدورها على الطلاق إذا كان الزوج مصابا بعجز جنسي.

وتتناقض الاحكام فيما يتعلق برفض مصاحبة الزوجة لزوجها في سفره.

وإذا ما رفضت الزوجة مصاحبة زوجها لاضطراره البحث عن العيش في مدينة اخرى فان الضرورة تفرض عليها الخضوع لقراره على الرغم من الاتفاق المكتوب في /الكتوبة/ الذي ينص على: « انه ينبغي على الزوج ان يحصل على موافقة زوجته في حالة ما إذا أبدى رغبة في تغيير محل اقامته» .

وحدث عكس هذا في حالتين اخريين اذ حصلت فيهما الزوجة التي رفضت أن تسافر مع زوجها الى فلسطين على الطلاق، اضافة الى القدر المنصوص عليه في عقد النكاح جزءا أو كلا.

ولقد وقفنا على حالات متطرفة في مجال الطلاق، مثل الزوج الذي يطلق زوجته لانه وجد امرأة اخرى اجمل منها، أو لأنها اهملت الواجبات البيتية.

يطبق قانون السلفة «الليفرا» في المجتمع المغربي طبقا لاوامر التوراة، اذ يفرض على أخ المتوفى أن يتزوج زوجته هذا الاخير اذا لم يترك ذرية (التثنيه 5,XXV).

وتعتبر «الحاليصا» (ازالة الحذاء) نوعا من انواع الحلول لمشكل زواج امرأة المتوفى من أخيه، وتحظى غالبا بتشجيع السلطات القضائية. ومن حيث المبدأ فان الاجراء هو الذي يفرض القانون على الاخ الذي يرفض الزواج بامرأة اخيه المتوفى. وهذه من التعاليم التي تعود الى العصر التوراتي وكما جاء في سفر التثنية، (فتتقدم اليه امرأة أخيه بحضرة الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتتفل في وجهه وتجيبه قائلة، هكذا يصنع بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه، فيدعى في آل اسرائيل بيت المخلوع النعل)(التثنية 10, 9, XXV)، إذا كانت الزوجة ميسورة نسبيا، فان الطلاق يخضع تحت طائلة عدم الكفاءة الى اجراءات متعددة، تتخذ آجالا طويلة، مما يتيح للزوج فترة للتفكير، قد تجعله يتراجع عن قراره السريع الذي غالبا ما يكون ناتجا عن خلاف بسيط، أو غضب في لحظة عابرة. ويخضع تحرير عقد الطلاق الى ضرورة اتخاذ احتياطات دقيقة سواء فيما يتعلق بشكله أم نص عباراته، وكتابة أسمائه بدقة، ويعود سبب هذه الصرامة الشديدة لابعاد كل امكانيات الطعن في صحة عقد الطلاق، وبمجرد ما يتم تحريره يسلم للمرأة. وفي الواقع إذا تزوجت المرأة المطلقة مرة ثانية، وإذا ظهر ان عقد الطلاق الذي حررها من زواجها الاول، به عيب من العيوب، فان زواجها الثاني يعد زواج زنا، ويعتبر الاطفال الذين ولدوا منه أطفالا غير شرعيين.

ويثير أحيانا موضوع تصفية (الكتوبة) أثناء اجراء عملية الطلاق الخاضع للنظامين التقليدي والقشتالي، وكذلك نتيجة وفاة الزوج الخاضع لسيادة التشريع التلمودي ، عدة صعوبات ومشاكل، على الرغم من قوة صحة العقد المكتوب، وفي الواقع فانه ينبغي مراعاة الاعراف والتقاليد التي تتداخل كذلك في مثل هذه الحالات.
وسنتعرض هنا سريعا لقضيتين مرتبطتين بهذا الموضوع وهما:

1) وضع العاكونة 2) وضع المرتد (ما يطلق عليه بالعبرية مومار أو مشماد)

– العاكونة هي الزوجة المرتبطة بزوج غائب اختفى اثناء سفر من الاسفار. ويكون في اغلب الاحيان. ضحية مغامرة فقد فيها حياته، وفي هذه الحالة يستحيل على الزوجة ان تتزوج ما لم يقم الدليل القاطع على الوفاة. وظلت قضية العاكونات الناتجة عن موت محتمل، غير مثبت، من القضايا الحادة، وعلى الخصوص في بلد مثل المغرب، بسبب انعدام الامن في الطرق.

وكان الزوج عندما يعتزم القيام بسفر طويل،بحرا يترك لزوجته عقد طلاق محتمل (طلاق مشروط). وهكذا ان هو لم يعد في تاريخ محدد،فبامكانها ان تتزوج. ولقد طبق الاحبار المغاربة في كل زمان بتسامح،كما هو الشأن بالنسبة لاخوانهم في الطوائف الاخرى في الشتات،القواعد المتعلقة باثبات الوفاة، وبشكل يسمح بحل روابط الزواج الاول،وترك المجال (للأرملة المزعومة) لأن تتزوج ثانية، إذ كان يعتبر وضعها اشنع من الموت.

وغالبا ما يستند اثبات الوفاة على شهادة طوعية لمسلم،كما جاء ذلك في النصوص الموجودة في حوزتنا، وهي شهادة تتلقاها المحكمة،وتسجلها كما هي باللهجة المحلية.

أما فيما يتعلق بحالات اعتناق الاسلام بالمغرب، فان الكتابات الفقهية الربية المغربية مافتئت تتعرض لها باستمرار.وتتضمن العادة فيما يتعلق بالارث بتحويل نصيب المرتد الى أهله الابعدين، وبالاضافة الى هذه المعاملة المميزة، فان اليهودي المعتنق للاسلام، يعتبر ميتا بالنسبة للعائلة، ولاتلتزم بأي نوع من الحداد يوم وفاته، بل نجد «الاقرباء يرتدون ملابس بيضاء ويشربون الخمر، ويبتهجون لهلاك اعداء الله».

لقد قادت اشكالية المرتد التي واجهتها كل اجيال الاحبار،منذ بداية التاريخ الميلادي تقريبا - سعديا كؤون (مصر والعراق في القرن العاشر) الى التمييز ما بين مفهومي الارتباط الديني، والاصل الاثني.

ان المرتد في نظر العقيدة الدينية وفرائضها (المشاركة في الصلاة ومصداقية الشهادة) لم يعد يهوديا، الا ان مراعاة انتمائه الاثني (يحدد هذا الانتماء بنسب الامومة) يجعله يظل خاضعا للقوانين المتعلقة بالاحوال الشخصية (الزواج والطلاق) ويعتبر هذا التمييز دقيقا ويساهم في حل مشاكل غالبا ما تكون معقدة.

V الـمـــوت

عبادة - شعائر - واعتقادات شعبية

1- ديـن وســحـر

يتيح الموت الذي يباغث المرء بسبب حادث،او على اثر مرض،الفرصة لعدد هائل من الشعائر الارتودكسية والهرطقية،ويكون مناسبة للقيام بطقوس مطابقة لقواعد وفرائض مدرجة في الهلاخا (التشريع العبراني عموما) وفي مختلف المدونات وعلى الخصوص تلك الجاري بها العمل في المجتمعات المغربية،ومجتمعات حوض البحر الابيض المتوسط،أي مدونة يوسف قارو«شولحان عروخ»(يوره دعاه) انه مظهر الخلاص اليهودي الطائفي،والديني والشرعي لهذه الشعائر التي تتمثل شعائر اخرى منبثقة من المتخيل الاجتماعي الاهلي،ومن الفوكلور المحلي والسحر، بالاضافة الى العبادة والاحتفال،حيث يلتقى السكان عربا - بربرا مسلمين أو يهوداً بعد أن تشابهت بنياتهم العقلية جميعا.

وفي هذا الفضاء المتميز،فضاء الموت،تتجلى تكافلية ثقافية،كما هو الشأن بالنسبة لمجالات أخرى،مثل الولادة والزواج،وتتوافق على أرضية دينية،يعبر عنها بنفس الاعتقادات،ونفس الافعال،ونفس أشكال الابتهالات، واحيانا بنفس النواح ونفس الشكاوي،وخصوصا عندما يتعلق الامر بالموت. وان الاعتقادات والافكار حول الموت،والتي نقلت عن طريق الكتابات اليهودية والتوراتية و الربية (التلمود والمدراش والاساطير والزهار الخ)،أو بواسطة الاداب الشفوية والشعبية،والتي تنتمي في معظمها الى الذاكرة الجماعية الخاصة بالشعوب السامية وحوض البحر المتوسط،والتي توجد منها روايات متعددة ومختلفة قد صيغت في اغلب الاحيان انطلاقا من تقاليد مكتوبة سابقة.

وفضلا عن ذلك ليس دائما من السهل ان نفصل هذه الطقوس الخاصة بالموت،عن مختلف المقومات التي تشكلت منها،ولا تسمح غالبا بنيتها المعقدة بتمييز المكونات الدينية عن باقي العناصر الاخرى،المنبثقة من السحر والفوكلور الموروث،والاعراف والعادات المتعددة والتي تعود الى أصول مختلفة. ويجب ان نعرف ايضا،ان الموت في الفكر اليهودي هو بالنسبة للفرد،مسالة ذات أهمية كبرى،اذ انه يسجل خلاصة الحياة، انه يوم الدين وتقديم الحساب (يوم ها دين يوم دين فحيشبون) انه اللحظة التي سوف تتقرر فيها نهائيا الصفة التي سيكون

عليها وجوده الابدي: العقاب أو النجاة.ولا يعتبر الموت قضية في حد ذاته،مادام مرتبطا بالخلاص والنجاة.

والموت هو لحظة من التأثر العميق، وهو كذلك لحظة من التعظيم والاجلال،بالنسبة للمومن الزاهد في ملذات الحياة،واللامبالي بتفاهة الدنيا، وهو بالنسبة اليه باب تطل على العالم الجديد : الحياة الاخروية (دعو لم هبا) إنه طريق نحو نعيم الاخرة الذي يهفو اليه كل مؤمن ثقي.

سكرة الموت وساعة الاعتراف (6)

أ- التوبة والندم:

على المحتضر ان يعود الى نفسه قبل ان تلتحق روحه بخالقها،وعليه ان يتوب ليموت مطمئن النفس، وان يردد كلمات الملك سليمان: «الكل الى نفس المأوى، الكل من تراب وسيعود الى تراب». انها اللحظة التي سوف يودع فيها روحه لرب العزة،وهو راضي النفس خاضع لارادة خالقه، وليتذكر بانه ليس خيرا من آبائه، وان الروح انما تغادر دنيا الظلمات ليجللها جلال الانوار، ترك دنيا العبودية الى دار القرار... واذا مات الانسان فان اعماله وما فعلت يداه، تعرض امامه واحدة بعد الاخرى،وتقول له :«لقد فعلت كيت وكيت، وهذا وذاك في ذلك المكان وفي ذلك اليوم. فيجيب الانسان أن نعم، وكان ذلك. وهذا مختصر ما جاء في سفر ايوب :«ويختم على كل بشر (ايوب 7,XXXVII) ويقبل حكم ربه،وان الله على حق».

6- نضيف في هذا الفصل الى تجربتنا الشخصية، وما نعرفه حول موضوع الموت، المعلومات التي وردت اساسا في كتاب نحلات أفوت (ميراث الاباء)، وقد نشر في ليفورن‌سنة 1898. وهو كتاب جمع فيه اسحق قورياط، حبر من احبار الصويرة، النصوص الشعائرية الخاصة بايام الحداد واخبارا تتعلق بالطقوس الجنائزية التي يمارسها يهود المغرب.

ب- مات في قبلة (الموت الهين):

ان يموت المرء طاعن السن،وفي عمر جليل فتلك نعمة، اما ان يموت شابا أو في زهرة العمر، فتلك مصيبة ولعنة من اللعنات.(قارن في هذا الصدد سفر التكوين 15,XV واشعياء 10,XXXVIII). يموت الانسان بسبب الخطيئة الاولى، خطيئة آدم الذي اكل من الفاكهة المحرمة. ويموت كذلك بسبب الآثام الشخصية التي يرتكبها. ومع ذلك يسرد الربيون اسماء كثير من الابطال والقديسين،الذين ماتوا دون ان يرتكبوا آثاما، لكن بسبب سم الحية (حية حواء)

ويموت الانسان بطرق مختلفة، قد يموت موتا طبيعيا أو مفاجئا، بعد احتضار طويل أو قصير، كل حسب افعاله وما يستحق. هناك «موت في قبلة» «مته بنشقه» مثل من يسل شعره من وسط كأس حليب، أو مثل قطرة تؤخذ من سطل ماء. ان تمر من الحياة الفانية الى الحياة الاخرى دون عذاب،فتلك هي السعادة، وهكذا يموت الاولياء والصديقون، وهكذا مات موسى «حسب قول الرب» (التثنية 5,XXXIV).

ج- يدخل الجنة بعيون مفتوحة:

انها نصيب العادل الذي يدعوه الله اليه حيا، ويلتقي بالموت بعينيه مفتوحتين أو كما يقول مثل ماثور يهودي - عربي بالمغرب، «دخل الجنة بعيون مفتوحة». وأصحاب هذا الحظ في المجتمع الاسلامي، هم الحلاق الذي يختن الاطفال ليطهرهم بهذه الفريضة الابراهيمية، والرجل الذي يعرض نفسه طوال حياته الى لهيب فرنه. ويعرف نفس الحظ في المجتمع اليهودي،الرجال المتواضعون،الذين مارسوا وظائف دينية ومهنا صعبة قاسية.

د- الظل والحلم، ملاك الموت و الربي :

ان تفقد ظلك،وأن تحلم بابائك واصدقائك،وان ترى في منامك كتاب التوراة، فتلك علامات النذير بموت مقبل،وايذانا في نفس الوقت بالدخول في خدر ملاك الموت. وتعرض قصة شعرية قداسية باللهجة اليهودية - العربية تروي في تنغير بالاطلس الكبير،والتي سبق ان نشرناها في مكان اخر، بعض التصورات والمعتقدات،وكل انواع المفاهيم التي يرددها القباليون بكثرة،بل أوردها كذلك مؤلفو «الهلاخا» وكلها تتلاءم مع عقلية السكان اليهود المنتسبين الى طوائف الاطلس،(وبالمغرب الكبير عموما)،ومع تقاليدهم المحلية وفولكلورهم مثل:عالم الموت وأساطيره والجنة وملكوت السموات وقوة شفاعة الاولياء والشعائر الجنائزية، وفريضة تعليم التوراة للابن،والسلوك والواجبات التي على افراد الهيئة الواحدة احترامها.

ولقد وجد المولف التعبير عن كل هذه المفاهيم في نصوص يعرفها جيدا، أي في كتاب الزهار 217ب 218:

«في أحد الايام،كان اسحاق جالسا بباب بيت الحبر يهودا،مستغرقا في حزن عميق وعندما خرج يهودا ووجده على هذه الحالة قال له: هل هناك شيء ما الم بك يومه؟ اجاب الحبر اسحاق: جئت لاطلب منك ثلاثة اشياء، إذا كنت تدرس التوراة وحدث لك ان أوردت بعض اقوالي، ينبغي عليك ان توردها باسمي،وأن تشير الى مؤلفها، عليك ان تتفضل وتعلم ابني التوراة، وان تذهب لتصلي على قبري أسبوعيا بعد موتي. وتساءل الحبر يهودا قائلا: من اين علمت بانك على حافة الموت، اجاب الاخر: ان روحي تفارقني في كل هذه الليالي الاخيرة دون ان الهم بذلك في حلمي،كما هو شأني في الماضي، واكثر من هذا عندما انحني في صلاتي لا أرى اثرا لظلي على الحائط وهذا ما يوضح ان الملاك قد خرج ليعلن (موتي) بناءا على ما تقول المزامير «الانسان خيال يسير على الأرض (7,XXXIX) انها ايامنا ظل على الارض» (ايوب 9,VIII).وقال يهودا: اني سأفعل كل ما تطلبه مني،شريطة ان تحتفظ لي بمكان بجانبك في العالم الاخر،وبذلك (نكون جيرانا) كما كنا عليه هاهنا. وبكى اسحاق وقال: اعمل لي معروفا على ان لاتفارقني أبدا،ثم ذهبا عند الحبر سمعون ووجداه منكبا على دراسة التوراة. رفع سمعون عينيه ورأى اسحاق،في هذه اللحظة كان ملاك الموت يجري ويرقص امام هذا الاخير،وذهب سمعون وأخذ يد اسحاق،وقال:من كانت عادته ان يدخل، ليدخل، و من كانت عادته غير ذلك ،عليه الا يدخل. دخل اسحاق ريهودا،واضطر ملاك الموت بأن يبقى في الخارج.

ونظر سمعون الى اسحاق ورأى ان ساعته لم تحن بعد، فلن تحين الا في الساعة الثامنة من النهار. واجلسه وأخذا يدرسان معا، وقال سمعون لابنه اليعزر: اجلس أمام الباب.ولا تكلم احدا، واذا اراد احد ان يدخل.فاستحلفه الا يدخل أبدا.ثم قال لاسحاق: هل رأيت اليوم طيف ابيك (في الحلم) اذ هكذا خبرونا، في الساعة التي يريد ان يغادر فيها الانسان هذا العالم.يقترب منه أبواه ويجتمع حواليه اقرباؤه من العائلة.ينظرون اليه ويتعرفون عليه.وكذلك كل من ارتبط بهم في هذه الدنيا، الكل يجتمع حوله ويرافقون روحه الى المكان الذي خصص له.

اجاب اسحاق.الى حد الان لم أر شيئا.وعندما وقف سمعون قال: سيد الكون: اننا نعرف اسحاق.وهو واحد منا واحد الاعين السبعة [7] في هذه الدنيا، اني أريده فاتركه لي.عندئذ انبثق صوت وقال: عرش الشيخ اسحاق هو اقرب من اجنحة سمعون ها هو لك، لتأخذه معك اليوم الذي تأتي فيه لتجلس على عرشك، عندئذ رأى العيزر، ملاك الموت وقد انسحب وهو يردد: لايوجد مكان أبدا لملاك الموت،مادام به الحبر سمعون بار يوحاي، وقال سمعون لابنه: تعالى اسند اسحاق،اني اراه خائفا،ودخل اليعزر، واخذ يد اسحاق بينما رجع سمعون الى دراسه التوراة. ونام اسحاق،ورأى في الحلم اباه الذي قال له: يا بني، ان نصيبك حسن في هذا العالم،وفي العالم الاخر،إذ تنتصب بين أوراق شجرة الحياة في جنة عدن ... شجرة كبيرة «قوية في العالمين» انه سمعون بار يوحاي،انها تصونك بين اغصانها وساله اسحاق، ياابتاه:: ما هو مصيري هناك؟ واجاب الاب: طوال ثلاثة ايام لقد غطوا غرفتك،وهيئوا نوافذ مفتوحة لكي تكون مضيئة من الجوانب الاربعة للعالم،(الجهات الاربع) واستبشر إذ ارى مكانك واقول: حسن هو نصيبك، غير ان ابنك لم يحفظ التوراة كما هو مفروض. قال اسحاق: يا ابتاه، ماذا بقي لي من الوقت (بأن اعيش) في هذا العالم؟. يجيب الاب: لست مأذونا (لاقول لك ذلك) انه الشيء الذي لايكشف عنه للانسان أبدا غير أنك ستكون أنت من يهيء مأدبة «هيلولا» الربي سمعون. ولنضيف هنا أيضا هذه الفكرة الزهارية: عندما تقترب ساعة الحساب، فان روحا جديدة تنفذ بداخل الانسان، وبفضلها يدرك ما لم يستطع ادراكه من قبل ، أي الحضرة الالهية (لشيخيناه) وبعدها يرحل عن هذا العالم إذ جاء في الكتاب: «ليس في مقدور اي انسان أن يراني ويعيش» (سفر الخروج XXXIII ,20) وهذا ممتنع في الحياة غير انه ممكن في ساعة الموت».

وليس هناك في المغرب من يجهل هذه الاساطير المتعلقة بالموت وملاك الموت، وهي

7- يتعلق الامر بالاصحاب السبعة المذكورين في كتاب الزهر وهم رمز للعيون السبعة التي تسهر على العالم.

قصص يرصع بها الربيون خطبهم ومواعيظهم ودروسهم الخاصة بالتلمود وبالموسار (الاخلاق اليهودية)، وكلها شائعة في اللهجات المحلية. وليس خاف ان غضب ملاك الموت، يهدأ بالاعمال الحسنة. الا انه عندما يتلقى اوامر الله الصادرة عنه ذاته، فانه يصبح قادرا على ان يقضي على الاخيار والاشرار دون تمييز.

هـ - المدينة التي لا يدخلها الموت

ليس لملاك الموت اية سلطة في مدينة «لوز» المشهورة، التي تتردد في القصص التوراتية. وعندما يبلغ احد السكان سنا متقدمة، يخرج من المدينة لينطفىء ويقضي خارج الاسوار[8]

ويخضع ملاك الموت دائما لارادة شيوخ التقاليد، بل يلاحظ ان له مع بعضهم مخالطة وتآلفا. ويمنح بعضهم الآخر مهلة من الحياة. يقول الربي سمعون ابن اخلافه: «لايمكن للموت ان تأخذ من ينكب على دراسة التوراة».

ويعد التعليم والدراسة درعا تحمى من سلطان ملاك الموت. يقول سمعون بريوخاي: «عندما نزلت التوراة على بني اسرائيل فان الله قد اعطاهم سيفا نقش عليه (اسم الله الاسمى)، ومادام هذا السيف بين ايديهم،فلا سلطان لملاك الموت عليهم. وبهذا أولوا الاية(8, XIX)من المزامير التي تقول: «ان شريعة الله كاملة،وتبعث الروح» وبمجرد ما ينطق حكم قضاء الموت، فانه يصبح مقدرا،ويكون تنفيذه امرا عسيرا لمن يتحمل هذه المهمة.

ويقال ان ابراهيم رفض ان يترك ميكائيل ليأخذ روحه،كما رفض موسى ان يودعها لسموئل.ولم يستسلم الربي حيا لملاك الموت،الا بعد ان استخدم هذا الاخير حيلة، حيث تقمص شخصية شحاذ. وينبغي ان يتدخل الاله احيانا لاضعاف مقاومة صناديد التلموديين المشهورين.

8- تعرف في ارلندا اسطورة مماثلة. اعتقد ان «لوز» كانت في «بيت ايل»، في ارض كنعان، او في احدى مدن الحتيين، وفي «ليزان» بكردستان. وردت الاسطورة في التلمود (سوطاه 46ب) وفي الزهار (I101ب) وفي المدراش (تكوين رباه 69، وشرح التكوين 19,XXVIII) وفي اماكن اخرى.
وتنبغي الاشارة كذلك الى ان لفظة «لوز» تدل على اللوز في اللغات السامية، غير انها تطلق في اللغة العبرية على عضو حيوي، وبالاخص الفقرة العنقية التي يقال بانها ابدية لا ينال منها تراب القبر شيئا، لمقاومتها كل انواع الاندثار. وبهذه العظيمة التي يطلق عليها عظم اليهودي، يبدأ، في الساعة التيلاريب فيها،انبعاث الجسد، حسب ما جاء في اسطورة في الآداب المدراشية (لاويون رباه 18 - تثنيه رباه0,XII) والزهار (I 137م - III 122م) وكذا في الكتابات الطبية والكتابات الدينية اليهودية والمسيحية والاسلامية في العصر الوسيط.

وهكذا انتزع يهو شوع بن ليفي السيف من ملاك الموت.وكان ينبغي على الله ان يصيح فيه بواسطة /بات قول/ (الصوت السماوي): «اعد اليه سلاحه ان ابناء الانسان هم بحاجة اليه»، ولقد سبق ان اشرنا فيما يتعلق بطقوس الولادة، الى حكاية من هذا النوع حكاية الكرامة التي ظهرت على يد ذلك الشيخ القهالي «الذي استطاع ان يجرد الجنية ليليت المسؤولة عن موت الاطفال الذكور اليهود ببغداد من قوتها.وقد استحوذ على سيفها القاتل.وسلمه للعائلة التي لازالت تحتفظ به بعناية فائقة» وتتداخل الاساطير التي نعرف مصادرها اليهودية مع اساطير اخرى من اصل عربي.أو تلك التي تعود الى اصل ثقافي مشترك لكلا المجتمعين.

وتقول احدى تلك الاساطير «تسقط ورقة من شجرة الحياة المنتصبة تحت عرش الاله بين يدي عزرائيل (وهو ملاك الموت حسب التقليد الاسلامي)قبل اربعين يوما من الاجل المحتوم، معلنة عن نهاية كائن بشري».وتروي اسطورة اخرى انه «عندما يموت تقي من الاثقياء فان عزرائيل يتقدم أمامه مصحوبا بمجموعة من ملائكة الرحمان، يحملون اطيب عطور الجنة ويسعون ان تنسل الروح من الجسد،كما تقطر القطرة من دلو ماء».ويقال كذلك انه عندما يسرف الناس في النحيب،ويبالغون في بكاء موت شخص ما يصيح فيهم عزرائيل الواقف عند باب البيت قائلا: «لماذا هذا النحيب وهذا البكاء، فانا لست الا رسول الله منفذ اوامره، فاذا انتم تمردتم ضد ارادته فساعود مرة أخرى لاخذ شخصا اخر،من بينكم من هذا البيت».

و – اخوان الرحمة والحقيقة :

لا تخلو طائفة من طوائف اليهود من جمعية منظمة ذات فروع متعددة تقوم بالمعروف وبما انيط بها من اعمال خيرية تطوعية من ذلك حضورها في منزل المحتضر لمواساته الى ان تلحق روحه بربها، والسهر على اعداد الجثة بعد الوفاة،وذلك بغسلها وكفنها وقيادة الموكب الجنائزي والقيام بمراسيم الدفن، وان تتكفل عند الضرورة بوجبة التعزية،وتقوم بكل هذا طبقا لاوامر الشريعة والعادة. وتسمى الجمعية عادة بـ«حبرا قديشا» «الهيئة المقدسة» ويمكن ان تسمى كذلك، حبرا الربي سمعون «بار يوحاي الذي تنسب اليه التقاليد تاليف الزهار» او يطلق عليها ايضا حبرت حسد وإمت «اخوان الرحمة والحقيقة».

ز ـــ ساعة الجهر بالعقيدة الشهادة وقراءة الشيماع

عندما تأتي ساعة «خروج» الروح، يعترف المحتضر باثامه شفهيا (تمتمة على الشفاه) أو في قلبه دون حضور النساء والأطفال الذين يعكرون بصياحهم ونحيبهم جلال اللحظة وبعدها يودع الحاضرون المحتضر، ويتسامحون فيما بينهم، ثم يبوح بآخر الرغبات، ويبارك الأطفال. وبعد أن يغسلوا يديه وينطق بالدعاء المتداول، يغطون رأسه بخمار الصلاة «طاليت» وينطق بالشهادة: «الاله الخالد حق وتوراته حق، وموسى نبيه حق، واقوال الحكماء حق، تبارك عزة الله وملكوته ابد الابديين»، وتأتي بعد ذلك شعيرة خاصة تتضمن تلاوة فقرات من العهد القديم ومن المزامير، وشعر حزقيال. (الفصل الأول مكرس للرؤية الخاطفة للعرش الالهي) وصلوات التوبة – الخ ...

ويعتبر المحتضر حيا في كل الأحوال، ولا ينبغي كما يقول مؤلف ناحلات أفوت أن تشد فكاه، ولا أن تغلق منافذه، ولا أن تسحب المخدة من تحت رأسه أو يبسط على الأرض ليوضع على بطنه وعاء مملوء بالماء، أو حبة من الملح، أو تغلق عيناه، كما لا ينبغي كذلك أن تستدعي النائحات المحترفات الخ ... قبل أن (تخرج روحه)، ومن تصرف بشكل اخر يعتبر قاتلا... ولاينبغي كذلك وضع مفاتيح البيعة تحت رأسه للتعجيل بموته، ومع ذلك يرجى الا تطول سكرة الموت، ويجب تجنب كل ما من شأنه أن يعكر صفوة موت هادىء «موت تنسل فيه الروح دون عائق» كمثل وجود حطاب مزعج، (هكذا)، أو الملح الذي يوضع على اللسان أو النواح والبكاء ... ويزال عن المحتضر في بعض المجتمعات الزراعية، كل ما عليه من حلي ومجوهرات، وكل ما يشد ويلف، والجلباب الذي له «سبع فتحات مثل جهنم» والمخدة «التي تشد الروح إلى الأرض». ومن الأفضل أن يكون الحاضرون دائرة ضيقة حول حول المحتضر في اللحظة التي يسلم فيها الروح، حتى لا ينفذ إليه أي نفس خارجي، وتشعل شمعة أو سراج عند رأسه، وكذلك جرت العادة بابعاد الابوين والاقرباء الذين يشهقون، وفتح نوافذ الغرفة الجنائزية، إذ منها تدخل الشياطين، وشراذمة العفاريت التي ترافق ملاك الموت، وكذلك منها تخرج روح الميت لتصل إلى القبة الزرقاء، وتنفصل عن الجسد مع اخر نفس، محلقة وكما يزعمون كطائر أو ذبابة أو نحلة كبيرة...

يسهر رجال الحبرا «الهيئة المقدسة» مرتقبين لحظة النفس الاخير، انهم اصحاب خبرة وتجربة، ولاتخفى عنهم بعض حركات العيون والشفاه، وبعض الحشرجات المعلنة عن الموت وهي علامات معروفة لديهم، وهم وحدهم الذين يقررون اللحظة التي ينبغي أن يطنق فيها

بالشهادة: شيماع اسرائيل (اسمع يا اسرائيل الخالد ربنا، لا اله الا هو) انه الدعاء القصير الذي يعلن عن وحدانية الله. انه لمشهد مؤثر، اذ تردد الشهادة بوقار وهيبة،وقد تحشرجت اصوات الاقرباء والاصدقاء والساهرين من الحبرا تبعا لحشرجة المحتضر الحزينة، الى اخر نفس. ومن من اليهود الاتقياء لايتمنى ان يسمع وهو يلفظ نفسه الاخير، كلمة احد(واحد)شيماع اسرائيل/ كما فعل الربي عقيبا شيخ التوراة الاعظم وشهيد اسرائيل، الذي عذبه الرومان الى ان مات في سبيل الله وتمجيد اسمه.

يغلق الولد البكر عينى ابيه المتوفى،كما فعل يوسف بأبيه يعقوب، اذ جاء في التكوين (4,XLVI) : «ان يوسف الذي يضع يده على عينيه» وهذا الفعل هو الـذي يعطيه كتاب الزهار تاويلا صوفيا، اذ يقول «غلق العينين للانحجاب عن هذا العالم،ولرؤية العالم الآخر، والتنور بنوره الساطع، ولو فى آخر لحظة من هذه الحياة.» (الزهار III 169 م) واذا كانت الاسرة تملك قليلا من تراب الارض المقدسة فانها تذر منه على عين الميت.

وقد تعرض كتاب نحالات أفوت الى عادة تقتضي بان يملأ فم المرأة المتوفاة بالتراب اذا ما ظل مفتوحا، وهي عادة تخص من فقدت جميع ابنائها في حياتها.

وما ان تصعد آخر زفرة وتستسلم الروح الى خالقها، حتى يرتفع بكاء النساء، فيصحن ويندبن وجوههن، وهذه العادة هي آخر ما تبقى من هذا المأتم الدامي الذي تحدث عنه FRAZER، عندما تحدث عن عادة العبريين، وبعض الشعوب والحضارات الاخرى بحوض البحر الابيض المتوسط، اذ يعلنون عن حزنهم لموت احد افراد العائلة،او احد الاصدقاء، بندب الوجه وتشويه الجسم وتمزيق الثوب. وقد اعتبرت هذه العادة فعلا من افعال الهمج والوثنية وحرمت تحريما : «انكم ابناء الله، الهكم، لا تشقوا ابدا اجسادكم... اسى على الاموات (قارن بسفر اللاويين XIX 28).

3 – التمزيق وصب المياه

يجرد الميت من ملابسه،ويوضع عريانا على الارض،ويغطى بازار، ويحدث كذلك أن يعزل الميت، بستار يعلق بين حائطين،وتغطى المرايا اذا ما كانت موجودة او تقلب فقط.وتتلى صلوات التوبة والمغفرة،وتمتد وتطول بقراءة المزامير، والتراتيل والتوسلات واركان الشريعة الثلاث عشرة ... وتنتهي بطقس خاص، يسمى «صدوق ها الدين» ويعبر عن الخضوع لقضاء الله بالعبارة الآتية :

«عادل أنت يا رب وأحكامك عدل» (المزامير CXIX) ويخدم بالتسبيح التالي حمدا لك يارب، انت العادل الحق» وترفق قراءة هذه العبارة بعملية «القريعة» (التمزيق) وهي رمز الانقطاع (تذكير بالختان بشكل من الاشكال) وترمز للفراق الاخير الذي اعلن عنه اخوان الحبرا والمحسنون. ان الامر يتعلق هنا بشعائر الفراق التي تعرفها المجتمعات العربية – البربرية بالمغرب الكبير، وتتم بطرق أخرى مخالفة.

تفارق الروح الجسد الذي كانت تسكنه، كما عليها ان تفارق بدون اسف الاباء والاصدقاء وعالم الاحياء. وكل الثروات والاموال التي تم اقتناؤها على الارض لتلتحق بعالم الاموات، وتلتحق باسلافها و أهلها كما قيل في العهد العتيق (التكوين XXV والباسيم) وفي الديانة اليهودية نجد ان عملية القرع (القريعة) والطقوس الاخرى المرتبطة بالموت محددة بصرامة في التشريعات التلمودية ومختلف الاحكام مثل (تشريع ابن ميمون ويوسف كارو خصوصا) ووصفت بكل تفاصيلها في ملخصات، حيث سجلت كل العوائد والتقاليد والاستعمالات المحلية، ويوجد ضمن هذه العوائد كذلك، عملية اخرى، ذات دلالة تتجلى في صب كل الماء الذي يوجد في بيت الميت وكذلك عند جيرانه، بل تصب مياه ساكني زقاقه في المجاري.

وهذا الماء الذي يوضع عادة في جرار من الطين، او اي وعاء او ماعون فانه يصبح غير قابل للاستعمال، وينبغي تعويضه مباشرة بماء اخر عذب ينقل من الساقية او يؤخذ من بئر «دين شيفخات مايم» (عادة صب الماء) ويعطي لهذه العملية مجموعة من التعليلات. انها طريقة لنشر خبر الوفاة عند الجيران، دون اللجوء الى خطاب، او كلمات يكون مضمونها منذرا، بالتهديد او اخطار محدقة، اذ ان ملاك الموت يطوف بالانحاء، ولكن التفسير الذي يعطيه عدد من الاحبار الفقهاء هو : ان ملاك الموت هذا الذي انتهى من عمله توا في بيت من البيوت، يغسل سيفه الدامي في مياه هذا البيت، ومياه الجيران، تاركا بها قطرات مسمومة تسقط، وهي محملة بالموت والحداد، ولهذا ينبغي اذا اتخاذ الحيطة من مس هذه المياه، وبالاحرى استعمالها.

وبينما يكون بعض افراد الحبرا يحضرون مراسيم الدفن، فان الاخرين القائمين حوله ينبغي ان يبقوا بجانب الميت في دائرة ضيقة، ابتداء من اللحظة التي اسلم فيه الروح، الى ان يواري في اللحد، لكي لا يصل اليه اي نفس من الخارج (هكذا) ويرددون بدون انقطاع دعاء صوفيا، وابتهالا قباليا يهدف الى ابعاد الارواح الشريرة التي تطوف حول الجثة.

كما يرددون قطعة شعرية قديمة جدا لحماية روح الفقيد، وهي تنسب الى الثنائي* ناحونيا بن هاقانا، و تتكون من اثنين واربعين كلمة وزعت على سبعة سطور عروضية وهي رائية

* الثناؤون هم العلماء الذين فسروا الشريعة المكتوبة، ومن فعل تنا الارامية (مشنا العبرية) جاءت تسمية المشنا (قسم من التلمود).

القافية ويفترض انها تمثل الحروف الاثنين والاربعين التي تكون اسم الله الاعظم، يتوسل بها هنا لحماية روح المتوفى ومن جهة اخرى فان البيت الثاني من هذه القطعة يحتوي، في تطريزه على الحروف المكونة للترنيمة التالية :

«قرع سطان» وهي صيغة تناشد الله ان /يمزق الشيطان/ يعني ان يبطل ما اتهم به المتوفى، وتبتدا القطعة هكذا : «اذ بقوة جلال يدك اليمنى تفك العقدة».

4 - الجنازة ومراسيم الدفن :

واجب دفن الموتى: يذكر الربي اسحاق قورياط مؤلف ناحالات افوت، ان اكبر اهانة يتلقاها الميت هي ان يدفن بطريقة لاتحترم القواعد الشرعية. وتلح الشريعة التوراتية ان يدفن الانسان حتى ولو كان مجرما حكم عليه بالاعدام، وكذلك دفن العدو الذي قتل في المعركة، والدفن فريضة تضطلع بها العائلة والجماعة كلها، والمقبرة هي مكان ومؤسسة جماعية. وهذه الفريضة واجبة على من يجد ميتا في مكان خال في /ارض أجنبية/ (غير يهودية)، اذ عليه ان يقوم بدفنه بدون تأخير، بل ودون ان يلتجيء الى جهة مسكونة قريبة للبحث عن مساعدة انها حالة «مت مصواه» «الجثة المهجورة» وتؤكد النصوص التلمودية، ان الدفن في التراب يمنع تدهور وا تلاف الجسد ولكي يساعد كذلك على التكفير من الذنوب... وحسب ما جاء في أحد التفاسير (ببرق الربي العزر XXI).

لقد تعلم ادم وحواء من الغراب دفن الاموات، وجاء في مكان آخر ان «طائرين مقدسين قد دفنا هابيل الذي قتله اخوه قابيل». وينبغي ان يتم الدفن في نفس يوم الوفاة الا اذا كان هذا اليوم يوم سبت، وفي هذه الحالة يؤجل الى اليوم التالي.

ونجد احد الربيين وهو الربي حيدا (حايم يوسف داوود ازولاي) من القرن الثامن عشر، ومن اصل مغربي، ولد في القدس وتوفي في ليفورون، يلح على ان يتم الدفن مباشرة بعد الوفاة «ولو ادى الامر ان يدفن الميت حيا» ويعتمد في ذلك على رأي صوفي نقل عن «القباليين» الذين يقولون، بان اي تاخير يسبب الاما شديدا للميت، ويمكن ان يكون ذلك سببا في مصائب كبيرة تتعرض لها الانسانية جمعاء.

تعد المقبرة مكانا مقدسا، وتحمل تسمية تضاد تفاؤلية هي «بيت هاحايم» (بيت الاحياء) ويطلق عليها عادة /الميعارة/، وهذه الكلمة يهودية عربية تعني /المغارة/ وهي تذكر بأماكن واجراءات الدفن العتيقة التي كان الموتى يدفنون بمقتضاها في الارض المقدسة وفي المغرب.

يحفر القبر عميقا،وتوضع في جوانبه ألواح كما في الصويرة او بالاجور، كما في فاس،وتخصص بعض الاماكمن للربيين والوجهاء وعائلاتهم، كما تخصص مساحة مربعة للمنبوذين والمنتحرين والعاهرات : وفي هذه الحالة يلوح الحفار بمعوله فوق رأسه،ويرمي به صدفة وحيث يسقط، يدفن المنبوذ على عجل ودون ادنى احتفال :

أ - صورية الاحكام الاربعة الرئيسية وغسل الميت :

تعد عملية التظاهر المتمثلة في انزال العقوبات الاربع الرئيسية على جثة الاثقياء،طقسا من طقوس الاستغفار والتكفير، وهي تهدف الى ابعاد عذاب جهنم عنهم، ويقوم بها اخوان بوقار واجلال،ويهيئون انفسهم لها بالاغتسال، وتكون مصحوبة بطقس خاص.وهو بدوره يسبق بتامل صوفي يكرس كل فعل من افعال الحياة، ويلزم ان يؤدي هذا الطقس بأفضل الطرق بقصد توحيد الله بالحضرة (شيخينا) رهبة ورغبة، وبنية توحيد اسم الله... توحيدا كاملا ويجري التظاهر بهذه العملية كالاتي : اولا بالرجم «سقلة» فالاحراق «سرفة» الذبح «هرق» ثم الخنق «حنق»، ويقدف احد الاخوان من افراد الحبر، سبع حجرات واحدة بعد الاخرى على قلب المتوفى،وهو يردد العبارة التالية ثلاث مرات :

«هكذا يفعل بالانسان الذي تمرد على خالقه» ويجيب الاخرون مهمهمين : «الويل لنا يوم الحساب، الويل لنا يوم العقاب» ثم تحرق مناخر الميت حرقا خفيفا بترك بعض قطرات من الشمعة المشتعلة تسقط عليها، وتشد رجلاه بحبل ويهز هزا،ويجر خطوات كمن يتعرض للذبح، ويتظاهر بخنقه وذلك بشد عنقه بنفس الحبل او شريط من الثوب،وتصحب كل عملية من هذه العمليات الثلاث،وكذلك الاولى، بابتهال ودعاء وشكوى، ثم يبتعد كل الاخوان الحاضرين عن الميت بمقدار اربعة اذرع تقريبا، ويقفون لحظة،ثم يعودون بالقرب منه، ويرددون «انك اخونا، انك اخونا، انك اخونا، ومنذ اللحظة التي قبلت فيها الحكم،غفر الله لك وتجاوز عن سيئاتك،ورفعت عنك اللعنة والحرمان».

وتبدأ عملية غسل الميت، وهو طقس التطهير الذي يعبر عنه باللفظ العربي - العبري «طهارة»، بنفس الجلال والرهبة، فتتلى دعوات وتضرعات اخرى،لا يذكر فيها اسم الله «أدوناي»،ولكنه يعوض باللفظ المستعمل «هشم» (الاسم).

ويحمل الغسالون (او الغسالات)، يطلق عليهم بالعبرية لفظ «روحصيم» وبالعربية «غسالين»، الجثة على الالواح ويقومون بمختلف انواع الغسل والتطهير،طبقا للصفة التي نصت عليها التوراة واثبتتها العادة، وتبعا لطقس يتطلب كثيرا من الحيطة والعناية، فيستخدمون مرة

الماء الساخن، ومرة الماء البارد والصابون وماء الورد وماء الزهر، واغصان الرند والزعتر، وذلك ليغسلوا كل المنافذ بعناية فائقة... ويستعملون اواني (اوعية وغلايات) حددت اعدادها، وهي سبعة بالنسبة لبعض انواع الاغتسال. وتتخذ الحيطة حتى لا تنقل هذه الاواني من يد الى يد، اذ يجب ان توضع على الارض، بعد ان يستعملها المستعمل لياخذها غيره بعده. وتقلم الاظافر، وتجمع قلاماتها حتى لاتتخطاها او تدوسها الاقدام، ثم ترمى. كما ترمى قلامات الاحياء، في المجاري مباشرة، خوفا من ان تؤخذ لتستعمل استعمالا سحريا، او تؤول الى اداة، تستعمل في عمليات الشعوذة.

ويجف الجسد بشراشفة نظيفة ويكفن. وتفصل عادة مختلف قطع الكفن من نسيج كتان او قطن، حسب الشعائر الدينية والنهج المحدد، ويتكون الكفن من غطاء الرأس ويسمى بالعربية «عراقية»، وسروال وقميص «وقصوت» (سترة) وعمامة ووشاح الصلاة الذي شدت اهدابه قصدا، واصبح غير ملائم للصلاة (صيصت) ومعطفا خيط كله ليصبح الوجه الحقيقي للكفن.

ولنذكر شعيرتين لهما دلالتهما، اولاهما يهودية محض، وثانيهما تحمل طابعا مشتركا يدل على معرفية مغربية يهودية - اسلامية وبربرية - عربية :

1 - جرت العادة اثناء التكفين في المجتمعات اليهودية، بوضع الابهام في كف اليد ليرمز مع بقية الاصابع الاخرى، الى اسم من اسماء الله، او بالاحرى الى صفة من صفاته، وهي «القادر» (شاداي) حيث يكون هذا الوضع حرف الشين (ثلاثة اصابع) والدال (أصبع واحد)، والياء نقطة. ويعني بسط اليد ايضا، التجرد من كل متاع الدنيا.

2 - جرت العادة في المجتمعات الاسلامية، بان تستر الاعضاء التناسلية اثناء الغسل، بجزء من برنوس المتوفى، وتحتفظ العائلة بهذه القطعة الثمينة التي يعتقد انها مكمن القوة الرجولية وبركة الاب الفقيد. وتوضع ليلة الزفاف على رؤوس البنات لكي تحمل اليهن البركة الابوية. ولهذه العادة ما يقابلها في الاعراف اليهودية اذ لا تزال كثيرا من العائلات اليهودية التي نعرفها بالصويرة والدار البيضاء تحتفظ بعادة تمزيق اخر قميص للفقيد وتوزيع قطعه على اعضاء العائلة الذين يحتفظون بها بعناية فائقة حتى يتلقى كلي واحد منهم نصيبه من بركة الاب او الجد المتوفى.

ولنذكر ايضا عادة اخرى، كانت متبعة في تلمسان في الاربعينات، وقد ادانها الربي يوسف مساس، الحبر المغربي الذي شغل وظيفة قاض بالمدينة المذكورة بالعبارات التالية :

«وهناك ايضا خزي اخر، وذلك عندما يتوالى الموت مرتين متتابعتين على الدار الواحدة.وفي نفس السنة او نفس الشهر، فان الجسد لايرفع في المرة الثانية الا بعد ذبح ديك على عتبة البيت، او وسط الدار، وفي الوقت الذي يخرج فيه الرجال جثة الميت، يرش بدم الديك اعلى الباب المقابل للقبة ورتاج الباب،وبعد ذلك تأكل منه عائلة الفقيد او الجيران دون غيرهم، ولقد وعظت وطالبت بتغيير هذه العادة،وبما اني اعرف خوفهم من الموت،قررت الا يذبح الديك مطلقا،وان يكتفي بسرد عبارة «الكفارة»، ففي ذلك فداء اهل الدار،وتعويضا وتكفيرا عن اثامهم،وليعطي بعد ذلك الديك الى احد الفقراء.

ب - موكب الجنازة

توضع جثة الرجل في نعش مغطى بازار اسود، او جلباب كان يلبسه الفقيد في حياته (9)، انه سرير الموت (·مطاه· بالعبرية) ويحمله الحمالون «الكتافون» فوق اكتافهم الى المقبرة،ويحرصون كل الحرص على ان يكون رأسه في المقدمة عند الخروج من الدار، ويتبعه اقرباء العائلة والاصدقاء،ويفترض الاحترام الخاص بالميت ان يكون النعش في اول الموكب، وكل شخص يشاهده،عليه ان يسير خلفه طبقا /لمصواه لوياه/ «فريضة مصاحبة الميت» على مسافة تبعد باربعة اذرع على الاقل،(وهذه الفريضة تستلزم اليهودي حتى ولو كان الميت من الاغيار، خوفا ان يقال عنه ما قالته التوراة - الامثال : 5, XVII «المستهزىء بالمسكين يعير خالقه».

ويعلن عن مرور الموكب ببوق /شوفار/ قرن الوعل، وبمجرد سماع النفخ تغلق الدكاكين، وتتكاثر جمهرة السائرين وراء النعش،الى غاية الوصول الى المقبرة، وتكون مسيرة الموكب منتظمة بقراءة ترتيلية لمزمور الغباني (مزاميرCXIX) وهو يتكون من اثنين وعشرين مقطعا، وكل مقطع مركب من ثمانية ابيات، ويبدأ كل بيت من المقطع بنفس الحرف، ويقرأ النص كاملا اولا، ثم يتم تركيب اسم الميت،واسم امه وحروف الترنيمة و«قرع سطن»(طرد وابعاد الشيطان)، وترتل بعد ذلك الترنيمة الصوفية التي نعرفها (لتحل بقوتك وقدرتك وسمو يمناك العقدة) وتتبعها تلاوة (المزمور XCI) ذي الخصائص الواقية، من فعل الشياطين والسحرة، وهي خصائص أشادت بها التقاليد التلمودية والباطنية. ويحدث كذلك ان يرتل نشيد الاناشيد الفصل الخاص /بالمرأة الشجاعة/، الامثال (BI-10, XXX) وبعض المرثيات.

9 - يغطى نعش المرأة بخمار ابيض، او بازار من نفس اللون.

ولا ينصح بمصاحبة النساء الموكب سواء في المقدمة او المؤخرة،كما ذكر ذلك مؤلف ناحالات أفوت وهو يشير الى ان العرف المحلي يمنع ذلك اعتمادا على قرار من مبعوث من القدس وحسب بعض نصوص الزهار يمكن ان يكون حضور النساء في الموكب سببا في حدوث مصائب للعالم والناس،اذ ان ملاك الموت يحب مصاحبة النساء،وقد يشاهد وهو يغني ويرقص وسطهن.وهو بذلك يمكن ان يغري الرجال بالنظر الى جهتهن.وعندها يغتنم الملاك الفرصة ويصعد الى السماء ويعرض امام العرش شكواه ضد من استسلم للاغراء».
والجدير بالذكر ان النساء غالبا ما يغضن الطرف عن هذا المنع ، وكانت العادة قديما ان النائحات هن اللواتي يتقدمن الموكب ويغنين المراثي ويضربن على الطبول «ارمياء 16, IX، كتوفوت 4, IV» وقد احتفظ بهذه العادة في بعض المجتمعات الشرقية الى يومنا هذا.

وتمنع السلطات الربية في بعض المدن،وبالخصوص في مدينة فاس،ان يصاحب الابن موكب ابيه وينبغي ان يسبقه الى المقبرة، ويقال في هذا الصدد باللهجة اليهودية العربية «اكون في نِدُّوني من الزراعة ديالو ودُوزْ منورا كنازتوا» «أيسير وراء نعش أبيه وهو من زرعه» «يطرد من الجماعة من تبع نعش ابيه»،ومعنى هذا حسب ما فسر لنا ان الاطفال الذين كان بالامكان أن يولدوا من «البذور»التي ضاعت مع الاب المتوفى قد يغارون من هؤلاء الموجودين في الموكب. تصل الجنازة الى المقبرة، ويوضع النعش /الميطاه/ في المدخل داخل قاعة معينة تقام فيها شعيرة خاصة،وتسمى تلك الغرفة /بيت هاميدراش/ (بيت الدرس). ويلقى فيها احد الاحبار او تلميذ حاخام الموعظة الجنائزية دراشا.

جـ – طقوس الطواف وابعاد الشياطين

تقام مباشرة طقوس الطواف (هاقافوت)وهي سبع دورات حول النعش،على شكل دائرة ضيقة تتكون من عشرة افراد وهم ينشدون دعاء خاصا،ويذكر مؤلف ناحلات أفوت بان الامر يتعلق هنا /بتيقون/ (شعيرة الاصلاح)، وهي تعمل على ابعاد الارواح الشريرة اذ يقال «بأن الكفرة يطوفون حول الميت»،حسب ما جاء في (المزمور 9, XII).

د – قطع الذهب

يحمل النعش الى القبر،ويباع انزال الجثة بالمزاد العلني،اذا كان الفقيد شخصية ربية أو رجلا مشهورا عرف باحسانه الكثير،ويصرف القدر المحصل عليه لصندوق الفقراء،أو لأي

مشروع خيري آخر. وترمي بعض القطع الذهبية في زوايا القبر الاربع، وهذا يذكر بواقعة من وقائع حياة ابينا ابراهيم، وكما جاءت في نص التكوين : وأما ابناء السراري اللواتي كن لابراهيم، فقد اعطاهم ابراهيم عطايا، وصرفهم عن اسحاق ابنه شرقا، الى أرض المشرق * (التكوين XXXV ,6).

ولايزال الناس ايضا يعتقدون في فاس نفس الاعتقاد الذي اشرنا اليه اعلاه، والمتمثل في غيرة ذرية محتملة تجسدها هنا الارواح الشريرة التي ينبغي تهدئتها باعطائها قليلا من الارث العائلي حيث يقال باللهجة اليهودية - العربية «هاليرشاد بانكم» (خذوا ما وجب لكم من ارث) وتردد كذلك (كا يذهبو شيطانيم) (يطردون الشياطين) وذلك باستعمال لفظ «يذهبو» التي تعني في اللهجة المحلية «يذهب» من فعل أذهب وابعد، وتعني في نفس الوقت ذهب» اي طلى بالذهب (المعدن).

هـ- الرحلة في باطن الارض الى الارض المقدسة

يرد التراب على الجثة الممدودة على الظهر في القبر، وقد عزلت بالالواح (ويقدف كل واحد من الحاضرين بحفنة من التراب) يكون مختلطا برمل حمله من الارض المقدسة، أحد الحجاج) أو أهداه حبر من الأحبار الرسل أثناء زيارته الى المغرب.

ونذكر في هذا الصدد بموضوع يورد بكثرة في ادب المواعظ، والكتابات الزهارية (10) وقد ادمج في نهاية الامر في التراث المتخيل للعامة، والتي ربطته بعديد من الحكايات والاساطير. وتعود فكرة هذا الموضوع الى الاعتقاد ببعث الأموات الذي سيحدث حتما في الارض المقدسة، اذ ترحل اليها الاجساد المدفونة في الشتات في اتجاه ارض الاجداد، وفيها تلتقي الارواح، وتبعث عندما تحين لحظة يوم الحساب. وجاء في وثيقة غير منشورة من مخطوطات مكتبة ساسون D. SASSOON أن هناك حالات نبش القبور لنقل الاجساد من المغرب الى فلسطين.

وعندما يتم دفن جثة الميت، يعود الحاضرون الى «بيت هاميدراش» الغرفة الواقعة عند مدخل المقبرة للقيام بطقس (صيدوق ها الدين) والرضا بقضاء الله وقراءة الهاشكافا او صلاة من اجل راحة الفقيد، وترتيل قاديش خاص بالمناسبة وهو قاديش الميت الذي يقام بعيدا عن

* اي ان الذهب الذي يلقى به في القبر، يمثل العطاء الذي يعطي لابناء كان بالامكان ان يخلفهم الاب، ولكن هذا لم يحدث. ومهمة هذا العطاء، ان يحمي الابناء الحقيقيين من حسد وشر الابناء الذين لم يخلقوا. ونص آية التوراة يوضح ان ابراهيم اعطى عطايا لابناء النساء الاخريات حتى. يبعدهم عن ابن اسحق، ويبعد شرهم عنه. (المترجم)

10 - مدراش ومكاده (نشيد الاناشيد، شرح آرامي تانحوما، بسقتا ربا الخ الزهر مدراش هنعلام I-113 ب)

لقبر، حتى لايسمع صياح الميت. اذ يعتقد ان الميت في هذه اللحظة يسعى الى الافلات من متواه، ويصيح قائلا : «انتظروني لاذهب معكم» ولكي لا يسمع صوته، يبتعد عنه ومن سمع صوته، يموت في نفس السنة.

و - عظامكم تزهر مثل العشب :

وقبل الخروج من المقبرة، ينزع كل واحد من الحاضرين ذرارات من العشب، ويرميها خلف راسه لاظهار علائم الالم والحزن، وللتعبير في نفس الوقت عن الامل في البعث ومجيىء عهد المخلص، اذ جاء في الكتاب «وتزهر عظامكم كالعشب» (اشعيا 14, LXXI) «ويزهر سكان المدن كما يزهر عشب الارض» (مزامير 16, LXXII) وتغسل الايدي دون ان تمسح بثوب، وتترك لتتقاطر، الى ان تنشف، من اجل طرد الارواح التي تحاول ان تلتصق بعناد بالايادي النجسة، كما جاء في احد النصوص المدراشية، وكما يقول مؤلف ناحلات افوت اشارة الى ما جاء في (التثنية 7, XXI) (ان ايادينا لم تسفك دما) لتاكيد واثبات بأنها لم تساهم في ذلك مطلقا.

وهناك من يغسل وجهه مرددا هذه الاية : «ويمسح السيد الرب الدموع عن جميع الوجوه» (اشعيا 8, XXV) واذا انعدم الماء، او قل في حالة وجود قافلة في الصحراء مثلا) يلجأ الى استعمال التيمم، كما هو الامر في المجتمع الاسلامي وحسب فرائض الوضوء.

ز - عشاء المواساة

تقدم للعائلة المصابة بعد العودة الى بيت الفقيد، اول وجبة من البيض النيىء والزيتون الاسود، ويتناولها كل الحاضرين والاقرباء والاصدقاء، وهم يبكون ويتبادلون التعازي ويتخلل ذلك نواح النائحات طبقا لما جاء في هذه الوصية القديمة : «الدخول الى بيت النياحة خير من الدخول الى بيت الوليمة، لان ذاك منتهى جميع البشر» (الجامعة 2, VII) ويتلقى الرجال الذين ابتلوا بهذا المصاب، التعازي بالعبارات التالية : «العلي القدير سيعزيكم من بين كل الذين يحملون عزاء صهيون أورشليم وهذا نصيبكم، وفي ارض اورشليم تعزون» (اشعيا 13, LXVI).

ويراعي في هذه الوجبة، وجبة المواساة او التعزية /سيعودات هابراه/ عرفا يبدو انه يعود الى تاريخ قديم جدا، اذ يسلم الاكل لاهل الميت يدا بيد، بعكس القاعدة المتبعة في وجبة عادية، حيث يقطع رب البيت الخبز بعد المباركة الشعائرية، ويضع الاجزاء على الطاولة، وياخذ كل واحد نصيبه بنفسه، وترجع التقاليد هذا العرف، الى واقعة تاريخية يهودية مولمة اوردتها

المراثي 1،17 بالصيغة التالية : «امدد يديك ياصهيون لا احد يعزيك»، لذلك لا ينبغي اعطاء الاكل يدا بيد الا للانسان المصاب، وتشعل شمعة او قنديل زيت في غرفة الميت،وتظل مشتعلة حتى نهاية سنة الحداد، وتحمل حينئذ الى البيعة،حيث يستمر الاعتناء بها من حين لاخر... انها روح الفقيد التي تبقى سنة في البيت مع اهاليها.

ويذكر مؤلف نحلات افوت عرفا جرت به العادة في الصويرة،يتضمن وضع قدح من الماء بجانب القنديل،او الشمعة المشتعلة ويقول بان لا احد يعرف اصل هذا العرف، الا ان المؤلف يدينه ويعتبره عرفا اجنبيا عن الديانة اليهودية،مثله مثل العادات والتقاليد /العمورية/ مستعملا لغة التوراة /درخ ها عموري/،انه عرف سبق لنا ان تعرضنا له وهو معروف في الوسط العربي - البربري.

5 - فترة الحداد

تنقسم فترة الحداد الى ثلاث مراحل متتالية : تدوم المرحلة الاولى، سبعة ايام،والثانية ثلاثين يوما فرضا، والثالثة سبعة او تسعة او احد عشر شهرا،حسب العادة الجاري بها العمل لدى العائلة،او حسب الانتماء الاجتماعي اومكانة الفقيد . وتتميز كل فترة من هذه الفترات بمجموعة من المحرمات، وشعيرة معينة،وكل منها يختتم بحفل،ويتضمن الاعمال الثلاثة الاتية :

- طقسا خاصا بالمناسبة تلقى فيه خطب ومواعيظ وادعية وتابين ،ومراثي واقامة وجبة خاصة،وتقديم هبات وصدقات،ويذكر في هذا الصدد مؤلف نحلات افوت الصويري احد النصوص التلمودية (موعد قاطان 27, B) كما يلي :

قال الربي يحيى نقلا عن الراب : ان ايا كان أصر على «بكاء» ميته، فانه في الحقيقة يبكي ميتا اخر... لا تغالوا في النواح والتشكي، لاتتجاوزوا الحدود : ثلاثة ايام للبكاء وسبعة للتأوهات والمراثي، وفي نهاية الثلاثينات اغسلوا واكووا ملابسكم،واحلقوا شعركم واذا فعلتم اكثر من هذا فان الله تبارك وتعالى يقول لكم : لا يمكن ان ترأفوا بمصيره اكثر مما افعل، وان ما يمكن القيام به،هو ان يرتل الابن القاديش،من اجل راحة روح والده وامه حتى يستحقا في النهاية ان يدخلا جنة عدن، وما ينبغي عمله كذلك هو ان يقرأ عشرة من الحكماء وهذا هو النصاب،ساعة في كل يوم،في بيت الفقيد لطوال السنة، او على الاقل مدة ثلاثين يوما،نصوصا من المزامير والمشنا والزهار وغيرها...

الحداد الاكبر

يستغرق الحداد الاكبر،الايام السبعة الاولى التي تلي يوم الوفاة، وهو فترة من الانعزال تتميز بعدد كبير من المحرمات والمحظورات.وتمس ممارسة اعمال المهن (تجارة او مهن يدوية) والاغتسال وانتعال الاحذية (ترك الارجل حافية او انتعال حذاء قماشي) والعلاقات الجنسية ونظام التغذية،اذ لا يؤكل اللحم،ولا يشرب الخمر،غير ان الماحيا بالعكس تستهلك بوفرة، يقدم للأقرباء خلال هذه الايام الطعام لاهل الميت اذ يحظر عليهم اعداده داخل البيت، ولاينبغي لمن يدخل الحداد، حمل «التيفلين» اثناء الصلاة ولا ان يدرس التوراة،او ان يقرأ اي نص من نصوص الهلاخا او «الميشناه» او التلمود باستثناء سفر ايوب،وبعض الاصحاحات من سفر ارمياء،وبعض «القينوت» المراثي التي تذكر بذكرى خراب هيكل القدس...

ويجلس كل من يحمل الحداد،في الزاوية اليسرى لغرفة الميت،على فراش او سجاد على الارض،(وهناك من يقول عليه ان يجلس على سرير مقلوب) ويطبق على راسه قب جلبابه الاسود،بل لاينبغي له ان يتبادل كلمات التحية مع الزائرين، والا يتلفظ حتى بكلمة «شلوم»، كما ينبغي ان لا يقص شعر لحيته وراسه،او يغادر البيت ابدا الا في حالة الذهاب الى البيعة (يوم السبت فقط) والى المقبرة.

تعتبر الزيارات الى المقبرة اثناء الايام السبعة التي تلي الوفاة عرفا من بين الاعراف التي اخذها اليهود من المجتمعات الاسلامية المغربية (11) حسب راي الحبر اسحاق بن شيشت برفات (ريباش) وهو فقيه اندلسي جزائري من القرن الرابع عشر. وقد اكتسب هذا العرف قوة القانون،وتطبقه الطوائف اليهودية بالمغرب حرفيا، كما هو الشأن بالنسبة لجيرانهم من المسلمين، ويوزع فيه هولاء واولائك الصدقات.

ويقام الاحتفال التذكاري الاول،في ليلة اليوم السابع وهو ما يسمى بالعبرية «بيديقات هاشافوع» (الذكرى السبعية)،ويطلق عليها في اللهجة اليهودية - المغربية «مسمارا» وتعود الى اصل عبري «سمر» (حرس سهر) وهي اكثر تداولا،«والمسمارا» في الواقع عبارة عن سهرة لقراءة (التوراة والمشيناه والزهار وغيرها) تليها وجبة طعام خفيفة تقدم لافراد الحبرا وللربيين وكل الحاضرين الذين يحملون معهم الكعك،(عبارة عن حلوى من العجين به سكر على شكل اكليل) للذين لم يتمكنوا من الحضور.

11 ـ «ريباش» (الربي اسحاق بن شيشت) فتوى رقم 158

وتقام في اليوم التالي بعد زيارة المقبرة،مراسيم اختتام فترة الحداد السبعية والتي تصحب بطقوس الطهارة (اعتسال واستحمام شعائري).

ويحتفل في يوم الثلاثين وبعد الفترة المسماة /سنة/ ولو انها لا تدوم الا سبعة اشهر واحد عشر شهرا، بشعائر تذكارية متشابهة، تسمى الاولى /الذكرى الثلاثينية/. (بديقات هاشلوشيم) والتي يطلق عليها بالعربية /الشهر/،وتسمى الثانية بيديقات هاشانة /الذكرى السنوية/ ويطلق عليها بالعربية /العام/ ويتضمن الاحتفال ليلة خاصة بالقراءة وشعائر الطهارة (استحمام وقص الشعر الخ..) ووجبة شعائرية وزيارة المقبرة،ووضع سلة القبر «الحجرة» كما تسمى عادة، وتوزيع الصدقات.

ويجري في هذه المناسبة عرف آخر في الوسط اليهودي، يقضي بتقديم صدقة خاصة لاطفال المدرسة (صلا) «مكان للتعلم والصلاة»،انه عرف منتشر في المجتمع الاسلامي، تشترك فيه الطائفتان، كما تشترك في باقي الاعراف الاخرى ولا تعرف هذه الصدقة عند اليهود الا باسم /معروف/، وتتمثل في توزيع الاسفنج او الكسكس.

6 - تصورات اخرى واعتقادات

مما لاشك فيه ان السلطات الربية هي التي حددت مراسيم الحداد وفتراته، كما هو الشأن بالنسبة لمناسبات اخرى، وهي تستقي ذلك بالتأكيد من اداب العهد القديم والاداب المدراشية والتلمودية والزهارية، بالاضافة الى انها تمتحي جزءا من موضوعها من محيطها الثقافي المحلي،ومن عالم الاساطير والاعتقادات والتصورات التي تعرفها البيئة المغربية ومنطقة البحر الابيض المتوسط،ومن حقول اخرى اكثر شمولية.

ويحكي نص من العهد القديم ان يوسف بكا أباه مدة سبعة ايام (التكوين L ,10) لاظهار حزنه واساه. وجرت العادة بأن يذر الناس الغبار على رؤسهم فيتمرغون في الرماد ويحملون الاكياس، الى غير ذلك الخ. (يشوع VII ,8) (وارمبا XVI ,6).

وحسب ما جاء في التلمود،ان حداد سبعة ايام، كان متبعا حتى قبل الطوفان ويقال ايضا ان من ابتلى بالحداد يكون خلال ثلاثة ايام الاولى مثله مثل رجل علق على رأسه سيف ذو حدين، يهدده بالموت كل حين، ومن اليوم الثالث الى اليوم الخامس، يظل مصوبا امامه في زاوية من الغرفة، اما بين اليوم السابع والثلاثين فانه لا يفتأ يتراقص امامه في الشارع، ويمكن ان تكون العائلة ضحية هذا السيف خلال كل السنة.

ويروي كتاب الزهار بالاضافة الى ما ينقله من اعتقادات صوفيه ان روح الفقيد التقي تبقى مشدودة الى جسده مدة ثلاثين يوما، بينما تظل روح الانسان العادي مرتبطة به مدة اثنى عشر شهرا،انها فترة مرورها الى المطهر. ونجد في نص تلمودي (شبت 152 B) ما يلي : «تظل الروح تطوف حول القبر، الى ان يتحول لحم الجسد الى غبار». ويعتقد المسلمون ان الروح تطوف مدة ثلاثة ايام حول بيت الفقيد،واربعين يوما حول القبر، بالاضافة الى ذلك تقام في نهاية هاتين الفترتين الصلوات وتوزع الصدقات ويقدم «المعروف» وهو طعام يخصص لطلبة المدارس والفقراء بأبواب المساجد والمقابر.

ولا يطبخ المسلمون في بيت الميت الا بعد مرور ثلاثة ايام بعد الوفاة،بدل سبعة ايام عند اليهود،حيث يتكفل افراد عائلة الفقيد والاصدقاء بارسال الطعام اللازم الى بيت العائلة المصابة.

7 – «القاديش» وسلطته المنقذة (المخلصة).

لقد سبق ان اتيحت لنا الفرصة لاثارة الدور الذي تلعبه هذه الصلاة في رحلة الروح بعد الموت،وارتقائها الى جنة عدن،وسكونها تحت اهداب العرش السماوي، ويقابل كلمة قاديش الارامية، الكلمة العبرية قادوش (القديس)،وهي تشير الى ركن أساسي في الطقوس اليهودية، طقوس الحمدلة والشكر لله، وتستلزم قراءتها حضور «المينيان»، وهو الممثل في عشرة من المومنين البالغين (البلوغ الشرعي هو ثلاث عشرة سنة) الذين يرددون امين. وقد وضع النص المتعلق بهذه الصلاة باللغة الارامية التي استعملتها الطوائف اليهودية ببابل،باستثناء خاتمتها وبعض الترديدات بالعبرية،والنص يمجد اسم الخالد،ويتضرع لياتي المنقذ سريعا.

تسود مملكة الله،ويعم الخلاص والسلام العام. ولا تتعرض هذه القراءة الا نادرا لخراب هيكل بيت المقدس (على يد الرومان)، مما يدل على ان اصولها قديمة جدا.وتوجد روايات متعددة لنص هذه الصلاة وكل رواية منها تتضمن جزءا مشتركا، وما يضاف لهذا المشترك،يكون تبعا للظروف والمناسبات وخصوصا في قديش الاحبار (قديش ذي ربنان) وقديش الموتى (او اليتامى).

وجاء في مدراش (او تيوت الربي عقيبا) ويعود الى عهد االكاوْونيم،(بداية عصر الوسيط) «عندما يجيء المنقذ يتربع الله في الجنة ويشرح في موعظة الشريعة الجديدة (توراة العهد القديم)، امام جموع القديسين الصالحين والملائكة. وفي ختام الموعظة،ينهض زرو بابل (12) ويرتل القديش بصوت يسمع في كل ارجاء العالم،فتجيبه كل الانسانية جمعاء

12 انه «زرو بابل» الذي اعاد منفيي بابل الى يهودا بعد صدور مرسوم سيروس الذي سمح بهذه العودة (539/538 ق م).

بامين، وكل الارواح، ارواح اليهود وارواح الاغيار تجيب ايضا بآمن، وعندئذ تعم رحمة الله، وتعطي لمكاييل وجبرائيل مفاتيح جهنم، حيث تفتح ابوابها الاربعون بامر من الملاكين، ليخرج منها كل الذين كفروا عن خطاياهم ليلتحقوا بالجنة.

الربي عقيبا والحطاب = استطاع الربي عقيبا ان يخلص روح ميت من عقاب جهنم، داعيا ابنه ليتعلم ويقرأ القاديش، وذلك حسب ما جاء في احدى «المكادات» (اسطورة المتأخرة نسبيا، وهي تعرف بقصة (سدر الياهو زوطا) وهذا نصها :

«في يوم من الايام التقى الربي عقيبا بروح متقمصة صورة انسان، يحمّل حطبا فوق ظهره، متجها به حسب ما يقال لاضرام نار جهنم، حيث يحترق هو نفسه يوميا عقابا على المعاملات السيئة التي ارهق بها الفقراء في حياته عندما كان جابيا. ويضيف الربي عقيبا بأن هذا الحطاب، لن يتخلص من هذا العذاب الشديد الا اذا استطاع ابنه ان يقرأ القاديش امام جمع من المومنين، وهكذا تبين ان ذلك الانسان اهمل تماما تربية ابنه الدينية، وذهب عقيبا ليبحث عن هذا الاخير، وعندما وجده، تعهد بان يعلمه قراءة التوراة، واستطاع في يوم من الايام ان يقف ويقرأ في جمع عام القاديش، وهكذا خلص والده من نار جهنم.»

8 - احياء الذكرى السنوية جَهْرْ زيتْ/يَرْصَيْتْ YARSYAT/JAHRZEIT

تعني اللفظة اليهودية – الالمانية «جاهرزيت JAHRZEIT»، والتي تنطق «يرصيات YARSYAT» في المجتمع اليهودي المغربي يوم ذكرى الميت، وعادة احياء ذكرى ميت عزيز قديمة جدا...

وكان احياء ذكرى موت اب او شيخ عالم، في العهود التلمودية (القرن الثالث/السادس بعد الميلاد) تتميز بالصوم والدراسة، حيث تقام شعيرة تسمى «هازكارات نيشاموت» (احياء ذكرى الارواح).

غير انه يحتمل ان تكون عادة جاهرزيت لتمجيد وتعظيم ذكرى الاباء، قد نشأت ومورست على الاخص في المانيا في القرون الوسطى، ثم تبناها اليهود الشرقيون، ويهود البحر الابيض المتوسط، محتفظين باللفظ الجيرماني الذي تسمى به سواء في لهجاتهم المحلية او في ادبيات الهلاخا (كتب التشريع والكنانش الفقهية) التي تحدد شعائر هذا الاحتفال.

واخذت جاهزرت بعدا صوفيا بعد ظهور وانتشار العقائد القبالية التي روج لها اسحاق لوريا ومريدوه بمدرسة صفد في القرن السادس عشر، و هكذا فان قراءة (قديش يتوم) كما تقول، تساهم مدة الشهور الاحدى عشر الموالية للوفاة، في راحة الروح وفي مساعدتها لتنتقل

من جهنم الى جنة عدن، غير انه بفضل قديش جاهرزت،ترتقي هذه الروح في كل سنة الى درجة سماوية اسمى.

ولا يعد هذا الاحتفال السنوي مجرد احياء تذكاري او مراسيم ذكرى بسيطة،ولكنه يخلد اضافة الى ذلك،صعود الروح نحو العرش الالهي، الذي فاضت منه واستقرارها في النعيم الابدي الذي طالما طاقت اليه. وتتميز الجاهرزت بعدة شعائر، وهي الصوم وترتيل القديش والهشكافا، وقراءة شعيرة خاصة ، تتضمن دراسة نصوص مختارة من العهد القديم والمشناه والزهار،وفصل من تشريع ابن ميمون (الفصل المخصص لتشريع القرابين) واناشيد وصلوات، وتشعل شمعة او قنديل وهذه عملية لها اهمية كبرى اذ تشبه فتيلة الشمعة التي تحترق الروح في جسد الاسان و«روح الانسان هي نور من انوار الله» (الامثال 27, XX).

وينتهي الاحتفال بالتوجه الى المقبرة لزيارة قبر الفقيد وتوزيع الصدقات، بعد ان تقدم في الليلة السابقة (وجبة الذكرى) التي يجتمع حولها اعضاء الحبرا،والفقهاء من اهل البلد والفقراء.

9 – الهيلولا او احياء ذكرى الموت البهيجية

تقام ذكرى وفاة موسى في 7 ادار، ويحتفل بذكرى الربي شمعون بر يوحاي الذي ينسب اليه تاليف الزهار في (اليوم الثالث والثلاثون لعومر) اي في يوم 18 ايار وذكرى الربي مئر) صاحب المعجزات/ (باعل هانيس)، يوم 14 من نفس الشهر.

واصبح احياء ذكرى وفاة هاذين القديسين الفلسطينيين،مناسبة لاحتفالات وابتهاجات تقام في اماكن قبريهما، في ميرون وطبريا، كما هو الشأن عند كل الطوائف بحوض البحر الابيض.

ويحتفل في المغرب كذلك بالاولياء والصالحين المحليين،واصحاب المعجزات اينما كانوا والاولياء المغاربة المشهورين مثل (عمرام بن ديوان ودواوود ادراع وداوود الاشقر المسمى بمولاي ايغي وغيرهم..» وذلك بزيارة مقابرهم مرة كل سنة. وتسمى هذه الزيارات هنا وفي جهات اخرى بـ«الهيلولا»، وعلينا الا ننسى بأن هذه الاحتفالات اتخذت طابعا مسرحيا واستعراضيا. واكتست هذه المناسبات صبغة اسواق ذات طابع ديني ودنيوي، شبيهة بعادة /الموسم/ في المجتمع الاسلامي.

وتجرى شعائر الزيارة في اماكن قبر الربي،او الولي التي يؤديها الزائر عموما بعد الافصاح عن امنية،او رغبة،بمناسبة حدث غير مالوف، او لمجرد نذر نذره على نفسه بزيارة قبر ربي

كل ما امكن ذلك او في اوقات معينة، وتتضمن طقوس الهيلولا والزيارة شعائر خاصة تصحبها ولائم كبيرة، وتزخر هذه المناسبة بكثير من الامور، منها الصلوات وتراتيل المزامير والاطعمة الوفيرة وافراط في شرب ماحيا والخمر. والرقص والغناء واشعال نيران الفرح (الشعالة) واقامة الحفلات الفلكلورية الشعبية التي تقترب من الهرطقة والتي غالبا ما تدنيها الإرثودكسية الربية دون ان تستطيع منعها او الوقوف ضدها.

وتكون هذه الحفلات مناسبة للابداع الادبي الفني، سواء بالعبرية او باللهجات المحلية. ونجد هنا فيما يتعلق بالشعر الخاص لرصد حياة الاولياء والصالحين مستويين متدرجين من المعارف اليهودية :

المستوى الاول : تطابق المعارف التوراتية مع المنظومات الشعرية التي نظمت في هذا الباب من جهة، والمقطوعات الشعرية باللهجة اليهودية - العربية، وفي حالات نادرة باليهودية والبربرية من جهة اخرى.

المستوى الثاني، القصائد الطويلة أو القصص المغناة التي تحكي سيرة الولى الخارقة للعادة، وهي سيرة مليئة بالاحداث العظمى، والاعمال العجيبة والبشارات والرؤى التنبئية.

وترتجل عادة المقطوعات القصيرة ذات المقطع او المقطعين، تلك التي تتناول مواضيع المدح او الخمر. او الشكر لله وحمده، وتغنى هذه المقطوعات اثناء واحدة من تلك العمليتين المعروضتين للمزاد العلني وهما : اشعال قنديل زيت، او شمعة مهداة للولي او الربي، والوقوف وشرب كأس «ماحيا» تكريما له وعرفانا.

تعتبر العقائد الصوفية والزهار خصوصا يوم الموت، مثل يوم العيد (يوم هيلولا)، وجاء في التوراة في سفر (الجامعة 2, VII) «ان يوم الموت خير من يوم الولادة» وهذا ما يؤوله المدراش حيث يقول : «تروي الموت فضائل الموتى... الجديرة بالتقدير، لانها ايضا مثل السفينة التي ترسو بالميناء محملة بالبضائع» (خروج رباه 48,) ونقرا في مكان اخر هذه القولة : «ينبغي لعظماء كل جيل، ان يموتوا ليتركوا المكان لخلفائهم».

10 - المقبرة وطقوس الموتى

يقام يوم الهيلولا في البيعة، غير ان الاحتفالات تجري بصفة خاصة في المقبرة، وتزار ايضا ايام الخميس، والاثنين وعشية راس السنة، وعيد الغفران «كبور» ويجب ان تتخذ الحيطة التامة حتى لا تتكرر الزيارة مرتين في نفس اليوم للقبر الواحد. ويعلل مؤلف نحالات افوت

زيارة قبور الموتى هاته، عشية رأس السنة ويوم كبور بقوله: «تريد ارادة الله في هذا اليوم ان تحاكم العالم، وفيه تتشفع ارواح الموتى، لاستنزال الرحمة الالهية من اجل الاحياء الذين يخبرونهم حلما بالحكم الذي قضاه الله فيهم، بمجرد ما تقضي به ارادة السماء».

وعلى هذا الاساس، ياتي الاحياء الى المقبرة ليطلبوا من الموتى التشفع لهم وياتي المرضى والنساء العاقرات احيانا للاقامة في المقبرة بجوار الصالحين والاولياء المحليين، في غرف صغيرة مخصصة لهذا الغرض، ويقضون بها ثلاثة او سبعة ايام متتابعة، يتوسلون ويتعبدون من اجل شفائهم، او لتقضي كل مآربهم وحاجاتهم.

ويتخذ المسلمون عادة من المقبرة مكانا للنزهة تتوجه اليها النساء والاطفال يوم الجمعة، وهناك يشربون الشاي. ويتجاذبون اطراف الحديث. وتزدحم المقبرة بالناس في يوم 27 من رمضان، وعلى الخصوص يوم عاشوراء، وتوضع على القبور اغصان الرياحين، ولا شيء يذكر ابدا في هذه الزيارات بتلك الزيارات الكئيبة ولا بيوم الاموات، كما هو معروف عند المسيحيين.

ويبدو ان شفاعة الموتى، عادة قديمة تعود الى اصول توراتية، ولقد جاء ذلك في نص توراتي نقل مضمونه الى الشريعة الشفوية:

ان كالب عندما وصل الى حبرون توجه لزيارة مغارة «ماخيلا» وهي مدفن الاباء وصلى فيها لكي ينجو من مكيدة حبكتها له /العيون/ التي بعثها موسى للتجسس على ارض كنعان وكان هو نفسه احد افراد هذه البعثة (انظر هذه الواقعة في سفر العدد XIII وسوتاه 34). وقد يحدث عكس ذلك فتسعى الاموات الى الاتصال بالاحياء وتتحدث كثير من الحكايات عن زيارة ميت من الموتى لاقربائه.

واكثر هذه الزيارات، زيارة ميت لزوجته يطلب منها ان تقوم ببعض المهمات، ويبدو من جهة، ان الاموات يولون اهتماما كبيرا بحياة الاحياء العادية وباهتماماتهم ومشاغلهم الدنيوية.

وجاء في نص تلمودي، ان الربي حييا كان قد ذهب الى المقبرة بصحبة الربي يوناتان، ولاحظ اثناء الطريق ان اهداب خمار صلاة هذا الاخير، قد انحلت، وعلقت فوق ملابسه وعاتبه على ذلك وامره بان يجمعها ويدخلها خوفا من ان يقول الاموات «غدا سوف يلحقون بنا وهاهم اليوم يسخرون منا» (13).

ويعبر مؤلف اخر معاصر، عن هذه العلاقة الموجودة ما بين الاموات والاحياء بعبارات اخرى قائلا ما ملخصه / بعد ان تولج الروح ابواب الموت، تنبسط وتعود لرؤية العالم الذي خلفته وراءها، ويضيف ان الاموات يحيون فينا اذا نحن اخترنا ان نحتفظ بهم أحياء (14).

13 – انظر كذلك قصة تيتغير تودغا اعلاه ص 97–99

14 - **Saül Bellow, le Don de Humbold, Flammarion, 1978, P. 197 et 327**

11 - الزيارات المشتركة بين اليهود والمسلمين

يمكن ان يكون نفس المزار مقصدا لليهود والمسلمين،ومكانا للوفاق،حيث تتجلى احيانا مظاهر ثقافية مشتركة،بل توفيقية دينية قد تدهش الناظر،انهم يهود ومسلمون يحثون معا لدى نفس الاولياء والصالحين عن شفاعة وحماية،ويقومون بنفس الممارسات ونفس الاعمال ويقدمون نفس الصدقات،ويتوسلون بنفس الدعوات ونفس الصلوات.

ويعود كل واحد منهم الى بيته بعد ان زار نفس الولي،غنيا بالتخيلات،وبكل الخيرات التي كان يرتقبها من نجاح زيارته هاته،وهو مزود على الاقل بايمان قوي وآمال جديدة.

12 - مراثي وتأبينات جنائزية
(بعض المرثيات المغربية من القرن السابع عشر والثامن عشر)

تلفت الاشعار الرثائية عادة والمتضمنة في منتخبات تحمل عنوان «عين السفود» (زمن المراثي والبكاء) الانظار قبل كل شيء بسبب الدور الهام الذي تلعبه بواسطة /المراثي/ في الشعائر الجنائزية واهمية المكانة التي تحتلها المرثية /القناه/ في طقوس الايام السبعة الخاصة بالحداد والاحتفالات الثلاثة الكبرى التذكارية.

ويتضمن هذا النوع من الادب،نظرا لمضمون نصوصه نفسها،ونظرا للمعلومات التي يسجلها المؤلفون في بداية كل نص،من اخبار ومعلومات ثمينة في بعض جوانبها عن الاشخاص المتوفين،وظروف موتهم،وهو يشكل وثيقة لا يستهان بها في معرفة السير والوقائع التاريخية.

وتزودنا المرثيات التي نظمها يعقوب ابنسور.وهو مؤلف مغربي من القرن السابع عشر والثامن عشر، بمعلومات لما تتضمنه من أخبار حول ظروف المجتمع اليهودي وأحواله، وخصوصا بمجتمع فاس ومكناس،كما يطلعنا على الروابط التي كانت تربط هذا المجتمع بالبيئة الاسلامية،والنظام والسلطة المركزية والمحلية،واحوال الموظفين المدنيين الذي يسيرون شؤون الطائفة،وكبار القضاة الاحبار الذين يشرعون القوانين،ويسهرون على السلامة المعنوية والروحية لاعضائها.

وكان يعقوب ابنسور،وهو قاضي القضاة بمحكمة فاس ، وفي نفس الوقت خطيب نابغ يدعي كذلك ليلقي خطب التأبين لهذه الصفة ولما كان يشغله من وظائف،وعلى مستوى

المضمون فان هذه المقطوعات الرثائية هي تأبينات مأتمية وعظية حقيقية ويرتبط فيها التعبير عن الالم والاسف،وتعداد مناقب الفقيد وفضائله،بالتأمل في قضايا الايمان،والمواضيع المختلفة المرتبطة بالموت، والتذكير بحقيقة الطابع الزائل للحياة،وهشاشة هذه الدنيا،وعرضية الجسد ومقارنة ذلك بخلود الروح وملذات نعيم الدار الاخرى التي هي متوى الاتقياء والعلماء الذين يجللهم جلال المجد، ويتربعون تحت اهذاب العرش السماوي).

وتنتمي هذه القطع التي اخترناها هنا، مع المعلومات المسجلة في مقدمتها الى الشعر المكتوب باللغة العبرية،وهي على العموم مقطوعات قصيرة،وهذه بعض النماذج منها (ترجمها المؤلف الى الفرنسية).

يوم الجمعة 19 ادار 1689/5449، التحق بالملكوت الاعلى، الحكيم الكامل والمعلم الفاضل قاضي القضاة بمحكمة مدينة فاس، الربي يهودا عوزيل طيب الله ذكراه في مثواه، (ونظمت هذه /القناه/ تخليدا لذكراه المجيدة وغنيتها على لحن البكائيات المرة).
النص اعلاه، ديباجة للقطعة التالية :

يختلج قلبي،وارتعش من الاسى والالم، اشتكى وارثي بمرارة،وانوح نواحا مرا،واصيح بلواي، بين عشيرتي المجتمعين في هذا الحفل،لقد بسط الله في يمناه،في غضبه وسخطه،ولهذا داهمني الرعب والارتجاف عندما تحطم كبرياء يهودا.. تاج الرجال ذوي الهيبة والحكماء،كنز الملذات كان يعرف سر الحرف والرمز والبلاغة،وهو نبع القضاء وعمق التصوف.يعلم الناس بكلام عذب عميق، ايات اخلاقه وفضائله ايات دون عد، كان عدلا. وكرس كل حياته لخدمة الدين والشريعة.

انطفا نور يشبه لمعانه اشراق الشمس المذهب.التحق بالله عملا وفكرا».
نظم يعقوب ابنسور عديدا من المراثي، تخليدا لذكرى مناحيم سريرو وهو ربي معاصر له، من بينها، رثاء يقال بانه رتل ترتيلا غنائيا ، عندما وصل النعش ، الى البيعة الكبرى التي كان يصلي فيها ويعلم.

ويجب ان نشير هنا ان وضع النعش في البيعة،هي عادة لا تعرفها الاعراف اليهودية في المغرب، إنه إجراء لم يحدث مثله ابدا في اي جهة اخرى، حسب معرفتي، ولم اشهد مثله قط،وهي عادة جرت بها العادة عند المسلمين بوضع جثة الميت في المسجد قبل الدفن عندما يكون الفقيد شخصية سياسية او دينية من علية القوم.

يبدا هذه المرثية ، بهذين البيتين المنظومين باللغة الارامية : «يليق بكم ان تمزقوا مكتوبكم، يا أعضاء هذه الجماعة المقدسة. اذ بسبب اثامكم قد توفي سيد جليل».

وفي بكائية مؤثرة، يبكي يعقوب ابنسور، موت اثنين من أبنائه،يوسف وموناشه اللذين توفيا في شهر شباط 5462 / 1702، بعد وفاة أخيهما (روئيفين رباه الاكبر)و(روئيفي زوطا الاصغر). هاجمت الاقدار هذا(العجوز الصلب) الذي عاش بعد موت ستة عشر من أبنائه. لقد ملأ موتهم حياته بالحداد، وظل يصب الامه في مرثيات مسجية بليغة، لقد سكب يعقوب ابنسور دمعا سخينا في هذه القصيدة المقطعية، التي يبكي فيها المآسي الاربع التي حلت به، وجاءت بكائيته هذه على منوال بكائية «قيناه» تنسب للشاعر القرطبي اسحاق بن غياث (من القرن الحادي عشر)، وهي بكائية تغنى في مناسبة 9 آب، وتبدأ هكذا.

مطرودون من البيت ومن ملاذاتهم.
ويستهل ابنسور مقطوعته بهذا النداء:

«ياأخواني ويارفاقي وياأصدقائي الاحباء، رحمة بأساي، لقد ضعفت قواي، في ذلك اليوم الذي حل بي أمير الجلادين، بهيمة الحقول،وقد جاء ليأخذ ولدي.»

ويؤبن يعقوب ابنسور، ببكائيتين الربي باروخ توليدانو، وهو من أصل مكناسي استقر في الأرض المقدسة بالقدس، ومات هناك يوم 10 طابت 5472 نهاية 1711.

« غادر مستقره/ موطنه ومسقط رأسه/ ليجسد ارادة خالقه/ في حب وخشوع/ رشيق مثل الايل، خف مسرعا / ليذهب بحمية / إلى مدينة الجمال والقداسة/ إلى بلاد الجبال والهضاب.»

وتخلد مجموعة من سبع مرثيات، ذكرى وجهاد يهود من فاس ومكناس، اعدموا أو احرقوا أحياء، بأمر من مولاي اسماعيل:

«إلى يهودا بنسور ابن عمي،الذي استحال دخانا وهو بعد في زهرة العمر، قتل من اجل تقديس الاسم، يوم الجمعة 11 تموز 5472 / 1712 بمكناس.»

والقصيدة بكائية مقطعية،وهذه لازمتها: «انتم يا أوفياء جماعتي، اتحدوا في جمعكم وابكوا طعمة النيران / لقد اشعل الله الحريق.»

وفي نفس اليوم 11 تموز 5472 / 1712 اطعم النار اسحاق بن عمارة، وهو تاجر محترم من فاس، ولقي ابنه هارون نفس المصير في يوم السبت التالي: واخترنا المقطع الأول من المرثية التي تمجد ذكراهما وهذا نصه: «اثقلهما رجال متعجرفون / أصلاف / باحزمة

من الحطب يجرانهما إلى المحرقة، يدفعانهما نحو اللهب / يوسعانهما بالشتائم المرة / لم يفتآ يعلناز عن وحدانية خالقهما/ يستنزلان عدالة الله فيهما».

«بعد ظهر يوم الجمعة 6 ايلول 1714/5474 عذب وقتل كل من الفقيهين موسي هاكوهن واخيه شم طوف هاكوهن، وهما من ابناء الربي نحمياه هاكوهن». يبلغ الأول من العمر واحدا وثلاثين سنة، وكان مريدا ليعقوب ابنسور، وهنا يؤبن الشيخ مريده قائلا «انشدوا جمعا مراثي (ابكوا) موت رجل /ايمان/ امير من بين الاحبار (وفي رواية من جنس الاقوياء).»

الفصل الثالث
المجتمع اليهودي المغربي
الطائفة

أ- مجموعتان عرقيتان: (اتنيتان) المكورشيم (المهجرون الاوربيون) والتوشفيم (البلديون)

تختلف المجموعتان العرقيتان اصلا ولغة، كما يختلف مستواهما الثقافي، وتختلف طقوسهما بل الاكثر من ذلك، مفاهيمهما الاجتماعية والاخلاقية. ومع ذلك عاشتا جنبا الى جنب، ولكل منهما مؤسساتهما المتميزة، ثم لم تلبثا ان اندمجتا بفعل الأنشطة الاجتماعية التي تسلم قيادتها العنصر المهجر الاندلسي في نهاية الامر. والحقيقة ان تاثير هذا العنصر أخذ يزداد تدريجيا، وهيمنت قواه في الميدان الاقتصادي، بل وفي العلوم الربية نفسها.

وقد سمت النصوص التي بين ايدينا، كلا من المجموعتين، تسمية خاصة: «قهل قدوش همكورشيم» (الجماعة المقدسة المهجرة) «وقهل قدوش هتوشفيم» (الجماعة المقدسة البلدية). وقد استخدم لفظ «البلديين» مقابل الروميين (الاوربيون) اسما للمجموعة الثانية، في احد الاحكام القانونية التي كتبت باللغة العربية، ويعود تاريخها الى 1550.

وكانت مسألة العلاقات بين المهجرين واخوانهم البلديين معقدة الى حد ما، اذ كان الصراع فيما بينهم، يمس طقوس الاكل والشرب والشعائر، وقانون الاحوال الشخصية والضرائب الخ... وقد علمنا بوجود المتمسحين بالمغرب، خصوصا في فاس، بواسطة بعض الفتاوى القانونية. كما عرفنا بواسطتها ايضا موقف الطائفة تجاههم. ورغم انهم رجعوا الى اليهودية التقليدية بعد مجيئهم من اسبانيا والبرتغال، فان العراقيل كانت توضع امامهم حتى لا يشتغلوا مناصب عامة

في الطائفـة. كما تمت محاولة خلع الامتيازات التي يسمح بها لقب كوهن لمن كان يحمله من هؤلاء. وقد جاء هذا الاعتراض على مكانة واهمية المتمسحين السابقين، واندماجهم في الطائفة بالخصوص، من اخوانهم البلديين، بينما عضد هم اخوانهم القشتاليون القدامى وساعدوهم.

وتجدر الاشارة الى ان العائلات ذات الاصل الاندلسي التي كانت تسكن المغرب، أو سكنته قبل تهجير 1492، كانت تعد عائلات بلدية، عكس يهود الاندلس والبرتغال القادمين بعد هذا التاريخ (مثل عائلات بن دنان بن ريموخ كـجين الخ...)

ب- اسرى مسيحيون وعبيد سود في منازل اليهود:

تعرضت فتوى كتبت بفاس تحمل تاريخ 1603، عرضا، الى وجود اسرى مسيحيين في بيوت اليهود بالملاح، فربما كان بعض الاغنياء التجار يملكون بعضا منهم لخدمتهم، فاستعملوهم اما خدما أو عملة في بعض الاعمال المتخصصة المحترمة، في انتظار فديتهم المحتملة. ويمنع الحكم الشرعي المذكور، بيع أو تقديم الاشربة الكحولية للاغيار، غير انه يتوقع استثناءافيما يخص الاسرى:« يحل للذي يملك اسيرا غير يهودي اشتراه بماله، ان يقدم له خمرا أو عرقا (ماحيا)، شريطة ان يشربه بحضورمالكه...)

ومعلوم من جهة اخرى، أن اليهود المغاربة كانوا يملكون عبيدا غير مسلمين، استعملوهم بديلا لتحرير الاسرى المسلمين في الديار المسيحية أو لفدية الاسرى المسيحيين في الديار الاسلامية. وفي هذه الحالة كان يلجأ الى الصيارفة اليهود الذين كانت لهم علاقات مع اوربا.
وكان بعض اليهود في الجنوب المغربي، في الصويرة بالخصوص، حتى بداية هذا القرن، يملكون عبيدا سودا كلهن نساء تقريبا، وكن يحملن اسم «امباركة» أو «الغالية»، والخادم عادة، هدية من القائد الى اصدقائه،أو الى شركائه الاقربين اليه، وكن يتبنين نمط الحياة والممارسات الدينية التي تمارسها العائلات اللائي يعشن وسطها واللائي اصبحن واحدات من افرادها.وكن يمارسن تأثيرا حقيقيا في الاطفال. وغالبا ما كانت تحدث مشاكل بسبب المكان الذي يجب ان يدفن فيه بعد موتهن، رغم ان بعضا منهن كن قد تهودن رسميا.

وكان الوضع القانوني لليهود من أي اصل كانوا، هو ذاك الذي اعترف به الاسلام «لاهل الكتاب» الذين قبلتهم الجماعة الاسلامية،وضمنت لهم الحماية مبدئيا. انه قانون الذميين الذي قننه الفقه (التشريع الاسلامي). وقد تمتعت المجموعات اليهودية داخل هذا الاطار، باستقلال ذاتي كامل اداريا وثقافيا، ووضعت لها نظامها الخاص. وكانت لها محاكمها وماليتها. وكانت

تضمن لتابعيها حقهم في التدين، والرعاية والتعليم، وتطبيق قانون الاحوال الشخصية، بل حقوقهم المشروعة في ما بينهم. وكان للطائفة سلطة تنظيمية تلزم افرادها بكل ما يتعلق بالجوانب الضرائبية والمصالح العامة.

2- مجلس الطائفة -الاحبار والاعيان:

تستقطب الارستقراطية (وهي هنا تتداخل مع الطبقة المسيرة) كما في كل مجتمع يهودي، من النخبة المثقفة مبدئيا، ولا تحدد قيمة الشخص الحقيقية ووضعه في السلم الاجتماعي الابماله من معارف. وهكذا يتعاون في ادارة الطائفة، داخل «مجلس الطائفة» (وعد هقيهيله أو المعمد) الاشخاص المختارون من الطبقات الاجتماعية الآتية:

- الاحبار الرسميون «حخميم» والقضاة (ديانيم) وهم اصحاب الامر والنهي في الامور الشرعية، وسدنة العقيدة والتقاليد، ويتم تعزيز سلطاتهم، في الظروف الاستثنائية، بطبقة من الثقاة، يعرفون باسم «حخم ههسكر» وهم اعضاء في «جماعة النساك».

- ويمثل الاعيان، وقد يكونون هم ايضا ذوي نباهة وثقافة، نوعا ما اولغارشية تخدم في غالب الاحوال، المصالح العامة بدراية واخلاص، غير انه يحدث في بعض الاحيان ان يتغلب هولاء بثروتهم وسلطتهم، فيتسلطون على الطائفة ليستفيدوا شخصيا، أو ليحلوا لهم ما لا يحل لغيرهم. وعندها يضطر الاحبار الى استنكار هذه الاعمال.

وتظهر الوثائق التي بين ايدينا، ان الاعيان كانوا يلقبون القابا تشريفية متعددة، تناسب الدرجات المراتيبية الاجتماعية أو الوظائف المنحددة التي كانوا يشغلونها (مثل: «روش هقهل» (شيوخ الطائفة) «طوفي هعير» اخيار المدينة. وعددهم سبعة، «وطوفي بيت هكنيست» (نخبة البيعة أو رعاتها) و «مخبد هقهيلوت» (اشراف الطوائف). و «يحيد هقهل ويحيد سكوله (نخبة او منتخبو المجتمع، و لهذه الطبقة وضع خاص تتمتع به دون غيرها)و «انشي هسررة» (الطبقة المهيمنة). ومن هذه الطبقة يتم اختيار اعضاء المجلس «اناشي همعمد»، وهم الذين يقومون مع غيرهم بالوظائف العامة، ويعملون عادة تطوعا، في مثل جمع وتوزيع الضرائب، وتمويل وتسيير المؤسسات الاحسانية، وادارة البِيَع والمؤسسات الدينية. انهم «البرنسيم» (المقتصدون) والكزبريم (امناء الاموال) و «بقديم» (الموظفون) و «المقدميم» (المقدمون) و «مونيم» (يقومون باعمال طارئة معينة). ومن الاعيان ايضا، تعين اعلى شخصية في الطائفة، هذه الشخصية التي كان يطلق عليها في النصوص التي بين ايدينا قصد الاحترام «النكَيد»، واحيانا «الناسي» (الامير)، وهو لقب لا يعني في الحقيقة الا الاستعمال العربي «شيخ اليهود» (كبيرهم)، واطلق

عليها ايضا، «امير الامراء» في مرسوم مورخ ب 1603. غير ان اللقب الذي كان معروفا الى يومنا هذا هو «شيخ اليهود» أو الشيخ فقط.

3- النگيد

الرئيس أو شيخ اليهود أي «النگيد»، هو همزة الوصل بين الطائفة اليهودية من جهة، والسلطات الرسمية للبلاد أو المدينة (السلطان وممثلوه وموظفو المخزن) من جهة ثانية. ويقلد وظائف الشرطة وجمع الضرائب، وهو المكلف بالتطبيق الحرفي لقرارات المجلس «المعمد» الذي يرأسه في غالب الاحيان، ويسهر على تنفيذ الاحكام الصادرة عن المحاكم الربية.
وقد لعبت هذه الشخصية في غالب الاحيان، دورا خطيرا في القصر الملكي (مثل المستشار الشخصي للعاهل، ورجل الدولة والسفير ومقتصد الجيش) وجرت العادة بأن لا ينال منصب «النگيد» الا من احرز تاييد الحكومة، وموافقة الاعيان والاحبار. ويرتبط مسلسل هاتين الخطوتين بالحالة الراهنة. ومهما يكن من أمر، فان العملية كانت جد معقدة، واحيانا تطوقها الدسائس والمحسوبيات والرشاوى. ونجد في كثير من الاحكام الشرعية والفتاوى، اصداء صراعات ظهرت في الطائفة بسبب اختيار «النگيد». وقد يحدث ان يثور الأحبار ضد هذا الأخير،إذا تم اختياره بالرغم من ارادة القهل (الطائفة) أو اتهم بارتكاب خيانة اثناء اداء مهمته.

واذا كان النگيد يمتلك سلطة كبيرة، وكان يتمتع بامتيازات تضعه احيانا فوق القانون العام، فتجنبه الاجراءات المقيدة المفروضة على الجميع تبعا لبعض القرارات الربية ، فانه ايضا أول ضحية للتغيرات السياسية والتعسفات وجشع الحكام. وقد يتعرض لمواقف لا يحسد عليها في فترات الازمات الشديدة. وعليه فان الطائفة تلتزم كتابة بتعويض خسائره المادية التي يتعرض لها اثناء تأدية مهامه.

وقد جمعنا، في ما يتعلق بهذه الشخصية لدى الطائفة اليهودية بالمغرب، اخبارا شفوية تثبت كثيرا مما جاء في الوثائق القديمة. من ذلك انه كان في خدمة الشيخ صموئل (صموئل الباز) بالبيضاء، في بدء هذا القرن، قبل الحماية الفرنسية، مجموعة من «المخازنية» كانو يساعدونه لاستتباب الامن في الملاح، ولحماية اليهود من هجمات المسلمين. كما كان يستعمل كل ما في وسعه من حيل لمنع اسلام اليهود، او ليرد من اسلم منهم حديثا، وكان هؤلاء يعاملون بدون شفقة ولا رحمة. لقد كان حامي الارامل واليتامى، وكان يقف بحزم بجانب الفقراء ضد جشع ارستقراطية المال التي تبحث عن الاستفادة والامتياز اللامشروع، خصوصا في

موضوع تقسيط الضرائب (استفدنا هذه المعلومات من ارموند الباز وهو حفيد هذا «النگيد» البيضاوي» وهي معلومات اكدتها روايات اخرى).

4- المراسيم

يسير المعمد (المجلس)، الذي يرئسه النگيد عادة، الطائفة بواسطة مراسيم وقرارات، وتتناول هذه المراسيم والقرارات جوانب شاسعة من حياة المومنين، ولها صبغة الصلاحية الدائمة، غير انه يمكن ان تكون موقتة، وفي هذه الحالة، تكون صلاحيتها محدودة.

وتطلعنا عديد من النصوص، بكثير من التفصيل، على أسلوب انشاء واصدار هذه المراسيم، وعن كيفية نشر محتواها في اوساط الجمهور (قهل)، وكذا عن العقوبات التي يتعرض لها المخالفون. وهكذا يصف المرسوم المؤرخ ب 1550 هذا الاجراء، (تجدر الاشارة الى ان المرسوم أعد لطائفة فاس البلديين، ولذلك حرر بالعربية): «لقد حررناه (مرسوما) خدمة للطائفة، وتبعا لرغباتها، وامام شيوخ الجماعة المقدسة البلديين، وقد حررناه بحضور «الحخم» وسبعة من الاعيان، وسجلناه في «كناش اخبار» الطائفة الذي يحتفظ به «كزبر» (امين المال) وقرأ النص امام الجماعة المجتمعة في البيعة يوم السبت، اثناء وضع سفر التوراة على منبر القداس، ولم نضع عليه خاتمنا آلا بعد الموافقة عليه».

وقد يعلن رسميا في بعض الاحيان عن قرارات «المعمد» في الطرق العامة، على صوت البوق (شوفر) (مرسوم 1716). وتصبح هذه المراسيم سارية المفعول بمجرد الاعلان عنها، ويلزم افراد الطائفة باحترامها هم واحفادهم بعدهم الى الابد (مراسيم دائمة)، أو طيلة المدة المحددة (مراسيم موقتة). وتفرض عن طريق /الحرم/ (التكفير). والحرم سلاح مخيف تتخذه الجماعة ضد الجانحين. وهو تحريم ديني واجتماعي كاف في حد ذاته، ويستوجب عواقب جد وخيمة مادية ومعنوية. ويرفق هذا التحريم باجراءات اخرى، مثل العقوبات الجسمانية، والتطواف وعقوبة السجن أو الغرامة المالية، وهي امور ينفذها «النگيد» بناء على طلب الاحبار القضاة و«المعمد» (المجلس).

وكان يسمح في بعض الاحيان ل«نگيد» بتسليم الجانحين الى السلطات المدنية: المخزن ، حتى تتمكن من معاقبتهم عقوبات قاسية.

وتستطيع المحكمة الربية علاوة على ذلك، ان تتخذ اجراءات الطرد، ضد الفرد غير المرغوب فيه من لدن الطائفة، وذلك بحرمانه من دخول الملاح.

ولنذكر مرسوما مؤرخا ب 1730، وفيه يمنع تحت طائلة التهديد ب«الحرم»، افشاء سرية المعاملات الخاصة باليهود، مثل الاعفاء من ضريبة /السيكا/،وهي بيع الكبد (طعام العامة) الذي يحدد ثمنه في مقدار متواضع. ونضيف ان «التقنوت» التي يصدرها «معمد» (مجلس) مكان معين، لا يعمل بها في اماكن اخرى. وهكذا نصت تقنة 1602 بانه «ليس لها قوة القانون الا في مدينة فاس، وفي محيط لا يتعدى حوالي 10 كلمترات ونصف.»

5- تطبيق العدالة: محاكم وقضاة

ونذكر انه في اطار الاستقلال الاداري الذي خوله قانون الحماية (الذمة)، فان للطوائف اليهودية الحرية في تطبيق العدالة، كما ان لها محاكمها الخاصة التي تمتد صلاحيتها، فتشمل وجوها مختلفة من الحياة العامة والخاصة للمومنين. وتتقيد هذه الطوائف تقيدا تاما بالقواعد الشرعية والشعائرية للعقيدة،وتطبيق قانون الاحوال الشخصية، ولها معرفة واسعة بقانون المعاملات (العقود والالتزامات والمنازعات العقارية والتجارية). وفيما يتعلق بالمنازعات التي تحدث بين اليهود، فان السلطات المدنية تختار عادة إحالة المتقاضين على سلطتهم القضائية الخاصة:
«بأمر من سيدنا الملك اعز الله قدره، والقاضي (شوفط) اعزه الله، فانه لا يمكن ان يقضي في امر اليهود الا قضاة اسرائيل اليهود» (مرسوم 1603). ويعتبر القضاة اعضاءا بصفة تلقائية في المجلس (المعمد)، فيشاركون في كل القرارات المتعلقة بالعبادات وتسيير الطائفة.
وينفذ احكام المحاكم الربية اعوانها الخاصون (مخزني المحكمة)،أو «النگيد»،أو المساعد المدني للسلطة الروحية،وكذا مفوضو الحكومة.

ا- تنظيم السلطة القضائية:

ينظم سير القضاء «بيت دين» (دار العدالة) أو المحكمة الربية ، حيث يوجد قاض واحد (بيت دين شل يحيد) أو عديد من القضاة، وهم عادة ثلاثة (بيت دين شل شلوش). وتسمى المحكمة الكبرى (بيت دين گدول)، وقد تتألف المحكمة من اكثر من ذلك. ويرأس المحكمة قاض اول يسمى «أب بيت دين» (شيخ المحكمة) وتظل المحكمة ذات القاضي الواحد عاجزة عن الفصل في بعض الاحكام، وعلى الاخص، بعض قضايا الاحوال الشخصية الخطرة.
والمساعدون القضائيون، هم كتاب العدل الموثقون «سوفريم» (نساخ). وتتمثل مهمتهم الرئيسية في النيابة عن القضاة، وفي تحرير وتوقيع العقود القضائية ومراسيم «المعمد» (المجلس)، بناء على طلب ومسؤولية القضاة ورؤساء الطوائف.«و«السوفر» (الموثق العدلي) متعلم يفترض

فيه ان يكون متمكنا تمكنا تاما من التشريع والاجراءات القانونية المتعلقة خصوصا باحكام الزواج. ومع ذلك فان حضور القاضي ضروري اثناء تحرير العقد».

وللمحكمة اعوانها (رسول دار القضاء)، كما انه من المحتمل ان تستعين بآراء الخبراء، مثل ممثلي هيئات الحرفيين (امين الامناء). وللطوائف عادة مطلق الحرية في اختيار قضاتهم.

ويتولى القضاء كل من له اطلاع واسع في العلوم الربانية، وهذه العلوم هي الضمانة الوحيدة لمن يريد ان يتكلم باسم الشريعة الالهية. ويمكن ان يتقاضى الناس عند من توفرت فيه هذه الشروط، ولو لم يكن رسميا. وللمتقاضين في نزاع من النزاعات، الحق في الالتجاء الى (حكمة) اية سلطة ربية حسب مبتغاهم، ولو كانت من غير الهيئة القضائية «ديانيم» لتفصل في خلافهم، وليسود بينهم القانون والعدل. وتعد قراراتهم بمثابة قانون يخضع له المتقاضون، وتعترف المحاكم الربية بفعاليتها في اغلب الاحيان.

ويخضع هذا الاجراء الى تحكيم الخبراء «بروريم» الذين يحيل عليهم القضاة انفسهم، بعض النزاعات ذات الصبغة التجارية أو الحرفية.

ب- العلاقات مع السلطات القضائية غير اليهودية-وجريمة الوشاية-:

ان أول ما يشغل المسؤولين اليهود، احبارا وغير احبار، هو إبعاد كل تدخل في قضايا الطائفة، وكل خرق للاستقلالية التي خولها لهم قانون الذمة.

وتحترم النظم الاسلامية، بصفة عامة، المبدأ الاساسي لهذه الاستقلالية، باستثناء بعض التدخلات غير القانونية، وهي نادرة. ذلك لأن السلطات الحكومية لا تتدخل الا قليلا في الشؤون القضائية اليهودية، مثل تلك التي اشير اليها، وهي قضية تعدد الزوجات. وهذه وحدها هي التي سجلت رسميا في الحوليات الربية المغربية. ولقد املت على السلطات الربية في الديار الاسلامية، وبالخصوص في المغرب، ارادة تأكيد خصوصية الطوائف اليهودية، وتعزيز سلطة قانونها الذي يحكمها، وارادة الحفاظ على مصالح المؤمنين المعنوية والمادية، والحيطة مع العدالة الاسلامية، املت هذه كلها، اتخاذ احتياطات واقية. ولا تتسامح هذه السلطات بالخروج عن القاعدة العامة للحضر، الا في ظروف معينة، بل استثنائية. وتهدد بالسلاح المرعب، سلاح «الحرم» اعضاء الطائفة الذين يلتجؤون من تلقاء انفسهم الى القضاء الاسلامي ليحتكموا في نزاعاتهم الخاصة الى الاحكام القرآنية. ولقد رأينا بان استعمال «الصداق» الذي حل محل العقد اليهودي« لكتوبة »(عقد الزواج) المضروب امام قضاء اسلامي، ظل يستعمل بفاس

حتى بداية القرن 17. ونجد في نفس «التقنوت» (المراسيم) التي تعرضت لهذا الاستعمال، كما في عديد من الفتاوي، ان موقف المؤلفين (الفقهاء) اليهود المغاربة، فيما يتعلق بصلاحية المحاكم غير اليهودية، هذه الصلاحية التي انحصرت في اعمال الحق العيني، وتستوجب كثيرا من التحفظات، كان نابعا في غالب الاحيان، من ظروف معينة، وكان هذا الالتجاء الى القضاء غير اليهودي أحيانا مامورا به، واحيانا متسامحا فيه، واحيانا ممنوعا منعا كليا.

وهكذا كان يبرم كل تفويت ملكية عقارية، وكل عملية عقارية، وهي بصفة عامة، (بيع أو رهن أو رهن الحيازة) أولا وقبل كل شيء، امام محكمة ربسية، بتوقيع كتاب ضبط يهود. ويلزم ان تثبت بعقد ثان يحرره وكيل عدلي مدني، وتترك لدى جهة ثالثة (يهودي) تتمتع بالثقة...(مرسوم 1603).

واعتمادا على «التقنة» السابقة، فقد سمحت محكمة فاس (1736) باللجوء الى العدالة الاسلامية في قضية نزاع عقاري، مبينة: «انه يلزم ان يبقى العقد بين يدي جهة ثالثة يهودية، الى ان تحكم المحكمة الربية بالسماح بتسليمه للدائن». وتتعلق بالخصوص بالحالة التي «يصر فيها المدين على رفض الوفاء بتعهداته...» وتشير الحوليات القضائية الربسية الى عديد من الحالات من هذا النوع.

جريمة الوشاية: يقرن هذا الموضوع دائما في الكتابات القضائية، باللجوء الى القضاء غير اليهودي، وكان التشريع الذي يحاكم بموجبه الواشون أكثر تشددا،ولا يحتمل أي تساهل. ويدين بكل قسوة «الذي يوشي باخيه اليهودي أو يسلمه الى ايادي الاغيار...» ويلزم الواشي بتعويض الضرر الذي تسبب فيه للضحية، وعليه بالخصوص، ان يؤدي له اي مقدار أو ذعيرة أو رشوة اداها الضحية لاطلاق سراحه.» وهذا هو المحتوى الذي تضمنه احد الاحكام التي صدرت بمحكمة مكناس سنة 1728. وكذلك في عدد هائل من الاحكام القضائية التي توالت طيلة القرون الاربعة الأخيرة.

6- وظيفة الحبرانية ومهام ربسية أخرى

يقوم ذوو المناصب العليا في الطائفة «النكيد»،واعضاء «المعمد» (المجلس) وحتى الاحبار القضاة، بالمهام التي يكلفون بها، تطوعا ودون مقابل، عندما تكون لهم بعض الثروة الخاصة. ويمكن ان يتلقى اعوان القضاء (الكتاب الموثقون) والذين يقومون بالمهام الدينية، مثل «الشوحط» (الذابح) أو «الموهل» (الختان)حيث يعين الاول للقيام بالذبائح حسب المقتضيات

الدينية، والثاني بالختان. ويتلقى اعوان المحاكم وحارس البيعة «شماس» والمعلم والناسخ «سوفر» مساهمة متواضعة من ميزانية الطائفة. غير ان مواردهم تتكون اساسا من اجرة مهنهم، وهم جميعا، وربما باستثناء الكتاب الموثقين، يعيشون عيشة ضنك، رغم انهم يربحون ما يزكون عينا، مثل (الذابح). ويتمتعون بامتيازات ضريبية (الاعفاء من الضريبة الراسية والاعفاء من الضرائب الجماعية). وقد يتعرضون للاستنكار من اجل هذا من حين لآخر. وغالبا ما يحدث أن يقوم شخص واحد بعديد من المهام الدينية، وعليه فوق هذا، ليعيش على الكفاف. ان يمتهن مهنة أو أكثر.

ومع ما كان يحدث من تعدد الوظائف في معظم الحالات، فان الناسخ العادي كان يختلف عن الكاتب الموثق، فمهمة الناسخ ان يكتب على الرق، الاسفار التوراتية (اللفائف التوراتية المقدسة) والتمائم «تفلين» و«المززوت» (رقيقات تحمل فقرات من التوراة التثنية 13-21 XI-9-4,VI وتوضع في جعبة وتعلق بالجهة اليمنى من الباب).

ولم تتجاوز اجرة الحبر الاعظم، وذوي المناصب العليا بحاضرة بها طائفة كبرى يهودية، مثل حاضرة فاس، اثني عشر مثقالا في بداية القرن الثامن عشر.

ويحدد مرسوم (تقنة) حرر سنة 1610، اجرة كاتب موثق في نصف اوقية وخمس مزنات ثمنا لتحرير العقد الواحد.

وفي سنة 1698 كان الذابح يتلقى «بروطا» لذبح كل ديك ذبحا شرعيا. وقد حدثنا في موضوع ذبيحة الدجاج الشرعية، الربي يوسف مساس وهو مداعبا فقال: «ان مهنة الفقراء هذه، كانت قليلة الاجر الى حد ان الاغنياء، آكلي الدجاج، كانوا لا يؤدونها، واضاف ممازحا وهو ينفجر بالضحك: عشير ويخلص (غني ويؤدي). وتشكى محررو مرسوم مؤرخ ب 1722، من الفقر المذقع الذي حل بالناسخين، ومن البطالة التي تفشت إذ ذاك بين اصحاب هذه المهنة، مشيرين الى الانخفاض الكبير الذي آلت اليه اجرة عملهم. فقد انخفض ثمن نسخ التوراة من 250 إلى 80 اوقية، وثمن تميمتين: «تيفلين» من 90 الى 1، و«المزوزة» من ثمنين الى ثمن (ثمن اوقية). وقد عرضوا وضعهم هذا، لاقرار تطبيق الاعفاء الضريبي على الكتاب الموثقين، والنساخ الذين سبق لهم ان كونوا تعاونية (حبرة)، للمطالبة بالاستفادة من هذا الاجراء.

7– «السررة» أو المهام الربنية التي صارت حكرا على الاحبار

يستقطب القضاة والقائمون بالمهام الدينية عادة، من ارستقراطية فكرية محصورة في عدد

..ـود من العائلات، وهذه العائلات هي التي قادت الطوائف المغربية فعلا، طيلة الاربع مائة والخمسين سنة الاخيرة. وكانت تباشر نوعا من القيادة الروحية والزمانية،وكان لها سلطة تعرف في العبرية بمصطلح «السررة» وتحتفظ بحق وراثي، ودون مشاركة، بالشحيطة (الذبيحة الشرعية) والادارة، وخدمة البيعة التي قد تكون تطوعا،او بثمن باهض، وحق القيام بمهام «سوفر» (الكاتب الموثق) او الديان (القاضي). و هذه العائلات هي عائلات ابن دنان السرفاتي وسيرورو وابنسور وابن عطار الخ... بفاس، وبرديكو وميمران بمكناس.

وكان وصول متادبين جدد الى مكان ما، والمنافسات الشخصية بين الاحبار، وافتتاح بيع جديدة، او تأسيس «يشفوت» بل «حدر» (مسيد). واحيانا استنكار امتياز السرره نفسها، كانت جميعا تخلق نزاعات، وتفتح مجالا لمطالب تجد لها صدى في مؤلفات الفتاوى. ومن بين الاسئلة التي كانت تتردد بكثرة ما يأتي: هل لمالك «السرره» حق عيني؟ هل يستفيد من حق التصرف «حزقه» في الوظيفة التي يقوم بها؟ وهل يستطيع نقلها بالوراثة الى ابنه او احد اقربائه؟. وكان المفتون يجيبون في معظم الحالات عن هذه الاسئلة بالايجاب، معتمدين في اغلب الاحيان على مبدأ النفع العام للارث «السرره» الذي نص عليه ابن ميمون نفسه في كتابه «مشن تورا» (مثنى التوراة).

ونقرأ في فتوى فقهية مورخة ب 1728 ل ج ابنسور في هذا الصدد: «كل من استحق ان يتحمل تكاليف «السرره» يلزم ان يتمتع بنفعها هو نفسه طيلة حياته، وتبقى لنسله الى آخر الدهر».

ونجد نفس الظاهرة عند النخبة المسلمة المغربية، كما جاء ذلك على لسان ليفي بروفنسال في كتاب «مؤرخو الشرفاء» ص 11 (تعد صفة العالم وراثية، إذ نجد نفس الأسماء خلال قرنين أو ثلاثة قرون... فقد احتكرت بعض العائلات الكبرى، العلم ابا عن جد، طيلة اجيال، وقد خلفت عقبا من العلماء مازالت ذريتهم تتمتع بالشهرة الى حد الآن...).
ونشير بهذه المناسبة الى انه كان من بين هذه النخبة المسلمة عديد من العائلات اليهودية التي اسلمت خلال فترات طويلة من تاريخ المغرب، وقد حافظت معظمها على اسمائها الاصلية (كوهن، اصقلى بنيس بنشقرون الخ..»

8- مؤسسات الطائفة:

ا- البيعة:

انها نقطة الالتقاء الطبيعي «للقهل» للطائفة : بيت الصلاة ومقر الدرس والتعليم (حدر ويشفاه، ومكان تعليم الكبار ليلا بالدرس أو بالوعظ)، وفيها يجتمع مجلس الطائفة والمومنون لاتخاذ القرارات او اعلان المراسيم علنا، أو لاصدار حكم التكفير، او اعلان التوبة على من وقع عليه ذلك.... وتقدم عن طريق الهبات كل المستلزمات المستعملة للقيام بالفرائض الدينية، ولفائف التوراة ومحملها، والاصباغ التي يصبغ بها التابوت المقدس، ومنبر القداس، والشمعدان والمصابيح والزيت والشموع.

وتجمع موارد البيعة عن طريق بيع «المصووت» (حق «الصعود للمنبر» لقراءة ببعض الفرائض ، بالمزاد العلني والندر، (اعطاءات ظرفية)، و «الرنتمز» «مساهمة فصلية» يسلمها المومنون الذين يرغبون في الاحتفاظ لانفسهم بالاحتفال «بالمصوه» اثناء الفترة التي تفصل بين عيدين كبيرين متتابعين مثل «سكوت» و«بسح».

ويوزع دخل البيعة على كل من المتمتعين ب«السرره» (أوالحزقه) الذين يعملون بالبيعة، (وشليح سبور) «الحبر الامام» الذي يتولى احيانا الوظيفتين معا، وخادم البيعة «شماش» بعد اخذ واجب اصلاح البنايات.

ب- الحبوس والاعمال الخيرية:

تملك الجماعة بالشراء أو العطاء أو الوصية، ممتلكات تخصصها للاعمال الدينية أو الخيرية المسماة «هقديس» (ملك يحرم التصرف فيه)، أو بالاحرى (حبوس). ويسمى ايضا «مال الفقراء»، والوقف الذي تعد امكانية التصرف فيه جد محدودة وهو شبيه بالحباس (حبوس) (ممتلكات المؤسسات الدينية الاسلامية).

ونقرأ في تقنه (نازلة) مورخة ب 1700: (لقد وجدت جماعة يهود فاس نفسها مضطرة الى رهن ممتلكاتها (هقدس) /حبوس/ لمساعدة اعضائها الذين اذقعهم الفقر، بعد الضرائب الباهضة التي ابتزها منهم ابناء الملك (هكذا).

لقد ساهمت صناديق الاعمال الخيرية وحسن تدبيرها في اعانة المحتاجين في حالات الضيق الاقتصادي و المجاعات. وتشهد وثيقة مؤرخة في شهر دسمبر 1613 بانه كان: «يموت اكثر من ستين فردا من غير اليهود كل يوم من الجوع، و لم يهلك ولا يهودي واحد شكرا لله». ويدعم صندوق العطاءات بالذعائر، وهي احيانا جد عالية يفرضها «النگيد» (شيخ الجماعة) أو المحاكم، على كل خرق للقرارات، ومن الضرائب غير المباشرة (انظر ما ياتي). وتتلقى مؤسسات الاحسان بالاضافة الى اشتراكات اعضائها المحددة، الهبات والوصايا، وتستفيد بعض السلع الخاصة بالمعوزين من الاعفاء الضريبي.

ويملك فقراء المدينة حق الاسبقية في الاموال الخيرية التي تخصصها لهم الطائفة التي ينتمون اليها، ولنا في هذا الموضوع «فتوى»/تقنه/ بليغة الدلالة.

فردا عن «الطلبات المتكررة والرغبات المفرطة الواردة من الاحبار الرسل القادمين من بولنيا والمانيا»، فان طائفة يهود فاس الذين يعيشون هم انفسهم في ضيق شديد، حددوا سنة 1691 قيمة الاموال التي يجمعها اولئك الاحبار الرسل.

ج- التعليم:

ان مهمة التربية والتعليم فرض على العائلة،وكذا على الجماعة التي تسهر على التطبيق الحرفي لعديد من الاوامر، والقواعد الدينية المتعلقة بهذا الشأن، والجماعة هي التي تمول بعض مؤسسات «تلمود توره» [مدارس تقليدية]. يرجع فيما يتعلق بموضوع مهام هذه المؤسسة، الى ما نورده في فصل «الطفولة واليفاعة والتربية والتعليم».

9- الضرائب

ا- الضرائب المباشرة:

تتحمل الطائفة اليهودية المغربية بصفتها مجموعات «محمية»، ثقلا ضرائبيا شديدا، فزيادة على الجزية، وهي ضريبة شرعية خاصة، ومن مقومات وضع الذمي،فان الطائفة تودى سنويا عن كل رأس ذكر بالغ. ويرغم صندوق الدولة الجماعات على اداء مقادير تعسفية، في مناسبات مخصوصة، أو في حالات طارئة، كما ترغم على اداء مبالغ جائزة تضاف اليها ايضا المصادرات والذعائر والسخرة والرشاوي، أو الهدايا التي تكون الهدية التي جرى بها العرف. ففي الاعياد الاسلامية الكبرى يقدم وفد من اليهود الى السلطان وحاكم فاس، متمنيات الطائفة اليهودية

مع الهدية التي جرى بها العرف، وهي عبارة عن: اساور من ذهب، واقمشة ومناديل من حرير، وكلها امور جمعت الاموال التي اشتريت بها من ممتلكات العائلات تبعا لثرواتها. ولم يكن هناك ما يحمي بطبيعة الحال، الطوائف اليهودية من التعسف الضرائبي الذي تنأى تحت عبئه، والذي تمارسه السلطة الحامية. ونجد صدى هذا في الشكاوي التي تملأ مقدمات «التقنوت» و «الرسبونسا» التي تتناول هذا الموضوع. غير ان رؤساء الطوائف احبارا وغير احبار، المكلفين باداء الضريبة وجمع اموالها، كانوا يعملون كل ما في مقدورهم لتوزيع العبء على المؤمنين،كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا، كما دعتهم الى ذلك متطلبات الاحكام الربعية، وكان هذا هو شغلهم الشاغل، كما تشهد على ذلك عديد من النصوص الغنية بالاشارات الى ما يمكن ان نسميه اليوم «التهرب من الضرائب». وكذا كانوا يسهرون على العمليات المتعلقة بجمع الضريبة ومقدارها وسبل تغطيتها.

لقد كان «التهرب من اداء الضريبة) اذا نتيجة لسلوك بعض الاعيان ذوي النفوذ الذين كانوا يبحثون عن طريق للتملص من «نير الضرائب»، معتمدين في ذلك على ما كانوا يتمتعون به من «عناية» لدى الاوساط الحاكمة، فاثقلوا بهذا التصرف ،كاهل الفقراء والمعوزين.
اما فيما يتعلق «بتقنية الضرائب» (يتعلق الامر هنا بالاعباء الضرائبية المباشرة المفروضة من طرف السلطة المدنية، والتي يمكن ان نسميها ب«الضرائب المباشرة» تمييزا لها عن «الرسومات» المفروضة على السلع المستهلكة التي تقتطعها الجماعة لتغطية حاجياتها»، فانها بسيطة. والعملية في حد ذاتها حرجة، وغالبا ما تثير الجدل، وذلك بسبب الاموال المعفاة من الضرائب، والتي هي هنا ثروة من تستحق عليهم الضريبة .

والاجراء الشائع، ذلك الذي يفضله الاحبار، يتمثل في تفويض اعداد اللوائح الى جباة مؤهلين ينتخبهم أو يعينهم «المعمد» (المجلس)، ليقدروا هم انفسهم مقدار مال افراد الطائفة وطاقاتهم الضرائبية.

ويظهر ان تنديد فقهاء اليهود كان جماعيا فيما يخص الطرق الاخرى المتبعة لتقويم الاموال، مثل «الاقرار الضرائبي» و«الاجمالي» وهما اسلوبان كانت لهما الافضلية الاولى لدى الذين كانوا يريدون الافلات من بعض الاعباء الضريبية.

ومهما كانت السبل المتبعة، فان مقدار المساهمة كان متناسبا مع اهمية المال الذي كان محددا في مقدار معين، ينص عليه بمرسوم خاص، وتسري فعاليته لفترة زمنية معينة. ومع ذلك فان قاعدة التناسب الضرائبي هذه، لم تكن متبعة في بعض الحالات. ذاك أن النصوص كانت تتوقع، بصفة عامة، خرقا خاصا بالنسبة للثروات الكبيرة، حيث كانت الضرائب المفروضة

عليها متساوية مع ضرائب الثروات التي تأتي مباشرة في الرتبة التي دونها، وكان باعث هذا الاجراء في بعض الاحيان، هو ابعاد العين الشريرة عن الاغنياء الكبار. بل كانت تهدف على الخصوص، الى النجاة من طمع الحكام، واثبات تضامن أفراد الطائفة اليهودية مع قادتهم الاكثر غنى. وهذا ما تشير اليه النصوص صراحة.

ب- الضرائب غير المباشرة:

ضع تحت هذا العنوان كل الضرائب التي تجمعها الجماعة لتغطية قسم من النفقات الجماعية المتوجبة لمساعدة المعوزين. ويقارن هذا النوع من الضرائب بضريبتنا على المصاريف التي تحمل اسم «سكا» (من الاسبانية Sisa) (ضريبة على المواد الغذائية) واحيانا «بعزر»، وهي كلمة عبرية تعني (المساعدة)، والمحتمل ان الامر يتعلق بنظام من اصل اسباني حافظ عليه المهجرون في بلد استضافتهم، وانتهى الامر بان تبناه البلديون كذلك.

وبعد ان كانت تقطع هذه الضريبة من اثمان اللحوم، اصبحت تعم المواد الغذائية الاخرى، فالمواد الاستهلاكية المنزلية ثم كل المعاملات التجارية. وكان يلجأ عادة لاسترداد هذه الضريبة، الى اسلوب الالتزام، اذ كانت الطائفة تتفاوض مع شخص أو مجموعة اشخاص، ليلتزموا بان يسلموها مقدارا اجماليا يحصلون عليه مما يوديه المستهلكون. وقد يحدث كذلك ان يحصل جباة «القهل» (الطائفة) على المقادير المالية مباشرة، أو يقتطعونها عند التجار.

وكانت ضريبة الذبائح هي الممول الرئيسي ل«صندوق الاعمال الخيرية»،ولا تزال الى اليوم، بالاضافة الى الضريبة الخاصة بالخمر «الحلال». وهي احد المصادر الرئيسية للطوائف،وكانت تجرى حسب مرسوم مؤرخ ب 1649 مؤداه: اقتطاع كيلو من الدقيق، ومقدار اوقية قديمة من الزيت ومن الصابون، ومن الزبدة والعسل لكل دكان، مرة في الاسبوع ليستفيد منها الفقراء.

ج- الاعفاء الضريبي:

يعفى اليهود الذين يخدمون الملك من الضرائب، خصوصا النكَيد (شيخ اليهود) الذي يستطيع اذا رغب في ذلك، ان يستفيد، اضافة الى ما سبق، من امتيازات خاصة واستثناءات،مما قد توجيه بعض المراسيم على غيره.

غير ان هذا الموضوع كان يهم بالاساس، الخدام الساهرين على الامور الدينية عامة، والاحبار

على الخصوص. ولانهم كانوامعنيين بامر هذا الموضوع، فانهم خصصوا له، على غرار اخوانهم اليهود، على مدى كل الاجيال العديد من الدراسات، حتى يبرروا الحفاظ على هذا الامتياز القديم الموروث منذ العهود الكهنوتية، وليتخذوا التدابير القانونية من مختلف الازمنة، وفي عديد من المراسيم والفتاوى، فيتمكنون من التشديد في تطبيق هذه الامتيازات اذا ارادوا، او ليوسعوا صلاحيتها فتشمل العديد من العلماء والادباء، اولئك الذين يطلق عليهم اسم «تلميذ حخم» (الطالب)

10- شرطة الاخلاق وقوانين تحديد النفقات الكمالية

وضعت الحياة العامة والخاصة داخل محيط الملاح الضيق تحت رقابة مشددة من ساكنيه اليهود، ومن الطائفة عامة. ولا تنفلت اية مخالفة للنظام الخلقي الديني الذي ينظم الجماعة، من يقظة /«المقدمين»/ الذين يبلغون عنها، ويعاقبون الاعمال الجديرة بالمعاقبة باسم الحبرانية والمجلس «المعمَد». وهكذا تساهم هذه المراقبة في الحفاظ، في هذا المجتمع، على مستوى رفيع من الاخلاقية، والتي هي على كل حال، موافقة لاوامر اليهودية التقليدية.

ويعار حرص خاص، في هذه الاوساط، لاحترام الاخلاق الطيبة، ونقاوة الحياة الزوجية والعائلية، وقد لا يمنع هذا بعض الاشخاص المغالين من الخروج عن القاعدة، ومن ان يحيدوا عن طريق «الموسر» (الاخلاق) والدين (الشرع).

وهكذا تطلعنا بعض الفتاوي على حالات من الفجور، والتسري والخيانة الزوجية والزنى، وهي امور تدينها السلطة الربية بكل قوة.

ولم تكن المتعة هي التي تقود في الاصل الى هذه الانحرافات، وانما كان يفرضها الفقر والظروف القاسية التي كان يعيشها اليهود، كما يدل على ذلك النصان الآتيان:

- «زنت امرأة خلال فترة المجاعة بتطوان مع احد الاغيار، فولدت بنتا ادعتها عائلة هذا الاخير لتقوم بتربيتها على سنة الاسلام (شهادة تعود الى سنة 1750...»

- «استسلمت امرأة الى احد الاغيار، وذلك لانقاذ طفلتها اثناء نهب ملاح مكناس» (نهاية لقرن الثامن عشر)

وتسهل الخمارات التي يجتمع فيها احيانا، داخل الملاح، يهود وغير يهود، الفسق والانحلال، مما جعل الحبرانية، بالاتفاق مع السلطات الحاكمة، تقنن تجارة المشروبات الكحولية، وتمنع

اليهود من بيعها لجيرانهم المسلمين والمسيحيين، أو تقديمها لهم عند دعوتهم لتناول الطعام. وهذه خلاصة احدى «التقنات» (المراسيم)مؤرخة ب 1602: «تقر السلطة الربية المجتمعة، بامر من جلالة الملك، بمنزل النكيد ابراهام روتي، بموافقة النكيد موسى هلفي،«التقنة» (المرسوم) القديم الذي يمنع بموجبه كل يهودي من بيع الخمر و «ماحيا» لاي كان، يهوديا أو غير يهودي، رجلا أو امرأة، أدوميا أو اسرائيليا أو مجوسيا أو مرتدا أو اوربيا (علجا) أو يهوديا اسلم (مشومد)، خلال العشر سنوات القادمة، ابتداء من هذا اليوم، ومن يخالف هذا يعاقب بالتكفير ويلعن، ويتعرض لنفس العقوبات، الذين يقدمونها مجانا لغير اليهود، أو يسمحون لهم بتناولها في حضورهم... ويسمح للذي يملك اسيرا غير يهودي اشتراه بماله ان يقدم له الخمر و«ماحيا» شريطة ان يتناولها في محضره...»

وهناك مرسوم مورخ ب 1617 اتخذ بمحضر النكيد وبامر من الحاكم، يمنع كذلك كل المعاملات التجارية بالخمر و«ماحيا»، غير ان المرسومين يتوقعان تجاوزات تتم على يد النكيد. وتعد القوانين المحددة للنفقات التي تنص على حصر المصاريف الخاصة بمناسبات الاعياد العائلية، والتي تمنع التحلي ببعض انواع الحلي والتزين بكرائم المجوهرات... نصوصا جد غنية بالمعلومات المتنوعة التي تفيد الفقيه، كما تفيد ايضا عالم السلالات واللساني. وتدل هذه الاجراءات التشريعية، الخاضعة في العادة، الى اعتبارات خلقية دينية كذلك، على الاهتمام بعدم تعريض الأموال والأشخاص الى حسد وطمع الاجنبي. وتتضمن هذه النصوص المحررة بالعبرية أو العربية أو القشتالية، كثيرا من التفاصيل التي لم تنشر لحد الآن، عن اللباس ومجوهرات النساء وحليهن، والتقاليد والعادات والطقوس التي ترافق الاعياد العائلية، وبالخصوص الزواج والختان الخ... ومما يؤسف له، ان المؤلفات القديمة والحديثة التي وصفت هذه المناسبات،كانت تجهل تماما هذه الوثائق.

واليكم ما نقرأه في نص مورخ ب 1688: «نظرا للظروف (ارتفاع الضرائب والركود الاقتصادي وما حل بالطائفة من ضيق) فان السلطة الربية والمجلس «المعمد» و «النكديم» (شيوخ اليهود) يدينون استعمال الوجبات الباذخة التي تقدم في المناسبات والاحتفالات العائلية... ويتخذون، تحت طائلة الغرامات المالية، الاجراءات الآتية التي ستسري على الاغنياء والفقراء، اذ هؤلاء الاخيرون، يستدينون بفوائد ربوية للحفاظ على هذه العادة، وتقليد اخوانهم الاكثر غنى [وهذه الاجراءات هي]:

لا يسمح لكل من اعتاد اقامة الحفلات لابنائه ليلة «شفعوت»، تلك المسماة «الختايم» (احتفالات تحتفي بنهاية دورة دراسية ب«الحدر» أو «البيشفاه»، وتشبه الختمة الاسلامية التي تحتفي بنهاية قراءة القرآن) الا باقامة وجبة واحدة، وعليه ان يتجنب فيها استعمال الدجاج

والفراخ وكل انواع الطيور، وعليه ان يتبع نفس الشيء في حفلات الزواج والختان ووجبة أول مولود الخ... ويمنع ايضا ارسال الوجبات المحتوية على لحم الطيور ايام «سبوت» و «العشاوي»،»وهي مآدب خاصة بالسبوت وعشايا أسبوع الزواج،باستثناء المآدب المخصصة للعرسان، والتي تتناولها عائلتا العروسين فقط.»

ويضيف كذلك المرسوم المورخ ب 1618، المتعلق بنفس الموضوع، كثيرا من الفوائد حول تبدير الاموال في مناسبات الافراح العائلية، وفي اقامة الوجبات والمآدب...
«... في هذا الوقت الصعب، حيث يحمل كل يوم نصيبه من اللعنات والمصائب، وحيث يكسر ظهر معظم اليهود بثقل الضرائب والاداءات من جميع الانواع، نلاحظ ان الفقراء مثلهم مثل الاغنياء يستسلمون للتبدير فيما يصرفون بمناسبات الاحتفالات (العائلية)،

ويكثرون من الحفلات التي تتعرض لسلب وسرقة الاغيار على مرأى ومسمع من رب المنزل، وهو غالبا لا حول له ولا قوة... مهما كانت المناسبات، سواء كانت مناسبة خطوبة أو زواج أو ختان أو حفلة أول مولود، فلا يلزم أن يستدعى للافراح التي يجب أن لا تقدم فيها الاوجبة واحدة، الا الاقربون للمخطوبين أو العروسين، واقرباء أب المولود البكر... ولا يستدعى الاجانب (عن العائلة) الى هذه الحفلات الا في حالة عدم توفر النصاب المشرعي (وهو عشرة من البالغين)... ويستدعى فقط الخطيب وربما الاقربون من عائلته في حالة وجودهم، لاول مأدبة تقيمها عائلة الخطيبة على شرف الخطيب، وهي المسماة لدى العامة «الدخلة». ولا يمكن ارسال اي شيء من المأكل المعد للمأدبة خارج المنزل، سواء من النوافذ أو الشرفات أو السطوح... وفي اليوم الذي يقص فيه العروس «الحتن» شعره احتفاء بالتي اختارها، ليس عليه ان يستدعي للمادبة المعدة لهذه المناسبة الا الاقربين من عائلته وعائلة الكنة (خطيبته)، وليس عليه ان يستدعي كذلك اية امرأة غير امه وأم زوجته واخواته واخوات زوجته، لاعداد الكعك و «العقدا» (حلوة خاصة)، عليه ان لا يرسل منها أي شيء خارج الدار سواء من النوافذ أو الشرفات أو السطوح... ومن يومه تبطل عادة «التثقيل» (مشاهد الفرحة) ولن تقام المادبة المعتادة ليوم السبت السابق عن حفل الزواج، سواء في منزل «الكنه» (العروس) أو «الحتن» (العريس). ولن تقام ايضا المادبة التي يقدمها هذا الاخير ذاك اليوم مساءا، على شرف فتيان الشرف المسماة عادة «قاعا». وابطلت كذلك المادبة التي جرت العادة بان يقدمها الزوج مدة حفل الزواج بمناسبة «الربطة». وهي طقس يحزم فيه العروس بقطعة الثوب الابيض التي سبق ان استعملته العروس غطاء لراسها يوم الاحد السابق عن اسبوع العرس... وتقتصر مادبة السمك التي جرت العادة بان يقدمها العروس في نهاية فترة حفل الزواج، على اقرب اعضاء العائلة،وليس عليه ان يستدعي اليها فتيان الشرف كذلك. ويمنع على الزوج ان يرسل الى «الكنه» (العروس) الوجبة المسماة «مرياندا» (من اللغة الاسبانية

merienda (وجبة المساء أو العشاء) التي تقام يوم السبت السابق لحفل الزواج، كما يمنع من ارسال الهدايا المعتادة يوم 9 و 10 من شهر آب وتلك التي جرت العادة بان يرسلها يوم الفصد (شرط). وتكلف امرأة واحدة، نظرا لاحتياجات طقوس الزواج، بحمل طبق الحنة (من الاسبانية alhena) الى بيت الزوجة، دون أن ترفق بالسكر أو اي مشروب، اللهم الا العسل والزبد... ويبطل من حينه ارسال الحلويات وطعام اللحم أو اي نوع من انواع الطعام من هذا النوع الى منزل الواضع خلال الفترة التي تلي الوضع، باستثناء ما تتقبله من الاقربين اليها... ونضيف انه على الزوجة بعد حفل الزواج (قدوشين)، ان تبقى رأسها مغطى بمنديل من حرير، ولا يمكنها فوق ذلك، ان تلتحق بيت الزوج الا مع هبوط الليل...

وكل مخالفة لهذا المرسوم، تعرض المخالف لوصمه بالكفر، ولذعيرة مقدارها مائة مثقال تسلم لجباة الضرائب).

وتؤكد عديد من المراسيم المتعلقة اساسا بالاستعمال المفرط للمجوهرات والحلي، وهو استعمال دأبت عليه النساء، على ضرورة الحد من استعمالها:

«لاحظ الشيوخ في اجتماع انعقد تحت رئاسة النكيد في العشر الاواخر من شهر سيوان من السنة 5364/1604، بعد ان تدارسوا مشاكل «القهل» (الجماعة)، الخسائر التي تتعرض لها الطائفة بسبب تصرفات النساء اللائي يخرجن وهن متحليات بالحلي الذهبية والجواهر الكريمة المسماة «الخلخال» و«تزراس» (عقود بربرية) وعقود الجواهر، حيث يعرضن أنفسهن لنظرات العامة فيترن الغيرة والحسد... ومن يومه لن تتحلى اية امرأة، متزوجة أو بكرا، بانواع الحلي المذكورة اعلاه... باستثناء الحجيرات التي تزين الاقراط. ويسمح باستعمال «حراز» من الحرير، شريطة ان لا يتعدى الثمن الواحد من الدراع طولا. غير ان الخمار الذي تتخمر به العروس اصبح محرما من يومه. وكذا الحلي الذي يزين بها تلك المعروفة ب «ادلايل» خصوصا تلك المصنوعة من الذهب والاحجار الكريمة... ولن تفصل اثواب النساء ابدا من «بروكات» والمخمل باستثناء ما يلف العنق....»

ويحدث كذلك ان يدين أئمة الطائفة اليهودية الروحيون علنا، بعض الاعمال المتبعة، كتلك العادات التي تعرض لها الربي يوسف بن مساس المكناسي وقد لاحظها لدى يهود تلمسان، حيث استدعي ليقوم بمهمة حبر وقاض، خلال السنوات 1940/1924، وجاء هذا في ملاحظاته الخاصة التي نشرتها في كتابي: «Pédagogie juive en Terre d'Islam» . 1968.

«... لقد وجدت عندهم (يعنى اليهود سكان المدينة) عادة قبيحة، عليها علائم الكفر المطلق واضحة. وهي انه عندما يكتري احدهم دارا أو دكانا، فانه لا يسكن أو يستعمل المكان الا بعد ان يضع ليلة انتقاله له، اربع كويمات من الحنة، بمقدار مد في كل كومة،ويشعل فوق كل واحدة شمعة، متوسلا الى الجن ساكني المكان. يتوسل اليهم ليرحبوا بالجيران الجدد، «الجيران» الذين يتهيأون للسكنى معهم، ثم يغلق البيت بالمفتاح ويغادره. وفي الغد صباحا، يعود ومعه ديك اسود و«شوحط.» (ذابح) فيذبح الطائر وسط المكان، سواء كان بيتا أو دكانا، ويرش اركانه الاربعة بدم الديك وهو يقول:«ها نحن قد ذبحنا لكم يا جيراننا الطيبين الذين يسكنون هذا المكان حتى تستقبلوا بالترحاب جيرانكم الذين يأتون ليسكنوا معكم في هذا المكان اليوم.»

وكانوا يعدون بعد ذلك بلحم الديك المذبوح طعام «الكسكوس» ليتناول منه كل افراد العائلة، كما يعطى منه للجيران، ويرمى ببعض منه في البئر والمراحيض.

أما الذي يبني بيتا جديدا،فان الديك لن يكفيه. بل عليه ان يذبح تيسا اسود، أو بقرة من نفس اللون،حسب الوسائل المتوفرة للمعني: «الغني بقرته والفقير تيسه».

عندما علمت بالخبر تأكدت من صحته أولا، ثم استدعيت مباشرة طائفة اليهود، وجمعتهم في جمع عام في البيعة الرئيسية بالمدينة يوم السبت بعد صلاة «شحريت» (الصبح). والقيت خطبة طويلة، عرفت فيها مستمعي بخطورة هذه الخطيئة: «يقربون القربان للجن وهم غير الله». وقد اتت خطبتي اكلها.

وكنت اثير هذا الموضوع سنويا في خطبة من خطبي.

وهناك وباء آخر مشابه لسابقه حل بهذه الطائفة، ذاك انه عندما يطول المرض بمريض، وعندما يتكرر اجهاض امرأة أو يموت ابناؤها بعد الولادة أو في سن مبكرة أو في أي ظرف من الظروف المؤلمة فانهم كانوا يعدون وجبة تقدم للجن،ويطلبون عفوهم. ويسمون هذا الاحتفال التقربي: نسرا/نشرا عند عرب البلد. فيعدون «كسكسا» بقطع صغيرة من لحم ديك اسود، ويقدم لكل افراد العائلة. وتتناول الوجبة في المساء عند غروب الشمس. ويوضع منها في طبق كبير،فتذهب به بعض النساء المختصات في السحر والرق،وتلقي به في مجاري مياه المدينة أو في المسالخ.

وقد ادنت هذا العمل ادانة قوية وعنفت مرتكبيه. وكان لخطبي مفعولها ايضا في هذا الصدد.»

الفصل الرابع
الحياة الاقتصادية

سنستخدم اساسا هنا، وثائق سبق ان استفدنا منها في مواضيع اخرى، لم تنشر لحد الآن. وهذه الوثائق هي تلك التي تتضمنها «المراسيم» «التاقنوت» والفتاوي «الاستشارات القانونية واحكام المحاكم»، أي كل الادب الفقهي أو الشرعي الذي ورثناه عن القضاة و الربيين المغاربة، ولنا ان نعتبره «رؤية من الداخل» نحو طوائفهم.

ويزودنا بعض المؤلفين الآخرين من غير اليهود، عن هذه الطوائف، بمعلومات مفيدة، الا انها تبقى مع ذلك هامشية، حول مساهمة اليهود في تطوير الحياة الحضرية. وحول الدور الاقتصادي والسياسي لبعض عائلات الوجهاء.

1- البنية الاجتماعية -الاقتصادية للطوائف:

تتنوع البنية الاجتماعية الاقتصادية للطوائف اليهودية المغربية تبعا للازمنة والامكنة، وكل محاولة تهدف الى جعل هذه البنية ذات نمط واحد متشابه، ستكون بالتاكيد متعسفة.
علاوة على ذلك، فان الوثائق التاريخية الحقة المتعلقة بهذا الموضوع مباشرة، تكاد تكون منعدمة، وما لدينا منها في الادبيات والوثائق اليهودية يتكون اساسا من اقوال عارضة، وملاحظات طارئة، وتفاصيل ظرفية، غير انها لا تتعدى ان تكون مكملة. لان مهمتها الاولى كانت تنحصر في تهييء الوثائق المكملة، وتحرير نص شرعي، او فتوى او مرسوم.
وتعكس المراسيم والفتاوي اساسا، الحياة الداخلية للمجتمع اليهودي، ولا تدخل ضمن دائرة اختصاصها الانشطة الخارجية للطائفة، بل لا تأبه حتى بعلاقات الاعمال التي يمكن ان يقوم بها اعضاؤها مع مجموعات اخرى «اتنية» او اجتماعية دينية. مع ان هذه الكتابات لا تغفلها تماما. ولا نجد فيها الا معلومات نادرة وغير كاملة، ان لم تكن عارضة، بمناسبة قضية من قضايا الارث، على سبيل المثال، حيث تطلعنا على دور اليهود الهام في الاقتصاد المغربي، وتأثيرهم الذي لا يستهان به حتى في بنيات الحياة الحضرية التجارية و الحرفية.

ولذلك فان تنظيم الحياة الاقتصادية الذي يتم أساسا في رحاب الملاح، حيث تنصهر وتتطور اوضاع الطائفة اليهودية المادية هو الذي يكون موضوع وثائقنا، موضوع المراسيم

التي تحكم وتدبر المجموعة، وهو موضوع مجادلات الفتاوى الشرعية التي تهدف الى ايجاد حل للصراعات التي تنشأ بين الافراد يوميا.

وتسمح معاينة هذه النصوص، باعطاء نظرة عن البنية الاجتماعية الاقتصادية للطوائف اليهودية بالمغرب.

توجد القيادة الروحية والدنيوية بين ايدي او ليغارشية منحدرة من عائلات اريستقراطية عريقة من اصل اندلسي في اغلبيتها (ميگوراشيم). غير ان بعضها ينتمي كذلك الى مجموعة يهود المغرب الاصليين (البلديون) (طوشافيم)، ومن هذه الفئات يختار عادة الفقهاء البارزون «نگيديم»، والوجهاء الذين يرتقون احيانا الى مراتب رسمية سامية، والذين يراقبون القروض والاعمال التجارية الكبرى الداخلية والخارجية، أو يمولون الحرف المحلية، ومجهزو الجيش الملكي، والمستحوذون على رؤوس الاموال، ورجال البنوك المشرفون على موازنة الاسعار. ولا تكون هذه البلوتوقراطية البرجوازية (سلطة الوجهاء الاثرياء) الا أقلية ضئيلة في المجتمع اليهودي. ولا يحتل الوظائف السامية الا مجموعة افراد، يشذون عن القاعدة، فيرتفعون عن مستوى اخوانهم، وهو مستوى، بصفة عامة، جد متواضع، بعكس ما هو شائع، وعكس ما توحى به بعض الوثائق، يهودية وغير يهودية، تلك التي تترك اعتقادا بان هؤلاء المحظوظين يمثلون السكان اليهود جميعا. وينبغي ان نضيف مهما تكن هذه الاوضاع رفيعة، فهي غير مستقرة اطلاقا، وهشة وغالبا ما تتحول الى نكبات، وتكون الثروات الكبيرة مصيدة لمالكيها، وهي انشوطة متحركة، ويكفي القابض على السلطة المدنية ان يشد قليلا ليصل بها الى حد الاختناق.

ومع وصول هؤلاء الوجهاء الكبار الى قمة الثروة والمكانة، فانهم يصبحون بسبب وضعهم اليهودي، عرضة لمزاج سعار الحاكمين الذين لا يترددون في ان يسلبوهم ممتلكاتهم وخيراتهم، بل واحيانايسممونهم أو يغتالونهم. جاء في احدى الفتاوي المورخة ب 1727 ان «السلطات اعتقلت النگيد صموئيل وسجنته. وكان ينبغي على اخته ان تدفع الفي اوقية من الفضة لاطلاق سراحه»،وقد نقلت فتوى مورخة ب 1704 رسالة مكتوبة باللغة العربية وجهها من السجن احد وجهاء يهود مكناس، وهو ابراهام بن باروخ توليدانو، الى اخيه حاييم، يطلب منه فيها ان يدفع فدية من اربعمائة مثقال، الى مولاي علي (ابن السلطان مولاي اسماعيل). وتشهد قصائد البكائيات «قينوت» التي هي تأبينات ومراثي على المصير الماساوي الذي تعرض له بعض الوجهاء. من بين هذه المراثي، تلك التي يصف فيها الشاعر يعقوب ابنسور هذه المآسي، احياء لذكرى وجهاء يهود من مكناس وفاس اعدموا او احرقوا احياءا، بامر من مولاي اسماعيل.

ونقدم هنا بعض نماذج الاهداءات المسجلة في افتتاحيات بعض المقطوعات: تجرع النگيد المشهور ابراهام ميمران دواءا (مشروبا) مشكوكا فيه، قدمه اليه احد اطبائه المسلمين، ومات في 15 طابت / 5483 نهاية 1722. وتعيش الاغلبية الساحقة من السكان العاملين، من التجارة الصغيرة، والحرف، وبيع البضائع المتنقلة، ومن الوظائف الدينية (تعليم ومهن لها علاقة بالعبادة)، ومن الزراعة في بعض الأماكن القروية.

وينبغي ان نضيف الى هذه الطبقة الاجتماعية الاقتصادية المنتجة التي توفر الشروط المادية للطائفة، والتي اهتمت بها وثائقنا بالدرجة الاولى، عالما مكونا من العديد من الفقراء والاهالي، من عامة الشعب، كان على مجموع اليهود ان يساعدوهم على العيش، عن طريق الصدقات الفردية، والصندوق العمومي للبر والاحسان، والممول بضريبة خاصة.

2- وسائل الحياة الاقتصادية:

ا- **النقود**: لقد حاولنا جهد المستطاع، ان نشكل، بمساعدة المراسيم والفتاوي، تطور النظام النقدي كما عرفه مؤلفو هذه الوثائق.

الوحدات النقدية:

المثقال الذهبي، والمثقال الفضي، ووحدات اخرى كسورية من الفضة مثل اوقية، و«الثمن» و«موزنا» (ويستخدم كذلك بالنسبة لهذه الاخيرة الفاظ بالعبرية «معه» و«لفن» (ابيض) أو بالاسبانية «بلانكيا» blanquilla، وكسنور نقدية من النحاس: «فلس» جمع «فلوس» و«بروطاه» بالعبرية.

وتشير مصادرنا الى وحدات نقدية اخرى وتستخدم عديدا من العملات لتحديد طبيعة واصل وشكل النقد، وذلك من اجل تخصيص القيمة الفعلية المتغيرة له، حسب التقلبات الاقتصادية مع نقود اخرى، او مع وحدات كسورية لنفس النقد، مثل الدينار الذهبي، والريال، و«دوكات» و«بنديون» الارميين و«الكيكار» بالعبرية أو القنطار بالعربية،وهو يساوي الف ميثقال. ونجد كذلك تعبيرات مثل «العملة القديمة» و«العملة الثقيلة»، و«القطع المربعة» الخ... في اللغة العبرية والعربية والاسبانية.

التقلبات النقدية:

تطلعنا ادبياتنا الفقهية على التقلبات الهامة للقيم بين مختلف المعايير (الذهب والفضة والنحاس)، تلك التقلبات التي حدثت في المغرب في السنوات الاولى من القرن السابع عشر، والتي تسببت في نزاعات،إما أثناء البث في قضايا الشروط المثبتة في عقود الزواج، أو أثناء الفصل بين الدائنين والمدينين. و لم تكن هذه القضايا غريبة عن السلطات الربـية، وقد اتخذت هذه السلطات اجراءات قانونية ذات طابع عام، ثلاث مرات متتابعة، إذ اصدرت في السنوات 1605 و1607 و1609 مراسيم «تقنوت» يفصل بموجبها في هذه القضايا المالية المترتبة عما كان يطلق عليه في مصادرنا «ارتفاع قيمة النقد».

«صدر في يوم السبت 6 من العام 5365 للخليقة (بداية 1605) وبأمر من سيدنا السلطان، امر عام اعلن عنه في كل مدن المملكة، ومؤداه ان المثقال الذهبي الذي وزنه هو اثناعشر بونديون، والذي كان يصرف الى حد الساعة بست اوقيات، اصبحت قيمته الآن تساوي سبع اوقيات ونصف الاوقية. وأن «لمعه» (المزنا) الفضية التي وزنها ثمان بونديون، والتي كانت تصرف حتى الساعة، بما مقداره اثناعشر بونديون، اصبحت من الآن قيمتها تساوي خمسة عشر بونديون... وقد تسبب هذا الاجراء في نزاعات بين المدينين والدائنين، إذ اراد الدائنون الاستفادة من هذا الارتفاع، بينما امتنع المدينون عن اداء القيم الزائدة.... ونظرا لاسباب قاهرة تدعو إلى أخذ المصلحة العامة بعين الاعتبار، فاننا قررنا اعفاء المدينين من اداء كل قيمة ترتبت عن التغيير في قيم الصرف،الا في الحالات التي ينص فيها ببند خاص في عقد الدين، يلتزم فيه المدين، بأداء ما عليه من قطع ذهبية أو فضية استدانها مع مراعاة القيمة الجديدة عددا ووزنا اذا كان امر ارتفاع القيمة امرا ملكيا... ولا يجرى العمل بهذه «التقنة» الا على عمليات القرض التي تحدث بعد شهر كسلاو 5343 (نهاية 1582).

وتتناول «التقنة» الثانية اول ما تتناول، مسألة تغيير قيمة النقد التي اثارتها سابقتها، والتي حدثت بالضبط في شهر كسلاو 5343 (نهاية 1582)، حيث ارتفعت القيمة المعدنية (الذهب والفضة) اول مرة: ارتفع المثقال الذهبي الى ست اوقيات بأمر ملكي و«لمعة» (لمزنا) الفضية الى اثني عشر بونديون...» ثم تتطرق هذه «التقنة» الثانية الى موضوعها الخاص بها: «في هذا اليوم المؤرخ ب 3 أيار 5367 (1607)، قرر السلطان ارتفاعا جديدا في قيمة النقد بحيث اصبحت قيمة المثقال تساوي عشر أوقيات وقيمة «لمعه» (لمزنا) الفضية ربع مثقال أو عشرين بونديون...».

وبقي هذا القرار ساري المفعول حوالي سنتين، الى فاتح آدار الاول من سنة 1609/5369، وهو اليوم الذي انخفض فيه سعر المثقال من عشر الى ثماني اوقيات، على اثر حدوث انتفاضة داخلية. وعاد المثقال الى قيمته الفعلية وهي عشر اوقيات في 18 تموز من نفس السنة، بعد ان استولى مولاي عبد الله على مدينة فاس. وحينئذ قررت السلطات الربية بان تلغي كل «التقنوت» التي وضعت على اثر التقلبات النقدية لسنوات 1582 و1605 وابدالها «بتقنوت» 1609 آب 5369/ حيث جاء: «من الآن فصاعدا يتحمل نتائج كل تغيير في تكافؤ اسعار النقود كل من الدائن والمدين بالتساوي، ويوزع فارق قيمة (الصرف)، ما بين يوم السلف والتسديد مناصفة بين المتعاقدين...»

ونظرا لدور الصناع اليهود في الصناعة الرسمية لضرب النقود (صهر ومحص المعادن، سك النقود) فان هذه الصناعة ستكون موضوع حديثنا فيما بعد، عندما نتناول بعض النصوص المتعلقة بالصناعات اليهودية.

ب - الموازين والمكاييل:

تختلف قيمة الوحدات تبعا للمواد كما تختلف قيمتها من مدينة الى اخرى. وبالاضافة الى هذا، فان مما يعقد الانظمة الخاصة بالمكاييل، هو استعمال المراسيم والفتاوي لمصطلحات تلمودية يصعب ان يوجد ما يقابلها في اللهجات المحلية.

– الموازين، ومنها: 1 «كيكار» بالعبرية، وقنطار بالعربية. 2 رطل، وقد يعوض بلفظ «ليتراه» جمع «ليتروت» وليترين. 3 اوقية.

– مكيال السوائل ومنه: «كور» جمع كورين. وبانيكاس.

– الطول ومنه: «أماه» [وحدة قياس اساسها الدراع]. وتتم المتاجرة في الاثواب والكتان والاقمشة في تجارة الجملة بالقطعة. وبعض الانواع تباع عادة بالوحدة.

– القنطار وهو مقياس للوزن المشترك الخاص بالمواد الصلبة والسائلة، مثل الكبريت والشمع، والعسل والحليب والزيت والجلد والدخان.

– الرطل ما يساوي نصف كيلو، والقنطار هو نصف رطل، «اللترا» هو المكيال الروماني للاوزان، وقد ذكرته النصوص التلمودية «بليبرا» أو«ليترا».

وتتنوع القيمة من الاوقيا الى الرطل ما بين 1/16 و1/8.

- «الكور» هو مكيال استعمل في التلمود للحبوب، ويكال به الشعير والقمح، وحسب فهم صاحب الفتوى فان الامر على ما يبدو، يتعلق «بالصاحفا (انظر اسفله) ويستعمل المكيال المسمى بالاسبانية «بنييكاس» التي تقاس به سعة «محتوى جراب أو حمولة» للقمح. والمكاييل الاخرى هي «المد» للحبوب، و«الصاحفا» وتساوى ستين مدا. و«القلة» للزيت وتحتوي تسع ليترات تقريبا.

ويقاس القماش بالذراع، وهو ما يعبر عنه بالمصطلح العبري «اماه»،ومقابله بالعربية القالا أو الذراع: 55/56 سنتمتر.

ج- اثمان وأجور:

وتختلف اثمنة الماكولات الغذائية تبعا للفصول، غير ان التقلبات الهامة للاسعار، وخصوصا اسعار الحبوب، تخضع للتغيرات الجوية واحوال الطقس،أو الظرف السياسي. ويبدأ ارتفاع الاسعار انطلاقا من قحط أو مجاعات فاجعة، أو في فترات غياب سلطة العرش. وينخفض سلم هذه الاسعار بمجرد ظهور القطرات الاولى للمطر، التي تعلن عن محصولات وافرة، او عندما تتوقف الاضطرابات ويستقر الامن.

ولقد لاحظنا انه كان في سنة 1731 «الثمن الادنى ل 24 حمولة (بنييكاس) من القمح يساوي 36 مثقالا، وهي سنة كانت مرتفعة الاسعار» وفي 1750 ارتفع الثمن التجاري ل 100 كور من الشعير الى 220 اوقية. وبلغ ثمن كور واحد من القمح 22 اوقية واربعة أثمان. وفي 1552، وهي فترة جفاف، بلغت «الصاحفا» من القمح ست أوقيات . وبعد نزول المطر، بيعت باوقيتين ونصف.

وفي مارس 1606 عم القحط الى درجة ان ثمن «ربع القب» (المد) بلغ 19 أوقية. وفي سنة 1611، بلغ ثمن «صاحفا» من القمح 40 أوقية. وفي يناير 1612 بلغ 60 أوقية. وفي نهاية 1613، بلغ 20 مثقالا، وفي يناير 1614 ارتفع الى 300 أوقية. وفي سنة 1651، وهي فترة مجاعة وفتن، كان ثمن المد من القمح يساوي 5 دراهم في فاس.

ونجد النصوص القانونية المتعلقة بتجارة المواد المحلية أو المستوردة، غنية جدا بالاخبار. بيع الكبريت في سلا سنة 1728 بسعر 102 أوقية للقنطار الواحد. (اعلى من القيمة العادية، لان البواخر تاخرت عن الوصول).

«بلغ هنا في المغرب، ثمن شراء خمس عشرة قطعة من (الكسي)، وعلى الخصوص الحريرية منها والتي بعث بهاالربي اسحاق الى ابراهام.بجبل طارق.530 أوقية حسب ما هو مسجل في سجل الحسابات، وهذه الوثيقة نفسها سجلت ثمن 18 (مخدات مدورة) ب 140 أوقية اي قيمتها هنا في بلاد المغرب...»

وقدر ثمن قطعتين من الثوب الملون المسمى «بانيو» من النوع المتوسط ب 350 أوقية لكل واحدة منهما،واخذ 67 رطلا (لترين) من شراف الحرير مقابل سبيكتين ذهبيتين (نص مورخ ب 1720). واشتريت عشرة ازواج من الكتان الشفاف من نوع «كامبري» ب ألف أوقية حوالي سنة 1720.

وفي الرباط حددت قيمة دخان دكالة والحشيش ب 30 أوقية للقنطار و«كيكار». وقنطار الكيف ب 80 أوقية. اما ما يتعلق بالدخان المكناسي أو السلاوي والمستورد المسمى «بطباغو»، فينبغي أن يتبع التسعيرة الاسبوعية لسوق مكناس (حسب نص محرر بالرباط في 1802). وفي مجالآخر، تعرضت فتوى مورخة بسنة 1749، اثناء قضية رهان، الى ان مبلغ الكراء الشهري لغرفة من الطابق السفلي في احدى الدور بتطوان تقع خارج الملاح، وصل الى نصف أوقية قديمة (من الفضة الخالصة). وفيما يتعلق بموضوع الكراء،فان السلطات الربية تكاد ترفض اية زيادة يطالب بها المالكون ولو كانت هذه الزيادة مبررة بسبب الارتفاع العام للاسعار.

ويشير نص مورخ في 1705،ان ثمن الدخول الى حمام «الطهارة» لا يتجاوز في تلك الفترة موزونة واحدة من الفضة.

ولقد اتاحت لنا نصوص اخرى سبق ان تعرضنا لها في الفصل السابق،الفرصة للاطلاع على بعض اثمنة الخدمات والأجور (اجور قاض القضاة واعوان القضاة والنساخ والساهرين على الشؤون الدينية)، وتتعرض وثائق اخرى الى مبالغ عقوبات خرق القرارات الربية ،وبعض الاسهامات المالية والضرائبية.

3- التجارة:

اطلعنا في الفقرة السابقة على رواج بعض مواد التموين، وسوف نعمل الآن على تناول بعض الوثائق الاخرى والتي ستزودنا بمعلومات اكثر اهمية، حول تنوع المواد المتبادلة، وبصفة عامة حول الانشطة التجارية للطوائف اليهودية المغربية.

توجد التجارة الكبيرة بين ايدي أوليغارشية تلك التي كانت لها رؤوس اموال وعلاقات مع المخزن، وكانت لها وسائلها الخاصة للحصول على المعلومات ذات الطابع الاقتصادي، بفضل من كانت تتصل بهم من مراسلين دوليين. وكانت تحتكر تصدير المواد المحلية (الحبوب والجلد والفرو والشمع الخ...) وتختص باستيراد مختلف مواد التموين، وكذا النسيج. وهؤلاء التجار الكبار هم اكثر تشددا في معاملاتهم التجارية مع اخوانهم في الدين، مثل تجار التقسيط الصغار، واصحاب الدكاكين في الملاح أو السوق «السواقة» والمتجولين ببضائعهم في البوادي، هؤلاء الذين يقومون كذلك بجمع الانتاجات المحلية لحساب موكليهم أو شركائهم في المدن. وتعرف هذه المهنة باسم «تادوواست»، و الذي يمارسها يطلق عليه «/دوواس/» (بائع متجول) وتكون المبالغ المخصصة لهذه الاعمال هائلة احيانا،كما يشهد بذلك سجل حسابات عاينه احد الربيين من فاس في سنة 1735، حيث بلغ مقدار ما يروجه شخص واحد 000 20 و 000 51 و 000 30 أوقية على التوالي.

ا- تجارة الحبوب:

يتجر تجار الحبوب في انتاج اراضيهم الخاصة (انظر فيما بعد،الانشطة الزراعية لليهود المغاربة) غير انهم يتجرون بالاساس في المواد التي يتم جمعها من الاسواق أو المحاصيل التي يسلمها لهم الفلاحون، رهونا لتسبيقات مالية متفق عليها، أو تلك المواد التي يتلقونها اداء لديونهم. وتذكر وثيقة مورخة ب 1708، أن شريكين توجها الى دكالة لشراء الحبوب... وبعد الحصاد في الصيف، لكي يبيعاها في الشتاء قبل عيد الفصح عندما ترتفع الاثمنة. وتصدر الحبوب، اويتم تخزينها في عين المكان للاستهلاك المحلي، ويذخرها جل الناس في خزانات أو بيوت المؤن الخاصة «مخزن المونة» .

وتذكر فتوى مورخة في 1751 ان: «حمولة من القمح مشحونة على باخرة قادمة من البرتغال، باعها بن دلاك الى باشا مدينة طنجة الذي كان ينبغي ان يتسلمها، وان شريكه بن زاقن حولها الى تطوان...»

ب- تجارة النسيج:

يبدو ان هذا النوع من التجارة كان مزدهرا جدا، والفتاوي المتعلقة بها كثيرة العدد. ولقد احتفظنا ببعضها حيث وقفنا على صفقات حول عدة انواع من الاثواب مستوردة ومسجلة في عقود موثقة،أو على سجلات حسابية، مثل الثوب الاشقر المعروف ب«دامسكيتيو»

(بالاسبانية دامسكينيو) «الملف» وهو (قماش صوفي)، والفستان وهو عبارة عن شبيكة من نسيج قطني وكلها مستوردة من جبل طارق، «وبرناطا» وهي (عبارة عن قماش صوفي غليظ لونه ازرق - اسود)، زقطع من (كتان كامبراي)، وهو ثوب من الصوف يسمى «كاليماكو» و(كتان كامبراي شفاف) وكتان هولندا (يولندا).

ج- صناعة التقطير وتجارة شمع النحل:

تعرف هذه الصناعة على نطاق واسع في المدن الرئيسية المغربية، حيث كان يحتكرها التجار اليهود.

تصدر قطع الشمع وتستعمل بقايا التقطير في « ماحيا» لتستهلك في الملاح. وتعرض فتوى محررة في فاس ومورخة ب 1714 الى معاهدة تمت ما بين تاجر كبير في شمع العسل، وهو ش.ت هاكوهن واحد وكلائه وهو ج بيباس، والتزم هذا الاخير ان يسلم لشريكه 107 قنطارا من الشمع مقابل سبعين أوقية للقنطار، وحتى يتم هذا الشراء في اسواق طنجة وسلا وتطوان، فان على بيباس ان يكون مصحوبا بتصريح خاص من صاحب الجلالة، يسلم الى هاكوهن بواسطة الحاكم. وتتضمن فتوتان متأخرتان نسبيا (1793 / 1794)، موضوع اقتسام ارث يتمثل في حق الانتفاع بمعصرة، حيث تصنع قطع الشمع.

د- تجارة الدخان:

احتكر عدد من التجار اليهود تجارة الدخان (صاكا)، بناء على حق مسلم من الخزينة الملكية. وكان ينتج عن نقل هذا الاحتكار والمزادات العلنية ومختلف الصفقات والمعاملات المتعلقة بهذه التجارة، نزاعات لم تكن خافية عن السلطات الربية (قرار محكمة سلا مورخ ب 1802).

هـ- دباغة وتجارة الجلود:

تشكل مهنة دباغة الجلود عند اليهود، موضوع صفقات محلية قبل تصديرها. وكان يجري العمل بهذه العمليات في الصويرة الى عهد قريب، في حي بضاحية المدينة في مكان يسمى المنشر، (مكان نشرالجلود)، وجاء باحدى الفتاوي بفاس 1706 ان «المدعوين سلمون ابن دانان، واهارون بن اموزيغ، التزما بان يدفعا الى موسى ماسياح مبلغا قدره 5600 أوقية نقدا

من الفضة القديمة الخالصة، بتاريخ 15 سيوان 5463 / 1703 أو ان يسلما له ثمنا لدينهما 200 قنطارا من جلود البقر بمعدل اربعة جلود لكل قنطار من النوع الجيد والسليم، صالحة للتبادل في السوق المسيحي بتطوان».

و- بساتين أشجار الزيت وزيت الزيتون:

جاء في فتوى مورخة في 1718 مايلي: «جرت العادة باشتراء بساتين اشجار الزيتون في بعض المناطق الفلاحية مثل صفرو، وفي العام الماضي اشترى داود غلة بستان الزيتون بثمن اربعة قنطارات فضية، وبعد ان قطف الزيتون وعصر زيته، اعلن انه تحمل خسارة قنطار ونصف فضة».

وجاء كذلك في النصوص التي بين ايدينا، ذكر لصفقات تتعلق بريش النعام و«الاحجار الكريمة المستوردة من بلدان بعيدة». وسنتحدث فيما بعد، عن تجارة الذهب والمعادن الثمينة. كما جاء ايضا في وثيقة مورخة في 1719 حررت في مكناس، طلب شراء قيتارة من جبل طارق واستيراد «نسخة جديدة من تشريع ابن ميمون وشروحه».

4- الصناعة الحرفية:

ا- صياغ المعادن الثمينة:

في اطار تقسيم العمل الذي يبدو انه قد تحدد منذ تاريخ طويل ما بين الصناع اليهود والمسلمين، فانه جرى التقليد بان يحتفظ اليهود ببعض المهن، وعلى الخصوص تلك المهن التي تعالج مواد ذات قيمة مثل الذهب والفضة والاحجار الثمينة والجواهر الدقيقة الصنع.

ب- دار السكة والنقود:

استخدمت يد عاملة يهودية في دار النقد، وكان يشتغل بجانبها صناع آخرون مسيحيون تحت قيادة أمين مسلم، وذلك في الوقت الذي كان فيه السلاطين يضربون سك النقود في فاس.
وهذا ما يرويه نص في الموضوع مورخ في 1751:
«فوض الملك دار السكة لتجار مسيحيين، وترك لهم الحرية في اختيار من يشاؤون من رجال المهنة وحسب هواهم، وشغل هؤلاء ثلاثة صناع من اليهود لعمليات الصهر وسعر المال، وهم يوسف وموسى ومردوشيه.

اتفق هؤلاء اليهود الثلاثة فيما بينهم حسب عقد مسجل بتاريخ 23 ادار 1746/ 5506، وسلمت نسخة منه الى التجار المسيحيين، وينص الاتفاق المسجل في العقد.على توزيع انتاج عملهم في دار السكة بالتساوي، وعلى ان يمارس كل واحد منهم تجربة عملية تطريق الذهب وأن يحتفظ بمجموع ما يربحه».

ونشير هنا الى ان الطراق يطرقون المعدن باليد، ويصنعون منه أوراقا رقيقة.
تطرقت «تاقاناه» مؤرخة في سنة 1750 الى (منع كل يهودي من صنع الدنانير الذهبية وقطع الفضة كما يمنع عليه ان يطلب من أي احد القيام بذلك كان يهوديا أو غير يهودي، وسواء كان ذلك في الملاح او في «فاس جديد» أو في فاس البالي.

وينبغي ان تتم عملية صنع الدنانير تحت مسؤولية الامين سى عبد القادر الجواهري، أو أي أمين آخر موكول اليه ضرب السكة، ويمنع بالاضافة الى هذا ارسال الذهب والفضة الى مدينة اخرى لنفس الشيء.أو بقصد ترويج هذه المعادن في سوق التبادل والصرف.
وينبغي ان يظل مفعول هذا «التاقاناه» جاريا خلال خمس سنوات الى حيث اتخاذ اجراءات اخرى اذا كانت الظروف تسمح بذلك، عندما تسترجع الدنانير والقطع الفضية قيمة المعدن الثمين الذي كان معمولا به سابقا في عهد مولاي اسماعيل تغمضه الله برحمته»

لقد كان الدافع الى اتخاذ هذا القرار هو العمل على حماية الطائفة من الخسارة والنزاعات الناتجة عن «رواج عملة فاسدة العيار والتي لاتعطى اثناء تدويبها الوزن الحقيقي للمعدن الصافي»

ج- الصياغ:

اشتهر الصياغ اليهود سواء كانوا من فاس أو من الصويرة، بحذق وذوق ظلا معروفين منذ قرون. وكان جودا بن عطار،احدى الشخصيات الجذابة في تاريخ اليهودية المغربية في القرن الثامن عشر «صائغا، وظل يعيش من مهنته ويرفض أن يتلقى اجرة من مال الطائفة مقابل الوظائف التي كان يشغلها وهي قاضي القضاة ورئيس المحكمة الربية بفاس».

ويطلق على الصناع الصياغ في نصوصنا باللغة العبرية.اسم «صورفيم».وبالعربية «الذهابين» على ممن يشتغل بالذهب»،وكذا يطلق اسم السكاكين أو الصياغين على من يشتغل بالفضة من البديهي ان يكون اليهود قد نقلوا دقتهم ونشاطهم وابتكارهم الى هذه الحرفة. ينفذ المعلم

اليهودي ما يطلب اليه بكثير من النشاط والذوق افضل من زميله المسلم، وهذا الحكم صحيح حقا فيما يتعلق بصناعة الحلي. وعلاوة على هذا، لا يخفى غنى وتنوع الحلي التي يصوغها اليهود في المغرب، ويحكي رحالة فرنسي من القرن الثامن عشر، ان «هيئة اليهود دفعت للملك اتاوة، هي عبارة عن دجاجة،واثنى عشر فرخا ذهبا على جانب كبير من العمل الفني..»

د- صناعة خيوط الذهب والفضة (الصقلي):

تعد صناعة خيط المعدن الثمين والاشغال المتنوعة التي تستعمل هذه المادة الاولية الثمينة، اكثر الصناعات اليهودية ازدهارا، وهذا ما تعنيه مصادرنا باللفظة العبرية العربية /مليخت اصقلي/ (مهنة الصقلي)، ويطلق على ارباب العمل والعمال الذين يمارسون هذه المهنة اسم «الصقليين». ويبدو ان اليهود الاندلسيين نقلوا معهم هذه المهنة. ولا يزال اسم كوهن الصقلي منتشرا في المغرب، و تعود العائلات التي تحمله منذ قرون، الى اصل اشبيلي. ويروي الربي يوسف مساس ان الربيين الذين يحملون هذا اللقب كانوا قد ورثوه عن اجدادهم، وان الرواية الشفوية قد جعلت من اهل «الكوهن – الصقلي» ذرية الصناع الذين كانوا في عهد هيكل القدس، ينسجون بخيط الذهب، ملابس الكاهن الاعظم. ومن المحتمل انهم من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام.

وقد حررت «تقنة» في سنة 1744 لحماية الصناع الفقراء والفرادى وصناعة خيط الذهب، من جمعيات ارباب العمل والتجار المكونة بشكل غير قانوني، ودون ترخيص المحاكم الربية، أو دون علم منها. وهذا المرسوم يدين اشتراك اكثر من اثنين من ارباب العمل أو الصناع، وتمركز رؤوس الاموال. ووسائل الانتاج بين ايدي نقابات صغيرة قوية ودون مراعاة، مكونين بذلك: «اولئك الذين يجدون سعادتهم ولذتهم في تكديس الطم لاقامة خندق لافتراس التعساء في هذه الدنيا والفقراء من بني الناس» (والنص هنا هو عبارة عن مقتطفات توراتية مركبة من ايات مأخوذة من اسفار صموئيل وحزقيال والامثال».

ينبغي التذكير هنا بان صناعة خيط الذهب كانت بين ايدي عدد محدود من ارباب العمل، قد ينتمون الى المهنة وقد لا ينتمون اليها، غير انهم يتوفرون باستمرار على رؤوس اموال مهمة نسبيا، وكانوا بالاحرى يتعاملون كتجار وممولين لا كتقنيين. وكانوا يستأجرون مختلف اختصاصي المهنة ليطلبوا منهم اعداد ما يريدون، وكانت العادة والقاعدة ان كل الاعمال تنجز تحت الطلب في اغلب الحالات.

هـ - تجارة الذهب:

ويمارس «الصرافون» تجارة الذهب،وتطلق عليهم في نصوصنا اما اللفظة العربية «الصرافين» أو اللفظة العبرية «الشولحنيم»، وتعرضت تقنه مؤرخة بسنة 1750 وقد سبقت الاشارة اليها، وفتوى مورخة ب 1727، وهي تقنن طريقة المساهمات لمقدار الرسوم والاداءات من كل نوع، بين اعضاء التعاونية التي ينبغي ان يسددوها تبعا لمهنهم و «التي فرضها عليهم الملك والامراء والموظفون ومستشارو الدولة، وحدد المبلغ بنسبة رؤوس الاموال المستثمرة ومجموع المبيعات».

ونضيف هنا صفقات الحلي الذهبية، والاحجار الثمينة، وهي موضوع وثيقة تتعرض الى نزاع يتعلق بنوعية خنجر من الذهب مرصع باحجار ثمينة، بقيمة الف مثقال، اشتراه قائد من صياغ، لأهدائه للملك اثناء مقابلته ليعفو عن هفوة له.

وتشهد وثيقة مورخة ب 1723، انه لا تقع التجارة في سوق الصرافين بالقطع النقدية فقط، ولكن بالمواد المستعملة ايضا (الفجرا) وهي معدن من السبائك أو قطع نقدية محفورة و مجزاة.

و- صناعات يهودية أخرى:

تخبرنا مصادرنا بانواع اخرى من المهن،كان يمارسها الصناع اليهود، مثل صناعة النحاس الاصفر التي يمتهنها «الصفارون»، وصناعة الخيوط، والنسج كصنع الملابس الجاهزة، والموشية والمزركشة الغالية التي يخيطها القياطنيون،والخياطون الذين يسمون بالعبرية ب «الحياطيم». وصناعة المشط لنفش الصوف،ويطلق على اهلها «لقراشليين».

ويبدو ان اليهود قد مارسوا كذلك مهنة البناء، والدليل على وجود هذا النوع من الصناع، الصفة العبرية «هاباناي» (البناء) التي اصبحت لقبا حقيقيا لإسحاق بار دينار بن شيمول هابناي،(فتوى محررة بفاس 1731). ويذكر نص آخر مورخ في نفس الفترة :«عرفا بمدينة فاس يُقر بتغريم كل يهودي يساهم بصفته بناءافي بناء منزل على قطعة أرض في ملك احد الاغيار..» وتشهد وثائق اخرى على ممارسة يهود المغرب لعدة مهن يدوية اضافة الى ما سبق، منها: صناعة ابزيمات الحزام، تطريز السروج،والحدادة، كما كانوا يخرطون الخشب

ونجارة العربات. وفيما يتعلق بصناعات الالبسة، فانه كان يوجد علاوة على الخياطين، صناع يصنعون القبعات أو الشاشيات والاحذية احذية للنساء تعرف ب«الشرابل» مطرزة بالذهب أو الفضة. كما يوجد حرفيون في صناعة الحرير «تاحرارت» وتطريز الثياب وصناعة العقد والاحزمة، الخ...

5– التعاونيات:

نجد من بين مجموع المفردات اللغوية العبرية الموجودة في وثائقنا ان لفظة/«حبراه» «زاوية–جمعية» تعني التعاونية. ويطلق هذا اللفظ كذلك على مختلف جمعيات البر والاحسان أو زوايا قراء «الزهار» أو«المزامير». وما الى ذلك من المجموعات المماثلة. وفي اطار الانشطة الاقتصادية، فان لفظة «حبرا» تدل على ان الامر يتعلق بمجموعة صناع، سواء كانو صناعا يمارسون نفس الصناعة، أو تجارا ينتمون الى نفس التجارة. ويخضعون الى عدد من القواعد المهنية تحددها الاعراف والتقاليد. ويؤدون جماعة، النفقات التي تفرضها السلطات العامة، كما يؤدون المساهمات الواجب اداؤها للطائفة، ضريبة للمهنة. ويتم ذلك تحت مراقبة ومسؤولية الامين، وهو رئيسهم والممثل الرسمي الذي تلجأ اليه دائما السلطات الربية بصفته خبيرا وحكيما، لحل النزاعات التجارية والصناعية التي تتطلب تدخله.

والالتحاق بالتعاونية حر، على الأقل من الناحية المبدئية، وعندها ينبغي ان يتوفر المرء اولا على معرفة كافية للمهنة، ليستجيب لرغبات الزبائن المتشددة، وثانيا، ان يملك رأس مال صغير يمكنه من فتح دكان او حانوت صغيرة. وينبغي ان نضيف هنا ان التعاونيات اليهودية في المغرب كماهو الامر بالنسبة للتعاونيات الاسلامية المماثلة، لم يكن لها أي شبه اطلاقا مع مثيلاتها التي كانت في القروسطوية أو في النظام القديم بفرنسا أو باقي اجزاء اوربا، سواء على مستوى البنيات أو الوظائف (صرامة التنظيم وهرمية داخلية ومتماسكة الخ...)

سبق ان عرفنا عددا صغيرا من التعاونيات في النصوص التي درسناها، مثل تعاونية «الصرافين» التي ذكرت في تلك النصوص التي تعرضنا لها اعلاه (تقنه 1750 وفتوى 1727) وتعاونية الخياطين (حبرة هاحاياطين) التي جاء ذكرها في حكم قضائي يحدد نوعية توزيع السخرة (اشتراك ضرائبي خاص بالتعاونية) ما بين المعنين (فاس 1749).

وتطلعنا وثيقة مورخة ب 1722 على تعاونية النساخ (حبرة ها سوفريم) هذه التعاونية التي تلتمس الاعفاء الضريبي لاعضائها.

واطلعنا في مخطوط من القرن الثامن عشر على مرسوم ربي يتضمن «يمين القسم لاعضاء تعاونية الصفارين».

ولا نعرف الا معلومات قليلة، ان لم تكن مجرد اشارات عابرة، وبعيدة عن الموضوع،عن التنظيم داخل تعاونيات مهن اخرى. وهكذا فيما يتعلق باجراء وضع المراسيم نعرف ان اعضاء مختلف التعاونيات كانوا احيانا يستشارون قبل الاعلان عن قرارات تهمهم، مثل تعاونيات الجزارين (تقنه 1600) وتعاونيات الصرافين (تقنه 1750) وهناك مظهر اخر للحياة التعاونية يسترعي الانتباه، وهو ان التعاونية ليست موقوفة على تجمع مهني، بل هي كذلك اطار لنشاط ديني وثقافي مكثف. «يكرس النساخ بانتظام جزءا من وقتهم للتوراة، بالاضافة الى دروس «جمارا» (التلمود)، ويواظبون عليها كل صباح في «البيشفاه»، بعد صلاة الفجر، امام الاحبار...» (نص مورخ في فاس سنة 1696).

ويقوم الصناع والتجار الذين ينتمون الى تعاونيات اخرى كذلك بواجب دراسة العهد القديم، و«الهالاخا»، والتلمود و«الزهار» في اوقات معينة من النهار، أو خلال جلسات ليلية، كما اشرنا الى ذلك في فصول اخرى، عندما تعرضنا للقضايا المتعلقة بالتعليم. (حلقات الدراسات والتعليم الليلي)

6- تمركز المهن:

نجد في داخل الملاح مجموعة طوبوغرافية خاصة بكل مهنة، مثل سوق «الصرافين» «شوق ها شولحانيم».وسوق صناعة خيط المعدن الثمين، وهي صناعة الحي الكبيرة وسوق الصقليين ، وسوق صناعة الجلد الخ... وكان مؤلف الربي يوسف مساس «اوتصار هاميكتابيم» (مراسلات منتخبة) نتيجة لدراسة ثلاثين سنة بحث فيها بحثا شاملا كل ما يتعلق باسماء اماكن ملاح مدينة مكناس، حيث فصّل القول في اسماء الشوارع والازقة والاسواق التقليدية والبنايات ذات الطابع المعماري المغربي، أو تلك الخاصة بالملاح،والمستجيبة لمتطلبات الحياة اليهودية: «عندما ننطلق من باب الملاح، نصادف على كل جهة من الشارع الكبير صفوفا من دكاكين التوابل والبزارة،وبائعي السمك والخضر والفواكه ومجموعة دكاكين الصياغين ومكتبة، وبائعي الحبوب، ودكاكين الخرازين والجزارين. وزنقة المخازن (مخازن الحبوب) وفندقا تسكنه البهائم وعابرو السبيل، وزنقة البيع، وزنقة حوض الطهارة (مقوه طهاره)،وزنقة المقبرة، وزنقة العطارين، وبناية بيع المشروبات (طبرنا)، والمجزرة (الكّرنا) والحمام، وسجنا صغيرا خص لمرتكبي المخالفات الدينية، اولائك الذين تصدر في حقهم السلطات الربية عقوبات، بعد موافقة السلطة المدنية على ذلك. ويقوم بحراسة هذا السجن مسلم مسلح. كما نجد بناية لعصر شمع العسل...

ويبلغ مجموع هذه البنايات 250 بناية تضم حوالي 1200 دارا للسكن ودكاكين ومخازن. وينبغي ان يضاف الى هذا العدد 300 اصطبل ومخبزان. ويحيط بكل هذه البنايات من الجهات الاربع اسوار عالية وعريضة....».

وكان الصناع والتجار اليهود يذهبون الى الاسواق الاسلامية لقضاء حاجيات مهنهم. ولقد راينا هذا في فاس بالنسبة لمن يشتغل في دار السكة، وبالنسبة للصرافين الذين كانوا يذهبون لانجاز صفقاتهم في فاس البالي وفاس الجديد. وكانوا يملكون بها كذلك بعض الدكاكين. وفي الصويرة مثلا الى عهد قريب، كانت توجد ازقة باكملها خارج الملاح، بها دكاكين لصناع وتجار يهود، مثل «سوق اجديد» (كتان واقمشة قطنية) و«سوق لغزل» (صوف مغزول وبذازة) و«لخضارة» (خضر وفواكه) والجزارين /«الجزارة»/ والعطارة (توابل وسكر وشاي ودخان) والحدادين /«الحدادة»/، وكانت تجمع هذا السوق في الاصل،مهن صهر الحديد وتجارته والمحددة، ويوجد بها حاليا تجار الجملة في السكر والشاي والخشب الخ...) والصياغ الخ....

7- شرطة الاسواق.

لا يبدو ان الصلاحيات الاقتصادية المخولة «للْمُتْحَسِّب» بالمنطقة الحضرية، كانت تمتد داخل الحي اليهودي الذي كان يتمتع باستقلال ذاتي كامل. ومع ذلك فانهم كانوا بدون شك، ياخذون بعين الاعتبار، الاثمنة المطبقة في المدينة، وكذلك المنافسة الموجودة داخل الملاح. ويظهر ان الاسعار به كانت حرة، غير انه قد يطلب من «النگيد» والسلطات الربية ومندوبيهم في بعض الحالات ان يتدخلوا لتحديد سعر بعض المواد الغذائية. والسهر على سلامة الصفقات، للقضاء على الغش والاحتيال، أو لمنع التحاق الاطفال بتعلم مهنة ما قبل رشدهم الديني، حتى يستمروا في متابعة دراستهم في المدرسة الابتدائية الى سن الثالثة عشرة. ولقد سبق ان تعرضنا الى هذا المنع في الفصل المتعلق بالتعليم. وتشهد عدة اجراءات تشريعية، على

الرغبة في التدخل لوضع الامور في نصابها وهذه بعض الامثلة منها:

تحدد «تقنه» 1730، ثمن الكبد ب«موزونة» واحدة لكل رطلين، وهذه المادة معفية من الضريبة الجماعية (سيسا)، وهي مخصصة للفقراء الذين لا يملكون امكانيات لشراء اللحم. ويجب ان نشير الى انه يمنع كشف سر عبارة ذلك الى غير اليهود، بسبب الثمن الزهيد للمادة المذكورة، ومن يفعل عكس ذلك يعاقب ب«الحرم».

– ولقطع الطريق على حالات الربا، والاحتياط من كل المناورات الهادفة الى التحايل على خطر القرض بفائدة، اصدرت السلطات الربية «تقنة» مورخة ب 1603 تقول: «يمنع على

كتاب الضبط العدليين تحرير شهادات تتعلق ببعض المواد الغذائية (القمح والشمع والزبدة والعسل وزيت الزيتون والحرير) لكل الاشخاص الذين لا يتجرون في هذه المواد...»
– وتدين «تقنة» مورخة ب 1649 بصرامة «كل الذين يخلطون انواع الدقيق غير المتساوي الجودة ليبيعوه بثمن الدقيق الجيد، اذ ان مراقب السوق لا يحدد الا ثمن القمح المباع بالوزن وليس كل المواد التي تخرج من المطاحن... ولهذا تم تعيين مندوبين لكشف وفضح هذه الممارسات، والحاق عقوبات مالية باصحابها وسجنهم».

اما في يتعلق بتهريب البضائع، الذي تعرض لها نص قضائي بمناسبة خلاف وقع بين تاجر كبير ووكيله الذي نجح في اخفاء بضاعة مستوردة عن المراقب الجمركي لحسابه، فان وجهة نظر السلطات الربية تختلف، ويبدو انها تعودت على هذا النوع، وابدت تسامحها تجاهه، نظرا لما يثقل كاهل الطائفة اليهودية من ضرائب في المعاملات الأخرى.

8- النشاط التجاري والملكية الفلاحية.

لم يتعرض الباحثون الاوربيون الذين اهتموا بوضعية اليهود بالمغرب في رحلاتهم وكتاباتهم لموضوع الفلاحة وتربية المواشي. ولم يعدوها من بين الانشطة الاقتصادية لهذه المجموعة. واذا ما ازاحوا ستار الصمت عن هذا الموضوع فانهم يؤكدون «ان اليهود ما كانوا يملكون ارضا ولا بساتين». في حين نجد سلوش N. Slousch يمر في رحلته،اثناء مهمته في الاطلس المغربي سنة 1914م ب«قرية منصور وكانت تضم خمسا وعشرين عائلة من الفلاحين». ويشير اندريه شوراكي الى «انه يوجد في الجنوب المغربي، عدة جماعات صغيرة تتعاطى الفلاحة منذ ازمنة عريقة في القدم».

ويورد المؤرخ الاسرائيلي هيرشبرغ H. Hirschberg، مستشهدا في اغلب الاحيان بفتاوى الكَأوونيم، أو الوثائق الصادرة عن كَنيزة القاهرة، ان: «يهود المغرب كانوا يشتغلون بعرق جبينهم في ملكيات زراعية صغيرة، وكانوا يكسبون قوتهم بالعمل في الزراعة وتربية المواشي. وهم يتعاطون المهن الفلاحية، مع العلم انها كانت تعتبر اجتماعيا غير مشرفة». وتتضمن ايضا دراسات دافيد كوركوس، حول اليهودية المغربية بعض الاشارات المتعلقة بهذا النوع من الانشطة، غير انها نادرة. و لاشك ان قلة عدد اليهود في المهن الفلاحية، كانت ترجع لانعدام الامن اساسا. ولاسباب اقتصادية واجتماعية ايضا، وربما ترجع كذلك لاشمئزاز اليهود من الاعمال الجسمانية الشاقة ذات المردود القليل،بالرغم من ضياع الوقت الكثير. ولنلاحظ ان ايام الشغل في الحقول لا تسمح غالبا للمزارع اليهودي بان يتفرغ للدراسة

ولو ساعة واحدة في اليوم، وهو الوقت الذي يحدده الربانيون كحد ادنى للدراسة. وكان اليهود يتجهون اكثر الى المهن الاخرى، خصوصا التجارة، حتى يتمكنوا من تكريس اكبر وقت ممكن للدراسة تبعا لما فرضته متطلبات العقيدة، ودون ان يخلوا في نفس الوقت باعمالهم اليومية. والحقيقة أنه كان لليهود حضور في البوادي المغربية، حيث كانوا يملكون املاكا عقارية. اذ انه لم يكن يوجد اي عائق يعوقهم عن ممارسة حق الملكية حيث كانوا يشتغلون في الارض ويعيشون من انتاجها بجانب مواطنيهم المسلمين الذين تجمعهم واياهم المصالح المشتركة، كما تشهد على ذلك الوثائق القضائية، والشهادات التي سوف نحللها فيما سياتي، وهي اكثر فائدة من المعلومات الجزئية والمتباينة التي اشرنا اليها اعلاه.

ويتضمن قرار محكمة ربية بفاس، اطلعنا عليه، وقد صدر في شأن احصاء ارث، من جملة ما يتضمن «بنايات وحقول وكروم» ومن المرجح انها كانت توجد بمنطقة دبدو. اذ ان احد الاطراف المعنيين، وهو اهارون بن يوسف الصقلي كان من اهل هذه المدينة. غير ان القرار المحدد لنوع التقسيم كان قد اتخذ بفاس سنة 1758.

وجاء في حكم قضائي سابق، يتعلق بيهودي «استاجر ملكية احد الاغيار، بانه كان يحرث ويزرع ويحصد ويجمع السنابل احزمة، ويقوم بكل الاشغال في الحقول وفي الكروم».

وتعرض نص آخر مورخ ببداية القرن التاسع عشر، لحالة يهودي (يتجر) في انتاج حبوب حقله. وفي شهادة تنتمي لنفس الفترة، وهي عبارة عن قرار من احبار مكناس ان «حقلا في ملكية احد الاغيار... لا يلزم ان يطبق عليه حق الجلسة، تجنبا لكل المزايدات والمضاربات»... ويضيف مع ذلك محرر القرار ان «اشغال الحقول الشاقة، واقساط ايجار الارض التي ينبغي تسديدها نقدا، والمصاريف المختلفة التي تجعل الاستغلال اقل مردودية، كلها تبعد اليهود أكثر فأكثر عن الفلاحة...»

– وتشكل النزاعات التي تمس التشريع الخاص بالاملاك العقارية بصفة عامة، وبالاخص، تلك المتعلقة بالامتيازات والرهونات العقارية (ملكية وحق التقادم ورهن الحيازة العقارية...)، كلها عدة استشارات قضائية اخرى.

وتؤكد شهادة أدلى بها في عين المكان، قبل عشرين سنة، في وادي تودغا: «ان اليهود الاغنياء كانوا اصحاب املاك عقارية، وكانوا يملكون حقولا وكروما وعددا كبيرا من النخيل..»

وجاء في وثيقة اقدم وهي عبارة عن مقدمة مجموع مواعيظ نشر في برلين سنة 1712، قصة سبق ان اشرنا اليها في الفصل الأول من هذا الكتاب، وتتعلق بعائلة بريس التي هاجرت من الاندلس في سنة 1492، وجاءت لتستقر في نفس هذا الوادي من الاطلس، في «مملكة سلطان مراكش (هكذا) حيث اشترت ارض دادس وشيد فيها ابناء العائلة منازل سكنوا فيها في أمن وطمانينة، وكانوا يعيشون على الفلاحة وتربية المواشي...»

9- قضايا ملحقة

أ- المنازعات التجارية والعقارية.

من الطبيعي ان تطرح كل هذه الانشطة الاقتصادية التي اوردناها، سواء كانت تجارية أو حرفية أو فلاحية، أو ذات طابع عقاري يمس الملكية العقارية، نزاعات . ومن الطبيعي ان تدفع السلطات الربية الى ان تعايشها يوميا. وكان ينبغي ان تعطيها ما تستحق من الاهتمام، وتقضي فيها طبقا للشريعة الربية التي نص عليها التلمود ومختلف الشرائع، والتي يكملها العرف والعادة المحليان السائدان في الامور المدنية، بالاخص تلك المتعلقة بالحق العيني والمنظمة لقانون الملكية والالتزامات. وعندما يكون النزاع متعلقا بمدعين يهود، فان الحل عندها يكون نسبيا سهلا. وهو اقل سهولة عندما يكون الطرف الثاني غير يهودي ، سواء كان شريكا أو طرفا مباشرا أو طرفا مورطا غير مباشر في النزاع بسبب تعقيد العمليات، سواء كانت هذه العمليات بتعاقد مكتوب أو بتعاهد شفوي. وفي الواقع فقد كان التعامل بين اليهود والاغيار امرا طبيعيا، لان السكان المسلمين كانوا يشكلون القاعدة العريضة من الزبائن والمشتارين والمستدينين واحيانا الدائنين.

وعندما كانت تتعدى قضايا هذا النوع من النزاعات -وكانت كثيرة- صلاحية المحاكم اليهودية، فانها كانت تعرض امام السلطات القضائية الاسلامية.

غير انه كان ينبغي على السلطات الربية، ان تسهر على سلامة العلاقات فيما بين المتنازعين اليهود، وأن تعمل على التقيد بالقرارات القضائية، وأن لا تستهون العواقب التي يمكن ان تضر بمصالح ذوي الحقوق (الشركاء ورثة الخ) أو مصالح الطائفة باكملها، هذه الطائفة التي تعتبر احيانا مسؤولة، بفعل التضامن، على نتائج بعض النزاعات. وقد تعرضنا اثناء تناولنا للتنظيم القضائي، الى علاقات المحاكم اليهودية بالتشريعات الاسلامية، وخصوصا التجاء المتقاضين اليهود الى الشريعة الاسلامية وممثليها لحل بعض النزاعات.

وتحل بطبيعة الحال كل الخصومات التي تحدث بين اليهود والمسلمين في المحاكم الاسلامية (الباشا أو القاضي تبعا للحالة) اذا كانت قضايا مدنية أو عقارية. وعندما يتعلق الامر بنزاعات بين اليهود انفسهم، فان الباشا لا يتدخل الا عندما تعجز السلطات الربية عن ايجاد حل للنزاع بين الاطراف، وأكثر من هذا، لا يلعب الا دور السلطة المدنية، ولا يتدخل باية صورة من الصور في عمق القضية.

ونتعرض الآن لبعض مواقف السلطات الربية المغربية تجاه بعض الحالات الواقعة والتي تعرض دوما امام المحاكم، أو تلك التي تستفتى فيها باستمرار.

من بين هذه الحالات ، تلك المتعلقة بالقرض بفائدة، وتنظيم القرض، وعقد شركة، والمنازعات العقارية، وتلك التي يطلق عليها في المصطلح القضائي العبراني لفظة «حازقاه». ومضمون هذا المصطلح يشمل عدة مفاهيم، فانه يدل على نوع خاص للتملك والاحتفاظ بملك، والتقادم الشرعي، وحق الاستمرار الشرعي أو (حق شراء مفتاح ملك)، وحق التمتع بملكية، الخ...

ب- القرض بالفائدة ومحاربة الربا.

ورد المنع البات للقرض بفائدة، كما وردت ادانته اخلاقيا في نصوص التوراة وشروحها التلمودية، وكذا في التعاليم القرآنية والفقه الاسلامي. وتقيدت السلطات الربية نظريا خلال كل القرون بهذا المنع المعروف منذ القديم. غير انها قبلت التمييز بين الربا الصريح من جهة، (ربا مشروطة باتفاق شفوي أو عقد مكتوب) وهو محظور في الشريعة المكتوبة، وما «يشبه الربا» من جهة اخرى، ويفترض فيه عدم وجود اي اتفاق مسبق ما بين المدين والمستدين. وليس للقانون المتعلق به طابع التشريع القطعي المطبق على الربا المشروط. ويفترض فيه ان المدين اعطى «طواعيا» فائدة مقابل الخدمة التي قدمها له المستدين، أو ان هذا الأخير استفاد مباشرة من الاملاك التي اودعه اياها المدين كضمانة للدين.

ويمتد منع التشريع التلمودي المتعلق بالقرض بالفائدة، والذي يمس بالخصوص، المجال العقاري، الى التجارة والصناعة والبنك. غير ان صرامة المبادىء هنا تتعارض اكثر فاكثر مع المتطلبات الاقتصادية الاساسية.

وهكذا تفنن التجار في اختراع الوسائل المتنوعة للتحايل على القوانين المتعلقة بالقرض بالفائدة، بل استطاعوا، مع حظوظ متفاوتة من النجاح تبعا للحالات المعنية، ان يجعلوا بعض

الفقهاء يقرون بتحايلهم على القانون. مما الزم بعض التعديلات في التشريع لجعل بعض اشكال العمليات الربوية مشروعا.

وبما أن اليهودي لا ينجح دائما في الحصول على الاقتراض مباشرة من احد الاغيار، فإنه يلتجىء الى رأسمال اخيه في الدين، مستعملا جاره أو شريكه غير اليهودي وسيطا في العملية. وبالرغم من ان التشريع التقليدي كان يدين هذه المناورة، فانها ظلت مع ذلك مستعملة على نطاق واسع. وهكذا كان الأمر بالنسبة لتحرير بعض عقود «المخاطرا».

والتحايل الاكثر انتشارا، والذي كان التشريع الربي يغض الطرف عنه، هو العقد التجاري النيابي، وهو نوع من شركة المساهمة أو مؤسسة مشتركة، ويتم كالآتي: يعتبر الدائن أولا شريكا في هذه الشريكة مستفيدا من الارباح، غير ان ربحه يمكن ان يحدد مسبقا، وتتقلص خسارته الى الحد الادنى.

وهكذا يصبح التعاهد من هذا النوع عقدا عاديا للقرض بالفائدة.

ووعيا بخطورة الجرم، (مخالفة مدنية مضرة بالآخر وانتهاك للاوامر الاساسية للشريعة الدينية والاخلاقية) فان القاضي والحبر المستشار المغربين مثل اخوانهم في الطوائف الاخرى في الشتات، يجتهدون في مراسيمهم وفتاويهم، ليقطعوا الطريق على كل المناورات الهادفة الى التحايل على الشرع للتعامل بالربا. ويندون بالعمليات الحرفية او التجارية (مختلف انواع رهان الحيازة العقارية واسهامات وعقود الشركة)، التي هي مظنة للشك في التعامل به ويحصرون هذه العمليات في الاشكال التي سمحت بها الاعراف والعادات المحلية.

ولقد رأينا ان محرري فتوى مورخة ب 1603 يامرون كتاب الضبط في المحاكم بان يرفضوا تحرير شهادات عدلية متعلقة بعدد من المواد الغذائية (الشمع والعسل والزبدة وزيت الزيتون والحرير الخ) لكل شخص ليست له صفة تجارية ولا يتعاطى التجارة عادة. وذلك لقطع الطريق على المناورات الهادفة إلى التحايل على التشريع الذي يمنع الربا (بيع صورى ومختلف عقود المخاطرا). وانطلاقا من نفس الدوافع، اعدت فتوى مورخة ب 1607 لتقنين الافراط الشائع لذلك الاستعمال الناتج عن الاحكام التشريعية الاستثنائية المتخذة لصالح الاملاك الخاصة باليتامى. وتدين الشروط المجحفة المفروضة لاشرعا، تلك التي يفرضها الدائنون على مدينيهم، مثل اداء ثمن كراء شهري مرتفع (ويظل قدر الدين ثابتا) مدة رهن القرض بحيازة، وهو كراء يكون دائما اعلى من القيمة التأجيرية للسكن، ومثل الالحاح على وجود طرف ثالث، يلزم باسترداد العقار المرهون في اجل محدد...

تشترط «التقنه» بانه لا ينبغي ان يتجاوز الكراء الثمن المعقول الذي يحدده السمسار المعين من لدن الطوائف، ولايجب ان تفرض الكفالة لا من جهة رب الملك،ولا من جهة المكتري لضمان الايجارات، غير ان المرسوم يقر الشرط مجيزا للدائن بان يتلقى رهنا ضمانا لماله.

لقد رأينا، فيما يخص المضاربات النقدية، كيف عالج وقنن ربيو فاس، النزاع المالي المتعلق بالتغيرات الناشئة في مجال تعادل قيمة العملة سنة 1605 و 1607 و 1609. وحللنا الاجراءات التشريعية ذات الطابع العام،تلك التي اتخذوها لحل المنازعات التي تفرزها عادة مثل هذه العمليات. وكان همهم في ذلك تحقيق الانصاف والعدل.

– وسبق ان ذكرنا، فيما يتعلق بتجارة الذهب، فتوى مورخة اواخر ب 1723 واتضح فيها انه كان بجانب نشاط التبادل النقدي والصناعي (الصياغة)، عمليات قرض بفائدة مموهة، وذلك ان المدين يسلم كقيمة نقدية، مبلغا ما للمستدين، ويلزم هذا الاخير بان يعيد مبلغا اضخم لا كقيمة نقدية، بل من مادة الذهب، وهكذا يفلت القرض الذي اصبح عبارة عن شراء لمعدن الذهب،من التشريع الذي يمنع الربا.

وكذلك وجدنا الحبر جودا بن عطار، يندد بعبارات قاسية «لهذه الممارسة التي تنتشر كالوباء» والتي تهدف بالدرجة الاولى الى «تغطية عين الشمس بالغربال» وهذا الاستعمال، مثله مثل «عقد المخاطرا» وخدع اخرى مماثلة، سيظل قائما ما دامت مهنة الصرافة موجودة. بل ما دامت انواع التجارة الاخرى وهيئات المهن قائمة.

– ولنذكر كذلك منع القروض المتعلقة بارتفاع المواد الغذائية أو المعادن الثمينة،«ينبغي ان يتم تسديد الدين هكذا: أي واحد اقترض مالا أو بضاعة، فعليه أن يعيدهما بسعرهما المحدد في تاريخ القرض، ولا موجب لاي تقدير جديد،الا تبعا للاسعار التي ترتفع أو تنخفض (حكم محكمة فاس 1735).

– ولنشر كذلك الى بعض النصوص المتعلقة بالقروض الربوية المفروضة على المحاصيل، وعلى بعض التعاونيات التجارية الحقيقية أو الوهمية، وقد كان ليهود فاس، حتى مطلع القرن العشرين، سماسرة يسمون «السواقة»،وكانوا يوزعون في المناطق البربرية منتوجات مصنوعة في فاس،تلك التي يستوردها الفاسيون في المناطق الجبلية، ويجلبون منها المواشي... وقد لعب يهود صفرو دورا هاما في هذه التجارة الكبيرة التي كانت قائمة على «تنظيم قرض على المدى الطويل وتدفع اقساطا».

ج- قانون ملكية خاصة جدا -«الحازقا».

تعني الحازقا -وهي كلمة عبرانية مشتقة من فعل «حزق» في شكله الاتباتي والاعلاني.. (امسك واخذ وملك واحتفظ وافترض)- مضمونا يشمل عددا كبيرا من المفاهيم، من بينها على الخصوص، ذلك المفهوم الذي يعني نوعا من الاكتساب والتمتع والاحتفاظ بملك. وحالات لحازقا جد معقدة وللقانون الذي يحكمها خصوصياته التي ينفرد بها مما لا يسمح لنا بدراستها دراسة وافية. وسنكتفي بعرض لبعض النماذج وبعض الحالات، على سبيل المثال تلك التي تعبر عن اهتمامات مجتمع الاقلية اليهودية المغربية.

لقد استوحت السلطات الربية كل اجراءات الحماية المستمدة من نصوص الكتاب المقدس والتلمود، وذلك تحت هاجس منع المزايدات واقصاء الصفقات الاحتيالية المجحفة بمصالح الطائفة أو احد اعضائها. بل كان شغلها الشاغل ارادة ضمان امن المجموعة تجاه الجيران الذين يشك في نياتهم أو الذين يشكلون خطرا.

وكما تعرضنا للسيرارا فاننا نتعرض لموضوع «انتهاك ملكية الغير». فبمقتضى عدة احكام ربانية صدر عدد متنوع من «الحازاقا» يتضمن بعض الامتيازات أو حق الارتفاق.

وهكذا جرت العادة بمنع اي يهودي، تحت طائلة عقوبة «الحرم»، (التكفير) من ان يستاجر منزلا أو دكانا في ملكية أحد الاغيار، اذا كان قد استاجره مسبقا، يهودي آخر،لان المستاجر الاول يملك «حازاقا» (حق التمتع) مما يجعل حرمانه من هذا الحق بدون موافقته عملا غير مشروع، ولقد سبق ان اصبح هذا الاستعمال معمولا به بمقتضى «تقنه» في اوربا منذ القرن العاشر.

ويستعمل لادانة مالك يهودي باع او اكترى لاحد الاغيار ملكه الواقع في الحي اليهودي، وفي نفس الوقت اسند الى اي مالك يهودي آخر من الجيران، حق الشفعة، العبارة التي تثبت «حرم» أي يهودي متهم بهذه الجنحة والعبارة هي: « لقد آويت اسدا في اعتاب ملكيتـي». (باباقاما114ا).

ونجد انواعا من «الحزاقا» المتميزة في كثير من الفتاوى التي يعود عهدها الى القرن السابع عشر والثامن عشر، وهي التي تسمى بالعبرية «حزقت ايشوب»،وبالعبرية العربية «حزقت الجلسة»،وتشبه /حق الجلسة/ في التشريع الاسلامي.

ومما لاشك فيه، فان الاهتمام ب«الحازاقا» يمكن ان يفسر انطلاقا من اعتبارات عقائدية وَهَمٌ مشترك يمس مجموع الطوائف في الشتات للحفاظ على هويتها وحماية مصالح وأمن كل اليهود. غير أنه يجب الا ننسى هنا الظروف المحلية، والعلاقات الخاصة التي يقيمها اليهود والمسلمون فيما بينهم. ولاشك في ان واقع الملاح وما يعرفه من ضيق، والقيود المفروضة على اقامة التجار والصناع اليهود في الضواحي الحضرية والقرى، كانت تكون كلها بالنسبة للسلطات الربية المغربية كثيرا من الاسباب الاضافية لتغليب ارساء قوانين «الحازقا»، سواء كانت هذه «الحازاقا» تستند على الشريعة، أو تستمد فعاليتها من العادات المحلية. لتجعل منها امرا يحترم الاشتراطات والتطبيق، عند قيام المنازعات العقارية، وما اكثرهم. واليكم ما جاء في مرسوم مورخ ب 1603، «تظل الحازاقا مكسبا لاي كان اذا اضطر الى بيع حقه التجاري لاحد الاغيار، للاحتياج أو ارغم على ذلك بالعنف... ويعد هذا عرفا مطابقا لمرسوم قديم نرى من المفيد ان نكمله كالتالي: يحتفظ ب«الحازقا كل من تنازل عن ممتلكاته الى احد الاغيار، ذاك الذي قد يبيعها هو بدوره الى احد اليهود... عندما تعمد السلطات المدنية الى عرض ارض احد اليهود بسبب دين، تلك التي قد يشتريها يهودي أو احد الاغيار، فان لمالكها الاول ان يحتفظ ب«الحازقا» على ارضه، ولهذا ينبغي عليه ان يقدم اشعارا بالاعتراض حسب القوانين المتبعة...» وتوضح فتوى اخرى ما يلي: «يصدر "الحرم" في حق من اكترى ارضا بلا علم مالك «الحازقا» وهذا القرار مطابق لمرسوم اقره اسلافنا».

وفي هذا الصدد يضيف مرسوم سنة 1603 الذي سبقت الاشارة اليه انه: « لايمكن ان يدعي مستأجرو الاملاك المحبسة (املاك الاوقاف)، والاملاك المخصصة للفقراء والمؤسسات الدينية اي نوع من انواع الحازاقا».

وتهتم مختلف النصوص بالوضع الدقيق لليهودي الذي ابعد عن الجماعة بسبب اعتناقه الاسلام، دين معظم المغاربة، وهكذا نجد وثيقة، تحدد في بداية القرن السابع عشر، الوضع القانوني «للمومار» (المرتد)، في خصوص اقامة «الحازقا»، ويحتفظ المرتد بالحقوق التي ورثها أو اكتسبها هو نفسه عندما كان يهوديا. واذا باع حقه التجاري بعد اعتناقه الاسلام لاحد الاغيار، أو الى أحد المرتدين مثله، فان «الحازقا» تظل قائمة بهذا الحق، وتسلم بعد موته لاحد اقربائه ومن لهم الحق في ارثه... ويظل اي نوع من انواع «الحازاقا» تلك التي تمكن من امتلاكها عندما كان يهوديا، والتي باعها بعد اعتناقه للدين الجديد، حقا مكتسبا لاقربائه، اذا كان المشتري من الاغيار. ويحتفظ المشتري اليهودي بحق الانتفاع بها...»

وفي مرسوم آخر مورخ في 1731 حرر بفاس، نقرأ ما يلي في نفس الموضوع: «اذا باع اليهودي المعتنق للاسلام حقه التجاري لاحد المسلمين، فان للمالك اليهودي «للحازاقا» المرتبطة بهذا الحق، ان يطلب باثبات اقامة حقه، وعلى المحكمة ان تستجيب لطلباته...»

الحياة الفكرية ثقافة ودين

الابداع الادبي ومراميه

تسعى دراساتنا وابحاثنا التي بدأناها منذ عشرين سنة الى اظهار التراث الثقافي، اليهودي الموروث منذ العصر الذهبي للعبرية - العربية التي عاشت على ارض الاسلام. كما تهدف الى توضيح النشاط الوقاد الديني والفكري، وجو الروحانية المتفائلة اللذين سادا في وسط الطوائف المنسية، وقد ابدعت هذه الطوائف بالرغم من هذا النسيان، انتاجا ادبيا تضمن مساهمات لا يستهان بها في مجال التراث الفكري الذي ارتبط بموطنهم الاصلي او الموطن الذي يفتح لهم ذراعيه، لاستقبالهم من جهة، او ارتبط بالآداب الانسانية والعلوم اليهودية من جهة اخرى.

وستشهد اعمالنا حول الفكر اليهودي في الغرب الاسلامي، سواء تلك التي انجزت او هي في طريق الانجاز، او التي هي مجرد مشروع، على حضور المعارف اليهودية في هذه الاماكن، في مختلف مجالات العلوم المكتوبة (الفكر القضائي والشعر والادب الصوفي والتفسير والوعظ) وفي مجال الفنون الشفوية المنقولة عبر الاجيال (ابداعات ادبية باللهجات المحلية اليهودية - العربية واليهودية - العبرية).

وكان الهدف الاول لهذا الفكر، هو ضمان الحفاظ على تراث فكري وروحي اورثه الاجداد القشتاليون واليهود المغاربة احفادهم. لقد عرفت المجموعات المغربية، طوال القرون الاربعة الاخيرة المظلمة من تاريخ المغرب، كيف تحفظ تلقائيا، كنز الثقافة الذي تسلمته لانعاشه وبعث الحيوية فيه واخصابه، كلما توفرت الشروط الملائمة لذلك. وكانت بذلك كمن يعمل على حفظ الجمرة تحت الرماد. واستطاعت الجماعات فعل هذا في وقت كانت تعيش فيه تحت طوق مزدوج، نتيجة انعزال البلد نفسه عن كل حضارة غربية، وتقوقعها داخل الملاح، هذا التقوقع الذي كان يمنع اي اتصال فعال مع العالم الخارجي. وكان القادة الروحانيون المغاربة، احبارا ومدنيين، وبغض النظر عن الاوضاع المعيشية المتغيرة وغير المتكافئة، وبالرغم من ان همهم الاكبر والدائم كان هو الحفاظ على الدين، بل على ارواح افراد طوائفهم المهددة بكل انواع الاخطار، بما في ذلك الانشقاقات الداخلية، والخروج عن

الديانة اليهودية طوعا او كرها، لا يألون جهدا في الدرس والتثقيف وتعليم الشريعة والآداب الدينية الاخرى.

والجدير بالذكر ان الآثار الفكرية، في هذه القرون الشحيحة فكريا (16–19)، اذا ما قيست بغنى وازدهار العصر الوسيط، لا يمكن ان تكون الا انعكاسا لثقافة لا تدور الا حول العقيدة والدين.

ويرتبط الهدف الثاني لهذا النشاط الثقافي ارتباطا وثيقا بالهدف الاول. فهو يبرز القيم الشمولية لليهودية، وفي الوقت نفسه يعد مرآة تعكس رؤية الجماعة لذاتها، ووسيلة للتعبير عن عالم لم يكتشف منه الا القليل لحد الان، كما يجلي محيطا اجتماعيا اقتصاديا ودينيا ومجتمعا يهوديا أصيلا يضرب به المثل في تضامنه مع المجموعات اليهودية الاخرى اين ما كانت، بغض النظر عن عزلته وضيق حاله.

I – الجانب الفكري «لتليمذ حاخام» «الطالب المبدع».

1 – تكوين الطالب

لقد سبق لنا ان تكلمنا عن كيفية تكوين الطالب اليهودي، وعن مساره الفكري في فصل من الفصول السابقة المخصصة لقضايا التربية والتعليم، وقد تناولنا فيه بالتوالي، المبادىء الاساسية للتقاليد التعليمية اليهودية في العصور التوراتية والتلمودية و«الكَّاؤونية» عهود (عهود المدارس البابلية). وعرضنا كذلك المفاهيم المثالية للتعليم، وقمنا بوصف مفصل للمدرسة التقليدية اليهودية بالمغرب، وللتعليم الابتدائي «لِلْحِدرِ» والتعليم الاكاديمي «لِلْيشِيفَاه»، مستعرضين كذلك التكوين الدائم عن طريق وعظ الايام الاحتفائية (السبوت وايام الاعياد) وطوال الجلسات الليلية التي يتفرغ فيها بانتظام، لدراسة التوراة و«الهالاخا» والتلمود و«الزهار» و«الموسار» (الاخلاق الربية) والمدراش (خطب دينية واساطير) والاشعار (شعر مرتبط بالاغاني والموسيقى)، إما في البيعة واما في اطار تعاونيات الصناع والتجار، او في داخل الزوايا المختصة.

ولا شكل ان بيداغوجية «الْحِدِرْ» و«الْيشِفَاه» قد اتسمت بكل العيوب التربوية للقروسطية التقليدية. ونحن في الواقع امام مفاهيم تربوية لهذه «المدرسة التقليدية»، حيث ظلت طرق ومناهج المؤسسات التعليمية المسيحية والاسلامية واليهودية في القرون الوسطى حية في هذا «الحدر» و«اليشفاه» في المغرب المعاصر. وكان الافراط في الحفظ والنقول يهيمن على التعليم، سواء في المسيد او المدرسة، حيث كان الاهتمام ينصب على تقوية الذاكرة. والهدف

من دراسات الطفولة واليفاعة الى سن الرشد، وطوال العمر كله، بالنسبة للطالب الحق، هو الاستيعاب الطويل والصعب للعلوم التقليدية، والتمكن من القدرة على الجدل، والاطلاع على علم الاخلاق الربية. والغاية من تحصيل هذه «العلوم» هو ديمومة تعلم مدرسي اكاديمي ومحافظ، وهو كذلك تكوين الطالب تكوينا يجعل منه انسان العقيدة الخبير في قضايا «الهالاخا»، وعالما في التفسير التوراتي والتلمودي وواعظا (دارشان) وقباليا وشاعرا ذا موهبة، او عاديا يعتني بالقافية في مقطوعاته الشعرية «بيوط» او بالسجع والجناس في مختلف النصوص التي يحررها نثرا فنيا «ميليصَهْ». ويسلك الطالب الطامح لكي يكون كاتبا ذائع الصيت، مسارا فكريا عاديا يقوده الى نهج نوع ادبي متلائم مع اهتماماته الاولية. وذلك بجمع نتاج معرفته او كتابة حصيلة تجربته الذاتية في كتاب او عدة كتب، ساعيا الى اداء واجب يكاد يكون مقدسا،الا وهو ترك مؤلف او عدة مؤلفات (تأليف – انشاء) لمن يأتي بعده.

وتعكس هذه المؤلفات بكل امانة آثار العلوم الربية ومناظراتها في مختلف الوجوه. وذلك في مؤلف من مؤلفات «الهَلاخَا» او الاحكام الفقهية أو مجموعات الفتاوي، او التأليف في الوعظ والارشاد او الشروح الصوفية «للزهار»، او نصوص شعائرية «للحدشيم» (قصص توراتية وتلمودية). كما نجد ايضا العديد من الدواوين التي تختلف احجامها والتي تتضمن منظومات شعرية من فيض الشاعر،تلك التي تحتويها منتخبات شعرية متنوعة، او محفوظات تتردد طيلة امسيات يوم السبت واثناء جلسات الدراسة.

وينبغي ان نضيف الى كل هذا ذاك الانتاج الادبي الشفوي المعبر عنه باللهجات المحلية. ويستعمل معظمه اداة لتعليم وتبليغ عديد من العلوم الربية التقليدية الاخرى. (تصريحا او تلميحا). وهو كذلك المجال المفضل لكل تظاهرات الحياة الدينية والشعبية والفلكلورية.

2 – العلم في خدمة الشريعة

ولنقل ايضا ان التعليم المتوفر في «الحدر» و«اليشفاه» او في المؤسسات الاخرى. والعلم المكتسب في سن الرشد، وكل ثقافة الطالب، والانتاج الادبي الذي هو انعكاس لهذا التعليم، كلها تنصهر في خدمة التوراة هذه الشريعة التي يفرض منبعها اللاهي ان تكون موضوع دراسة دائمة ومعمقة.

وتتمحور الحياة الفكرية حول نموذج شَرْعَوِي وروحي في آن واحد، وبذلك فان ما يبدع من ادب ضمن هذه الشروط،وفي بيئة من هذا النوع، يكتسي صبغة دينية كلية في كل ما يهدف اليه.

لقد اوضحنا الدور المهيمن الذي تلعبه دراسة التلمود و«الهالاخا» في تعليم «اليشفاه» وتكوين الطالب، «تلميذ حاخام» دون ان ندعي بانهم كانوا يعتنون بعلوم التشريع دون مجالات الفكر اليهودي الاخرى، لان هذا الادعاء سيكون تصورا وهميا. وفي الواقع، ان «الهالاخا»، التي يلتجأ اليها على الدوام، لتقنين حياة اليهودي داخل الاتجاه الذي تريده التوراة، هي التي نظمت كل تفاصيل وجود هذا اليهودي بكيفية تزوده بكل الوسائل، ليفوز بالسعادة الابدية. ومن هنا جاء الاهتمام البالغ بالتربية الدينية والتهذيب، على جميع المستويات.

3 – النقل الشفوي للمعرفة

ان النقل الشفوي للمعرفة هو احد الانساق التي يعطيها التعليم التقليدي كل افضلياته، ولقد ساهمت حالة وعزلة المغرب الكبير، واوضاع وظروف اليهودية بالمغرب في الحفاظ على هذا النسق طيلة القرون الاخيرة.

اذ كان الكتاب يعتبر وسيلة عمل غالية الثمن و لم يكن هناك وجود للمطبعة العبرانية العربية كذلك اذا استثنينا بعض منشورات المطبعة الحجرية بفاس بالمغرب).

وكان من الصعب جدا استيراد الكتب الى المغرب قبل عهد الحماية التي بدأت سنة 1912، وكان ينبغي استيرادها من اوربا سريا، وبالخصوص من ايطاليا، باثمنة باهضة. اذ ان الكنيسة كانت تطبق حظرا كاملا على الكتابات اليهودية، في غالب الأحيان، كما كان يمنع تداولها بين الأوساط.

ويعتبر التعليم وسيلة من وسائل التبليغ الحقيقية، والتكوين هو تلقين وهو قبل كل شيء، اخذ مريد عن شيخه الملازم له مباشرة، وخصوصا، عندما يتعلقَ الامر بالمعارف الباطنية (الصوفية القابلية). وكان يعتبر النقل الشفوي في البداية هو الاداة الوحيدة المتميزة بالوضوح، سعيا في ترسيخ النصوص في العقول ترسيخا ابديا. ولم يتم الاعماد على الآداب المكتوبة الاتدريجيا، ومع كثير من التردد والتحفظ.

4 – حظوة العلم

لا تغيب اهمية العلم ودور المعرفة عن اي كان، وتتجلى قيمة الفرد الحقيقية ومكانته الاجتماعية التي لا نزاع فيها، فيما يكتسبه من معارف. وما أن تكتسب هذه المعارف حتى تغدق امتيازات يمكن ان تبدو مبالغا فيها في بعض الحالات (امتيازات مادية لا يستهان بها، واعفاء من الضرائب مهما يكن الوضع المادي لطالب العلم).

يتمتع طالب العلم، زيادة على ذلك، بنفوذ اخلاقي لا يرقى الشك اليه قد يتجاوز احيانا المجال الروحي ليصبح ذا بعد صوفي. فتتضاعف المعارف العقلية بالادراك والباطنية. ويحاط كل ربّي ذائع الصيت، بهالة «الصّدِيق» ويصل الى مرتبة القداسة.

ويقدس الجميع، قبور الاحبار الذين يتحولون في اغلب الاحيان، بعد موتهم، الى صلاح واولياء، اصحاب معجزات. اذ تصبح هذه القبور موضوعا حقيقيا للتعبد ومكانا للحج المنتظم (الزيارة) بمناسبة مختلف الحفلات التذكارية و«الهيلولا». وهكذا تصبح المعرفة مصدرا موروثابالقوة. وتعتبر القداسة والقوة الخارقة التي ترتبط بها امرا يورثه صاحبه لذريته الذين قد يبالغون احيانا في التصرف فيه. ولقد عرفنا عائلتين ظلتا الى عهد قريب، تبالغان في الاستفادة من موروث من هذا النوع، وهما احفاد الربي حاييم بِنْتُو من الاحبار «الهالاخيين» و«القبالين» عاش في بداية القرن التاسع عشر، وقبره بالمقبرة القديمة بالصويرة. واحفاد الربي داوود بن باروخ هاكوهن (القرن التاسع عشر) الذي دفن في قرية في اعالي تارودانت في سوس.

ويعرف المجتمع الاسلامي المغربي نفس المظاهر ونفس النزاع بين السلفية والاعتقادات الشعبية الدينية التي تؤدي الى الهرطقة، بل الى البدع التي يدينها الاحبار والاسلام الرسمي في آن واحد. يقول جاك بيرك في هذا الصدد في مؤلفه عن اليوسي : «يزخر المغرب بصوفيين حقيقيين او غير حقيقيين،ونفوذهم فائق الحد على الشعب الذي يسخرون منه ويبتزون امواله. ومع ذلك فان تصديق الجمهور بلغ حدا جعله ينذر تقديسه للصوفي وذريته. وهكذا ظهر نوع من القداسة (المحابية) التي ادانها اليوسي... وسفهها، وهذا ما يلاحظ على الخصوص، لدى ابناء كل زاهد. حيث يعمل الابن الاكبر على ان يتحلى بكل نعم ابيه فيلاحق الاتباع..» وبقية هذا النص ممتعة جدا، وتصف حالة يومية وعادية في المجتمعات اليهودية والاسلامية.

وسنبين ان المعرفة في الاوساط اليهودية عموما، والوسط المغربي خصوصا. ليست وقفا على طبقة تشبه طبقة رجال الدين في المجتمع المسيحي في القرون الوسطى، او طبقة العلماء والفقهاء في بلاد الاسلام. وليست كذلك نخبوية، بمعنى ان تحتفظ بها فئة اجتماعية معينة أو ارستقراطية المال او الوجهاء والنبلاء الذين تميزهم وظائفهم الخاصة في القيادة او التنظيم الاجتماعي.

5 - طالب علم حرفي ورجل اعمال

لقد اشرنا الى وجود الطالب الصانع الذي لا يجعل من عمله حرفة، بل يمارس مهنة ليكسب قوته، وهذه كانت حال الربي جودا بن عطار، وهو احد الوجوه البازرة في تاريخ اليهودية في القرن 17، وكان صائغا ماهرا يعيش من مهنته، وظل يرفض قبول اية مكافأة تاتيه من هبات الجماعة مقابل وظيفته التي كان يشغلها وهي وظيفة قاضي القضاة، ورئيس المحكمة الربية بفاس.

ولنذكر ايضا حال طالب علم ورجل اعمال يسعى الى الجمع بين مطلبين هما : العلم والثروة.

لقد لعب هذا النوع من الرجال الذي يجمع ما بين الدراسة والمهنة «تُورَاهْ مِلاَخَاه»، دورا رئيسيا في مجال تبادل الافكار والبضائع. وكان معروفا في العالم اليهودي منذ بداية النفي البابلي.وازدهار «اليشفاه» «اكاديميات» ما بين النهرين (القرن الثالث ب م).

ولقد عرف الاسلام كذلك هذا النوع من الرجال «العالم» وهو نموذج كان معروفا في العصر الذهبي لحضارة العصر الوسيط اليهودية - العربية. حيث كانت حرية تنقل العلم مرتبطة على الدوام بحرية تنقل الاموال والمنتوجات الصناعية والتجارية.

ويقدم المجتمع اليهودي المغربي في الازمنة الحديثة (القرن16 و18) نماذج متعددةلوجهاء و«نگديم» (امراء الجماعة)، وهم رجال اعمال وطالبو علم في آن واحد، ومتفقهون في «الهلاخا» وشعراء.

ويمثل خليفة بن مالكا احدى هذه الشخصيات القوية الربية التي يتردد صداها في الذاكرة الجماعية للجنوب المغربي، وقد ذاع صيت ابن مالكا وشهرته حتى عند غير اليهود. عاش خليفة بن مالكا معظم حياته باكادير شاعرا وتلموديا، ما بين نهاية القرن 17 وبداية القرن 18. وانتهى به الحال الى مصاف الاولياء. وكان في نفس الوقت احد كبار التجار، ومصدرا للمواد المحلية، ومستوردا للبضائع الاوربية. واصبح قبره الموجود في المقبرة القديمة في السفح الاعلى لمدينة اكادير، «طالبورجت»، مزارا لليهود والمسلمين.

ولا يعرف شيء كثير عن شخصية ابن مالكا اللهم الا زيارة قبره، ومحاكمته امام القضاة اليهود بأكادير ومكناس. كما عرفت له في مجال الكتابات الربية فقرات لم تنشر بعد من احد كتبه الضائعة، وهو كتاب «كَف نَقى» (اليد الطاهرة) وقد وجهه الى احد مراسليه

بامستردام، وهو الربي اسحق بن سلمون يشروم، الذي كانت تربطه بالمؤلف علاقات تجارية وودية. والكتاب عبارة عن كناشات تعاليق تناول فيها المؤلف المقطوعات الشعرية المستعملة في الطقوس والاعراف المتبعة لدى اليهود السفرديين. وتوجد في الكتاب ايضا تعاليق تدور حول قواعد «الماسُورة» [القواعد النحوية والصوتية الخاصة بالتوراة] وكيفية تطبيقها في القراءات التقليدية التوراتية لدى يهود المغرب.

ومضمون الكتاب يفسر عنوانه، اذ يقول المؤلف انه قد استوحاه من نصوص توراتية كلها استعملت لفظة «كَفْ» (يد) للتعريف بمختلف وجوه «الاعمال» الدينية والشعائرية.

6 – الخاصة والعامة

اذا كان للجماعة ان تتمتع بالتعليم، وان تنال حظا من المعرفة، فان ذلك لم يمنع من وجود «مفهوم الخاصة والعامة» في المجتمع اليهودي، كما هو الشأن في الوسط الاسلامي المجاور، مع ما لهذا المفهوم من دلالة ومضمون يغطيان اكثر، الحقل الثقافي والاجتماعي – الديني، ويمتدان كذلك الى مجال الروحانية الصوفية،تلك التي يتمثل فيها هذا المفهوم اكثر فأكثر.

ولنتذكر هنا ما قلناه عن بنيات الطائفة اليهودية بالمغرب، حيث يتسبب التمايز الاثني بين المجموعة المهاجرة «لَمْكُورَّاشِيم» ومجموعة التوشافيم(البلديين)، في خلق شعور من الميز بين ارستقراطية فكرية معتزة باصلها القشتالي، وجماهير فظة من السكان المحليين الذين يحملون اسما مرتبطا باصلهم: «البلديين»في مقابل«الروميين» اي الاوربيين.

وقد اكد الشاعر المغربي موسى أبن سور، (ق 17–18) في نص من مقدمة ديوانه الذي استوحاه اساسا من الكتابات القبلية، هذا الامتياز الذي يتمتع به العالم والفقيه والشاعر، حيث ميز بين نخبة «تلميذ حخميم» العارفة المتفقهة التي يطلق عليها لفظ اسرائيل، وهو اسم يرتبط بفكرة السلطة والنبل. وبين جمهور العامة، الذي لايخلو من مزايا، الا انه خص باسم يعقوب المشتق لغويا من العقب، وهم بذلك ادنى مرتبة من الخاصة. ومع ذلك فان هذا التمييز الموجود بين الخاصة والعامة لا يبدو واضحا في الاوساط اليهودية، نظرا للشعور العميق الذي تشعر به الجماعة تجاه وحدتها، ونظرا لان اليهودية نفسها لا تعرف الدونية والامية التي تسود في المجتمعات الاخرى.

ولم ينج ابن ميمون بدوره من عدوى هذا التعصب والانحياز، ولم يستطع ان يقاوم اغراء الحديث، مع بعض السخرية، عن اخوانه اليهود في المغرب والمشرق، مقارنا بينهم وبين يهود الاندلس الذين يضفي عليهم صبغة التفوق الفكري، الى حد انه طلب من ابنه ان يتجنب

مصاحبة الجماعة الاولى. ليبحث عن استقرار في مجمع الجماعة الثانية «اخواننا الاعزاء بالاندلس»، وينبغي ان نضيف كذلك ان هذا الموقف الذي اضطر اليه الفيلسوف المشهور، وشيخ «الهلاخا» كان نتيجة الانحطاط الفكري والوضعية العارضة التي عرفتها اليهودية في المغرب الكبير على اثر الاضطهاد الموحدي.

وهذه التفرقة بارزة المعالم في الوسط الاسلامي،حيث يقول جاك بيرك في هذا الصدد : «نجد العامة في مقابل الخاصة، كما نجد السوقي مقابل النخبة والغافل مقابل المدرك والجاهل مقابل العالم، ولقد هيمن هذا التمييز الثلاثي على الفكر السائد انذاك... لقد سلم الفقهاء، منذ قرون طويلة في الشمال الافريقي، انطلاقا من الحقيقة الاجتماعية التي بين ايديهم، بهذا التقسيم الذي كان يلائم فئتين من الناس. »

II - الابداع الادبي المكتوب باللغة العبرية

يشمل الابداع الادبي مجموع العلوم والانواع التي تنتمي الى الفكر اليهودي الشامل، والتي يستفيد منها كل طالب يهودي في كل بقاع العالم.

وليس في نيتنا هنا ان نقوم بجرد لكل انواع الابداع الادبي اليهودي بالمغرب، ولا ان نعرض تحليلا منهجيا مهما كان قصيرا، لتراث الثقافة اليهودية، التي عمرت الفي سنة، ولا ان نتعرض لعلاقاتها مع الكون والدين.ويتمثل عرضنا في القاء بصيص من الضوء على مناخ من الفكر اليهودي المهمل والمنسي تاريخيا، كما يتمثل، في ابراز الاتجاهات الكبرى لهذا الفكر وانواعه المختلفة واساليب تعابيره الكتابية والشفوية. غير اننا باديء ذي بدء، نريد أن نبطل اسطورة غياب الشتات اليهودي في المغرب العربي، خلال الاربعة او الخمسة قرون الاخيرة، عن عالم الفكر اليهودي بصفة عامة، والمجال الادبي والشعري بصفة خاصة. وليس في حسباننا ان نبالغ في تقدير هذا الفكر او ان نصدر في حقه احكاما جزافية.

1 - القاضي و«الهالخا » الفكر القضائي.

أ - الفكر اليهودي وسيطرة التشريع

ينبغي ان نؤكد اولا ان للكتابات القضائية، وخصوصاتلك المتمثلة في الفتاوي والمراسيم الربية ، قيمة ذاتية خاصة. وبغض النظر عن المشاكل العقائدية التي تتناولها، وبالاضافة الى ما تلقيه من اضواء على المصادر المختلفة.

اننا نجد فيها ما يمكن ان نسميه «بالبيئة الاجتماعية – الاقتصادية القانونية...» وتسمح علاقات هذا الادب المباشرة مع الناس والحياة وحقائق الوجود، بمعرفة الطوائف اليهودية بالمغرب من الداخل. كما تسمح بالاحاطة المتأنية لبعض المظاهر المجهولة من تاريخها، وهي مظاهر لم يأبه لها كل الذين وصفوا الملاح المغربي وساكنيه، في كتاباتهم التي خصوهم بها، او في اخبارهم الواردة في رحلاتهم التي قاموا بها في طول البلاد وعرضها.

وينبغي ان نذكر بعد ذلك بتمحور الثقافة الربية المغربية حول «الهالاخا» وبهيمنة كتـابات التشريع القضائي كما بين ذلك الأستاذ فايدا بكل وضوح في كتابه «L'Amour de Dieu dans la theologie Juive de Moyen Age» (الحب الالهي في اللاهوت اليهودي في القرون الوسطى. حيث يقول : «ان الدراسات التشريعية... هي المجال الاولي الذي تتجلى فيه مظاهر المعتقد اليهودي»، وتصبح «الهالاخا» في نهاية التحليل، غاية كل الانواع الادبية التي يتعلمها الطالب المغربي. كما هو الشأن بالنسبة لقرينه في الطوائف الاخرى بالشتات، سواء كان الامر يتعلق بالتفسير التوراتي والتلمودي او المدراش الوعظ او التأويل الاشراقي للنصوص المتعلقة بالتوراة في تصوف «القبالة». ولكل هذه الانواع التي ينبغي ان نضيف اليها الشعر (بيوط شعائرية او تعليمية) علاقات متينة مع «الهلاخا» وتخدم قضيتها. والمؤلفات هي انعكاس لهذه الثقافة، ذات المرامي والاهداف الدينية المحض. ومسارها الفكري يقود الطالب الفقيه المغربي باستمرار وحتما، الى طريق «الهالاخا»والى تأليف مؤلف حول مذهب من مذاهب التشريع او مجموع من المجموعات الفقهية.

ب – الفكر القضائي، الرواسخ والثوابت : قوة العرف

وضع المؤلفون المغاربة بكفاءات واصالة متفاوتة، عددا هاما من كتابات «الهالاخا» التي هي من وجهة النظر الشكلية، (العناوين ومواضيع البحث وتصنيف المواد) عبارة عن تقليد انواع ونماذج كلاسيكية لمؤلفات الهالاخا : مجموع احكام «دِينِيمْ» (قواعد تشريع). پّسِقْ دِينِمْ» (قرارات قضائية). «تْشُوبُت» فتاوي. و«تَقَانُوت» (مراسيم). و«حِيدُّوشْ هَالَأخُوت» (اجتهاد). «نِيمُوقِيمْ» وشِيطُوْط» (حواشي وملاحظات واصلاحات). و«بِيرُوشِيمْ» و«قونْطِرشِيمْ» (تعاليق وكراسات). «لِيقُوتِيمْ» (منتخبات ومجموعات) «قِيصُّورِيمْ» (مختصرات). «مَفْتِيحُوتْ» «فهارس» فهارس الفرائض، ومختصرات القواعد الدينية.

من بين المؤلفات التي اطلعنا عليها للقيام بدراستها دارسة تحليلية شاملة، خمسا وسنتناول مؤلفات أخرى كذلك للاستفاضة في المعلومات والاخبار.

وهذه المؤلفات الخمس هي مجموعات من «التاقانوت» (1) ومجموعتان من الفتاوي (2) ، ومنتخبات من القرارات القضائية (لِيقُوطِيمْ وبّسْيق دِينِيم (3)) وفهرس هالاخا (4). ولا يلعب المؤلفان الاخيران في هذه الدراسة إلا دورا مكملا. بينما اولينا المؤلفات الثلاث الاولى كل الاولوية.

ولقد سمحت الدراسة المعمقة للنصوص، برصد علاقات أدبيات التشريعات المغربية واتصالها مع مختلف تيارات الهلاخا. وسمحت ايضا بالكشف عن الاتجاهات المهيمنة وثوابت التشريع الربي المغربي خلال مسيرته، وساعدت على تحديد مفاهيم المؤلفين والمبادىء التي يصدرون بناء عليها قراراتهم القضائية.

ولقد هيمن على التشريع الربي، خلال القرون الاربعة التي تلت الخروج من الاندلس سنة 1492، مفهومان وانطباعان :

– ويمثل المفهوم الاول، مدرسة أشير بن يحيل (ق 14 م) ويشمل مرحلة قصيرة نسبيا من القرن السادس عشر. يعتبر مذهب اشير بن يحيل ارثا للمدرسة الاندلسية الذي نقل آثارها الربيون القشتاليون الذين جاءوا الى المغرب بعد خروجهم من الاندلس. وكانت كتابات ومؤلفات حكماء الاندلس المنتشرة في اوساط «الْمُوكُورَّاشِيمْ» (المهجرون) مصدر فكر النخبة المثقفة ذات الاصل القشتالي الاندلسي، حيث كان يتم اختيار القادة الروحيين بالمدن الكبرى المغربية، ومؤلفي «التاقانوت» الذين كانوا يريدون الحفاظ لجماعتهم المنفية، بمؤسسات وعادات واعراف اجدادهم الاندلسيين.

ودامت هذه الوضعية مدة قرن تقريبا، حتى وصول آراء يوسف كارو (اسبانيا

1 – «سفر هتقنوت» (كتاب المراسيم) لجماعة من الاحبار القشتاليين الذين استقروا بفاس بعد ان اخرجوا من الاندلس. وتوجد منه نسخ متعددة

(Bibliothéque S.D. Sasson, Ohel David, I, 715; collection V. Klagsbald.)

وقد استخدم احدى هذه النسخ ابراهام نقاوة عند اعداده لاخراج «كِرِمْ حِمِرْ» (كرمة الخمر) 1871 Livroune II

2 – أ – «مِشْبّط وِصْدَقَهْ» بيعقوق، فتاوي يعقوب بن سور (1673–1752) طبع الجزء الاول منه بالاسكندرية سنة 1894 والثاني 1903.

ب – «تُقْفُوشِلْ يوسف»، فتاوي يوسف المليح بن عيوش (ت ف 1823) وطبع بـ Livroune سنة 1823 (I) و1855 (II).

3 – «بريتْ أبُوتْ» 1862 Livorne. ويضم كذلك مؤلف ابراهام قرياط (ت 1845)

4 – «أريم وتوميم». مخطوط British Museum or david 6357. لمؤلفه شؤول سريرو (1566–1655)

انظر في موضوع الفكر القضائي، القوائم الاحصائية الخاصة بمؤلفات احبار المغرب ونهاية القرن الخامس وبداية القرن العشرين (المخطوط منها والمطبوع)وقد اثبتناها في مؤلفنا.

Les juifs du Maroc, vie sociale, economique et religieuse, etudes de taqqanot et responsa, paris, 1972, p. 243 - 264.

1488-1575) التي انتشرت بسرعة في الاوساط الربية المغربية كيفما كانت اصولها سواء عند «الموكُورَّاشِيمْ» (ذرية المهجّرين) من الاندلس او «التوشفيم» (السكان الاصليون) الذين اعتبروه «وحيا» جديدا نزل على طور سيناء.

لقد أثر عمل يوسف كارو، المتمثل في مؤلفيْه «طُورِبِتْ يُوسِف» و«وشُولْحَانْ عارُوخْ» مع تفاسيرهما، منذ ذاك، تأثيرا كبيرا في تعليم «الهالاخا» في «اليشفوت» وفي الاحكام القضائية للمحاكم الربية والادبيات القضائية الناتجة عن تلك الاحكام. ويستقي بداهة اختيار الربية اليهودية المغربية، وهي تتفق هنا مع اختيار اليهودية الشرقية والسفردية عموما، من العوامل التاريخية، ويفسر هذا الاختيار كذلك اعتمادا على مفاهيم تختلف عن المذهب والشعائر، كما «يتمثلها الشيوخ السفارديون واخوانهم الاشكانازيون.

وكان اليهود المغاربة في القرن السادس عشر، يرجعون الى علمين من اعلام «الهالاخا» وهما (مورام يوسف كرو) ومورام (موسى اسرليس 1520-1572) وكان هذا الاخير يدافع عن التقاليد الفقهية والشعائرية اليهودية الاشكنازية - في احكامهم القضائية المغربية، وكانوا يقارنون دائما بين مذهبي الرجلين، فيتبنون فورا آراء كارو ويتركون آراء اسرليس، الا في الحالات التي لا تعارض فيها بين المذهبين او تلك التي سكت عنها كارو.

وحتى هذان الاتجاهان نفساهما فانهما لم يستطيعان الفكاك من توابث لاتستطيع اية قوة مهما كانت، الحد من فعاليتها او التأثير فيها، ولو كان «شلحان عروخ» نفسه الذي يكن له الاحبار المغاربة احتراما وتقديسا. ان هذه الثوابت هي اخلاص اليهود المغاربة للعادات والاعراف القديمة التي اقرتها المراسيم، والارتباط بالتقليد التي ورثوها عن اجدادهم ومعارفهم التي لقنها اياها لهم شيوخهم المحليون.

ويمكن تبيان المقام الاول الذي تحتله الاعراف بالنسبة للعقيدة، في بعض مجالات التشريع في الوسط الربي المغربي، بما حدث لأحد الوجوه اللامعة اليهودية بالمغرب، وهو الربي حايم بن عطار، والذي يعتبر تفسيره التوراتي «أورْهَاحَايِم» من المؤلفات الكلاسيكية للتفسير التقليدي، عندما ندد ببعض الممارسات المحلية وخصوصا «نِفحاهْ» وهي «معيار لنفخ الرئة للكشف عن التصاق او آفة هذا العضو»، وأكل الجراد. ولقد اصطدم بسبب ذلك بعداء الاحبار المغاربة الذين رفضوا آراءه المتشددة في مجال محرمات الطعام، متناسين كل ما اكتسبته كتاباته من مكانة في وسط اليهود الاشكنازيين والسفارديين الشرقيين.

وهناك ثابت آخر للتشريع الربي المغربي، الا وهو اللجوء المستمر تقريبا الى التلمود، المصحوب بتفسير راشي وحواشي «الطوسافيين». وتبقى هذه العودة الدائمة للمصادر

التلمودية في اساسها. دليلا على الاطلاع العميق. دون ان تؤدي الى اي تغيير كبير في بنيات التشريع الربي المغربي.

جـ - مضمون الادبيات القضائية. والبنيات الاجتماعية الاقتصادية والحياة الدينية للطائفة.

بصرف النظر عن قضايا العقيدة والمصادر التي تناولتها، فإن اهمية الدراسة المنهجية لمؤلفات الشريعة الربية التي تمكننا من فحصها والاطلاع عليها، لا تنحصر فيما احتوته هذه المؤلفات في حد ذاتها، بل تتجلى ايضا فيما كان لعلماء العقيدة من اهتمامات طيلة القرون الاربعة الاخيرة.

وتتناول القضايا الشرعية التي كان على هولاء العلماء ان يجيبوا عنها، كل مجالات الحياة العامة والخاصة، وتلك المتعلقة بالعائلة، وقانون الاحوال الشخصية، والبُنَى الاجتماعية - الاقتصادية للطائفة، ونمطها الاداري ومؤسساتها، وما يحدث في سلوك الفرد والجماعة نتيجة لما سميته بقوانين (تحديد النفقات الكمالية)، والعلاقات مع الوسط الاسلامي المجاور، والارتباط مع بلدان ما وراء البحار وبالجماعات الفلسطينية خصوصا. ونجد فيها فضلا عن ذلك معلومات هامة عن اللغات اليهودية بالمغرب، وعن اسماء اليهود واحداث تاريخية عارضة. ولا تحتل المواضيع المتعلقة بالحياة الدينية والشعائرية الحقة، تلك التي تكوّن مادة القسمين الاولين من تشريع «كارو»، في «التاقانوت» والفتاوي المغربية الاجزاء ضئيلا. ويختص الجزء الاكبر من هذه المؤلفات بالقضايا التي لها علاقة بحقوق الافراد والاملاك والواجبات وهي التي يتناولها عادة القسمان الاخيران من تشريع كارو نفسه.

ولا يوجد من بين 239 من المراسيم القشتالية الا ستة، هي التي تتناول القضايا الشعائرية مثل ذبح الدواجن والمواشي على الخصوص. ونجد من بين 554 فتوى، وهي التي تكوّن محتوى جزئي مؤلف يعقوب ابنسور، 56 فقط، اي بنسبة 10% من المجموع، هي التي كرست حقا للحياة الدينية (المحرمات من الطعام، والشعائر وقواعد الطهارة الخ..). ونجد في منتخبات فتاوي يوسف بارعيوش المالح، فتوى واحدة من اصل 59 هي التي لها علاقة بهذا الموضوع.

ولقد حاولنا أن نجد تفسيرا لهذه الظاهرة، وبينا انه اذا كان لهذه القضايا (قضايا الحياة الشعائرية) في البلدان ذات الاستعمال الاشكنازي ان تملأ مكانا هاما، فان موضوع الاختيار المفضل في مجموع الآداب القانونية والفقهية الربية ، كان دائما للتشريع المدني والتجاري.

ولن نعود هنا الى المواضيع التي تناولتها هذه الادبيات الزاخرة، بل سنكتفي فقط بإثارة بعض النقاط الخاصة التي استلفتت انتباهنا في الفصول السابقة.

ان اول ما اثار انتباهنا في موضوع قانون الأسرة هو استمرار ممارسة المهر (الصداق) المبرم امام قاض وعدلين مسلمين حتى القرن السابع عشر. وقد بلغ الامر الى حد انه كان يعوض «لَكْتُوبَة» التقليدية. ثانيا تعميم تساوي الزوجين في الحقوق، وتبني نظام الزوجة الواحدة (الزواج الاحادي) بمقتضى المراسيم القشتالية، ان هذا النظام كان معمولا به على الاقل، عند المهجّرين الاندلسيين خلال قرن تقريبا، الا انه اصطدم بمعارضة الراي العام، وانتهى الامر بالعودة الى التساهل في مجال تعدد الزوجات. وفي كل هذه المراسيم والفتاوي نجد هذه الرؤية الداخلية التي تجلي وجه الطائفة، ونجد فيها ايضا بِنْيتها ونمطها الاداري، ومؤسساتها، والتأثير المهيمن للفريق المهجر من الفئة الاندلسية كما تجلى ذلك في المجال الاقتصادي والاجتماعي، بل والعلوم الربية نفسها، ويتضح فيها ايضا الدور الاساسي للطبقة القائدة التي تُختار اساسا من النخبة المتعلمة ونخبة الاعيان، وعلى رأسهم «التكّيد» او شيخ اليهود، وهو اداة وصل بين سلطات البلد الرسمية والطائفة التي يرأس (مجلسها) او «المعمد» الذي يسيره وينظم ويسن القوانين بواسطة المراسيم «والتقنوت».

وما كان يسترعي انتباه علماء الشريعة اليهودية دوما والذين كان همهم الاكبر ابعاد اي تدخل اجنبي عن قضايا الطائفة، والحرص على عدم خرق استقلالها الداخلي، هو مشكل تطبيق احكام العدالة، وتنظيم السلطة القضائية، ومسألة اللجوء الى سلطة قضائية غير يهودية وما يرتبط دائما بهذا اللجوء من وشاية.

ونجد اضافة الى مشاكل التربية والتعليم، ان الموضوع الاكثر تداولا في كتابات احكام الفقه المغربي الربي، هو ذلك المتعلق بالقضايا الضرائبية بكل مظاهرها، والمشاكل الدقيقة التي يتطرحها توزيع اعباء الضرائب الثقيلة التي تثقل ظهر الطوائف، مع العناية ببعض مستلزمات التشريع والعرف، وخصوصا تلك المتعلقة بالاستثناءات الضريبية التي تتمتع بها الهيئة الدينية وبعض الشخصيات العلمانية.

ان النصوص الاكثر غنى والتي تزخر بعديد من المعلومات، وهي قيمة بالنسبة للحقوقين بل وللاتنولوجيين واللغويين، هي تلك المتعلقة بقوانين تحديد النفقات الكمالية. وهذه النصوص محررة بالعبرية والعربية والقشتالية، وتضم كثيرا من التفاصيل التي لم تعرف لحد الآن، عن اللباس وحلي النساء ومجوهراتهن، وعن الاحتفالات، والعادات والشعائر التي كانت الى عهد قريب، تطبع الاعياد العائلية، وخصوصا حفلات الزواج.

وتدور مواضيع الاغلبية الساحقة من النصوص حول الحياة الاقتصادية وحقوق الملكية والالتزامات. ويجب ان نذكر هنا ان كل هذه الادبيات المتمثلة في المراسيم والفتاوي، كانت تعكس الحياة الداخلية للمجتمع اليهودي ولا نكاد نجد فيها الا عرضا، بعض المعلومات النادرة والمتفرقة، وذلك بمناسبة اشارة الى احدى قضايا الارث، عن الدور الهام لليهود في الاقتصاد المغربي وتأثيرهم الذي لا يستهان به في بنية الحياة الحضارية والتجارية والحرفية نفسها.

•

وعليه فان ما اثير في «التقنوت» (المراسيم) المنظمة للمجموعة، وفي مناظرات الفتاوي التشريعية الهادفة الى حل النزاعات التي تحدث يوميا بين الافراد، هو بالاساس تنظيم الحياة الاقتصادية في رحاب الملاح.

ونذكر كذلك بان هذه المؤلفات كانت تهتم بالعلاقات مع يهود فلسطين. ودور الاحبار المبعوثين جامعي الاموال، في نشر العلوم الربية. وهجرات السكان اليهود الداخلية والخارجية. وتوزعهم الجغرافي داخل الحدود المغربية. واللغات اليهودية. ومعطيات الانساب والاسماء. كما تهتم بالوثائق القليلة التي تشير بعض الاشارات العارضة والمختصرة حول تاريخ وقائع مغربية. وحول العالم الخارجي للملاح.

ويشكل موضوع الحياة الدينية والشعائرية، العلاقة التي تربط الفكر القضائي والتشريع المطبق في فروع العلوم الربية الاخرى بمختلف مجالات الفكر اليهودي، حيث تزدهر حياة الطائفة الفكرية.

لقد سبق ان قلنا اعلاه: ان مواضيع الحياة الدينية والشعائرية الخالصة: لاتحتل الا مكانا ضئيلا في الكتابات التشريعية المغربية. وتحتل قضايا «الكَاشِرُوت» (الحلال من الاطعمة) في المراسيم والفتاوي المكرسة لهذا الموضوع، والتي تشكل هما كبيرا لكل اعضاء الطائفة، المقام الاول، تتبعها قواعد الطهارة، ومختلف المحرمات الاخرى. وتتعزز احيانا المعرفة التلمودية في النصوص التي تتناول الشعائر، بالعلم الباطني، وتأخذ «الهالاخا» حينئذ بعدا آخر. ويوطد التاويل الاشراقي البحث في اسباب تعاليم الشريعة الاساسية، ويعمق التفاسير التوراتية والتلمودية. وسيكون من الوهم الادعاء الفصل بين عالم التشريع وعالم الفكر اليهودي ومختلف انواع انماط تعابيره، كما يشير فايدا VAJDA الى ذلك في كتابه /مدخل إلى الفكر اليهودي في القرون الوسطى/ Introduction à la pensée du Moyen Age/ حيث يقول : «كل هذه الادبيات في مقاصدها السامية، هي في مجملها دينية، والكل فيها يسعى الى تنظيم الحياة اليهودية تبعا للمقصد الذي تريده التوراة. ويسعى الى ان تكون الحياة مطابقة للوحي مطابقة وجوب حتمي. واداة لتطهير الفرد والطائفة. وهي في نهاية الامر وسيلة لنيل رضا الله».

2 – المتأدب الشاعر المغربي وطبقات شعراء اليهود

يعتبر الشعر احد انماط التعبير الاكثر خصوبة، ومظهرا من المظاهر البارزة في الانتاج الادبي، للادباء المغاربة.

واذا كان الفكر التشريعي مرآة تعكس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية للطائفة، الشيىء الذي يشكل اجمالا، كل التظاهرات الخارجية للوجود المشترك للمجموعة. فان الشعر هو تعبير عن الفكر الخالص، ودفق للروح وانبثاق احساس فياض يهتز لابسط العواطف وكانه كتاب مفتوح تقرأ فيه الافراح والالآم. ويغني هذا الشعر التفاؤل في ساعات السعادة، ويبكي التعاسة. كما يشجي جروح الماضي ومرارة الحاضر.

أ – الحنين الى التقاليد – «السلسلة الشعرية»

يسمح التحليل المنهجي لهذا النمط من التعبير، والدراسة المستمرة للمؤلفات الاساسية التي تمثله، بتحديد العلاقات التي تربط الشعر المغربي بالشعر اليهودي التقليدي، وبطبقات الشعراء المتمثلة في شعر شعراء التوراة القدماء، وشعر «بِيُوط» شعراء يهود فلسطين في القرون السبعة الاولى للميلاد، ومؤلفات اعلام العالم السفرادي في القرون الوسطى، حتى القرن السادس عشر. وهي كلها معارف ادبية متعاقبة وتقاليد توارثتها المدارس الشعرية لاحقة عن سابقة و«مرآة جماعية» حيث يغرف منها الاديب المغربي، مثله في ذلك مثل قرينة في مختلف اراضي الشتات، مواضيعه الاساسية، وعناصر ابداعه الشعري. وهي ايضا ينبوع الافكار الموروثة التي يستوحي منه الشاعر النماذج والصيغ التي يقلدها ويبلورها ويعمقها ويجددها باستمرار.

وتعتبر المدرسة الاندلسية على الخصوص، مرجع المؤلفين المغاربة المفضل، وهم في غالبيتهم من بين العناصر المنحدرة من المهجرين القشتاليين «الموكوراشيم» وهؤلاء واولائك يعتبرون انفسهم ينتمون روحيا الى العصر الذهبي الاندلسي الزاهي، ويدعون ارثه. ويتخذون هذا التراث الادبي والشعري الذي يمثل المدرسة الاندلسية نموذجا يحتذى فاعتزوا بتقليد انواعه ومضاهات مؤلفاته. ان الارتباط الراسخ خلال القرون الطويلة بين الاندلس والمغرب الاقصى، والذي وطده التبادل الثقافي الدائم والفعال، والذكريات التي ظلت عالقة بالاذهان لتذكر بتلك الفترة ذات الشمول الفكري والازدهار المادي. كلها تكمن وراء السبب الرئيسي لهذا

الايثار الذي خص به الادباء المغاربة هذه «السلسلة» من التقاليد الشعرية اليهودية. ويبرز ابداعهم، بشكل من الاشكال، عنوان كتاب : «الشعر اليهودي في الغرب الاسلامي» الذي اخترناه للقسم الثاني لرباعيتنا المكرسة للحياة الفكرية اليهودية في المغرب في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن العشرين (6).

ونلاحظ الروابط التي يقيمها الاديب الشاعر بالمغرب الكبير مع التقاليد اليهودية الشاملة والمحيط الثقافي المحلي على جميع مستويات التحليل :

– على مستوى الوعي الشعري للشعراء وحوافزهم واهتماماتهم الاساسية، والمسار الفكري للاديب الشاعر، ومفاهيم الفن الشعري، واسسه المذهبية واساليبه السائدة. – على مستوى الابداع الشعري نفسه، والمواضيع والانواع وتقنيات النظم اللغوية والاسلوبية، وقضايا الالهام وابداعية الحلم الشعرية، كما هو الامر بالنسبة لمستوى العلاقات مع مجموعة دراسة الآداب القديمة اليهودية ومع الاسطورة (المِدْرَاشْ والْهاكَّدَا) والتلمود وتفسيره و«الهالاخا» والصوفية و«القَبَالة»، وفي نهاية المطاف مع الشعائر والاغاني التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالشعر، وهو خادم مخلص ورفيق لها لا ينفصل عنها.

وزيادة على ذلك فإنه ليس من السهل دائما ان نميز في قطعة شعرية، بين مختلف العناصر الادبية المكونة لها.وغالبا مالا يسمح التحليل الداخلي للنص، على سبيل المثال، بتمييز التركيب الصوفي عن العناصر الاخرى التلمودية و«الهالاخية» والاكادية والاخلاقية. في حين يوجد شعر يغلب عليه طابع صوفي ذو جوهر «قَبَالِي» يرتبط فيه الباطني بعلم الاعداد، بل وحتى بالسحر. كما يوجد شعر تعليمي وشعر المناسبات حيث يعتمد موضوع الكلام على «الهالاخا» اساسا، والتلمود و«الْمِدْرَاش» و«الْمُوسَار» (الاخلاق) وعلى انماط اخرى من التعبير في الفكر اليهودي.

ب – الشاعر اليهودي المغربي والتوراة

ولنختر من بين مختلف التيارات الروحية التي تتخلل الشعر اليهودي المغربي، تلك التي تقيم علاقات مع عوالم التوراة مع عوالم التوراة، والسطوة التي تحدثها الآداب التوراتية على العقول، وكذلك ما يحدثه الشعر التوراتي نفسه من جاذبية وسحر على الشعراء والسامعين اليهود في كل العصور. ومما يبلور هذا التيار، قطعة شعرية مجهولة الناظم، محدودة التداول، تدرج في شعيرة خاصة، «شَبَتْ بِشَلاَحْ»، حيث يقرأ جزء من «البِشْلاح» (الخروج، الاصحاح الثالث عشر، 17،الى الاصحاح السابع عشر 16)،امام الجمهور. كما تغنى في اليوم الثامن

6 - Poésie juive en Occident Musulman, Librairie Orientaliste P. Geuthner Paris, 1977, IX + 472 p. avec 8 planches de fac - Similés.

من عيد الفصح «بّسَحْ». وتغنى عادة في البعض من البيع السفرادية. وتتخذ مقدمة استهلالية يفتتح بها خصوصا نشيد البحر الاحمر الذي يعرف بنشيد موسى. (الخروج الاصحاح 15، 1–18) وزيادة على ذلك، فان القطعة المذكورة لا توجد الا في طقس خاص، وفي مجموع «بُيُوطيم» وهما معا يخصان طوائف الشرق والغرب الاسلامي.

ويعبر المؤلف فيها ببساطة طبيعية وعفوية بل وبسذاجة،عن رغبته الجامحة في ان يغني كما غنى كل بطل من ابطال التاريخ التوراتي العظام. ويعبر فيها ايضا عن طموحه في أن يضاهي حماسة وحمية اولئك الابطال كما تجلت في اناشيدهم.

نص شعري :

كما سبح موسى سأغني أغنية
لن تصير ابدا منسية
حينما انشد موسى
كلمات الاغنية
(الخروج XV, I 1)
سأغني كما سبحت مريم
سأغني على ضفاف اليم
وتجيب مريم بالصدى
كلمات الاغنية في المدى
(الخروج XV, 21)
سأغني كما سبح يشوع
علي جبل كلبوع (شيوع 14 - X 12)
سأغني كما غنت دبورة
علي جبل تابور(ة) (القضاة الفصل V)
سأغني كما غنت حنا
برفقة زوجها القاناه (اصموئل II ,10-1)
سأغني كما غنى داوود
جامعا لانغام عود (II صموئل XXII)
سأغني كما غنى سليمان
يوم توجته امه بالتاج والصولجان

نشيد الاناشيد (11, III)

سأغني كما يغني اسرائيل
عندما يعود المنقذ
غن اذاً يا موسى
وغنوا يا بني اسرائيل

اقتبس مؤلف هذه القطعه الشعرية افكاره من التوراة و«المدراش»، مع بعض التصرف في النصوص التي اعتمدها. جاء في المدراش ان بني اسرائيل قدموا الى الاههم مجموعة من تسع تسابيح واناشيد خلال كل تاريخهم : النشيد الأول في مصر ذاتها، وفي الليلة التي خلص فيها بنو اسرائيل انفسهم من نير العبودية الفرعونية وحيث انتهى اسرهم الطويل. والنشيد الثاني يدور حول البحر الاحمر. والثالث اغنية البئر في الصحراء. والرابع وصية موسى وهو النشيد الذي قدمه المشرع الى شعبه قبل وفاته على عتبة ارض الميعاد. والخامس هو الذي انشده ياهوشواع بعد انتصاره على الملوك الخمسة من العموريين. والسادس هو نشيد الفارس الذي بداته ديبورا وبارق بعد هزيمة ملك يابين، حسور وقائده سيسرا. والسابع هو مزمار تسبيح غناه داوود، بعد ان انقذه الله من ايدي اعدائه، وعلى الخصوص من شاوُول. والثامن هو الذي غناه سليمان اثناء اقامته الهيكل. والتاسع هو عبارة عن صلاة رفعها يوسفاط الى ربه قبل ان يرتمي في معركة ضد الموابين والعموريين. وسيكُون النشيد العاشر والاخير، وهو اكثر قوة وايثارة، ذلك الذي سيغنيه اسرائيل عند مجيىء (المنقذ) عندما تدق ساعة الخلاص الاخير.

لا ينبغي ان ننسى الدور المهم الذي تلعبه دراسة الآداب التوراتية في التعليم التقليدي «للحدر» و«اليشفاه»، وفي التكوين الفكري للأديب بصفة عامة. بل وفي تربية احساس كل يهودي الفت أذناه وهو في المهد، ترديد نصوص هذه الآداب وغنواتها وانغامها والحانها، مما يسهل بشكل عجيب، عملية التذكر والحفظ واسترجاع مجموع المشاهد التي تظهر آثارها في الاعمال الادبية. ويستوحي المؤلفون المغاربة، مثل اقرانهم في الطوائف الاخرى، افضل ايحاءاتهم من التراث الشعري للتوراة، كما يستفيدون ايضا من مواضيعه وأنواعه.

جـ - النموذج الشعري الاندلسي - العربي

ظل الشعر العبري الاندلسي لفترة طويلة، يباشر سلطانا كبيرا على الثقافة اليهودية، وعلى هواة الشعر (بيوط)، وصمدت ابداعاته الكبرى لامتحان الزمن، ولازالت قراءاته او

الاستماع الى بعض القطع المرتلة منه، تحدثان تأثرا عميقا لم تستطع معايير التحليل ومناهج النقد الحديث تفسيره. وقد ذاع هذا الشعر بسرعة هائلة في اوساط الطوائف اليهودية حول البحر الابيض المتوسط والبلدان الشرقية، حيث احتل بينها مكانة رفيعة، واصبحت قصائده الكلاسيكية المشهورة جزءا من الشعائر، وفتحت لها البيع الابواب على مصراعيها. ونقدم دليلا على ذلك، والدلائل كثيرة، مقدمة القطعة الاستهلالية التي نجدها في مقدمة احد المؤلفات الشعرية : (اغنية جديدة) «شير حاداش»، وهو مجموع من تأليف اديب مغربي من القرن التاسع عشر،وهو رفائيل موسى الباز، ولدومات في صفرو. وتبرز هذه القطعة الخطوط الكبرى لتاريخ الشعر العبري، وقد تعرضت الى مختلف التيارات التي تعاورت عليه منذ بداياته. او لنعبر عن ذلك بنفس عبارة النص : «منذ أن اضاءت في الافق شمس الشعر وشاع في رحاب الارض جلال روعته».

وبعد ان قدم خصائص الشعر التوراتي وانواعه المختلفة، وخصوصا نصوص الانبياء، انتقل مؤلف هذه الديباجة التاريخية الى الانتاج الشعري اللاحق ومدارسه المختلفة مثل المدرسة الفلسطينية التي اهملها و لم يقف عندها الا قليلا، ثم المدرسة الاندلسية التي شدت انتباهه اكثر.

« بعد أن داهمتنا النكبة الفاجعة (تحطيم هيكل القدس) تكفيراً عن خطايانا، وبعدما خرست ربات الشعر لما حل بها من ألم وعاد الالهام الى الرب الذي اوحى به، أخذ حكماء الاندلس يبدعون فنونا من الشعر جديدة وينظمون القصائد والمقطوعات، وكانوا بذلك من الناظمين البارعين،وقد استسلموا للامر الواقع وما تفرضه المعايير العروضية وكل ما تقتضيه القواعد التي يتطلبها النحو والمنطق،مستجيبين لمتطلبات صناعة الشعر وكما وصفها العرب... فاغنوا بذلك شعر طقوسنا في موضوع «البقشوت» (التضرعات والابتهالات) و«السلحوت» (التوسلات) و«البزمونيم» (القصائد القصيرة اللازمة) و«القدوش» (التباريك)، وهكذا زرعوا طقوسنا بالالحان والاغاني المختلفة لكي يساهموا بهذه الطريقة في خلاص الامة اليهودية (هكذا) والحفاظ على تقاليدنا..»

د – الفن الشعري وتقنية النظم

ان لقضايا الشكل والوظيفة العروضية اهمية كبيرة، ودلالة عميقة، نظرا لقوة تاثيرها وفعاليتها في الفكر والاحساس،واذا كان الشكل لا يعبر دائما عن محتوى المضمون فهو يشكل مادته المثيرة،ويكتسي بالاضافة الى ذلك، في بعض الحالات، اعتمادا على الايقاع والصناعة

العروضية بعدا سحريا وترددات داخلية تعزيمية، وكما يقول بول فاليري : «ينبغي للبيت الشعري ان يحشد بطابع سحري او لا يكون». والشعر في المجتمع اليهودي بالمغرب دعامة للصلاة والغناء، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالشعائر الدينية والفولكلور. وهو بذلك سند مرافق لا يغيب عن تظاهراتهم المختلفة والمتنوعة. وتعتبر القوالب العروضية اهم عنصر في القواعد الشعرية والخطاب المقفى المنظوم لدى الشعراء اليهود بالمغرب الكبير. كما تعتبر هذه القوالب ضرورة من الضروريات الاساسية للموسيقى والغناء. وهذا ما يفسر ارتباطها بتقنيات النظم المتوارثة عن المدارس الاندلسية، او تلك الواردة من الشرق في مرحلة متأخرة.

ويقتبس الشعراء المغاربة من التوراة عموما، ومن شعرها خصوصا مثلهم في ذلك مثل كل اجيال شعراء ما بعد المرحلة التوراتية، سواء كانوا من المدرسة الفلسطينية «للبيوط» او من المدرسة الاندلسية في العصر الوسيط، مواضيعهم الادبية ومادتهم اللغوية التي تلحظ في وفرة الاحالات وغزارة الاستشهادات. وكانوا ينهجون في ذلك نهج «جمع فقرات من نصوص معينة وتركيبها تركيبا فسيفسائيا» او نهج التطريز والطباق، وبناء المقطع الواحد الجديد من اجزاء معروفة سابقة.

ويبدو ان الشعراء اليهود المغاربة حاولوا ايضا تقليد «البِيُوط» الفلسطيني وطرق نظمه، خلال القرن الخامس والسادس والسابع.

ويعود الفضل الاول فيما اتخذه هذا الشعر من اشكال وتقنيات عروضية للارث الاندلسي والتراث الثقافي الذي تبلور في العصر الذهبي الاندلسي المغربي. وفي الواقع، فإن الشعراء اليهود الاندلسيين المغاربة اخذوا فنهم الشعري من مدرسة الاداب العربي ومن العلوم اللغوية ومؤلفات العلوم الانسانية العربية، وبقوا اوفياء لها مرتبطين بها.

وتظهر على الشعر العبري في المغرب سمات العروض واسلوب وتقنيات النظم الشعري العربي الاندلسي اكثر من اي سمة اخرى. وتنهج قراءة الشعر العبري نهج الطريقة العربية. متبنية مميزاتها الاخرى، دون ان تنسى الفرق الكمي الممكن، الموجود بين الحركات الطويلة والقصيرة، وخصائص اللغة المهيمنة. واقتبس الشعراء اليهود موسيقى البحور العربية التي تبنوا قواعدها بالرغم من بعض الاضطراب الذي اخل ببنية البيت الشعري العبري، وبالرغم من متطلبات البحور العربية التي فرضت على القوافي والاوزان العبرية.

ويظهر التحليل الشكلي لهذا الشعر اتجاها آخر كان له دور كبير في هذا الشعر، انه الغناء والموسيقى، وهما من اعمدة الشعر، والعكس صحيح، وقد اصبحا مجالا مفضلا للتعبير، وعلى الخصوص مع ميلاد انواع ادبية جديدة، من بينها الموشحات.

وبعد الخروج من الاندلس. بدأنا نشاهد في الشرق وفي ايطاليا تطورا في التقنيات الشعرية. وعلى ما يظهر، فان تأثير المدرسة القبالية لصفد، هو وحده الذي نفذ الى المغرب ففضل شعراؤه تقليد نماذج شعر اسرائيل ناجارا دون غيره. اما فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية الثقافية الاسلامية، فانها لم توثر الا بعض التأثير في الانتاج الشعري العبري في القرون الاربعة او الخمسة الاخيرة. وذلك بواسطة الادب المحلي المنظوم باللغة العربية الدارجة أي القصيدة والملحون. وبواسطة الاخذ عن طريق السماع لمجموع التراث الموسيقي الاندلسي الذي يفرضه الغناء والنص المغنى.

ولم يتعرف اليهود الا في حالة نادرة، على الانواع الرفيعة في الادب العربي المكتوب وذلك بسبب جهلهم للغة العربية الفصحى، هذا الجهل الذي ازداد ابتداءا من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. ونعرف كذلك من خلال اللغة المحلية القشتالية عددا كبيرا من الالحان الاندلسية التي تقلد النماذج العروضية، وهكذا يلاحظ هذا التأثير العربي الاندلسي في رموز الالحان العربية والقشتالية (مكتوبة باحرف عبرية) تلك المرسومة في بداية عدد كبير من القطع الشعرية. ولم يكن اللحن علامة موسيقية تميز نموذج النغم الذي يخضع له غناء القصيدة فقطولكنه كان ايضا يحدد النموذج العروضي (البحر والقافية واحيانا بنية المقطع) الذي تفرضه القطعة الشعرية العربية او القشتالية التي يحفظها الشاعر عن ظهر قلب ويتخذها نموذجا، بل ويبدأ قصيدته ببيتها الاول.

هـ - شعر وموسيقى - الموسيقى والاغنية الاندلسية في المجتمع اليهودي بالمغرب

يضفي الغناء والموسيقى على الاثر الشعري بعدا ودلالة تتجاوزان مضمونه، ويمنحانه نغما يضاف الى انغامه المكونة الطبيعية. والغناء والموسيقى هما المظهران الرئيسيان للشعر. ويمكن القول ان الغناء هو المناسبة الممتازة التي تمكن من اتحاد العبقرية الشعرية اتحادا وثيقا مع العبقرية الموسيقية.

لقد اعتمدنا في بحثنا حول مساهمة يهود المغرب في الاشعاع والمحافظة على التقاليد الموسيقية الاندلسية، على تحليل الانطولوجيات الشعرية المغربية بالدرجة الاولى سواء المطبوعة او المخطوطة منها تلك التي استخدمتها الجمعيات وجمعية «حراس الفجر» خلال الامسيات السبتية المسماة بـ«البَاقَشُوتْ» (الابتهالات). كما اعتمدنا ايضا مصادر اخرى لم تكن مهتمة بكيفية مباشرة بالموضوع. ولكنها جميعا تستخدم رموزا موسيقية واوزانا لـ«نُعَامْ» و«لَحْن»

(قطع غنائية مقتبسة من منظومات قديمة او معاصرة) ومقامات(مقام وطبع ونوبة.)وكانت هذه النماذج كلها تستعمل، ماعدا استثناءات قليلة، اللغة العربية والاصطلاحات الموسيقية العربية، للموسيقى والغناء الاندلسيين، مما يشهد على معرفة كاملة بـ(الفن الموسيقي الاندلسي) «الآلة»، نظريا وتطبيقا. وكان يتم اكتساب هذه المعرفة، في اغلب الاحيان، شفاهيا. مما يدل كذلك على اضطلاع كبير بمضمون المجموعات الغنائية كـ«الحايْك» الذي ما زال يمثل قبلة ومرجعا وكتابا مفضلا للموسيقي المغربي البارع وللهاوي والمحترف. الا ان معرفة المغني اليهودي تتجاوز اطار «الحايك» ويقتبس انواعا وانماطا موروثة من تقاليد اكثر قدما، تعرف بـ«طَرِيقْ قْدِيم» تلك التي ترجع اما الى الحان اندلسية مهملة، في جهات اخرى، وستصبح شائعة ومنتشرة في الملاح والبيع، واما الى قطع موسقية من اصل فلسطيني قديم، او وردت حديثا من الشرق مع الاحبار المبعوثين جامعي الاموال، هؤلاء الدين ينقلون الثقافة والعلم اليهودي من بين اولئك الذين كانوا يزورون بانتظام الطوائف البعيدة في الشتات.

لقد احتفظ السكان المسلمون واليهود، في المغرب الكبير بشغف، وخصوصا في المغرب الاقصى، بذكريات الموسيقى الاندلسية العربية التي هاجرت معهم من المدن الاندلسية عندما اضطروا الى مغادرتها،وكان هولاء واولائك يتذوقون هذه الموسقي ويعشقونها بولع وشغف، يصل بهم احيانا الى درجة الاجلال. وكان اليهود في الاندلس كما في المغرب، من الحفظة المتحمسين للموسيقى الاندلسية، والحراس الغيورين على تقاليدها العتيقة. وفي كثير من الاحيان، كانت هذه الموسيقى تجد عندهم الملجأ الامين، كلما تعرضت للمنع، وكلما ارتاى سلطان ان يطبق حرفيا حدود العقيدة الاسلامية وقوانينها المحرمة لها. وكذا كلما رغب احد السلاطين في ان يجدد العهد مع الموسيقى وان يفصم عراه مع التقاليد المانعة لها،فانه كان يجد ضالته في الملاح فيكون جوقة القصر «ستارة» يرفعون صوت الموسيقى بعد صمت طويل. واصل اليهود المغاربة الحفاظ على التقاليد الموسيقية الاندلسية بطريقتين : اولا : كان المُسَمّعُون يطربون ويغنون «نوبات» واغاني شعبية خاصة بهم في الاعراس والحفلات العائلية المتنوعة، دون ان يغيروا من النصوص الشعرية. كما كانوا يغنون الموشحات والازجال الاصلية بالعربية الفصحى واللهجة الاندلسية. ثانيا : كيَّف اليهود المغاربة بالمغرب، مثلهم في ذلك مثل اخوانهم في الطوائف الاخرى في المغرب العربي والشرق، الموسيقى الاندلسية لتلائم «البيوطيم» والشعر العربي والشعائري او الشعر الخاص باحياء اعز المناسبات في الحياة العائلية، مبدعين بذلك في البيعة ما يشبه السَّمَاعْ» وهو انشاد ديني محض، ينشد في المساجد والزوايا لمدح النبي محمد. وتمجيد الاسلام. ولا يستعمل في هذا الانشاد أية آلة موسيقية، كما لا تستعمل كذلك هذه الآليات في «بيوط» (انشاد) البيعة. ويظهر وفاء اليهودي المغربي للغناء

الاندلسي في اسلوب ابدال النص العبري بالنص العربي الاصلي، بحيث يتقيد النص الاول بالقواعد العروضية للنص الثاني ويخضع لضرورات اوزانه، ويحترم حتى حركات الربط «يَالاَلاَنْ» و«نانانا» ويتناسب النوعان الموسيقيان بشكل جيد وتنطبق الانساق النغمية انطباقا تاما، الا ... فيما يتعلق بمستوى الموضوع فان النصوص لاتتشابه باي وجه من الوجوه. اذ للشاعر اليهودي اهتماماته التي ترتبط بالايمان والشعائر وتطبيق التعاليم الشرعية. بينما المقطوعات التي هي موضوع التقليد، تدور حول المواضيع الدنيوية ذات الاهتمامات المشتركة في الشعر الغنائي وشعر الغزل والخمر ونلقى نفس الظاهرة في الشعر المزدوج اللغة، المسمى «المَطْرُوزْ» حيث ينظم الشاعر بيتا او مقطعا عربيا وآخر عبريا وهكذا.. ويُبرز المقطع الاول من القصيدة التي سنقدمها فيما بعد، هذا النوع من الاقتباس والتمازج التام. ويلاحظ في هذا النوع، تشابك الابيات العبرية والعربية وتشابه البحر المتساوي المقاطع. يمجد الشاعر في الابيات الاولى، عظمة الاله، ويبكي روحه، ويتعرض تلميحا في الابيات الثانية من المقطع الاول، وتصريحا في المقاطع التالية، الى هيامه وفراق محبوبته. وهذه القصيدة هي من بين مجموعتنا الوثائقية الصوتية المسجلة في المغرب منذ عشرين سنة، وقد غناها الربي داوود بوزاكلو، وحقق بها انجازا رائعا، على وزن «لحْجَازْ لَمْشَرْقِي»(موسيقى اندلسية).

وهذه ترجمتها :

1 – ليسمو اسم الله على لسان كل الخليقة (بالعبرية)
سار قَلْبِي وْليسْ عَنْدِي لِيمَنْ نَامُورْ» (بالعامية)
2 – (طار قلبي، وليس لي من اتوجه اليه بالحديث)
3 – ولم تجد روحي اي ملجأ، ولو كان عش عصفور (بالعبرية)
قَرْبْتي نَفسِي وْليسْ تْطِيقْ تَحْمَالْ (بالغامية)
4 – (لقد اقتربت مني يا نفس، ولم تعودي قادرة على حمل النير)
5 – كِيفْ نَغْفَلْ قَلْبِي نَحَسُّو يَنْفْتَلْ (بالعامية)
(ما ان أهجر قلبي حتى أحس به يلتوي في احشائي)

و – عائلة مغربية من المتادبين الشعراء من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر : يعقوب وموسى وشالوم ابنسور.

جُمعت المؤلفات الشعرية لهولاء الشعراء الثلاثة، وهي ذات مستويات متفاوتة، في مؤلف واحد طبع في نوأمون (بالاسكندرية)سنة 1893، برعاية الربي الرسول المبعوث للطائفة المغربية بالقدس، وهي تحمل العناوين التالية :

- «وقت لكل شيء»
- «صنج رنان»
- «اشعار جديدة»

ز – الانواع والمواضيع : «مناظر داخلية» وصمت الطبيعة

نجد هنا في عمل ابنسور، كما هو الشأن في مجموع الابداع الشعري للادباء المغاربة، نفس الايحاء ونفس الاهتمامات ونفس الحوافز ونفس الانواع والمواضيع، ومجموعات من «الباقشوت» (التوسلات والادعية) و«تَحِنُوتْ»، (ابتهالات وتضرعات) و«اهبُوت» (قصائد الاهية) و«گِيئُولُوتْ» (آمال الخلاص وترجى مجيىء المُخلص) و«الشِيفَاحُوتْ» (امداح) «وقِينُوتْ» (مرثيات وبكائيات جنائزية) و«ريشبوت»(استهلالات). تسيطر هيمنة القوة الدينية، كما لاحظنا ذلك مرارا، على كل هذه الابداعات الشعرية وتبلغ اوجها في الوظيفة الشعائرية. وتتجلى ايضا في رجوعها الى الاحداث الكبرى في تاريخ اليهود، هذه الاحداث التي يتم احياؤها بواسطة احتفالات خاصة، وفي التظاهرات الشعائرية والفولكلورية، وفي الجلسات الموسيقية والغنائية التي تصاحب الحفلات العائلية. ونلاحظ هذا النفوذ كذلك في قصائد الامداح، التي تخص مختلف الشخصيات،والتي نظمت في مناسبات متنوعة.

والى هذه الانواع الشعرية المختلفة والمتنوعة، تنتمي المقطوعات الآتية المقتبسة من مؤلفنا : الشعر اليهودي في الغرب الاسلامي.

حـ – «باقاشوت» (اناشيد ومرثيات) الشعر الغنائي

انه النوع الادبي الذي تناوله شعراء الاندلس وشعراء المدرسة القبالية الصفدية واكثرو فيه نظم قصائدهم.وتدمج شعائر السبت وايام الاعياد عددا من المقطوعات التي تغنى في الفجر وفي البيعة او في البيت العائلي بصفتها صلاة فردية او مجرد تأمل.

وينتمي هذا النوع الى الشعر الغنائي، وهما معا يرتبطان ارتباطا وثيقا بدور العاطفة في الخطاب الذاتي. وتجدد مناجاة الشاعر الداخلية، المزاميرّ التوراتية، هذه المناجاة التي يفصح فيها الشاعر عن كل ما في نفسه، ويكشف عن افكاره وعواطفه، ويعلن بصدق، عن ماهية علاقاته مع الله ومع العالم والمجتمع والافراد. و«الباقاشوت» مثلها مثل المزامير «.تدخل ضمن التراتيل والمرثيات، وهما معا تأليف يؤدي الى انصهار رائع للعواطف المشتركة التي تعبر عن

.اتها غنائيا،عندما تتفاعل مع اصدق عواطف الانسان الذاتية والاعتقادية» (بول فاليري، لمؤلفات 1 ص 449 بلياد)،ومن بين المناجات الاندلسية والفلسطينية التي ادرجت في الشعائر لمغربية، منذ القدم، هذه التي نعرض ابياتها الاستهلالية فيما يلي، نص من بيتين وقد نظم ابنسور نوسلاته «باقاشوت» التي افتتح بها ديوانه على غرار «الباقاشوت» الفلسطينية والاندلسية، مستعملا نفس المواضيع ونفس التقنيات العروضية في اغلب الاحيان، وتتعرض الاولى في مدخلها الى موضوع «ابواب السماء التي نتوسل اليها، او الاعتاب التي ننتظر امامها لتنفتح للصلاة:

ياخالقي، انظر عبدك يدق ابوابك
افتح له مدخل اعشاب جنانك
عيونه ترتفع نحوك، ليصل اليك
آهات توسلاته يهمس بها في خلدك
تقبل صلاته تقبلها قربانا لك
جهنم ودخان ممطر على مذبحك
ليستيقظ في الصباح المبكر
وكلامه الصامت يسبح بحمدك
ويمجد عبق القربان امام جلالك
عضد ذراعه مثل صخرة، فان كل جوارحه تتطلع للجوء تحت ظل عظمة سموك
وحيد مثل طائر سقط في فخ، ساعده على كسر قيده
وامنحه السلامة والحرية والخلاص.

ط - «التحنوت» (شعر الابتهال)

وقد جمعت ست قطع تحت هذا العنوان الذي يطلق على «الشعر الابتهالي»، ويتعرض مجموع هذه المقطوعات الى حالة الضيق والعوز وما تعيشه الطائفة اليهودية الكسيرة النفس، التي تطلب من الله ان يغفر خطاياها وان يعيد صهيون ويخلص الشعب الاسرائيلي.

ايها الخالد في الاعالي
الحي القيوم خالق العوالم
عندما تتربع فوق عرشك لتدين الشعوب والامم، تذكرنا واجعلنا من بين الاحياء،
شدد عضد الفقراء والضعفاء

وابعث نفس ابناء السبيل
من يكون مثلك من بين الالهة
ملكا مشغوفا بالحياة
عندما ادق بابك ياالهي، رحمة بي، افتح لي
ايتها النزعات القبيحة، لماذا تلاحقيني بكل الحاح ؟

ي - «أهابوت» أناشيد الحب

تندرج هذه الاشعار في المقطوعات التي يطلق عليها اسم «أهابوت» (مفرد اهاباه = حب). وهي ترتل قبل «شماع» (الشهادة) «اسمع اسرائيل...» وتستلهم حب الله لاسرائيل، هذا الحب المرتبط بفكرة الاصطفاء والخلاص، ويستخدم يعقوب ابنسور /شخوص الحمامة/ رمزا لجماعة اسرائيل، وها هو المقطع الاول والمقطع الاخير لاحدى هذه المقطوعات.

أيتها الحمامة، كفكفي دموع صوتك
فأنا من سيخلص أبناءك
أفرحي أيتها الحمامة، لاني انا الذي سأرمم ما تصدع من بنيانك

يا ابنة النبل، يا من تأصلت من أصل الاثقياء
سيرسخ عرشك أبد الابدين
وحب الشوق الى لقاء زمن الفتوة

ك - مقدمة صوفية لقطعة شعائرية خاصة بيوم السبت

انها قطعة طويلة ذات رجع صوفي قوي، وتقابل ابياتها الستة والعشرون القيمة العددية للحروف التي يتكون منها «يهوه» وهو (احد اسماء الله الحسنى). تتناول القطعة «سيفروت» «العشر والاسماء المقدسة التي تطلق عليها» وقد كشف يعقوب ابنسور في هذه القطعة الشعرية ذات الطابع التعليمي، التعاليم «القبالية» التي استقاها من مختلف المصادر مثل «زهار» ونظريات اسحق لوريا، والاعمال الفكرية السابقة التي تركها يهود جنوب فرنسا ويهود شمال اسبانيا، والقصيدة هي :

سيلهج لساني بحمد الباري واغني/سألهج بنعمه بقول عذب جميل،*
واحد هو وخالق كل الانام /قديم هو عن كل ساع ونام
في سر الابدي اذوب عشقا واهوى /في البدء والنهاية واثناء كل ابتهالاتي
نور ازلي نور ساطع نور الصفاء /يضيء هناك ويصبح نور الانوار
واسم «أهيه» امجد مادمت حيا /في سر الاكليل (العلي) حيث سر القدم.
واسم «يه» في سر الحكمة الازلية /عال في الاعالي لا يدرك كنهه.
وفي ثنايا الحروف هـ و يـ هـ يكمن سر الاله /في كنه الادراك الكامل الجلي
وهذه الحروف ترمز لاسم الله، على اليمين ارى سندها /في سر الفضل العظيم الساطع.
واسم «الهيم» على اليسار امامه /حيث الرهبة وسر اسم الجبروت.
واسم «يهوه» في الوسط، انه ينجز /يدبر في اليمين يدبر بعونه
في جلاله مثل بعل قد جلله جلال وضاء، وهناك اقام الشمعدان
وفي رب الجند سر العزة والقوة /في سر الخالد المسمى «يخين»
وفي «الهيم» الجند سر النبوة /في سر الجلال الذي غشى «يخين»
وفي «الهيم» الجند سر النبوة /في سر الجلال الذي غشي «بوعز»
وفي اسم الجبار واسم «إل» (الله) الحي العادل /يتجلى سر مبدا عهد السلام.
والسيادة في سر ملكوت الحضرة، وهي العدل، والسيادة في الاكليل
السيادة مثل خطيبة لا ابهى منها /جليلة هي، مكللة هي، مبجلة هي،
تلك «السفروت» المقدسة /في صعودها وهبوطها، انها عشر
انها موحدة في واحدة رغم العدد /كلهب الجمر لا يفارق المدد
وبها ما لا عد له من الاسرار والعجائب /وبها ما شهدت عليه الدلائل.
ترمز بشكل حروفها وزخرفتها /وبنبراتها وجميل حركاتها.
هي في قلب كل عاقل فطن /في قلب كل حي ذي ادراك فطن.

* تعد هذه القصيدة من اهم القصائد الصوفية اليهودية المغربية المليئة بالاسرار. وقد استعمل فيها الشاعر اسماء الاله او صفاته التي هي : إهية و«يه» و«إليهيم» و«إل». كما رمز الى تقاليب حروف اسم «العلي» التي هي : هـ و يـ هـ، والى تقاليبها الخفية التي يستطيع بواسطتها «المطلع»، على كشف كثير من غوامض الكون والتأثير فيه. كما استغل الشاعر تراثه الديني القديم ليحول بعض كلماته اسرارا لايفهم معناها الا من بلغ درجة الادراك. من ذلك مثلا استخدامه اسمي «يخيز» و«بوعز» – وهما اللفظتان اللتان اطلقهما سليمان اسمين على عمودي الهيكل المقدس (انظر سفر الملوك الاول الاصحاح السابع الاية 21) – رجزا صوفيا لاساس الانسان. والظاهر ان الشاعر كان يقصد تعمية معانيه قصدا، كما يدل على ذلك آخر القصيدة. حيث يطلب من ابنه ان يفكر مليا ليدرك سر هذه الرموز، كما يطلب منه ان لايصرح بها (المترجم)

فكر يا بني، وستدرك هذه الاسماء /لا تفتح فمك لكشفها ودعها محجوبة،
لكن بالتفسير الحرفي، والوعظ والتلويح /ارفع صوتك، وانشر المعرفة في الناس
علم بـ«الهگده» والتلمود و«المشني» /والمكتوبات والانبياء وبالتوراة.
لتنر كلماتك الظلمات. ولتعمك البهجة /بهجة النفوس الكاملة.
واحمد الله روح الارواح /العظيم الجبار الرحمن7»

ل - بدائع الخلق والشعر الخمري

عندما يغادر الشاعر اليهودي الأفق الضيق لملاحه، ليسافر في ربوع البلاد او ليرحل الى الخارج، فانه يلاحظ الطبيعة ويصف الاقاليم التي يعبرها اثناء تجواله، وتشحذ المناظرالتي تجلب نظره صورا مثيرة، كما يغنى «آيات الخلق» التي ينظر من خلالها الى «الصنائع التي ابدعتها يد الخالق».

ونجد في هذا النوع من الادب الوصفي. وهو نادر حقا، نماذج في اشعار داوود حاسين (مكناس ق 18) وقد كتب في مقدمة احدى اشعاره هذه ما ياتي :

«وضعت هذا الشعر وأنا في طريقي الى تافيلالت وهي مدينة متربعة على ضفاف واد زيغ، وهناك رأيت اشياء عجيبة واشجار باسقة ونخيلا رائعا فارعا مرتفعا كثيرا تجري تحت أقدامه المياه».

وتبدأ القصيدة نفسها هكذا :

اردد عجائبك ايها الملك المقدس يا ساكن الخلد.
لقد كنت مع عبدك حتى نهاية السفر.
وقدته حتى مشارق مدينة النخيل.
هذه الانهار وسواقيها تخصب الصحراء.
والاصقاع القاحلة.
من زيز من الارض الخصبة ياتيهم الرخاء
الشعير والقمح.

ونظم داوود حاسين قطعة شعرية اخرى من هذا النوع، بمناسبة سفره بحرا وكتب قائلا : «وجدت نفسي على ظهر الباخرة، في خضم المحيط متأملا اعماقه»

7 - سنرى في الفصل القادم المعنون بـ«الحياة الدينية» انواعا اخرى من النظم، (أنشودات ومراثي ..) خصت بالمناسبات الدينية الأخرى والاعياد ولحظات الحزن والاسى.

تعالوا لتروا آيات من يسكن في السماوات،
انه المحيط الشاسع في اتساعه العظيم.
وتهب الرياح على وجه مياهه
تتعارك، تجري في الجهات الاربع.

اما النوع الخمري، فهو حسب علمنا، نادر جدا، في الانطولوجيات المغربية، لانه يمس الشعر الدنيوي، ونجد عند داوود حاسين منظومة مقتبسة من احدى قطع شاعر مغربي آخر يتغنى بالخمر والانتشاء. ولقد سمحت مناسبات الافراط في شرب الخمر التي تطبع احياء عيد «بوريم» باتاحة الفرصة لفيض من الانتاج الشعري، وهو شعر ناتج عن حوافز دينية اكثر من غيرها.

يضفي غياب مصادر المؤرخين العادية قيمة وثائقية على عدد كبير من هذه المقطوعات التي لايستهان بها، والتي تتعرض الى الاحداث السعيدة والحزينة والى الكوارث الطبيعية مثل فيضان الوديان، والى المجاعات والاوبئة مثل تلك التي تدفع الى احداث شعبية دامية، والى تمردات القبائل اثناء غياب سلطة العرش، وكلها احداث تذهب الطوائف اليهودية ضحية لها باستمرار.

م - شرف الاحياء ومجد الاموات

تشكل مجموعات القطع الشعرية التي نظمها داوود حاسين المسماة «**شرف الاحياء**» و«**مجد الاموات**»،واشعار عائلة ابنسور، وثائق تتضمن معلومات ثمينة حول المجتمع اليهودي وبيئته. وتلقي ضوءا جديدا على بعض الشخصيات التي لعبت دورا رئيسيا في التاريخ المغربي ومن بينها كبار موظفي السلاطين الذين وصلوا الى قمم القوة والشرف او موظفون سامون مغضوب عليهم او اغتيلوا. ومن الاكيد ان هذه الاشعار تسمح كذلك بالتعرف على بعض وجوه الاعيان ورجال العلم والسلطة، ومتابعة الاحبار المبعوثين جامعي الاموال في تجوالهم اولئك الذين جاءوا من اوربا او من الشرق، فاصبحت قبورهم اماكن للزيارات وعلامات على المسالك في ربوع البلاد، حيث اختفى عدد كبير منهم بموت مفاجىء طبيعي،او تعرض لموت طارىء حادث.

وينظم الشعر اليهودي المغربي المكتوب باللغة العبرية، عدد هائل من الشعراء. والحقيقة، ان كل متأدب يهودي يمكن ان يكون شاعرا اذا اقتضت الظروف ذلك وعلينا ان نذكر بأنه ظهر، بالاضافة الى ابنسور، شعراء اخرون استحق شعرهم ان ياخذ مكانته اللائقةبه لدى الطوائف الاندلسية وطوائف الشرق والغرب مثل :

– داوود حاسين : «تهيلاه لداوود» امستردام 1807
– يعقوب بردوكّو : «قول يعقوف» لندن 1844
– يعقوب بن شبت : «يارِّكِل يعقوف» ليفورن 1881 الخ(8).

ن – «البيطان» – مغني متطوع او محترف

لنذكر في نهاية المطاف بعض وجوه المغنيين اليهود المغاربة الذين اتيح لنا التعرف عليهم في مناسبات متعددة. من بين هولاء، الربي داوود بن باروخ، المسمى ايضا داوود ايفلاح، ونحتفظ له بذكرى بالغة الاثر، وخصوصا انها تعود الى مرحلة الطفولة واليفاعة.

ولد الشيخ داوود سنة 1867، وكان لا يزال الى سنوات 1930/40 شيخ طائفة الصويرة، و كان على القداس وجلسات الابتهالات في البيعتين الكبيرتين بهذه المدينة.

ويقال انه كان دائما يستدعي الى بلاط السلطانين مولاي يوسف ومحمد الخامس بقصر مراكش والرباط، لمصاحبة «الستّارا (الجوق الملكي). وكان كذلك الربي داوود القيم، بالاضافة الى كونه موسيقيا موهوبا وشاعرا وواعظا، نقاشا (زوّاق)، وكان على الخصوص يزخرف «كوتوبات» رائعة (عقود الزواج). وكان الربي داوود بوزاكّلو الذي عاش في المغرب الى حدود سنة 1970 وتوفي في اسرائيل بعد بضع سنوات، مغنيا مشهورا، واحد شيوخ «الآلة» الكبار (الموسيقى الاندلسية) والانشاد الكنيسي.

وتتجاوز شهرته في في مجال الصنعة الموسيقية حدود الجماعة اليهودية. وغالبا ما كانوا يلتجئون اليه لينظر في بعض النزاعات العقائدية او التقنية. وتعرفنا في فاس سنة 1963، على احد منشدي البيعة المشهورين، الا وهو نسيم النقاب الذي هاجر هو بدوره الى اسرائيل

8 – نحيل القارىء على الفصل السابع من كتابنا «الشعر اليهودي في الغرب الاسلامي» ص 424/397. فيما يتعلق بجرد المقطوعات الشعرية (منتخبات ودواوين ومجموعات من كل الانواع او مقطوعات منفردة وضعها شعراء مغاربة ما بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر (مطبوعة ومخطوطة) اي ما يقارب مائتي عنوان ومؤلف مما تم احصاؤه.

ليقضي بقية حياته هناك،فسجلنا بعضا من اناشيده. وليس لكل منشد بيعة نفس صيت ومكانة هولاء الذين أتينا على ذكرهم، ولم تكن لهم الا معرفة متواضعة وبراعة اقل من المستوى المطلوب، غير انهم كانوا جميعا يتمتعون بصوت ناعم ومتوازن.

ويطلق على المنشد اسم «بَيْطان» وهو يتميز عن الشاعر الذي يطلق عليه «مْشُورِرْ» مع أنه قد يكون هو نفسه ناظما في بعض الاحيان. ويتمتع «البيطان»، وهو في اغلب الاحيان، شاعر ومتأدب، بإحترام وتقدير الجمهور، مثله مثل الحبر والقاضي وكل الذين يقومون بالمهام الدينية،وهو شخصية ذات تأثير كبير في المجتمع اليهودي المغربي، ويحفظ عن ظهر قلب عدة منتخبات وانغاما تلقنها اثناء العديد من الجلسات والسهرات الموسيقية التي قضاها في صحبة شيخ او عدة شيوخ موهوبين ذوي شهرة ومكانة محلية او وطنية، وله دوره الذي يقوم به اثناء قيام القداس الكنيسي، وغالبا ما يترك هذا الدور (اثناء ايام السبوت الخاصة والاعياد الدينية الكبيرة والغائلية) ليصبح شاعرا ومغنيا. وهو الذي يسلي المدعوين والضيوف اثناء مآدب الزواج الدينية والختان و«بَارْ مِسْفاه» والحلاقة الاولى لشعر الولد، وهو الذي يبكي موت عزيز في «قينة» (مرثية)، ويكون حاضرا في حفلات اختتام دورة دراسية للتلمود، وافتتاح بيعة وفي القراءة الاولى للفائف التوراة، وفي الولائم التي تقدم في الزيارات الدورية والزيارات الموسمية لقبور الاولياء والصالحين المحليين. ويغني في الاجتماعات والمواكب المنظمة التي تشرف عليها الجمعيات والمؤسسات (جمعية قراء «زهار» والمزامير الخ) وفي حفلات الميلاد واليوبيلات واحياء انواع التذكارات والتدشينات. وعندما يكون «البيطان» محترفا، فانه يتلقى في غالب الاحيان، في هذه المناسبات المختلفة «نِدَابَاهْ» (هبات) يقدمها له احد الحاضرين وتضاف اليها احيانا، المكافاة التي جرى بها العرف مقابل مشاركته في حفل من الاحتفالات.

ص – النثر الفني او المسجوع «مِيليصَاه» (البيان)

تشبه «المِيلِصاه» العبرية النثرَ الفني العربي، وهي «لغة البيان» انها نثر موزون ومسجوع ذو جمل قصيرة. وتستعمل «الْمِيلِيصاه» مثلها مثل الشعر، مع كثير من التواتر الصوتي والتركيز، تقنية «شِيبُوص» (التطريز) وفسيفساء التضمين وتركيب النص الجديد تركيبا يعتمد فقرات مقتطفة من التوراة وأقوال الاحبار. ويستخدم الأديب اليهودي المغربي «الميليصاه» (النثر المسجوع) في مراسلاته مع اصدقائه «إِكِّيرُوتْ» (رسائل). وفي مقدمة كتبه «هَاقْدَامُوتْ» وفي «الأَسْكَمُوتْ» (الاجازات) وهي المقدمات التقريظية او الاجازات التي يسلمها عالم من العلماء. كما يستعمله في الديباجة او الاستدلال الذي يفتتح به درسا وعظيا «دراشاه». وهو الذي كان يطلق عليه في الاصل «مِيليصَاه».

3) القبالي والحياة الصوفية

أ – ويعتبر الاقرار الصوفي الذي وضعه موسى ابن سور، وهو شاعر مغربي عاش في القرن 17–18، سنة 1712، في مقدمة ديوانه «منتخبات شعرية» المعنون بـ«صنج رنان»، مثالا على العلاقات الوثيقة التي يمكن ان تجمع بين الابداع الادبي و«القبالة».

وتعتبر هذه الصفحات التمهيدية درسا في الفن الشعري الذي يقتبس اساسا من تعاليم «القبالة». وتشهد بكل جلاء كذلك على اهتمامات المتأدبين المغاربة عموما بالعلوم الباطنية. انها عرض محكم للحوافز والدوافع التي تحرك الانسان ليتغنى بعظمة الاله. ويبرز النص، بصفة خاصة، دور مهمة الاشعار الصوفية والتغني بها. ويبرز الابداع الشعري انطلاقا من مساهمته في اعادة الوحدة الكاملة لعالم المراقي واتحاد الحضرة الالهية مع ربها، وفي مساهمته في مسلسل «تجديد» الاتحاد مع الاسم الاعظم. هذا الاتحاد الذي طوحت به الخطايا. وهو تجديد سيتميز بنهاية نفي «الحضرة الالهية» الذي سيتزامن مع نهاية تيه بني اسرائيل وتحقيق الانسجام الشامل. وقد تم الجمع بين التصوف السائد (وهو هنا على الخصوص، مذهب القبالة الزهرية، ومذهب اسحق لوريا) والكتابات الوعظية الاخرى (توراتية وتلمودية ومدرشية)، جمعا موفقا بفضل تفسير وتأويل النصوص تفسيرا وتأويلا يسخر (حساب الجمّل وسر الحرف)، وهو علم مكنه علم التأويل للطالبْ المجرب الذي كان يعرف غالبا كيف يستفيد منه استفادة رائعة. واصبح هذا النوع من الخلق الادبي، في بعض الاحيان، كما لاحظنا ذلك اثناء قراءاتنا عندما كنا نعد كتابنا (9)، من امهات كتب الجدل الربية الحقيقية والمناظرة التلمودية.

وتنسجم هذه المقدمة التي هي مجرد مدخل لمنتخبات شعرية، والتي اتينا على ذكر محتواها ومصادرها في عجالة، انسجاما تاما مع المسار الثقافي للشاعر واعماله، ومع اهتماماته الروحية الثابتة وفي وفائه، ونوعية الفكر الذي يفسر بالتكوين القبالي الذي تلقاه داخل مجتمع من العلماء الذين استهوتهم تعاليم «الزهار» وشروحه، واستحوذ عليهم مذهب اسحق لوريا ومدرسته بصفد.

ب – «الزهر» والانتاج القبالي للمتأدبين المغاربة

لم يكن هذا النمط من التعبير الفكري الذي هو الادب الصوفي، خاصا بالنخبة المتعلمة وباستقراطية العلم وكبار مفكري المدن الكبيرة (فاس ومكناس وسلا ومراكش) بل يظهر ان المراكز الرئيسية التعليم ونشر العلوم الباطنية كانت توجد اكثر في جنوب البلاد، في سوس،

9 – انظر كتابنا Poésie juive en Occident Musulman p. 21/41

ودرعة والتخوم الصحراوية (تارودانت وتامكّروت واقا وتافلالت الخ) حيث كانت تسود حركة صوفية هائلة، وكان بها نشاط قبالي كبير خصب وخلاق.

ولا يخفى الدور الرئيسي الذي لعبه كتاب «الزهار» في الحياة الفكرية والدينية ليهود المغرب الشرقي والجنوبي منذ الفي سنة. واصبح كتابا مقدسا مثله مثل التوراة والتلمود. واخذت منه نصوص ادمجت في الصلوات. وخصصت له الجمعيات التي كانت تطلق على نفسها اسم بَارْ يُوحَايْ، جلسات ليلية في كل مكان. وكانت هذه الجمعيات تعتقد ان المؤلف الحقيقي للزهار، (كتاب الاشراق) هو بريوحاي بدون منازع. وكانت لها شعائرها وتقاليدها العريقة، مثل جمعيات طوائف تودغا بالاطلس الكبير حيث تقول احدى الاساطير بان كتاب الزهار كتاب موحى به، الا انه ظل خفيا عن الانظار ولم يظهر الا حديثا. وقد ذكر هذه الاسطورة العالم القبالي المشهور، ابراهام ازولاي، في مقدمة احد شروحه الذائعة الصيت للزهر «أورْهَاحَامَّاه» (نور الغزالة الشمس) يقول: «بقي الزهر مختفيا في مغارة مِرُون، في جبال الجليل الاعلى (فلسطين)، الى ان اكتشفه احد الاسماعليين (احد العرب) وباعه الى تجار متجولين كانوا يلفون في اوراقه توابلهم، الى ان وقع بعضها بين ايدي احد الأحبار القادمين من المغرب، فبحث عن الاوراق الضائعة ليجمعها. وكان هذا الحبر من احدى مدن المغرب وهي تودغا، فحمل الكتاب معه الى مسقط رأسه.»

ويتميز الانتاج القبالي المغربي، الذي لا زال جزء كبير منه لم ينشر بعد، ولا يعرف منه الا القليل، بأبعاده وتنوعاته واهميته الوثائقية، واسسه الثقافية. وكان يعتمد مصادر قيمة وقديمة على الرغم من عزلة مراكز الدراسة وبالرغم من كل انواع الصعوبات التي كانت تعترض طريق الطالب سواء كان فقيرا او غنيا. وتتضمن هذه الآداب التي تمتاز عن غيرها من الانتاجات الفكرية، نظرا لروحانيتها، مجالات مختلفة بالرغم من تداخلها، مثل شروح التوراة والكتابات الشعائرية وشروح الزهر نفسه، والقبلة على مذهب لوريا، وكذا بعض انواع الشعر. واذا كانت معاناة الشطحات الصوفية وقفا على نخبة ضئيلة جدا، واذا كانت دراسة النصوص نفسها محصورة في حلقات من العارفين محدودة العدد، فان القبالة على العكس من ذلك، كانت تعرف، في بعض جوانبها وفي بعض مظاهرها وفي طلسماتها التي تقارب السحر، اهتماما واسعا ونفوذا شعبيا عظيما. وكان يستخدم هذا النوع من القبالة، الذي يسمى القبالة التطبيقية، للتأثير في سير الاحداث الطبيعية، تقاليب الاسم الأعظم، والتركيبات المختلفة للحروف الهجائية «العبرية»، واسماء الملائكة، وعلم الفلك وعلوما اخرى سحرية تنجيمية كان الاحبار الارتود وكسيون يدينونها دوما. ولقد احصينا، في مختلف الفهارس، ما يزيد على

المائة من عناوين المؤلفات المطبوعة او المخطوطة، الفها مؤلفون من اصل مغربي او من الذين استوطنوا المغرب، منها دراسات ضخمة من الحجم الكبير، واخرى عبارة عن كناشات متواضعة. وكلها تعالج مواضيع قبالية متنوعة. وتوجد هذه المؤلفات في مكتبات اسرائيل وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وجهات اخرى. ولقد تصفحنا جزءا منها، وسيكون بعد دراسة معمقة، موضوع بحث مستقل مستقبلا، ونكتفي هنا، بالاشارة الى بعض النماذج منها، وذكر بعض اعلام هذا الفن المشهورين.

– ابراهام سباع، وهو اندلسي الاصل. كتب في فاس، ما بين 1498 و1501 مؤلفه «صِرُّورْ هَامُورْ» (حصن الرخام) وطبع مرارا في البندقية (1523 و1567) كما طبع في جهات اخرى، وله ايضا شرح للتوراة اصبح من امهات التفسير القبالي للتوراة.

– شيمعون لآبي، الذي يعرفه العالم السيفرادي، عن طريق قصيدته الصوفية «بَارْ يُوحَاي» التي اصبحت جزءا من طقوس عشية يوم السبت. استقر المؤلف بفاس بعد نفيه من قشتالة، وتعرض لمختلف تقاليد مدينة فاس، في كتابه «كيتيم بَّازْ» (الذهب الابريز). وقد طبع جزئيا بجربة، بعد اربعة قرون من تأليفه. والكتاب معلمة في شروح الزهار، بالاضافة الى انه الوحيد الذي لم يتأثر بمدرسة صفد القبالية، فكان نتيجة لذلك، اقرب الى المعنى الاولي للنص.

– ابراهام بن مور دوخاي ازولاي، ولد في فاس حيث تلقى تعليما تقليديا وقباليا، واستقر في حبرون في بداية القرن 17. وضع عددا كبيرا من التفاسير والتعاليق والحواشي التي لاغنى عنها لدراسة الزهار وقد نشرت عدة مرات في اوروبا وفلسطين.

– وتقتبس كتابات شالم بوزاكلو المتعددة (القرن 18) مادتها من التعليم الذي تلقاه المؤلف في مراكش على يد ابراهام ازولاي (وهو غير ازولاي السابق) شيخه في علم اللاهوت.

– موسى بن ميمون الباز، من تارودانت في الجنوب المغربي، وهو مؤلف «هيخال هاقودش» (الهيكل المقدس) وقد طبع في امستردام سنة 1653، ويتناول التفسير الباطني للصلوات. واضطر تلميذه يعقوب بن اسحاق بوافر ان يغادر تارودانت ليلتجأ الى اقا في تخوم الصحراء، حيث وضع عددا كبيرا من التفاسير القبالية حول «الاخماس» (التوراة) جمعت في مؤلف ضخم غير منشور، تحت عنوان «مِنْحَاه حَدَشَاهْ» (هبة جديدة) وتوجد منه نسخة اصيلة بمتحف Liverpool، مؤرخة في 1619. وهو على جانب كبير من الاهمية، وغني بمصادره العلمية والمتعددة التي استقاها من العلماء والشيوخ والمذاهب الرئيسية للقبالة التي احتوت علوم كل المدارس والعصور التي سبقته.

– وتنسب عدة مقالات عقائدية وتطبيقية قبالية لداوود هاليفي،وقد ظلت شخصية هذا المؤلف، غير معروفة وغائمة، ولم يكشف عن هويته الحقيقية ابدا، وكل ما يعرف عنه انه من مدينة دبدو بشمال شرق المغرب، وانه توفي بعد ان بلغ مرتبة الاولياء. ودفن في تامگروت بدرعة، واصبح قبره موضع احترام، ومزارا لكل الطوائف اليهودية بجنوب المغرب. طبع احد كتبه «سِفِرْ هملخوت» (كتاب الملك) في الدار البيضاء سنة 1930، على نفقة الجمعية التي تحمل اسمه. والكتاب يمثل بالنسبة الينا اهمية اخرى، اذ يتضمن تفسيرا باطنيا لشعائر تنسب الى احد قبالي الجنوب المغربي،وهو الربي موردوخاي الدرعي. وحسب ما يبدو، فانه هو مؤلف «مَعْيِنُوتْ هَاحُوخماه» (منابع الحكمة) ويحتمل ان القباليين اخفوه بسبب الاسرار الممنوعة التي يكشف عنها (10).

– اسحاق لوريا الاشكنازي (1543–1572) عرف هذا العالم «بالاسد»، وهو مؤسس مدرسة صفد، ويعد من بين مريديه المشهورين الطلبة الوافدون من المغرب الذين افتتنوا كغيرهم بتعاليم القبالة الجديدة، كيوسف ابن طابول ومسعود ازولاي الاعمى وابوحنا معارابي. وظلت في عين المكان بالغرب الاسلامي، حركة قبالية واسعة حتى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يمثلها ابراهام انقاوا في سلا (بالمغرب) ومسكرا (بالجزائر) ويعقوب ابيحصيرا ومريدوه بتافلالت الخ.

ويسمح احصاء مجموع المؤلفات ومعاينة بعضها، بالوقوف على استمرارية تقاليد الفكر اليهودي الشامل،وهي تقاليد ترجع الى اكثر من الف سنة. ويسمح ايضا بملاحظة طبيعة العلاقات التي تربط الآداب الباطنية المغربية بمجموع التيارات الصوفية اليهودية الكبرى ومدى امتدادها. وكان علماء فاس ومراكش،بل الاكثر من ذلك،علماء تارودانت تافيلالت على اطلاع كبير بكل الانتاج القبالي المتوفر في عصرهم،بدءا من انتاجات القرون الاولى بعد العهد التوراتي، المتمثلة في بعض «المدرشيم» (التفاسير)، وانتهاءا بالقبالة المعاصرة، ومرورا بالتآويل الباطنية للقيامة، وتصوف «مِرْكَبَهْ الْهِخَلُوتْ» و«معَسِهْ بِرِشيت» و«سِفِر يصيره» و«حَسِدِيمْ المانيا» وقابلة مدرسة جيرون ومراكز جنوب فرنسا واسبانيا الى غاية الطرد سنة 1492، والمدارس الفلسطينية بصفد والقدس بطبيعة الحال.

ولقد شارك المتادبون المغاربة، على غرار شيوخهم في البلدان الاخرى، في تاريخ وتطوير الفكر الصوفي، بما في ذلك بعض الحركات المسيانية القومية التي زعزعت مرحليا، اليهودية الشرقية، مثل الحركة «السبتائية» التي انتشرت في نهاية القرن السابع عشر، في المدن الكبرى للامبراطورية المغربية.

10 – انظر في موضوع المؤلف ومؤلفاته المنسوبة اليه تصحيح افرايم Gottlieb «مِحْقَرِيم بَسِفْرُوتْ هَقَبَلَهْ» (دراسات في ادب القبلة) تل أبيب 1976 ص 248–256 (بالعبرية)

ولازالت اثارها بارزة في بعض النصوص الشعائرية والكتابات المختلفة التي لم تنشر بعد. ولقد كرس G. Scholem بحثا هاما خاصا بأتباع لوريا، واحتل ابن طوبول المغربي وهو ند للشهير حايم نيشال، مكانة كبيرة في هذا البحث وطبع احد مؤلفاته الذي هو «سِيفِر حِفْصِي بَهْ» (كتاب : أمنيتي فيها) (ويمكن ان نقول بان هذه الطبعة تمت عرضا) في حاشية مؤلف قبالي آخر، سنة 1921 بالقدس. وكان احد الاحبار المغاربة، وكان قاضيا حبرا بالصويرة، وهو الربي يهودا بن مويل، قد حمله معه في امتعته الى القدس.

4 - الواعظ و«الدّرَاشاه» «الارشاد والأسطورة»

أ - الخطاب الوعظي

يعزز المنهج التعليمي التوراتي، سواء التعليم الابتدائي بـ«الْحِدِرْ» او ذاك الاكثر منه تقدما الذي هو تعليم «اليشِيفا»، في المرحلة اللاحقة، بتعليم آخر يهتم بالنصوص المقدسة. تقوم بهذه المهمة «دراشاه» او «دروس الوعظ». وهو اسلوب يرمي الى تعليم العامة، ومنهج يهدف الى «استمرارية وديمومة» تكوين البالغين. ويعمق مضمون الخطب الوعظية «دِرَاشاه» الذي يعتمد الاسطورة «مِدْرَاشْ وهَكَّدَهْ» بشكل من الاشكال، الدراسة النصية الحرفية والتفسير الظاهري لمعنى الكتاب المقدس او النَقْل لمغزاه التاريخي.

ويتوقف التاريخ، حسب التقاليد اليهودية، عند المأساة الوطنية (هدم هيكل القدس على يد الرومان واختفاء الدولة) ولن ياخذ مساره من جديد الا بمجيء المنقذ. ولا ينقل الخيال «الدرشان» (الواعظ) الى الماضي فقط، ولكن يحمله ايضا في اتجاه المستقبل، الى العهد المسياني، وبالتحديد، الى العصر الذي يؤَمَّل فيه الخلاص وتنتظر فيه العودة «الى الامجاد الاولى الساحرة».

وتُبعِد الخطب الوعظية المقتبسة من التوراة، وخصوصا «الهَاكَادَاه» في بعض مواضيعها على الاقل، الواقعَ اليومي والوضعية الراهنة وتنتقل الى عالم الخيال. وتحطم حواجز الزمان والمكان، متجهة تارة الى الماضي المجيد والبعيد، والى عهد الآباء وعهد القضاة والملوك. وتارة الى المستقبل الذي تلقي عليه ضوءا سحريا جذابا. وتتناول كل تفاصيل الازمنة السعيدة الآتية، والعالم المسياني وما يلحقه من تحول عجيب على الطبيعة والناس.

ويبدأ التدريب على الخطبة في مرحلة مبكرة جدا، كما راينا، في احتفال «بَارْ مِصْوَاه» فيوضع الراشد البالغ من العمر اثنتي عشرة،او ثلاث عشرة سنة، على محك تجربة القدرة على الوعظ في نفس اليوم الذي يبلغ فيه سن الرشد الديني.

ويحمل الولد اثناء الاحتفال، للمرة الاولى، «التِيفِلِين» و«طاليت» (خمار الصلاة) وينبغي بالاضافة الى ذلك أن يقود القداس ويلقي «درَاشَا»، وهي عبارة عن خطبة حقيقية يبدؤها بـ«المِيليصَاه» (فاتحة نثرية مسجوعة) وتتناول عرضا مطولا لآية توراتية لها علاقة بالحدث مطعمة بنصوص تلمودية وموضحة بالحكايات، والروايات الوعظية والخلقية والقصص والاساطير (11).

وتستمر دراسة الطفولة واليفاعة الى سن النضج، وطوال حياة المتأدب المبرز، وهي تهدف الى الاستيعاب الطويل والصعب للعلوم التقليدية، والتمكن من القدرة على المجادلة والمناظرات الربية.

والهدف الحقيقي من الخطب الوعظية التي هي بالاساس خطب تعليمية، هو تناولها لكل المناسبات الدينية طوال السنة. وهي جزء لا يتجزأ من شعائر البيعة. وبما انها تتناول المواضيع التوراتية على الخصوص، فموضوعها هو الدراسات المقدسة الخاصة بالايام الاحتفالية والسبوت وايام الاعياد. ويختار «الدّرْشَان» (الواعظ)، معتمدا في ذلك على اساليب التفسير المعروفة، آية من آي التوراة، فيحللها بالشرح والتأويل واعمال النظر، دون ان ينسى، اضافة الى ما سبق، التعرض الى مواضيع الساعة وتطلعات الجماعة وآمالها، مستعملا في ذلك المثل والرمز والتشبيه، ليربط الكل بأحداث الماضي المنصوص عليها في الكتاب المقدس الذي يصبح اعتمادا على هذا، مرآة تعكس صورة الحاضر.

ويجد الواعظ، كما هو الشأن بالنسبة للشاعر والمفسر او رجل القانون، في التراث اليهودي نماذج مثالية لكل ابداعاته (خطبه).

ومع ذلك،فان هذه الخطب لا تصبح معبرة وذات دلالة الا عندما تستوحي من معين هذا الفكر الذي تحدثنا عنه. ويعتبر تجاهل او نسيان تراث هذه (الذكرى الجماعية) اثما، بل قد يكون طامة كبرى. ولا يمكن ان تعتبر تقليد النموذج الذي حافظت عليه التقاليد وكرسته «للشيىء نفسه» لان الموروث والمورّث يتجدد دائما،ويفهم فهما جديدا ويعمق مع الزمان، وهكذا تنفتح تلك الآداب على آفاق جديدة تبدع ابداعا جديدا.

11 – انظر خطبتنا لـ«بَرْمِصْوَاه» في كتابنا
Littératures Dialectales et Populaires Juives Occident Musulman, p. 274-298.

ب – أدب الوعظ عند الادباء اليهود المغاربة

كانت لغة هذا النوع من الاداب ولغة العلوم اليهودية في معظمها، ان لم تكن كلها، هي اللغة العربية. ويحتمل جدا ان يكون معظم ادب الخطبة المغربي هذا، خصوصا في المغرب الاقصى، ذاك الذي نعرفه،وهو عبارة عن نقل كتابي بلغة عبرية، للخطاب الموجه شفاهيا، باللهجات العامية (اليهودية – العربية واليهودية القشتالية بل واليهودية – البربرية) ولقد وصلتنا، على الاقل، بعض النصوص المحررة باللهجتين الاوليتين (وبالحروف العبرية طبعا) كما جمعنا نصوصا اخرى نقلناها شفاهيا اثناء تحقيقاتنا بالمغرب، او اخذناها عن الجماعات المغربية التي هاجرت الى اسرائيل.

وعرف الخطيب اليهودي – العربي، خصوصا المغربي منه، كيف يؤلف ويوحد بدقة متناهية بين العربية، والآرامية واللهجة العربية المحلية. ويستعمل الخطيب اللغة المتداولة عند مستمعيه، كمنطلق لغوي وكقاعدة اساسية، مستخدما رصيده الثقافي التقليدي بالآرامية والعبرية، سواء ليضمّن خطابه، بمهارة فائقة، استشهادات (من التوراة والتلمود واقوال السلف)، او ليتخذها اساسا للجدل، مستفيدا في ذلك من دراسته اللغوية ومناظراته التلمودية، ومناقشاته ومجاوراته تلك التي تمرس عليها طالب «اليشفا» الذي له اطلاع كبير على الاساليب الدقيقة للشرح والتفسير وقواعد فن الوعظ الكبرى.

ولقد احتفظ الخطباء المغاربة في هذا المجال، كباقي المجالات الاخرى، بتقاليد المدارس البابلية والفلسطينية، واتبعوا، خصوصا، طريق اجدادهم الاندلسيين، لانهم يعتبرون انفسهم هم ورثتهم الروحيون، وان ملجأهم الاول والاخير هو ارثهم الذي ورثوه عنهم. وكان هؤلاء الخطباء احدى حلقات هذه السلسلة من الحفظة المبدعين، الذين خلدوا مجد اجدادهم. ولم يخرج انتاجهم الوعظي عن نهج اساتذتهم الشرقيين والاندلسيين، وكان يستجيب لنفس الاهتمامات. ونظرا لتأثرهم بنفس الفكر، فانهم كانوا جميعا يستقون من نفس المصادر، سواء بالرجوع الى هذه المصادر مباشرة وتقليدها تقليدا كاملا، واعتمادهم الكتابات الموروثة والآداب الكلاسيكية، او بتحويرها لتناسب البيئة الجغرافية والانسانية وظروف الحياة المحلية.

وقد يحدث لهم كذلك ان يعيدوا كتابة «مِدْرَاشِيم» قديمة، وان يبتكروا اساطير ويتصوروا امثالا جديدة وخرافات ليستجيبوا بذلك لمتطلبات ابداعهم الادبي. ومن الصعب الاحاطة هنا بكل تفاصيل الانتاج الوعظي الذي تركه الوعاظ المغاربة لكثرته، وقد احصينا مائتين وخمسا وثلاثين مجموعة من الخطب الوعظية، من بينها اثنتان ومائة مطبوعة، وثلاث وثلاثون ومائة مخطوطة، توجد في المكتبات العامة والخاصة. ويتناول هذا الادب كل المناسبات الدينية (خطب توراتية للسبوت والاعياد) ومختلف المناسبات مثل (الفرح والحداد).

وهذه بعض عناوين المؤلفات المطبوعة :

- «بِرِتْ أبُوت» (عهد الآباء) ليفرون 1862 لابراهام بن يهودا كوريات.
- «بيتْ هَاعُوزِيه إيلِي» (بيت عوزيه إلي) البندقية 1604 ليهودا عوزيه آل II.
- «بنيي أوتْ دِيشِيه» امستردام 1735 لسليمان بن مسعود الدهان.
- «دريخ هَاقَودِشِ» (السبيل المقدّس) هوسياتين 1908 لفيدال هاسرفاتي
- «دوْرش طوب» (الباحث الجيد) القدس 1884 و1965 ليعقوب ابيحصيرا.
- «حِيسِد ايل» (نعمة الله) ليفورن 1826 لحسداي الموسنينو.
- «حِيسِدْ وِإمِيتْ» (حب وحقيقة) ليفرون 1806 (طبع في حاشية ملحمة مصواه)
- «مِيمِينُوحُوت» القدس 1901 (الجزء الاول) 1942 (الجزء الثاني) لرفائيل بن موردوخاي برِدوكو.

5) تفاسير التوراة والتلمود

وكان التفسير التوراتي والتلمودي شائعا، مثله مثل صور الفكر الاخرى. ولدينا من مؤلفاته الكثير. ويصعب الحديث عنها او تناولها بالتحليل في اطار هذا المؤلف. ونكتفي بذكر اسم واحد من اعلام هذا العلم، وهو من ابرز علماء اليهود المغاربة، انه الربي حيم بن عطار الذي اكتسبت كتاباته اهمية كبرى لدى الطوائف الاشكنازية والسفردية. ويعد شرحه للتوراة المسمى بـ«أُوْرْهَحَيِيمْ» (نور الحياة) من امهات التفسير التقليدي. وقد طبع في حواشي العديد من طبعات الكتاب المقدس. «انظر «مِقْرَأوُتْ» (التفاسيرالكبرى). ونال هذا التفسير حظوة كبرى لدى علماء اليهود في الشرق والغرب).

غادر حايم بن عطار المغرب حوالي سنة 1739 قاصدا الارض المقدسة في صحبة جماعة من المريدين وظل عدد هؤلاء يتكاثر طوال طريقه الذي مر بايطاليا، ووجد هذا دعما ماليا مكنه من تأسيس «يشفاه» (كنيسة اسرائيل) بالقدس.

وتوفي هناك بعد وصوله بقليل سنة 1743. وكانت هذه الاقامة القصيرة بايطاليا كافية لتجعل الباحثين المساهمين في تحرير الموسوعة اليهودية Jewish Encyclopaedia (Vol VI, p 275) يعتقدون ان عالمنا المغربي كان حبرا ايطاليا ولد بسلا قرب Brescia بايطاليا (هكذا) ولنسمح لانفسنا بارجاع هذا العالم الى اصوله والى عائلته المغربيةحتىنصحح هذا الخطأ الفادح الذي سيقع فيه كل من يرجع الى هذا المرجع الثمين.

ونشير الى ان مؤلفي الموسوعة اليهودية قد وقعوا في نفس الخطأ بالنسبة لاحد الاحبار الكبار المغاربة، وهو يوسف بارعيوش المليح، وهو من اكبر علماء الشريعة بالرباط وسلا، حيث اصبح عندهم :

هكذا: «Almalia Joseph, an Italian Rabbi of Beginning of the 19 th Century» (ألمليا يوسف، حبر ايطالي عاش في بداية القرن 19) مع انهم اطلعوا على مجموع فتاويه «توقفوت يوسف» (أحكام يوسف)، وذكروا تاريخ ومكان طبعها (الموسوعة اليهودية I ص 426)•وكان يكفي القاء مجرد نظرة على المقدمة،وعلى بعض النصوص المؤرخة والممضاة ليتعرفوا على اصول المؤلف،وعلى مهامه في المحكمة الربية بالرباط وسلا، وكذا على مضمون فتاويه الشرعية التي تخص احوال يهود المغرب..

وقد اشتهرت مؤلفات اخرى في المغرب،وكانت لها نفس اهمية مؤلف «اورحاييم» من بينها كتب لم تنشر،مع انها تستحق ان تكون من بين امهات الآدب الربية المشهورة ولنذكر بعض مؤلفات التفسير التوراتي والتلمودي وبعض التعاليق والحواشي، وقد اخذناها من جذاذاتنا جزافا،دون ان نختارها اختياراً.

- مِلِيخِتْ هَاقُودِشْ / موسى توليدانو، (ليفورن 1803)
- مِيشْمِيرِتْ هَاقودِشْ / حاسداي اي الموسنينو، (ليفورن 1825)
- دِبِير شِيمُوئِيلْ / صموئل هاسرفاتي، (امستردام 1699)
- مِكّنْ كِبُورِيمْ / ايليعزر دافيلا، (ليفورن 1801—1805)
- مُورْ دِرُورْ / اموردوخاي عطية، (ازمير 1730)
- رُوشْ مَاشْبِيرْ / موسى بَردوكو، (ليفورن 1860) الخ.

III الآداب الشفوية الشعبية والعامية

1 - الكتابي والشفوي

اذا كان ادب اللغة العبرية المتعلق، بصفة عامة، بالمعرفة الكتابية وعلم صفوة المجتمع المثقف يكاد يكون مقصورا على الرجال، فان الابداع الادبي العامي يخص الجميع. ويهم عامة الذين لم يكن لهم الا حظ قليل من المعرفة او اولئك الذين تلقوا تعليما بسيطا، وبالاخص النساء والاطفال. ويساهم كل من الادبين مع ذلك، في نقل المعرفة والاعراف والعادات. ويؤديان على مستويات ودرجات متباينة، نفس الوظائف التعليمية والتربوية والشعائرية. ويبقى الادب الشفوي الحارس الامين على التقاليد غير المكتوبة، ويكوّن الاداة المثلى للاعلام ويملك بالاضافة الى ذلك، في بعض مظاهره الدنيوية، فضيلة فريدة من نوعها، الا وهي القدرة على الانصهار والاندماج، كما تشهد على ذلك عدد من المقطوعات. غير انه يصعب التخلص من الانطباع الذي يوحي بأن هناك فاصلا بين ما هو «مكتوب» باللغة العربية وما هو «شفوي» باللغة العامية. اذ تستعمل العبرية لغة الكتاب المقدس والشعائر، للاتصال بالخالق، وتتم عملية الاتصال ما بين الناس وفي الوسط العائلي ومع الاقرباء باللهجة اليهودية - العربية، واليهودية - البربرية و(الحاكتية «اليهودية الاسبانية» في المجتمعات المتكلمة باللغة الاسبانية)ولذلك يعتبر الادب الشعبي الملحي مرآة تعكس حقيقة المجتمع. انه التعبير العميق عن الروح ومظاهر الحياة اليومية الدنيوية، بل الدينية، وعن كل ما هو ممنوع او يستحيل الحديث عنه باللغة المقدسة.

ويكون الادب العامي، اساسا، شفويا، واذا كان مكتوبا فهو يأتي عرضا او بالمصادفة، ويكتب لكي لا ينسى، او نتيجة لظروف خاصة، على يد ناسخ مسلم بالحروف العربية، او على يد خطاط يهودي بالحروف العبرية.

ويشكل الادب الشفوي مادة هائلة، من الصعب الاحاطة بها. وموضوعه الفولكلور، ولكنه يمس كذلك القضايا الاجتماعية والاتنو - انتروبولوجية، بل التاريخ ايضا. وكل ما قيل واحتفظت به الذاكرة الجماعية، ينتمي الى مجاله الواسعوعلى الرغم من ان هذا الادب يعتبر دائما عاميا، فهو ينتعش باستمرار من ابداع الادباء ويتمثل هذا الابداع بسرعة كبيرة. وعليه يمكن ان ندعي، ونحن على حق، بان الآداب الشعبية تحفظ وتنقل كذلك ارث الثقافات العتيقة والابداعات الحضارية التاريخية. مع ذلك فإن هذه الآثار الباقية،وهذا الارث لابد من ان يتقيد ببعض القواعد ويراعي سير العقليات الشعبية. ولقد سمح تماثل البنيات العقلية للسكان اليهود والمسلمين، عربا وبربرا، في المغرب، بميلاد ادب وفولكلور امتزجت فيهما روح الثقافة اليهودية والارث العربي - البربري، في ابداع اصيل.

ولنذكر هنا، ان الآثار التاريخية الهامة الشفوية والعامية، وقصص الانبياء في «الهاكّدا» اليهودية، والقصص الاسلامية، كلها تنتمي الى الذاكرة الجماعية للعالم السامي، وقد جمعت بصيغ متعددة ومتنوعة، وصيغت انطلاقا من تقاليد كتابية سابقة. ولنذكر على سبيل المثال الحكايات الاسطورية المنتشرة حول حياة ابراهيم، وقصة يوسف وموت موسى ومحنة ايوب في الشرق والغرب وفي مختلف اللهجات الاتيوبية والقبطية والعربية والموريسكية والبربرية.

ويكشف تحليل المقطوعات الشعرية وبعض النصوص الوثائقية عن قوة ايحائية لا متناهية، وفكر عميق وانفعالات متأججة واقتباسات غنية وعبارات مشحونة بالمعاني، ومفاهيم تتعدى حدود النص الى عالم من الرمز والمجاز اكثر تلميحا، والى تقاليد ادبية وبيئة ثقافية. وكلها تبعث فينا الشعور بالمتعة عندما نكتشفها. وكل عنصر، وكل كلمة من هذه الثقافة المعبرة عن كوامن النفس تشكل صدى يجيب مباشرة او تلميحا عن باعث وعن حاجة للقول والافصاح. ونلاحظ من جهة اخرى، في هذه الآداب الحرص الشديد على ادخال العنصر الغريب، واحيانا الاسطوري في البيئة المغربية وفي تقاليد الوسط، والاهتمام بالانتساب الديني، وذلك بادخال حدث من الاحداث واشخاص أجنبية في البيئة المحلية حتى تجعل من احداث التاريخ القديم احداثا مألوفة. وهكذا نجد في ادبنا اليهودي المغربي ابطالا مثاليين من التوراة واولياء ومحققي معجزات من فلسطين، مثل مردخاي في قصتنا المغربية «مِي كَمُوخَ» (مَنْ مثلك) ايوب في قصتنا التاريخية، وبريوحاي في قصة تنغير الخ... وفي مشاهد «هَكَدَتْ» (بصاح) مثل («شِيفُوخ» وهي صيغة فعلية لا اقل ولا اكثر، ولكنها اصبحت في هذه الآداب، في الخيال الشعبي، احيانا تمثل شخصية وليّ مشهور، واحيانا شيطانا مارقا). وتعتبر ترجمات التوراة في حد ذاتها، رؤية محلية اصيلة لنصوص الكتاب المقدس، وأسلوبا خاصا لقراءة هذه النصوص وتصورها وتأويلها. وقد ادمجوها كما هي، في اطار ظروف العيش وفي المحيط اللغوي والاجتماعي – الديني وفي البيئة الجغرافية – السياسية.

ويحكي كلُّ نص من هذه النصوص، تاريخا قائما بذاته. وتتضح هنا الهيمنة الدينية التي سبق ان اشرنا الى سيطرتها على كل الابداع الشعري العبري، في الانواع ذات الطابع التربوي والتعليمي، بصفتها اداة مساعدة في التعليم المدرسي التوراتي والتلمودي، وهذا التعليم الذي يستمر لتوعية البالغين عن طريق الارشاد، وبواسطة الادبيات الاخلاقية والوعظية. وتبلغ هذه الهيمنة اوجها في الادبيات الطقوسية. وتُعطي للاحداث، بصفتها تاريخا انسانيا، في هذا الابداع، اهمية كبرى. وزيادة على كتابات التاريخ الحقيقية، فان اشعار المدح وسير الأولياء، واكثر من ذلك، المراثي والبكائيات، تستقي احداثها من مصادر تاريخية حقة. غير ان الحقائق التاريخية لا تلبث ان تضطرب بفعل الذاكرة الجماعية، وتتحول عن طريق الخيال الشعبي،

فتصبح في فترة زمنية معينة في مصاف الاساطير والخرافات. وتبدأ الاسطورة انطلاقا من اضطراب السرد التاريخي الناتج عن تداخل العهود وخلط التواريخ. وتتكاثر المفارقات التاريخية، في «قصة ايوب»، كما هو الشأن بالنسبة لنصوص اخرى. وهكذا جعلوا من ايوب البطل التوراتي، معاصراً للآباء (ابراهيم واسحاق ويعقوب)، ومستشارا في بلاط فرعون زمن موسى، كما جعلوه معاصرا لزمن داوود،وملكة سبأ،وكذا ملكة اسوريس، وعدوه من بين العائدين من سبى بابل، واعتبروه مؤسسا للاكاديمية في طبرية... وكان كل هذا الادب، بما في ذلك الذي اعتبروه منه فلكلورا، وهو أدب لم يكن يقصد منه في الاصل الا التسلية والفكاهة (مثل مقطوعات«بوريم» الفكاهية) يحرص على توعية مستمعيه ويساهم في تنويرهم.

ويكفي ان نذكر بسيناريو خطوبة الطفولة في الكُتّاب، والاحتفال المهيب الذي يقام بمناسبة «بَرْمِصْواهْ»، حيث تكون «الخُطبة» التي يلقيها اليافع الذي بلغ سن الرشد الديني، العنصر الاساسي في هذا الاحتفال.

ويحدث كذلك، في حالات كثيرة لاتكاد تصدق، ان تنتقل الآداب اليهودية العامية من مجال المقدس، لتتناول انواعا ومواضيع اخرى تتعدى المجال الديني والشعائري، فتتناول مواضيع الآداب العامية المشتركة في المجتمع اليهودي والاسلامي،حيث لا نلمس اي شيء يذكر بالاصل الديني او الاثني.

ويعد هذا الادب افضل ارضية تلتقي فيها المجموعتان، وتحققان في هذا المجال الثقافي بالضبط مساواة حقيقية. وفي هذا النوع من الادب تذوب حدود الدين والفواصل الاجتماعية والثقافية، وبواسطته يتم الاتصال السهل بين الطبقات الشعبية، وفيه ايضا يتم ابداعهم الفلكلوري المتبادل.

ويعوض فيه حوارُ الثقافات المجابهاتِ الايديولوجية (الوطنية) والشعور الديني. ومما لاشك فيه، فان المجموعتين تعيشان في تباين ديني، وكل منهما غيورة على هويتها، متشبثة بايمانها ومعتقداتها، ولكنهما يلتقيان في نفس الاسلوب، للتعبير عن افكارهما، ويتشابهان في عقليتهما ويتعايشان معا في سلام.

2 – المواضيع والانواع

ويحتل هذا النوع من النشاط الثقافي مكانة مرموقة في المحيط الثقافي لليهود بالمغرب كما تشهد على ذلك الدراسة التي نشرناها في مختلف النشريات الاستشراقية، وعلى الخصوص،

الدراسة التي انجزناها مع P. Galand حول التراث اليهودي – البربري خلال الف سنة ذاك الـذي ظل مغمـورا الى يومنـا هذا [12] وكـذلك في مؤلفنا الأخير الذي خصصناه للآداب الشعبية [13] بين عديد من طرق القول كل منها يناسب الوظيفة التي خصص لها، وبين نماذج من الخطاب والابداع الذي قيل في مختلف المناسبات، وانواع من المواضيع المختلفة، ومع ذلك فلكل منها حظوته سواء في اوساط المتأدبين او لدى الجمهور او عند عامة الناس.

ونذكر من بين المواضيع الاساسية اليهودية المحضة ترجمات العهد القديم باللغات اليهودية – العربية، واليهودية – البربرية و(اليهودية القشتالية في المجتمعات الناطقة بالاسبانية والمنحدرة من «المكّوراشيم» (المهجرين من الاندلس)، وترجمات فصول من المشنا، (وخصوصا هاكَادَاة «البيساح» (قصة الفصح) و«بِيرْكِي أَبُوتْ (فصول الآباء) والمقطوعات الشعائرية، ونصوص السير التي تمجد اولياء فلسطين مثل (الربي سيمون باريوحاي والربي مير) او قبور الاولياء المحليين المتعددة التي تتم زيارتها في مناسبة الهيلولا والزيارات الموسمية، والامداح والاغاني والبكائيات التي ترافق رتابة الحياة العائلية، وتعلن عن الافراح او ايام الحداد، وفصولا كاملة من «الهَالاَخَا» الاحكام التشريعية والفقهية وادب الوعد والوعيد الوعظي الشعبي والنصوص الكاريكاتورية والمحاكاة الساخرة التي تميز فلكلور عيد «الپُّورِيمْ»او شعائر احتفالية اخرى. واذا انتقلنا الى الادبيات الدنيوية، وهي مجال ثقافي لايعرف التفرقة الدينية، بل يعتبر ارضية المساواة والاتفاق، حيث يلتقي اليهود والمسلمون، ويقتسمون نفس الاهتمامات وتركبهم نفس الدوافع، فإننا نجد الشعر البربري والعربي والملحون والموشحات و«العروبيات» والمقطوعات العربية شرقية واندلسية ومحلية، وقد ساهمت جميعا في مجال الموسيقى الاندلسية، وكل هذه على كثرتها، مهما بعدت او قربت، نجد نماذجها مذكورة في بدايات اشعار «البيوط» لتتخذ نموذجا للابداع الشعريالعبري نفسه، وللموسيقى اليهودية الدينية والدنيوية، سواء في شعر «البيوط» او الاغاني الشعبية. وهي تشهد على الثقافة العريضة، ثقافة حوض البحر الابيض المتوسط، شرقية ومغربية، تلك التي كانت تتمتع بها طوائف اليهود في المدن الكبرى،او في الملاحات الاكثر بعدا مثل ملاحات الاطلس وتخوم الصحراء.

ونضيف الى كل هذه الادبيات، عالم القصة والخرافة العجيب والمثير، وعالم الامثال الجدية والهزلية، والحكم الشعبية، وادب المراسلات، وانواعا اخرى تهم اليهود والمسلمين معا وخصوصا النساء والاطفال، واخص بالذكر منها : «اسْلاَمَاتْ» (مراسلات وغزليات خفية)

12 - Une versionberbère de la Haggadah de Pesah, texte de Tinrhir du Todrha, 2 volumes, Paris, 1970

13 - Litteratures dialectales et populaires juives en Occident Musulman, Paris 1980 de XX et 440 pages avec 12 Fac-Similés.

الالغاز والاحجيات، و«لْمَعَانِي» (الغاز لغوية) و«الْمَعْيَارْ» (الشتائم) و«لْعْيُوغْ» (اغاني المناسبات، وهي على العموم مقاطع مرتجلة هزلية وتهكمية)، و«لْغْنَا» «اغنيات المهد، واغاني الارجوحة» (مَاطِيشَا عند المسلمين وسَابُوكَا عند اليهود) واغاني غيرها تصاحب العابا اخرى. «وذْعَا» (التضرع الى الله والملائكة وأعلام التوراة واولياء فلسطين وقبور الصالحين المحليين) وانواعا من القصص التاريخية (خرافات وحكايات)، واغاني ذات طابع جدلي او سياسي، وضعت في مناسبات الحروب او النضال ضد مختلف غزاة البلاد الخ...

3 – مقاطع من بعض النصوص النموذجية

أ – «مِيكَامُوخا» (مَنْ مِثْلُك)

وهي مقطوعة شعرية بالعبرية – العربية، ليهودا هاليفي المولود في سنة 1085. وهو شاعر وفيلسوف عاش في العصر الذهبي الاندلسي. و«المِكَامُوخا» (من مثلك ؟)(الخروج 11, XV)مقطوعة شعائرية تقرأ في البيع اثناء قداس صباح يوم السبت الذي يتلوه عيد «البوريم». ويحكي فيها الشاعر بطريقته الخاصة قصة «استير» التوراتية. وتتضمن المقطوعة بالاضافة الى مقدمتها العبرية اثنتين وثمانين رباعية. وينتهي الشطر الرابع من كل رباعية بتضمين توراتي. وتبلور الترجمة التي نشرناها طبيعة اعتماد الشاعر الكتاب المقدس وطبيعة التفسير الذي تعطيه مقطوعاتنا اليهودية – العربية لتلك التضمينات.

وها هى ترجمة الرباعية 6، 38 و48

النص باللهجة العربية العبرية — الترجمة العربية

6 – وُكَانْ فْيُومْ أشَاشِيرِ (وكان هذا في عصر اشاشير)
سلْطَانْ وْقَفْ عْلَ كُلْ بَقَّاشْ وْأمِيرْ (ملك يسود النبلاء والامراء)
عَالِي وَمْرَفَّعْ عْلَ كُلْ قَايْدْ ووْزِيرْ (وهو اكثر شموخا واكثر مجدا من كل قائد ووزير)
لله نْجاح إلْو (يارب نجحه واعنه)

إشْرَاتْ أسْتِيرْ خَبْرُوهَا لَكْلاَمْ (وترفع وصيفات استير الى استير الخبر)
سْمَعْنَا عِيطًا كيفْ النْعَامَا فَالْمَدْبَار (لقد سمعنا صياحا مثل صياح النعامة في الصحراء)
مَرْدْخَاي بَالْبَاسْ التّلِّيسْ دَازْ مْغَنْبَرْ(لقد مر مردخاي وعلى ظهره بردعة)
لأَيْش عْرَفْنَا إسْ كَانْ إلُو (لا ندري ماذا حدث له)

لْمَزْيَانَا في النْسَا، عْرِضْ النّعْمَانْ لَخْضَرْ (آه يا أجمل النساء، ياغصن شقائق النعمان)
إشْ طَلْبْتِكْ إنْ كُلْشِي مُوجُودْ وُمْحَضّرْ (ما ذا تطلبين؟ الكل طوع ارادتك)
وْقَالَتْ إجِي السّلْطَانْ وُهَامَانْ لَعْوَرْ (وقالت ليأت السلطان وهامان الاعور)
الْمَجْلِيس ادّي عْمَلْتْ إلُو (الى مجلس الشراب الذي اعددته اليه)قصيدة من ميكاموخا104

ب - قصة سيدنا ايوب

وهي كذلك مقطوعة شعائرية، ويتم ترتيلها عموما في فترات «الشُّؤْمِ» تتقدم احياء ذكرى هدم القدس في 9 آب. وتتضمن ثمانين رباعية باليهودية - العربية.

وتحتل شخصية ايوب مكانة ممتازة في الادب اليهودي التوراتي، وأدب ما بعد التوراة (سفر ايوب والتلمود والمدراش وعهد ايوب الخ...)؛وقد افاض المفسرون المسلمون في تناولهم لبعض الآيات التي خصها القرآن لايوب والحديث،واكثروا من التفاسير وذكر الاخبار العجيبة التي استوحوا اكثرها من الكتابات الربية ويقدم نصُّنا اليهودي - العربي،قصة ايوب كما استوحاها من الادب اليهودي،ومن التقاليد المحلية والعربية الاسلامية معا. ويعرض بالتتابع شخصية ايوب الاسطورية ،وشخصية الامير البدوي، والحملة التي قادها الشيطان ضد هذا الحكيم، وشخصية «الزوجة الوفية والمتفانية»، والتردد المحتشم لاصدقاء ايوب، وآلآمه، وعلى الخصوص الجزء الخاص بالدود (الحشرة التي تأكل اللحم والعظام) و«عودة» ايوب، وهي موضوع العفو الالهي، حيث يجد ايوب شبابا جديدا، كما تعود اليه شهرته وثروته التي تضاعفت، وبناته وأولاده الذين يتمتعون في قصتنا بعناية فائقة.

وها هي بعض ملامح شخصية رحمة (التي لم يرد ذكرها في التوراة) كما جاء ذلك في مقاطع 29 الى غاية 41 (نص) :

29 - رَحْمَه زُوجْتُ هِيَ مُولاَتْ لَحْسَبْ
(رحمة زوجته هي ذات الحسب)
تَخْدَمْ بْلُجْرَا وَتْجِيبْ لَحْطَبْ
(تعمل بأجرة وتأتي بالحطب)
وَتْضَلْ تْشَاشِي عْلَى بْنَاتْ لَعْرَبْ
(وتظل تستعطف بنات العرب)
مَرَّ تَنْذَلْ وُمَرَّه تَنْحَقَرْ
(مرة تذل ومرة تحتقر)

● ● ● ●

35 - نَضْرُهَا دَخْلَتْ وُهِي تَضْوَي كِيفْ ضِي لَهْلاَلْ
(رأوها لما دخلت وهي تضيء ضي الهلال)
قَالْتَ وَحْدَ مَنْهُمْ وَاشْ هَذْ لَكْمَالْ

(قالت احداهن ما هذا الكمال ؟)
لَوْ كَانَ تْبِيعْ لِي شْوِيَ مَنْ دَاك اذْلاَلْ
(لو بعت لي احدى هذه الظفائر)
نَعْطِيكْ خَبْزَة وَصَاعْ مَنْ التَمْرْ
(اعطيك خبزة وصاعا من التمر)

● ● ● ●

يَا حْصَرا قَطْعَتْ ذَاك الشْعَرْ لَمْخَالْفْ
(واحسرتاه، لقد قصت ذاك الشعر الكثيف)
قَطْعُوه دُوكْ انْسَا وْعَمْلُوهْ سْوَالَفْ
(قطعنه اولائك النساء وجعلن منه ظفائر)
عَمْلُوهْ فْرُوسْهُمْ مَا بَايْوَالْفْ
(وضعنه فوق رووسهن فابى ان يستقر)
وْصَارْ يِطِيرْ كْمَثْلْ لَطْيَارْ
(واخذ يطير مثل الطيور)

● ● ● ●

اما بنات ايوب فقد جاء وصفهن في خاتمة (المقاطع 72/74) :

73 – مْلِحَاتْ فَي الزّينْ وَالزْوَادْ
(جميلات في الجمال كرائم في الكرم)
مَا كَانْ مْثَلْهُمْ فزْمِيعْ لَبْلاْدْ
(لا وجود لمثلهن في كل الدنيا)

● ● ● ●

74 – وْسَمّْ (ايوب) وَحْدَ بَالسّْمْسْ وْلَقْمَرْ
(وسمى اولاهن الشمس والقمر)
وْلَخْرَا عُودْ الْقَرْفَ والْعَنْبَرْ
(والاخرى عود القرفة والعنبر)
والتّالْتَ قَرْنْ غْزَالَ مْدَوّْرْ
(والثالثة قرن غزال مستدير)
مْثَلْهُمْ فَزّينْ مَا كَان يَا حَضّارْ
(مثلهن في الجمال لا وجود له يا من يستمع الي)

جـ - نصان ساخران : «لَكْتُوبة» (عقد الزواج) و«الهَاشْكَابَاه» (صلاة الموتى) على هامان.

تقدم هذه المقطوعات في عيد «اليوريم»، ويقصد منها الترفيه عن الجمهور. كما تدل على معرفة لا يستهان بها بالاساطير اليهودية القديمة المتعلقة بقصة إستير التي تستقي مصادرها من الكتب المقدسة والتلمود والمدراش. فتفسر وتضخم احداثها، واحيانا تحرف، لكي تتكيف مع المناسبات وظروف العيش المحلية.

وتطلعنا على بعض الاعراف والعادات التي كانت تساهم في احياء ذكرى هذه الفترة العظيمة من تاريخ اليهود، في المغرب الى عهد قريب.

د - النمرود وابراهيم في العامية اليهودية - العربية بدبدو (المغرب)

بالرّغم من التحريف والاختصار الذي الحقه الراوي برواية «حكاية النمرود وابراهيم» فان هذه الحكاية لازالت تكتسي بعضا من اهميتها، وذلك لانها تعتبر دليلا آخر على انتشار حكاية يتكوّن محتواها من عناصر مستوحاة من الادب الاسلامي، لدى الاوساط اليهودية وبالخصوص لدى الاحبار.

هـ - قصة يوسف الصديق

نحن هنا ايضا، امام مقطوعة شعرية اغتنت قصتها التوراتية بعديد من العناصر المستقاة من الحكايات اليهودية (مِدْرَاش والهَاكَادَاهْ)، والقصص الاسلامية، مثل قصص الانبياء التي هي بدورها مقتبسة من الآية القرآنية (سورة XII) انها نظرة شعبية لشخصية مقدسة من الكتاب المقدس - قصة يوسف واخوته - . و تعرف عدة روايات شفوية يحكيها الرواة، او تحتفظ بها نصوص غير منشورة او نشرت في اوراق منفصلة طبعت وانتشرت بالحروف العبرانية في المجتمعات اليهودية الشرقية والمغربية، وبالحروف العربية لدى مجموعات اسلامية محدودة. وبالاضافة الى هذه التباينات الواضحة بين قصص الكتب المقدسة (التوراة والقرآن) والروايات الشعبية المعروفة (اليهودية والاسلامية بل المسيحية - الشرقية) فانه من المفيد ان تخضع كل هذه النصوص الى تحليل بنيوي تبعا لمناهج البحث العلمي الحديث، وعملية مثل هذه، قمينة بان تحمل الكثير من المعلومات المفيدة حول اسسها السامية، ومكونات مدلول الخطاب التوراتي والقرآني.

و - موت موسى

تردد هذا الموضوع كثيرا في الآداب الوعظية اليهودية «مِدْرَاشْ وهَكَدَا». كما خصص له «البُيُوطْ» (الشعر) العبراني الفلسطيني العديد من مقطوعاته التي صورت اللحظات الاخيرة من حياة موسى، ووصفت صراعه مع الموت واعتراضه العنيف على قضاء القدر الذي حرمه من انهاء مهمته ودخوله الارض الموعودة. وجاء ذكر موسى كثيرا في القرآن، ويعد نبي الله موسى، لدى المسلمين، شخصية عظيمة، الهبت خيال الرواة والشعراء، وخصصوا له كثيرا من الحكايات نثرا وشعرا. وقد تناولت كثير من النصوص العامية العربية المغربية موضوع موت موسى. وتوجد منها روايات يهودية جمعناها بأنفسنا، منها ما هو شفوي، ومنها ما هو مكتوب بحروف عبرية، وكلها تتناول، على نحو ظاهر، نفس الموضوع : اللحظات الاخيرة من حياة موسى.

ز - بكائيات يهودية - عربية حول احداث اجتياح قبيلة الاوداية لفاس الجديد

بين ايدينا «قينة» (بكائية) تصف بإيجاز، وتتدمر من احدى تمردات لوداية المتكررة ضد السلطة المركزية في بداية القرن 19، وتتعرض بالاضافة الى ذلك، لاحد هجومات رجال هذه القبيلة على ملاح فاس، وهي حلقة اضحت عادية في تاريخ هؤلاء السكان.

وتتضمن هذه الوثيقة بعض المعلومات عن ثورة القبائل، وهروب السلطان وانتظار عودته المقلق، وحصار المدينة، وقصفها، ونقص بعض المواد مثل الصابون، وندرة الطعام، وحالة اليهود المادية، والازدهار الذي كان يسود لدى طبقات الاعيان الاغنياء في فترات الهدوء والسلم العادية. كما تتعرض لحاجة السكان المحاصرين والاعمال الشاقة التي يرزحون تحتها (المقاطع من 4 الى 26).

وهذه بعض مقتطفات منها (المقاطع 9 و12 و18 و22).

9 - وُخَرزَتْ لُودَيَا وْقَالُو هَا هُمَا لِينَا
(هَمَّ رجال الاودايا وقالوا ها هم في قبضتنا)
12 - فَسَبْتَ كَالْسِينْ كُلْ مَنْ هِي ثْقِلاَ وْسَمِنَا
(كان السادة والاغنياء جالسين جميعا يوم السبت)
عِينْهُم فَاسْمَا تَسْمَع غِيرْ هَاهَا وْهَاهَا

(عيونهم مشدودة الى السماء ولا يسمع الا آه آه وآه)
18 - وَنْقْطَعْنَا فَاسْمَنْ وَالِزّيتْ وَلُو سَخَابِنَا
(نفذ السمن والزيت وعمتنا القذارة)
والصَّابُونْ فَايْنْ هُوَ وشْكُونْ هُوَ مَنْ رَاه
(اين الصابون اين؟ ومن الذي رآه من؟)
22 - يَا خصرَ عَلَى يْهُودْ فَاسْ جْمِيعْ رْجَالْ وَنْسَا
(واحسرتاه على يهود فاس جميعا، رجالا ونساء)
تَحْسَبْ عَنْدْهُم لَعْرَاشْ الْبَابْ دَيْمَا مْفَرْسَا
(تظن انهم دوما في اعراس، وابوابهم دائما منضدة)
سِي فَالْهَرْيَانْ وُسِي مَخَبَّعْ فَالْحَبَاسْ وْكُلْ وَاحَدْ فْدَارُو مَرَّصَا
(مِنْ هُم من اختبأ في الدهاليز ومن هم من اختبأ في المحابس ولم يترك اي منهم داره)

حـ - الشعر العامي (لَقْصِيدَةولَغْرُوبي) قصيدتان فريدتان من نوعهما يهوديتان اسلاميتان : «الْمَحْبُوبْ» و«لْقَفْطان».

القصيدتان معا من الادب المغربي العامي الشعبي المشترك في المجتمعين اليهودي والاسلامي. وهو ادب لا نلحظ فيه اي شيء يذكِر بالاصول الدينية او الاثنية، اذ يلتقي فيه اليهود والمسلمون ليرفهوا عن انفسهم ويتغنوا محاسن المرأة ومشاعر الحب ونشوة الخمر.

- المحبــوب

اذا كانت القطعة المخصصة «للقفطان» لازالت تحتفظ ببعض خصائص الادب الاندلسي اليهودي، فان المقطوعة المخصصة «للمحبوب» البعيد، ولموضوع الفراق والبَيْنِ وانقطاع الوصل، لاتتضمن اية سمة من السمات التي نلحظها عادة في اللغات اليهودية بالمغرب. ولا نرى فيها خاصة اي ظهور لاية عبارات يهودية عبرية - آرامية، ولا اي عنصر اجنبي، وخصوصا من القشتالية، كما نجد ذلك عادة في نصوص اخرى. وناظم القطعة هو شاعر شعبي مغربي عاش في اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. انه عبد القادر العلمي المعروف بسيدي قدور. ولقد وصلتنا منها روايتان لم تنشرا بعد، احداهما بالحروف العربية، والاخرى بالحروف العبرية، مع بعض الاختلافات في النصين.

وتؤول هذه القصيدة مجاز، مثلها مثل معظم قصائد الملحون الدنيوية، وعلى غرار العديد من المقطوعات الخمرية والغزلية، على انها مدح للنبي محمد. وها هي اللازمة التي يطلق عليها في المصطلح العربي «الحربة» من النص العربي الذي يتضمن تسعة مقاطع :

كيف إيوَاسَي اللي فْرَق مَحْبُوبُو وابق بلا عقل امْرِيدْ
كيف جْفَانِي احبيب قلبي ما خَلاً غير صورتو وانعاتو واخيالو
أمل لا عَمْرِي انطْرِتْ زين فلبدور بحالو

ويبدو ان الشاعر اليهودي قد كتب قصيدة سيدي قدور من الذاكرة بالحروف العبرية كما سمعها وتغنى في المجتمع الواحد اليهودي والاسلامي بالمغرب، وهو مجتمع تنتشر فيه الصناعة الشعرية والاغنية الشعبية (الملحون) والقصيدة الكلاسيكية (الموسيقى الاندلسية) شفويا. وقد اختار منها اربعة مقاطع هذا اولها :

مَا صَبْتْ حِينْ وَدَّعْنِي مَحْبُوبِي مَا نْقُولْ /دَهْلُو جْوَارْحِي وَاثْقَالْ لْسَانِي، سِيدِي سِيدِي،
وَارْتْخُو عْرُوقْ بْدَانِي.
وَهَطْلُو بَالدْمُوعْ عْيَانِي.
لاَكْوَافِي، حَتَّى جَانِي فْلُونْ قَانِي
وْحِيَّانِي بَالسْلاَمْ. وَكْلَسْتْ شَطْبْتْ كْعَادُو، مْنَايْنْ شَفْنِي مَلِّي نِيَّمْ شْفَرُو وْقَالْ لِي وَدَّعْتَكْ
يَاسِيدِي بَعْدَ كُنْتْ نْوَدَّعْ رَاسِي، بَاسْ مْلَكْنِي وْحَازْ عَقْلِي وَمْسَى فْحَالُو
اَمَلاً عَمْرِي نْظَرْتْ حْبِيبِي فْلَبْدُرْ
أمْزِينْ صُورْتُو ونْعَاتُو وخْيَالُو

– القفطـان

والقصيدة الثانية،قصيدة القفطان، هي عبارة عن موشح ذي لازمة من النوع الشعري المغربي المسمى بـ«لَعْرُبِي». وكان مقصورا على القول في النساء، ويهدف الى اثارة مشاعر الحب. وكان اهل المدن يغنون العروبي في نزهات الربيع وفي البساتين والبوادي. وتتضمن القصيدة سبعة عشر مقطعا (مقطع ثلاثي وعشر رباعيات وخمس خماسات) ولازمة من ثلاثة سطور تنتهي بكلمتي «عود» ومحبوب.والموضوع الرئيسي لهذه القصيدة هو القفطان وانواعه والوانه ورموزه وميتولوجياته. ويعتبر القفطان قطعة تقليدية من ملابس الرجال، غير انه اصبح بالخصوص من اهم زينة المرأة، وهو يكون اما من الحرير المقصب والمطرز بخيط الذهب،

واما من المخمل والديباج المزين بشرائط من الفضة والذهب. وهو بذلك يعد من الالبسة الفاخرة. وقد يكون من الكتان الرهيف المزين بخيوط ملونة، فيظهر آنذاك اكثر تواضعا وبساطة. انه لباس الاحتفالات والاستقبالات الكبرى العمومية او اللقاءات العائلية الخاصة. ويشكل القفطان ملابس الشابة والعروس والزوجة والعاشق والعاشقة. ويقال، إن الفضيلة و الرذيلة تسكنان في اذياله المذهبة والمدبجة. ولانه معقود بالف عقدة وعقدة، ولانه خيط بخيط الحرير، فهو حصن العفة والحياء والوفاء الصادق. ويغري انفتاحه المقصود القلب الولهان، ويفتن العاشق الثمل بنشوة الرغبة التي يلهبها. ونضيف الى ذلك ان لونه وغنى نوعية مادته وزخرفته التي تتنوع تبعا للفصول والذوق والغرض الذي اعدله، تكون كلها عالما ايحائيا بل رمزيا مجازيا، حيث تسمى الاشياء اسما مثل : «اتركني اهواك» «الثلج فوق الجبل» «لَحْيَةْ سيدي محمد» «ايتها الحمامة الحلوة» «ارجل الزوج المخذوع في الدرج» «الفأس في رأس الحماة» الخ..

واليكم مقتطفا من هذه القصيدة (اللازمة والمقاطع الاربعة الاولى):

القفطــان

اَدّيِنِي عَلّْمْنِي الْعُود (خذني علمني العود)
أصَابِي عَلّْمْنِي الْعُود (ايها الفتى علمني العود)
بَاسْ يَزْهَالِي كَاسْ الْمَحْبُوبْ (لكي يحلو لي كأس المحبوب)
اَحْمَامْ ارْوَايَحْ (يا حمام الرياح)
قَبْضُو صفايح (انشر جناحك)
لَسْلاَ ثميَاخْ (لتطر الى سلا، سلا المنهل العذب)
غْزَرَا كَتْعُومْ... اديني (فتيان تسبح... خذني)
حْمَامْ اسْوَاقْ (يا حمام الشوق)
او يا حمام الاسواق؟
انْتِ يَا خْمِقَا (انت ايتها الحمقاء)
ازْهَرْ فَطْوِيقَا (الازهار في النوافذ)
والْوَرْدْ فَلْبِرِيقَا (والورود في المزهريات)
ولْعْرَايْسَ كَتْعَومْ.. اديني (والعرايس تسبح... خذني)
اديني... (خذني)

قَفطَانْ زْبِيبِي (قفطان بني قان)
وَلْبَسُو خْبِيبِي (ارتداه حبيبي)
وزِينِي لْدَارِي (وسياتي الى داري)
خَمْستَاسْ اليوم... اديني (وسيغشاني خمسة عشر يوما)
قَفطَانْ زَنْزَارِي (قفطان مبرقش)
وْلَبسُوا زَارِي (ارتداه جاري)
ودِينِي لْدَارِي (وسيأتي لداري)
خَمْستَاسْ الْيُومْ... ادنين (وخمسة عشر يوما سيغشاني... خذني)

جـ - حكايتان من سير الاولياء
- الربي يعقوب بن شبت والاسد

تحكي الحكاية الاولى القصة العجيبة التي حدثت للربي يعقوب هاليفي بن شبت المولود بالصويرة،والذي مات بعد ان بلغ مرتبة الاولياء في منتصف القرن التاسع عشر. وكان النص مكتوبا باللغة العبرية،ضمن منتخبات شعرية،وتمثل الشاعر نفسه،بطل القصة التي تسمى «يَاكِيلْ يَعْقُوب» (سيبتهج يعقوب)،وقد طبعت في ليفورن سنة 1881/7. وتوجد منها، بالاضافة الى النسخة العبرية، نسخ متنوعة باللغة اليهودية - العربية، في طبعات شعبية مختلفة.«سافر الربي يقعوب مرة الى جنوب المغرب مع قافلة كبيرة يبلغ عددها ما يقرب من ثلاث مائة رجل يهودا ومسلمين. وكانت القافلة متجهة الى احدى المدن البعيدة التي تقع على بعد خمسة عشر يوما من نقطة انطلاقها، وقد عبرت اماكن يغشاها قطاع الطرق وترتادها الفياليق (هكذا) والحيوانات المفترسة. واستطاع المسافرون ان ينجوا من كل هذه الاخطار التي كانت تهددهم في كل حين، الى ان حل يوم من ايام الجمعة، عشية ليلة السبت، وفي وسط النهار، اخبر الربي يعقوب القافلة، وخصوصا المسافرين اليهود، بانه قرر ان يتوقف في الطريق، لانه يجب عليه ان يستقبل «قداسة السبت».

وحاول مرافقوه اليهود عبثا، أن يصدوه عن فكرته، وان يقنعوه بخطورة الانفصال عن القافلة والوقوف في مكان غير آمن. غير انهم امام عناده، تابعوا طريقهم وتركوه لمصيره. وعندما بقي وحيدا، التجأ الى مغارة، وحضر طعاما خفيفا للوجبات الشعائرية الخاصة بيوم السبت. وقبل غروب الشمس، اشعل شمعتين احياءا لليوم المبارك، ثم بدأ صلاة المساء، صلاة «عِرْبِت» (المغرب). وعندما وقف لاداء «العَمِيدَة» (جزء من صلاة اليهود يتلى وقوفا)

لاحظ على بعد اثني عشر ذراعا اسدا عظيما يقف امامه، ونفذ رعب هائل الى قلبه وزعزع فكره الى حد انه توقف عن الصلاة. وظهر في نفس اللحظة وجه في صورة انسان، وقال له : «لماذا استولى الخوف على قلبك، لا تخش شيئا انه جاء ليحرسك من كل شر وليؤمن امنك،وليحملك سالما الى المكان الذي ترغب الوصول اليه. وبمجرد ما سمع هذا الصوت هدأ خاطره، وانتظر في هدوء وطمأنينة خروج السبت، وظهور النجوم. حينئذ جاءه الاسد وتربع بجانبه واشار اليه بان يركب فوق ظهره. وامتطى الربي يعقوب الاسد وحمله في لمح البصر الى مدخل المدينة التي كان يريد ان يصل اليها. واندهش اهل المدينة لرؤيته في مساء يوم السبت، قبل التاريخ المحدد لوصول القافلة. بل ظن (اخوانه في الدين) انه انتهك حرمات السبت ودنس شريعته. فحكى لهم قصته. واتضح بعد ذلك، ان قطاع الطرق قد هاجموا القافلة وابادوها عن آخرها وقتلوا رجالهايهودا او مسلمين. وعندها تبينوا فحوى معجزة الربي يعقوب الذي اضاف اسم «بِنْ شَبَت» الى اسمه العائلي الاصلي «هَاليفي...».

ولنذكر هنا ان السبع «ملك الحيوانات» وهو رمز القوة العليا، كان يلعب دورا مهما جدا في أدب سير القديسيين، بصفة عامة، وفي الادب اليهودي بالمغرب بصفة خاصة، مثل الربي شمعون باريوحاي،كبير اولياء طبريا الذي يوصف بالسبع، والربي التلمساني. افرايم انقاوا، في القرن الرابع عشر، الذي كان يمتطي اسدا.. صانع المعجزات اليهودي وولي زاوية سيدي رحال.

وتحكي القصة الثانية معجزة من المعجزات الكثيرة المنسوبة الى الربي يعقوب ناحمياس المسمى كذلك «مُولْ أنْمَاي» وهو ولي وصانع معجزات،كان يداوي الناس في جنوب المغرب خلال القرن الماضي. جمعت هذه الحكاية باللهجة اليهودية – العربية، وطبعت مع حكايات اخرى من نفس النوع، في تونس سنة 1915 في كتيب متواضع. وقعت احداث هذه القصة في زاوية سيدي رحال الواقعة في ناحية مراكش. كان سيدي رحال في حياته موضع تقرب وتوسل، وكان مقصد الاغيار (هكذا) سكان البلاد،وقد اخلص له الناس وكانوا يمتثلون لادنى حركة من حركاته معتقدين بأنه كان قادرا على مزاولة السحر،وانه يملك قوة خارقة تتحكم في سير الامور.

كان لسيدي رحال ابن معروف عند السكان اليهود في الملاح بعنفه وعقوقه،بل ذهب به طيشه الى حد التعدي على امرأة يهودية في عين المكان،وفي يوم من الايام ذهبت تلك المرأة لجلب الماء من عين تقع خارج المدينة، فاغتنم الفرصة فتشبث بها بالرغم من مقاومتها، وصادف ان خرج الربي يعقوب من المدينة في هذا الوقت،فساقته الظروف ليكون شاهدا على

هذا الاعتداء، ولما رأى تمادي هذا الشرير في غيه، والمرأة تقاوم، اقترب منه وقال له : «اترك هذه المرأة،انك تفعل شرا.» فرد الولد على الربي بكلمة نابية، وشعر هذا الاخير بأن أي نوع من الكلام أو التأنيب لن ينفع، فصعقه بنظرته وخارت قواه وتحول الى كومة من العظام سرعان ما تناثرت على الارض.

وهكذا دخل الربي الى المدينة مصحوبا بالمرأة، بعد ان خلصها من يدي المعتدي.

وعندما وصل الاغيار الى مكان الحادث.وجدوا به جثة «الزنديق».وشاع الخبر.وعلم الاب بذلك،فقرر ان يجتث اثر اليهود وفي الحين،بل حتى قبل ان يدفن ابنه. وبما ان جثة هذا الاخير،وجدت في منطقة تخصهم،فانهم اصحاب الجريمة دون شك. ذهب الربي للقاء الاب وقال له :«سأبعث ابنك حيا، وسيكون شاهدا بنفسه، وسيقول لك من قتله. وكان الامر كذلك.»

لمس الربي الجثة برأس عصاه الغليظة وصاح

– انهض ايها الرجل الزنديق، وأبِنْ حتى تنجو اسرائيل.

وفي الحين دبت الحياة في الجثة واستوت ولفظت هذه العبارات :

«ليس اليهود هم قتلتي، ان الله هو الذي قضى علي»، ثم اخذ يكيل الشتائم للعقيدة الاسماعيلية ثم امره الربي ان يعود الى التراب. وعندما شاهد الاب هذه المعجزة، طلب المعذرة من القديس الربي،واعتذر لليهود، ومنحهم منذ ذلك الوقت الكثير من افضاله.

قصة يهودية – اسلامية من اسفي : الحبر والفقيه

وقعت احداث هذه القصة في مدينة اسفي، حيث يتعايش اليهود والمسلمون في طمأنينة تامة، بل كان يحمل احد دروب هذه المدنية اسم «درب اليهودي». وكان جل سكانه من اليهود، وكانت توجد به اغلب البيع. وقد حكى لي القصة كل من ليفي وبارشوشا وهما من قدماء مسؤولي الطائفة بالمدينة. ملخص الحكاية هو :

«كان الربي ابراهام سيبوني تاجرا ومتأدبا كبيرا، وكانت له علاقة صداقة مع اغنياء المدينة من المسلمين، وكان يعيب عليه احد الفقهاء من اصدقائه شرب «ماحيا». وفي يوم ن الايام، بلل الربي ابراهام سبابته في كأس مليىء بهذا السائل، وعرضه الى لهابة شمعة، بعد ذلك مسح اصبعه دون ان يشعر باي احتراق، والتفت الى صديقه، وقد ظهرت عليه علامة الدهشة، وقال له : اذا كان اليهودي يشرب «ماحيا» فانه يفعل ذلك ليبلل جسمه حتى اذا مر من المطهر عجزت النار من ان تنال منه شيئا الى ان يصل الى الجنة. وفي الحين طلب منه الفقيه قائلا : اسقنيها (14).

14 – يحتمل ان المتأدب اليهودي كان يتذكر النص التوراتي :
«اذا اجتزت في المياه فأنا معك...؛ اذا مشيت في النار فلن تحرق واذا اجتزت للهب لن يمسك لهبه» إشعياء الفصل الثالث والاربعون 2.

الفصل السادس
الحياة الدينية والشعائر

I – الحياة اليومية في ظل ملكوت الشريعة الالهية :

يعيش اليهودي في ظل ملكوت الشريعة الواردة في التوراة التي ابانها النقل الشفوي اولا، ثم جمعت ثانيا في كتاب التلمود. وتشكّل حول التلمود المكمل للعهد القديم، مذهب فقهي يمثله عدد هائل من الكتابات (تفاسير مدونات فتاوي تقنوت مراسيم الخ...). وقد نفذ هذا المذهب الذي اعد بكل عناية الى أدق خفايا الحياة اليهودية العامة والخاصة، ونظم ابسط تفاصيل وجود الفرد من المهد الى اللحد. واوجب الخضوع التام اللامشروط لتعاليم الشريعة وتطبيقها الصارم. وقد احرز هذا المذهب الاول امتداد مجاله التشريعي ومشروعيته التي بها يفرض نفسه من مصدره الالهي. وأحد اركان هذه العقيدة الاساسية انِ موسى تلقى اثناء وحي سيناء الشريعة الشفوية، بالاضافة الى التوراة او الشريعة المكتوبة، وقد نقلت هذه الشريعة الشفوية للاجيال اللاحقة بواسطة سلسلة لم تنقطع من اسانيد الشيوخ والحكماء.

وتتخذ الاصلاحات التي تضاف الى النصوص الموحى بها، لتتكيف مع حاجيات الجماعات ومتطلبات الظروف الحتمية، صبغة «الشريعة المنزلة» وقوانين العصور الحديثة المتولدة عن ضروريات الحياة المتغيرة التي تنهل في الوعي الديني اليهودي، من تجلي طور سيناء.

ومن هذا المفهوم التيوقراطي للقانون، تنبثق كل الاعمال التشريعية غير التوراتية التي تراكمت على مر العصور، منذ عهد «الثنائين» الى اجيال يوسف كرو (القرن 16) وخلفائه، لتكون المصدر الاعلى للشريعة الربية. وتسمى كل هذه المادة التشريعية «هَلَخَة» وهي لفظة مشتقة من الفعل العبري «هَلَخْ» «اي سار» فتكون اذاً «الْهَلَخَة» بمعنى القواعد التي يجب ان تتبع، شبيهة باللفظة العربية : «الشريعة» وهي الطريق المستقيم والنهج القويم، اي شريعة من كنه آلهي.

1 – العرف والعادة في موضوع الحلال والحرام

ان اتجاهات التشريع الرباني المغربي المهيمنة، والتي تتجلى في علاقتها مع «الهلخة» (الشريعية) الشاملة التي تمثلها هنا، اولا، مدرسة الفقهاء القدماء الاندلسيين، ثم مدرسة يوسف كارو (صفد في القرن 17). لم تستطع هي نفسها الفكاك من ثوابت لا تستطيع اية قوة

مهما كانت، الحد من فعاليتها او التأثير فيها، ولو كانت «شلحان عروخ» (المائدة المعدة) الذي يكن له الاحبار المغاربة احتراما وتقديسا. ان هذه الثوابت هي اخلاص اليهود المغاربة للعادات والاعراف القديمة التي اقرتها المراسيم. والارتباط بالتقاليد التي ورثوها عن اجدادهم، ومعارفهم التي لقنها اياهم شيوخهم المحليون.

ويستند الفقهاء المغاربة غالبا، في كتاباتهم الشرعية، على الاقوال القديمة «المشنية» والتلمودية، المتعلقة بـ«لمِنْهَكْ» «العادة» مثل :«يجب ان يكون الكل وفق عرف البلد» والعادة تتجاوز القانون وتلغيه». ومن هنا ايضا يأتي دور العادة المهم المعبر عنه باللفظ العربي «العادة» في بناء التشريع الربي المحلي والاعراف العائلية.

2 – اشكنازيون وسفرديون

وكان اليهود المغاربة في القرن السادس عشر، يرجعون الى علمين من اعلام «الهالخا» وهما (مُورانْ يوسف كَرُّو) و(مُورَام موسى اسرليس).اولهما سفردي وثانيهما اشكنازي، في احكامهم القضائية المغربية، وكانوا يقارنون دائما بين مذهبي الرجلين، فيتبنون فورا آراء كارو ويتركون آراء اسرليس، الا في الحالات التي لاتعارض فيها بين المذهبين، او تلك التي سكت عنها كارو. ويوافق اختيار الربانيين المغاربة في هذا الصدد، اليهودية الشرقية على العموم، وينطلق بداهة من عوامل تاريخية. ويفسر هذا الاختيار ايضا باختلاف مفاهيم «الهلخة» (الشريعة) والطقوس حسب ما يتصورها كل من الفقهاء السفرديين والاشكنازين.

اما في موضوع المحرمات «الحلال والحرام» فان الاشكنازيين ميالون الى التشدد، بينما ينهج السفرديون منهجا اكثر تسامحا واكثر ليونة في التشريع (1).

ويحدث عكس ذلك في المواضيع التي تتعلق بعلاقات اليهود مع غيرهم من الاغيار، اذ نجد السفردين هنا اكثر تشددا، ويعود هذا الاختلاف الى طبيعة علاقات الجوار التي تحافظ عليها كل من المجموعتين مع الاغيار. فلم تكن العلاقات الاجتماعية بين اليهود والمسلمين في ارض الاسلام تتميز بالعداء الصراح الذي كان يطبع علاقتهم مع المسيحيين والبلدان المسيحية، وهو عداء لم يترك مجالا للخوف من التمثيل والامتزاج. ولم يكن الامر كذلك في الارض الاسلامية، حيث وجد الاحبار المشرعون السفرديون انفسهم مضطرين الى اقامة حواجز في

1 – عندما نتناول بالبحث تشريع «شلحان عروخ»، وخصوصا ذلك الذي يتناول الخمر «نِسيخ» (وهو خمر محرم لانه اعد على يد «وثني» او يشك في انه اعد على يده) فاننا نلاحظ ان كارو، وهو المتسامح عادة فيما يتعلق بقانون الاطعمة، اكثر تشددا من اسيرليس.

ميادين لم يكن فيها الفقهاء الاشكناز بحاجة الى اتخاذ تشريعات اكثر صرامة. بالاضافة الى ان هؤلاء الاخيرين، لم يكونوا في حاجة الى تأكيد الطقوس المميزة، حتى لا يوسعوا الهوة التي كانت تفصلهم اكثر مما يجب، عن جيرانهم، فيزيدون نار الكراهية اضراما.

3 - قل لي ماذا تأكل ؟ اخبرك من انت

بالرغم من تحفظ السلطات الربية، بخصوص العُرْف، وهو تحفظ ينقلب احيانا الى عداوة معلنة، فانهم في كثير من الحالات كانوا يضطرون الى قبول بعض مظاهره. اذ تتعلق الغالبية العظمى بالشريعة بقدر ما تتعلق باعرافها وعاداتها، هذه الاعراف وهذه العادات التي تنهل اكثر فاكثر من منهل السحر والخرافة التي تشترك في الاعتقاد بهما كافة المجموعات الاثنية، مهما كانت معتقدات كل مجموعة منها. وهذا ما يحدث خاصة في بعض الطقوس الخاصة بالطعام، مثل تناول «الكسكس» المعد بالدجاج او باللبن، ليلة وغداة بعض الاعياد الدينية، مثل «سُكُوت» (عيد الخيام)، و«كِبُّور» (يوم الغفران الاكبر) وكذا في الفصح، بالرغم من الخطر الذي يكونه وجود الحمص وهو (طعام قابل للتخمر) الذي ينحّى من كل منزل يهودي منذ الغداة.

وكذا الامر فيما يتعلق بتناول الجراد، اذ نجد الربي حيم بن عطار (القرن 18)،وهو علم من اعلام اليهود بالمغرب، يثور ضد تسامح بعض زملائه، مشمئزا من عادات محلية تكرّس استعمالها منذ عهد قديم، فحرم الاقتراب من هذا الذي يسميه «الدويبات النجسة» التي كانت تكوّن دائما، سواء كانت مسلوقة او معدة باية طريقة، طعاما جد مفضل في الاوساط اليهودية، وفي الاوساط الاسلامية في جنوب المغرب، خصوصا في فترات المجاعة. وبالرغم من سلطته الروحية الواسعة، فان تحريمه هذا ذهب ادراج الرياح، وبقيت ادانته لتناول الجراد حبرا على ورق. وكذا حدث له، عندما تجرأ فندد باختبار نفخ رئة «نِفِيحَة» البهيمة المذبوحة حسب مقتضى الشريعة، للكشف عن التصاق او آفة هذا العضو. اذ اصطدم بمعارضة الاحبار المغاربة الذين رفضوا آراءه المتشددة ومراقبته الصارمة للاطعمة.

وتستند كل التشريعات المغربية الخاصة بذبح الدواجن والماشية حسب الشريعة، على عديد من العادات والاعراف الخاصة بمختلف الطوائف المحلية. وكانت هذه العادات والاعراف، خلال القرون الاربعة الاخيرة، موضوعا لكتابات مشهورة، ابتعد مؤلفوها، في ما يخص هذا الموضوع، في كثير من الاحيان، عن تعاليم تشريع يوسف كارو «شلحان عروخ». ويجد الفقهاء المغاربة، مثلهم مثل اخوانهم في باقي طوائف الشتات، انفسهم مضطرين

احيانا الى تطبيق الشريعة، مع بعض التسامح في الظروف الحالكة اذا كان الامر يتعلق بالمحرم من الاطعمة، تبعا لمبدأ عام في التشريع الربي، يستند على فكرة «الضرر الجسيم» في : «فترات الشدة وفي كل الحالات التي يمكن ان يسبب فيها القيام بقاعدة شرعية في احداث ضرر جسيم، تعتبر محللة كل الاعمال المحرمة في الظروف العادية». ويتخذ المشرع قراراته تبعا للظروف. وهو مؤهل لاقرار الاعتدال او التشدد. ولتقدير مدى نتائج الضرر، او تشخيصه عند الاقتضاء. وهكذا يمكن رفع تحريم بعض الاطعمة المحرمة في فترات المجاعة والارتفاع المفرط للاسعار، مع احتمال العودة الى الاحترام الكامل للشريعة بمجرد ما تتحسن الاحوال الاقتصادية. ويُكون مشكل «الكَشِرُوت» (قواعد الاطعمة) الهم الاكبر لكل يهودي متشدد، وخصوصا ربة البيت المسؤولة عن بيت الزوجية، والمحافظة على التقاليد داخل البيت. وفي مستوى المجموعة، يظل تزويد سكان الملاح بالطعام الحلال «كَشِرْ» (طبقا لقواعد الشريعة والمنهج الديني) الشغل الدائم للسلطات الربية ومسؤولي الطائفة هؤلاء الذين يراقبون مراقبة شديدة، اما بأنفسهم او بواسطة «الشِلِحِيم» (المبعوثين) او «المقدمين» ممارسة بعض المهن المرتبطة بالتغذية، مثل مهن الخبازين، وبائعي الحليب والخمر والسمك واللحوم. وتزداد حيطتهم كلما كان الامر يتعلق بالجزارين وباعة الطعام البسطاء.

ولن نطيل الكلام في مواضيع «الشِحِيطة» (الذبح على مقتضى التوراة) و«الطِرفُوت» (اللحوم المحرمة) وفي وظيفة «الشُوحِط» (الحبر الذي يقترح لذبح المواشي حسب قواعد الشريعة)، ونكتفي هنا ببعض الوقائع فقط :

يجيز يعقوب ابنسور، وهو حبر فاسي (القرن 17–18)، في ايام الفصح، تناول نوع من الزرع يسمى «أنِيلِي» وهي لفظة بربرية تطلق على نوع من انواع الذرى. وعلى العكس من ذلك يوصي بالاحتراس من تناول ما يسمى بـ«التريد» (فطائر رقيقة)،وهو طعام خاص بالفصح قد اعتاد يهود فاس انفسهم تناوله.

ويحكي الربي يوسف مساس، وهو حبر مكناسي استدعي ليتولى منصب قاض في تلمسان، بين سنتي 1924–1940 اثناء حديثه عن مهمته الربية ما يأتي «كان لديَّ الكثير من العمل الذي يجب ان احققه في موضوع «الكشرُوت» (قواعد الطعام). لقد بدأت بجمع كل باعة الأطعمة وباعة الكبد المشوي واللحوم والطحال والمقانق، ولاحظت انهم لم يكونوا على علم بالقواعد الشرعية التي يجب ان يهيء بمقتضاها تمليح وغسل اللحوم، وأنهم كانوا يشوون على وعاء غير مثقوب. فاطلعتهم على القواعد الشرعية الاساسية المتعلقة بهذا العمل، وحذرتهم من أي خطأ قد يقعون فيه. وكنت اذهب لسماع قسمهم ومراقبة سقيفتهم التي يبيعون فيها الطعام مرة كل شهر.

وكان كل يهود المدينة يخلطون اللحم بالطحال ويطبخونها في نفس القدر، خصوصا في اعدادهم و«جبة السبت» المسماة بالعربية «اذْفِينَا» او «السْخينا». وحذرتهم من القيام بهذا العمل. وكان الجزارون من جهة اخرى، غير مطلعين اطلاعا جيدا على القواعد المتعلقة

بالشحوم المحرمة، وكنت ارقبهم مرتين في الاسبوع في المسلخ.

كان الشغل مرهقا في فترات اعداد «المصُوتْ» (الرقائق)، اذ يجب تنظيف المطاحن والافران ومراقبتها يوميا لتكون مطابقة لما تقتضيه الشريعة، ومتح الماء في الوقت التي تحددها التوراة، والسهر المستمر على العجين، وبيع الحمص، والمراقبة المشددة على كل ما يتعلق بالفصح.

لقد شغلني كثيراء وأهمني الجيل الصاعد، وكلفني جهدا مضنيا، من اجل جعله يتخلى عن تناول الاطعمة المحرمة، والتوابل الممنوعة، والاسماك، وان لا يخلط اللحم والحليب... الخ».

وهكذا يمكننا ان نقول بان العادة والعرف يكونان ارضية التوافق بين الشريعة الربية، ومحيط المتخيل الاجتماعي اليهودي - الاسلامي.

4 - الحضور الالهي وحلول المقدس في الحياة اليومية :

تصاحب المباركة... كل عمل في الحياة«تباركت رب العالمين، الهنا، ملك العوالم الذي باركنا بوصاياه، وامرنا بان...» بل هي كذلك نظام شرعي ورد ذكره في «عليك ان تلهج بعبارة من عبارات المباركة في كل مناسبات السرور، كما يجب عليك ان تفعل ذلك في حالات الاتراح». ويقول ابن ميمون بان وجود هذه الفريضة كان نتيجة للاعتبار الاتي : «ان الفريضة التي فرضت علينا حب الله، تلزم الانسان ان يشكر الله وان يحمده بصدر منشرح حتى ولو كان يعاني».

ويتلقى كل عمل كيفما كان، جزءا من العناية الالهية، بما في ذلك العلاقة الجنسية، فعلاقة الرجل بزوجته التي باركتها المباركات او التسابيح السبعة الشعائرية، اثناء الزواج، تصبح فريضة دينية : «مِصْوَه» (امرا)، هذه الفريضة التي تضفي عليها «الزهر»، فضلا عن ذلك، دلالة سحرية وبعدا صوفيا (2).

2 - الغرض من التوسل بالاسم، باللفظ الخاص بذلك، هو ابعاد الجنيّة ليليث، زوج آدم الاولى، قبل مباشرة العلاقة الزوجية التي تساهم هي بدورها، عندما تكون طاهرة، في تحقيق التوحيد وانتظام الكون.

5 - البعد الصوفي للشعائر

نلاحظ الحضور الالهي في الحياة اليومية، متجليا في انجاز كل امر من الاوامر، وفي كل صلاة من الصلاوات او تسبيحة من التسابيح، وخصوصا عندما يصبح البعد الصوفي للفعل، عمادا للدافع «الهلخي»او الشرعي، نتيجة لتغلغل المذاهب الغنوصية، وبالاخص «الزهر» و«القبالة». «فكل فعل من الافعال الحادثة طبقا لهذين المذهين، يهدف الى الحلول في الذات والحضرة الالهيتين «الشّخِينَة» (السكينة) رهبة ورغبة...» ويكون تطبيق هذا الفعل مصحوبا بهذه الصلاة الصوفية التي استوحتها الطقوس من مذهب «القَبالَة» عند اسحاق لوريا Luria وأتباعه بمدرسة صِفد- وكان من بينهم كثير من العلماء المغاربة – وادخلتها في الشعائر اليهودية. ويتغلغل اللاعقلي الغنوصي اكثر فاكثر في الحياة الدينية والشعائرية، في الفترة التي تعاني اكثر من غيرها من وطأة النفي. وهكذا يتبنى يهود البحر المتوسط والشرق، موقفا من الانطواء والانغلاق والانعزال، في انتظار مجيىء المنقذ الذي يعتقد ان مجيأه وشيك جدا. وهو موقف يستحضر على الخصوص، مذهب «الصِمْصُومْ» (الانطواء) القبالي، كما يعرفه اسحق لوريا، اي : «ارادة فعل الانطواء على النفس الذي استحالت اليه «العزة الربية » و التي تشمل كل شيء».

6 - تصوف وصلاة

تعتبر الطقوس، وهي موضوع الصلاة، احد الميادين المفضلة في «القبالة». ويجد فيها التصوف مجاله المعتاد، سواء من ناحية الكثرة العددية في الكتايات التي كان مؤلفوها انفسهم من المتصوفة، او في التأويل الباطني للطقوس العادية التي حددها التشريع والعادة من زمن طويل. ويتبلور هذا التأثير القبالي خاصة في مفاهيم متداخلة ومترابطة، مثل إوَالِيَة «الْكَوَنَة» (القصد) او «التأمل الصوفي»، وصيرورة «التِقُوْن» (اقامة التناغم العلوي) و«اليحُوْد» (الحلول). ويساعدنا اختبار هذه، على الفهم الافضل لما كان يشغل العلماء المتصوفة المتمرسين بخطاب وجدلية لايعرف فحواهما العميق الا قلة ضئيلة من الضالعين.

تحتل «الْكَوَنَة» وهي «توجه وتركيز الذهن»، مكانا مفضلا في الصلاة الصوفية،انها احد مكوناتها السكولوجية المهيمنة. وقد اضاف «حَسِديو» (اتقياء) البلدان الاشكنازية ضرورة «الكَوَنَة» المطلقة، الى التقيد الحرفي بالنصوص الموضوعة، تلك التي يحصون كلماتها بل حروفها، ليكشفوا من خلالها، اعتمادا على اساليب رمزية، اسرارا اشراقية. ولا يزال مظهر

الصلاة في القبالة، حسب مذهب لوريا، هو قطب الوحي، بعد أن تضاف اليه عناصر اخرى متفاوتة الاهمية. ويمتلك العنصر الشخصي والنشاط التأملي للمصلي، قوة كبيرة، نتيجة لعملية «الكَوَنَة» اثناء الصلاة. وتجيب «القبالة» عن احدى اسئلة التلمود : «كيف نعرف ان الله نفسه يصلي بالعبارات الاتية : ينجذب الانسان نحو السمو بواسطة صلاة «التصوف»، وتجذبه قوة لا تقاوم، فيندمج في حياة الاسرار الفعالة للحضرة الالهية، الى حد ان الله نفسه يشارك في هذه الصلاة التي ينجزها العبد...، ويضيف ان الصلاة مثل السهم الذي يصوبه المصلي نحو السماء بواسطة قوس «الكَوَنَه». ويعرف ابراهام ازولاي، وهو قبالي مغربي «الكَوَنة»، بانها عبارة عن انجذاب نحو اسفل النور الروحي الالهي، الذي ينير حروف وكلمات الشعائر، لتصعد بعد ذلك الى اعلى الدرجات...» (3) ان الصلاة تعني اكثر من مجرد تعبير عن عواطف دينية. وليست ايضا مجرد اعتراف وشكر مقنن شرعه الله بصفته خالقنا ومالكنا في الشعائر العادية، بل هي اداة بها ترتقي الروح نحو الله، وهدف «الكَوَنه» التوصل الى معرفة مختلف درجات هذا الارتقاء.

وقد اختص «اليحوديم» (فعل الحلول) بمكانة خاصة في الصلاة تبعا لمذهب لوريا، وهو تأمل في تركيب حروف يـ هـ و ه او اسماء الله الاخرى الفائقة الوصف. وكان هذا «اليِحُودِيمْ» (الحلول) مثله مثل الممارسات المشابهة لانساق التأمل الصوفية الاخرى، اداة تهدف الى السمو بالروح. واستعمل ايضا في بعض الأحيان وسيلة للتواصل مع ارواح اخرى، خصوصا ارواح «الصدقيم» (الصديقون والاولياء)، الذين غادروا هذه الدنيا. ويلاحظ منذ ذلك الوقت، ان في التروض بتركيز العقل حول اسماء الله الحسنى هذه، واسماء الملائكة، اتجاها للمزج بين الصلاة والسحر وكثير من الممارسات الاخرى، لبلوغ الروح القدس. وكان العنصر المسياني، (انتظارالمنقذ) وهو عنصر يرتبط بفكرة «التقون» (التقويم) ايضا، بارز الحضور في هذا النشاط التأملي. وليس غريبا ان يتولد عن «القبالة» حسب مذهب لوريا، في أوج الفترات المسيانية التي تنهل ايضا من مناهل اخرى، حركة سَبْتَائي التي طبعت بعمق، واحيانا بمأساوية، التاريخ والضمير اليهودين في القرن 17 و18.

وهكذا تساهم «الكَوَنه» اثناء الصلاة واثناء القيام بنواهي واوامر الشريعة التي تجمع بين «اليحود» (الحلول)، و«التِقُون» (التقويم) في الربط بين اسم الله وانتظام الكون، وبطبيعة

3 – انظر كتابنا : Poésie juive en Occident Musulman, P 196
وما بعدها. حيث نحيل على مؤلفي G. Scholem, G. Vajda.

الحال، ليس في مقدور عامة المومنين الذين يرددون احيانا اثناء صلواتهم القراءات بطريقة آلية ومتكررة، فهم هذا الخطاب، وهذه الجدلية. وما الصلاة بالنسبة للمؤمن في غالب الاحيان،إلّا مجرد توجه يتوجه به الانسان بينه وبين نفسه، وفي نفس الوقت، مع الجماعة، نحو الله. فهو يصلي متشحا في وشاحه «طَلِيت» متخشعا في وحدته، ومشاركا ايضا مع جمهور المصلين«الْعِدَه» ونصابه عشرة «مِنْيَنْ»، ليشهدوا على ذلك «عِدُوت». فالصلاة عبادة وتواصل مكثف وبَيِّنَة»، وهي في نفس الوقت افضل وسيلة الى التقرب الى الاحباء (4).

II – اللحظات الشعائرية والاحتفالات العظمى

تتوالى في الحياة العادية لحظات ممتازة واحتفاءات تذكارية واحتفالات منها ما كان يخضع للتشريع اليهودي العام «الهلخه»، ومنها ما اصبح جزءا في الاعراف والعادات التي خلدتها الممارسات الطويلة والقديمة. ونحن هنا امام تقويم اساسه ديني وشعائري، حيث نلاحظ ايضا صدى تاريخيا ووطنيا، ومتخيلا اسطوريا، كما نلاحظ اسرار البعد الصوفي والحدث المعاصر...

وتتخلل اليوم من صباحه الى مسائه ثلاث صلوات كبرى : صلاة الصبح (شِحِرْيتْ) وصلاة الظهر (مِنْحَه ومعناها الحرفي، الهدية)، وصلاة المغرب (عِرْفِيتْ). وتبارك اوقات الاكل بعبارات الشكر لله. كما يحتفى في الليل نفسه بشعائر خاصة، مثل «تِقُونْ حصُوت» (ابتهال منتصف الليل)، و«السْلِيحُوتْ» (توسلات) شهر ايلول والفترة الفاصلة بين «رُوشْ هَشَّنَةْ» (رأس السنة) و«كبور» (يوم الغفران).

ويتميز الاسبوع «بِشَبَتْ» (السبت) المتميز عن باقي الايام الاخرى، كما يتميز ما هو مقدس عما هو دنيوي. ويفتتح الشهر بالطقس الخاص باحتفال «رُوشْ حُودِشْ» (بداية الشهر)، ويحتفى فيه ايضا في اليوم السابع، بمباركة القمر الجديد. وتتخلل السنة ثلاث مناسبات للحج «شَلُوشْ رِكَّلِيمْ» (مناسبات الحج الثلاث)، وهي «بّصَحْ» و«شَفُعُوت» (الاسابيع) و«سُكُوتْ» وهي على التوالي : الفصح، عيد الحصاد، عيد الخيام. ومن المناسبات التاريخية «حَنُوكَةْ» و«بُورِيمْ». وتتلو هذه المناسبات السيعدة «مناسبات مَكْرُوهَة»، كما يسميها يعقوب ابنسور، احد الشعراء اليهود المغاربة (ق 17–18)، هذه المناسبات التي تذكر بماض مؤلم وهو تحطيم الهيكل بالقدس والنفي والشتات. وهناك ايضا مناسبات البكاء والصيام والنواح، وايام الشؤم في ايام 9 اب و17 تموز و3 تشري و10 طبت و13 ادار.

4 – قارن بكافكا.
Préparatifs de noce à la Campagne, Gellimard, Folio, 1957, p. 64-65 - 135

ولن نصف وصفا مدققا كل هذه اللحظات الشعائرية وهذه الاحفتاءات والذكريات، ولن نخصص لها من البحث المفصل ما تستحق. لأننا مضطرين الى اختصار هذا الفصل اختصارا لازما، تقيدا بما لدينا من حيز حددته الوقت ووسائل الطبع، وانما سنتعرض لها، لأنه يظهر لنا انها بالاضافة الى كونها مناسبات مشتركة لدى كل اليهود، فانها تميز الطوائف المغربية عن اخواتها في الشتات، بما يجعلها تكون هويتها وترسم لها شخصيتها الخاصة. وسنتعرض من حين لآخر، لبعض الطقوس ولبعض الاعمال التي تستحق الذكر، كما سنشير الى اعزاف وعادات ضاعت واختفت الآن، وهي عادات واعراف لا يستطيع ان يستحضرها الا من عاش في دواخل الحياة اليهودية لهذه الطوائف التي ظلت مهملة طويلا. ذاك الذي عرف عن تجربة داخلية شخصية، المسار الثقافي والروحي لهذه النخبة العالمة، وهذا الحيز الثقافي الاكثر اعتدالا، داخل مجتمع يهودي كبير، اكثر تحررا واكثر تفتحا على المحيط العربي البربري والاسلامي.

1 – السبت

لقد تعرضت الشريعة المكتوبة (العهد القديم) والشريعية الشفوية (المشنه والتلمود) والتشريع والفقه (هلخه والرسبونسا والمراسيم الربانية تقنوت) والكتابات الوعظية والاساطير اليهودية (مِدْرَشْ وهَكَدَهْ) والقبالة، طويلا «لفضيلة» و«قداسة» و«بهجة» السبت (شِفَخْ شَبَتْ، قُودِشْ، شَبَتْ، عُونِكْ شَبَتْ) وتعرضت لطقوسه ومحرماته. وهي امور جعلت منه يوما خاصا متميزا عن باقي ايام الاسبوع. وينبغي ان نضيف الى كل هذا، ما اضفته عليه الاعراف والعادات المحلية. ولن نتعرض هنا الا الى ثلاث لحظات مفضلة من هذه المناسبة التي لا نظير لها، وهي أمسية «بَقَشُوتْ» (التوسلات)، ودخول السبت وخروجه، كما تحييها الغالبية العظمى من العائلات التقليدية المغربية. وقد عرفنا نحن انفسنا هذا الاحتفال، لاننا عشناه. وسنتعرض كذلك الى بعض الشهادات، وهي عبارة عن وثائق خلفتها لنا الآداب اليهودية المغربية نفسها او الى نصوص من الزهر تواثر استعمالها هنا بالمغرب، وكلها تعد اسسا للتعاليم الخاصة بالسبت. «شَبَتْ».

أ – الاحتفال الصوفي ليوم السبت :

– **المائدة الملكية** = اذا كانت وصايا التوراة العشر تطابق الاوامر العشر التي امر بها الله لخلق العالم، فانها ايضا الاوامر العشر التي ينبغي القيام بها بمناسبة السبت، كما تقول

فقرة من فقرات الزهر (زهر III ب 274 – أ 272) تلك التي تتناول بالخصوص وجبات السبت التي سميناها هنا «المائدة الملكية» : وتبدأ باغتسال اليدين واعداد خبزتين لكل وجبة، فتناول الوجبات الثلاث، كما حددتها الطقوس الخاصة بها، فاشعال المصابيح لانارة المائدة ومباركة كأس خمر التي تفتتح بها الوجبة، فمدارسة التوراة اثناء الجلوس حول المائدة، واطالة وقت الوجبة، فاغتسال اليدين الاخير، واخيرا الدعاء والتسبيح، فمباركة وشرب كأس الخمر الاخيرة.

ولا نلاحظ الدلالة العميقة (الباطنية) لهذه الاعمال العشرة التي لها وظيفتها ودورها في اعادة بناء (اقامة) السر الخفي «للسفروت» العشرة (الصفات العشر الصوفية)الا في التفسير. وتدرج فيها «الشّخِينَة» (الحضرة) والتي هي «مائدة» القدوس تبارك وتعالى...

وسبب الامر باغتسال الايادي ياتي من كونها هي التي تحمل بالاساس، كل نجس، اي انها غير ملائمة للمباركة التي بها تنفذ قوة الاسم الاعظم الذي تساوي قيم حروفه العددية عدد 28 طرفا من اطراف الاصابيع. ولا تحل هذه المباركة الا بواسطة الايادي الطاهرة.

وتمثل الخبزتان الخاصتان بكل وجبة يوم سبت، وهما مائدتا الشريعة اللتان انزلتا في يوم سبت، ازواجا، الشريعةَ المكتوبة والشريعة الشفوية. ويتوفر الانسان في يوم السبت على روحين، روحه الملازمة له، واخرى اضافية «نِشَمَة يِتِرَه» (روح زائدة) خاصة بهذا اليوم. وتطير الارواح والنفوس وتنزل في ذلك اليوم ازواجا ازواجا دون ان يمسها شيطان او جن، ودون ان تكون لهذين الأخيرين أية هيمنة على الكون. كذلك في يوم «شبت» تغفو جهنم نفسها فلا تحرق النار شيئا.

وقد اسهب مؤلف «الزهر» في الاسطورة التي سبق ان رددها التلمود و«الهكّدة» تلك القائلة بان عذاب الاشرار يتوقف يوم السبت، حيث بين ان كل قوى الشر في ذلك اليوم تصبح عاجزة عن الفعل، وتتوقف كل اعمال التقاضي في المحاكم الالهية السماوية، وتبعد القساوة عن العالم اعلاه واسفله، وتعم الرحمة في كل مكان.

وتكّون الوجبات الثلاث الشعائرية مع مباركات الصلوات السبع، شجرة «سفروت» الهويات العشر الالهية المكونة لسر «اللذة» (عُونِكّ) التي تصبح بدون هذه الوجبات الثلاث «نِكّعْ» (جرح خبيث) (لاحظ تغيير وضع العين)، وقيل بالاضافة الى ذلك : «فحينئذ تتنعم بالرب» (اشعيا L VIII، 14).والوصية الرابعة، هي انارة المائدة بالمصابيح. وتفرض هذه الشعيرة ان تهيىء المائدة بافضل غطاء وباجمل الصحون وباشهى طعام واعذب شراب،مائدة محاطة بمقاعد موشاة ومزخرفة. والحقيقة انه يجب ان يميز «شبت» عن الايام الاخرى العادية

بمزيد من الفخامة وبترديد الالحان والاغاني الخاصة به. ويجب ان يستقبل بالاستقبال الذي تملؤه البهجة، كما يستقبل الخطيب خطيبته، ذاك ان «شبت» أميرة وخطيبة...

ولنترك بقية الوصايا الاخرى جانبا، ولنقف لحظة عند الوصية السابعة، تلك التي تنص على وجوب اطالة وقت الوجبة، لا لانه ينبغي مدارسة التوراة حول المائدة فقط، بل لاعطاء الوقت الكافي للفقراء حتى يتمكنوا من المجيىء للمشاركة بدورهم في تناول الوجبة. ونص «الزهار»، في تفسيره للعبارة المشهورة : «البر ينقذ من الموت» (امثال X، 2)،يضيف لما عرف من تفاسير، فكرة متناقضة، يظهر انها تناقض نصوصا اخرى توراتية وربية، تقرأ في النص المذكور : «لم يجد القدوس تبارك وتعالى صفة افضل، يصف بها، اسرائيل غير الْمَسْكَنَة... وان الشعوب والامم الاخرى اذا حدث واصبحت تعاني العوز والجوع، فانها تثور وتلعن ملوكها واربابها، وتتنكر للسماء (اشعياء X، 21) أما اسرائيل فانه يلتحم بربه عن طريق صفة المسكنة، ولن يكفر به ابدا. وبهذه الصفة سيخلص اسرائيل في المستقبل»...

- شَبَتْ أميرة وخطيبة

يقال بان حكماء «المشنه» (القرون الاواخر من عهد الهيكل الثاني بالقدس) كانوا يخرجون من المدن في احتفال لاستقبال «شبت»، بعد الظهر من كل جمعة وهم يرددون : «بُوئِي كَلَّهْ»، (اقبلي ايتها الخطيبة).وفي القرن السادس عشر، اقامت الحركة القبالية التي ظهرت بفلسطين على يد اسحق لوريا واتباعه، احتفال الاستقبال هذا، بصفد وطبرية، بعد ان اعطته انطلاقة هائلة ودلالة صوفية عرفت نجاحا باهرا في كل حوض البحر الابيض،وعلى الاخص في مجتمعاتنا المغربية، بفضل ظهور نوع من الشعر المبتكر المتمثل اساسا، في الاناشيد والتراتيل الخاصة بالسبت التي نظمها اسحق لوريا نفسه ورفاقه، والتي كانت تحتوي كذلك في اغانيها الدينية، المذاهب الجديدة الغنوصية. وتحتل القصيدة المشهورة التي نظمها سلمون هلفي القبص، المكانة الاولى، وقد عرفت هذه الترتيلية السبتية التي تجمع بين الرمز الصوفي والامل المسياني، نجاحا عظيما لدى كل الطوائف اليهودية في العالم، ولا زالت لحد الان ترتل في كل البيع مهما كانت اتجاهاتها، في فريضة مساء يوم الجمعة،لاستقبال «شبت»،وهذه لازمتها :

لنذهب حبيبي لاستقبال الخطيبة.

ويبدأ المقطع الثاني هكذا :

لاستقبال السبت علينا ان نذهب
لانه مصدر كل بركة

وتنتهي القصيدة بنداء الخطيبة :

اات بسلام، توجي عريسك
في جو من الفرحة والحبور
وسط جمع من المخلصين
تعالي، إإت ايتها الخطيبة، تعالي ايتها الخطيبة.

وهكذا يحاط احتفال يوم السبت باحتفائية جد خاصة، ويسبح في جو يهيمن عليه الاعتقاد في الانسان وفي قدرته على اصلاح الكون. ويغتني هذا الاحتفال برمزية زواج الملك والملكة الذي يغنيه النشيد الديني الذي نظمه سلمون القباص، وبترديد نشيد الاناشيد، والفصل الواحد والثلاثين من سفر الامثال الذي هو مدار التأملات الخاصة بـ«الشخينة» (الحضرة) في صورتها التي تمثل عروس الاله الصوفية. ولنذكر هنا ان الصورة الرائعة لـ«المرأة المقدامة» كما يقدمها لنا صاحب الامثال، لا تمثل بالنسبة للصوفيين، تلك الصورة التي نظمها النص التوراتي في الاصل، من اجل مدح تلك المرأة، بل يعتبرونها مدحا وتسبيحا يردد فضائل «الشخينة» (الحضرة).

ومن جهة اخرى، فان هذه القطعة المقدسة ذات التطريز الابجدي، تحتوي عددا من الآيات بقدر ما تحتويه الابجدية من الحروف. وترمز هذه الحروف الاثنان والعشرون الى اثنتين وعشرين وسيطة من وسائط البركة والوفرة التي تفيض من السماء... وتمثل المرأة ايضا التوراة.

– استقبال «شبت» في خمار الصلاة بفاس في القرن 18

ولا زال يتردد صدى الاحتفال الصوفي ليوم السبت في الآداب الربية المغربية، منذ القرون الاربعة الاخيرة، كما تدل على ذلك هذه الفتوى التي يصف فيها يعقوب ابنسور، شعيرة كانت تقام في فاس في بداية القرن 18.

وفي هذه الوثيقة يشرح يعقوب ابنسور لمراسله بسلا، مير دو أفلاً، «الدافع والدلالة الباطنية» لعمل سبق لهذا الاخير ان لاحظه في فاس، ويتمثل هذا العمل في التدثر بـ«الطَّالِتْ» (خمار الصلاة)، «مساء يوم الجمعة لـ«استقبال الشبت» : «تطلب مني هل اخذت هذا العمل من أبي ام اطّلعت عليه في قراءاتي... والحقيقة ان ابي كان متعودا مساء كل جمعة ان يتوضأ بالماء الساخن، وينزع ثيابه المعتادة، ويتطهر بالاستحمام الشرعي في مقادير الماء الاربعين، ثم يرتدي كسوة السبت، ويتدثر بـ«الطَّالِتْ»، ثم يتلو نشيد الاناشيد ويصلي صلاة «مِنْحَهْ» (صلاة الظهر) ويرتل المزامير، ثم يذهب الى البيعة لصلاة المغرب «عَرْفِيتْ»، ثم يعود الى البيت ويقرأ

«تِقُّون شَبَتْ» (طقس خاص بالسبت) تبعا لطريقة اسحق لوريا، ثم يزيل «الطَّالِتْ» ويتعشى... ولم يفسر لي في اي يوم من الايام دواعي هذا العمل الذي احتفظت به بعد موته تبعا لهذه القولة : «يتمسكون بأعمال آباهم بين ايديهم...» بينما وجدت سندا لهذا الاستعمال في التلمود :يقول الربي يهودا نقلا عن الرَّابْ، بان يهُودا بر القاي... كان يغتسل مساء الجمعة ويتدثر بوشاح الصلاة... وكان ابن ميمون ايضا يرغب في غسل الوجه واليدين والرجلين بالماء الساخن... احتراما لـ«شَبَتْ»، ويامر بالتدثر بـ«الطَّالِتْ» وانتظار استقبال وجه «شبت»، انتظار تأمل وخضوع، وكأنك تنتظر زيارة ملك، ويضيف، كان الحكماء مساء الجمعة يجمعون مريديهم، ويرددون جميعا، وهم يتدثرون بـ«الطالت» : اقبل، لنخرج امام «شبت» السلطان.

وتطلب مني كذلك هل لهذا الاستعمال دلالة باطنية. نعم،لم اجد شيئا من هذا القبيل في ما بين ايدينا من كتب القبالة. ولكنني وجدت في مخطوط قديم، النص الآتي : اعلم ان التوراة نزلت في يوم السبت،وعلينا ان نلتزم بمدارستها، وان نمجد تعاليمها عند دخول السبت، واذا امكن، فلنقم بها جميعا في وقت واحد. ولذلك فانه من المستحسن ان نتدثر بـ«الطالت» ساعة استقبال السبت. لان كل تعاليم التوراة تتعلق بهذا العمل.

... وكذا يلزم القيام بما جاء في الآية : «سننشر جناحيك على خادمتك» (روت III، 9) يعني اهداب «الطّالت». وكل من قام بهذا الامر، فانه سيرى قوى الشر النجسة تبتعد عن روحه عندما تفارق هذه الجسد، لان هذه القوى ستجد فيه ذاك الذي ابهج الخطيب «حَتَنْ» وحبيبته«الكَلَّهْ»... وسمعت من الربي موشي بن حمو بان لزوم التدثر بـ«الطالت» مساء الجمعة، يستند اساسا، الى هذا الخبر الذي نقله اشياخنا وهو : في هذه الساعة بالذات، يتدثر القدوس نفسه بـ«الطالت»، كما يفعل ذلك الحبر الامام.ويقرأ النص التوراتي«وفي اليوم السادس اكملت السماوات... (تكوينI، 3 وII، 1). وتكو الحروف الاولى من هذا النص اسم الجلالة يـ. هـ. و. ه. ولهذه الحروف، كما علمونا، القيمة العددية لـ ستة. (ستة اهداب وشاح الصلاة)، ثم يقول : انشر فوق رؤوسنا خيمة السلام، كما نشرنا نحن انفسنا اهداب وشاح الصلاة...

وسأضيف تفسيرا آخر يتفق مع «قَبَلَتْ» اسحق لوريا. لقد قال تلامذة هذا الاخير، بان «الطّالت»، هو الرمز الصوفي «للأنوار المُجَلّلة» والظل المذكور في (المزامير XXXVIII، 6) «انما يسلك لانسان في الظل». والحقيقة ان «النور المجلل» يقي الانسان من الشر. وكل من تدثر بـ«الطالت» مع «القصد» سينجو من النفي ومن قوى الشر...»

وقد عرفنا عائلات من بعض الطوائف القاطنة بالساحل المغربي، كانت لهم عادة تناول وجبة خفيف معداة من السمك و«ماء الحياة» يوم الجمعة قبل توجههم الى البيعة، بعد اشعال الانوار مباشرة. وكانت هذه الوجبة تسمى بالعبارة العبرية التالية «بُوئِي كَلاًّ» (تعالي ايتها العروس) وقد دخل هذا الاستعمال في الرطانة اليهودية العربية العادية.

ب – ليالي السبت التوسلية (بقشوت)

تجْمَعُ الرابطات ذات الصبغة الدينية في الطوائف اليهودية الكبرى المغربية، هواة الاغاني الاندلسية، والموسيقى اليهودية، خلال الليالي التي تعقد بعد منتصف الليل، يوم السبت، مدة الشهور الستة التي تفصل «سكوت» عن «الفصح». وتعمل هذه الجمعيات تحت «اسم الملك داود»، وتنتسب الى اسمه او الى احدى صفاته، فتطلق على نفسها اسم «جمعيات الملك داود»، او «جمعيات منشدي مزامير اسرائيل». ولكل من هذه الجمعيات مجموعة اناشيدها المكونة من «نوبات» «نوبة» «مقام» او «طريق»،وعددها اربع وعشرون غالبا. وهي تقابل القراءات التوراتية الاسبوعية تبعا للتقسيم الاسبوعي لنصوص التوراة، كما توخذ بعين الاعتبار «النوبات» الاضافية للسنوات الكبيسة المزيدة التي تتضمن الاسابيع الاربعة المزيدة في الشهر الثاني آدار. ويسير الرئيس «لَمْقَدَّمْ» حفلة السهرة كما يوزع ادوارها الموسيقية.

ومجموع الاغاني و«البِيُوطِيم» وداود القيم، بمساعدة ابن بلدتهم، حييم افرياط، ويتعلق الامر بالمنتخبات المسماة «شِيرْ يِدِيدُوت» (اغاني الحب والود). وتحدثنا فقرة من المقدمة عن طبيعة هذه المنتخبات وعن مشاغل اصحابها تقول :

«يلائم هذا الكتاب عرف استعمال الطوائف المغربية، حيث كانوا يسهرون من منتصف الليل الى الصباح، في ليالي السبت، خلال فصل الشتاء، لينشدوا المدائح ويمجدوا الهنا، بترديد مزامير داود، ونشيد الاناشيد للملك سليمان، ثم الالحان والاغاني والتراتيل التي نظمها كتاب من الاجيال القديمة والحديثة في فترات مختلفة من تاريخنا... وقد جمع القطع المقدمة ورتبها فنانون ومغنون من ذوي المعرفة ممن توفرت لهم التجربة الفنية في الموسيقى العربية».

ويضيف احبار مراكش الذين كتبوا المقدمة، المعلومات الآتية :

«يعود تاريخ هذه الامسيات السبتية الى عهود بعيدة. وترجع ذكرى هذه العادة الى ازمان كان اليهود يجيدون فيها التغني بالالحان المقدسة، كما كانت تغنيها الملائكة، وفي لغة السرفيم (ملائكة) الصافية. وقد نسيت اشياء كثيرة تحت ثقل النفي وهموم العيش واختفت

الى الابد، لان المعرفة كانت تنقل عن طريق المشافهة فقط... ولهذا السبب تعهد اساتذة الصويرة المشاهير، باتفاق مع الحبر الاعظم، بجمع منظومات شعرية في هذا الديوان، تبعا لمنهج موافق للقراءات التوراتية الاسبوعية، وفي اطار احترام التقاليد الموسيقية المقبولة...».

وتاتينا الشهادة الثانية من مكناس، ويتعلق موضوعها بالاشعار والاغاني التي تردد يوم السبت، شريطة ان تبقى هذه الممارسة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتجربة الروحية بل الصوفية. وقد وردت هذه الشهادة في الصفحة الاولى من كتاب وفي مقدمة منتخبات شعرية اختارتها بعناية، جمعية تسمى «جمعية النبي حزقيال».

تقول : «كان من عادتنا ان نستيقظ في منتصف الليل، لمدارسة المزامير وتسابيح الملك داود، وترديد الشكر وقراءة نشيد الاناشيد لسليمان بن داود، خصوصا في ليالي الاسبات، متابعين السهر بالغناء الى ان يظهر نور الفجر، ممجدين بهذه الطريقة الروح الثانية التي تميز قداسة السبت – الملك –، وعند خروج يوم السبت، وعندما تغادر هذه الروح الجسم، وتعود الى مكانها الاصل، فانه يحتفظ ببعض قداسة السبت، وذلك بمدارسة «المِشْنَه» (لان حروف هذه اللفظة هي نفس الحروف التي تكون لفظ «النّشَمَهْ» (الروح)، وبتراتيل خاصة بالنبي «إلْيَا» والملاك المخلص، والى سيدنا الملك المنقذ وداود... وهكذا نسبح عند حلول السبت ونبتهج عند خروجه».

2 – ختام السبت، شعيرة «الهَفْدَلَه»
او الفصل بين المقدس والدنيوي

تبدأ وتنتهي هذه الشعيرة التي تتم عند حلول الليل بعد صلاة الغروب، بطقس خاص، تصحبه اغاني الحبور التي تذكر بالخلاص. ويعبر عن هذه الافعال الاربعة التي تشكل هذه الشعيرة بموضوعها الاساسي الذي هو بالتتابع : مباركة الخمر، مباركة العطر الذي هو في بلدنا هذا، عبارة عن عروش الآس، ويحتفظ به من عيد الخيام، الصلاة امام النار او بالاحرى امام الضوء الذي يتولد عن النار، واخيرا المباركة التي تخص «الهَفْدَلَهْ» الفصل بين ما هو مقدس وما هو دنيوي : السبت والايام العادية.

وعندما كان داود حسين الذي عاش في مكناس في نهاية القرن 18، يحلل موضوع هذا الاحتفال في احد مؤلفاته الشعرية، فانه ركب من الحروف الاولى للكلمات العبرية التي تطلق على كل فعل من الافعال الاربعة التي تكون شعيرة الهَفْدَلَه» (الفصل)، كلمة «يَبْنِه» (لا تقرأ الهاء)» اي (ينشيء الله). ولفظة «يبنه» تشير الى موضوع اعادة بناء الهيكل بالقدس

في أيام الخلاص. ونذكر عرفا كان متبعا في الصويرة، يمارس في نهاية هذه الشعيرة، ويتضمن ذكر اسم النبي «إليّا» مع اللمس المتتالي لسلاميات الاصابيع، لمسا عدده عدد سلاميات اصابع اليدين.

ولنلاحظ هنا، بان التقاليد تربط النبي «اليا» ربطا وثيقا بشعيرة نهاية يوم السبت، جاعلة من هذه الشخصية التوراتية المتحولة الى ملاك، حتى في الوقت الذي لم ينته فيه بعد من مهمته الارضية الدنيوية، المبشرَ بـ«الميسي» (المنقذ)، والمعلنَ عن الخلاص. وهذه هي المواضيع المهيمنة في طقوس هذه الامسية، التي يمثل فيها النموذج المثالي. انه الوجه الميتولوجي الممجد في الف مقطوعة ومقطوعة، وفي الأغاني الشعبية، تلك التي كرستها له اجيال من الشعراء في عديد من اللغات اليهودية. انه البطل الذي تحكي قصته الف حكاية وحكاية من الفولكلور والقصص الشعبي وآداب الوعظ (هَكَّدَهْ وَمِدْرَشِيمْ).

وعليه يعود عرف ترديد امداح «الْيا» في نهاية يوم السبت، الى احدى هذه الاساطير التي تقول انه في تلك اللحظة بالذات، يجلس تحت شجرة الحياة، منشغلا بتسجيل حسنات الارواح الورعة التي تراعي قواعد السبت، بكل دقة... وانه فوق ذلك، هو الذي يخرج عشية حلول السبت، ارواح المذنبين من جهنم ليعيدها اليها في الغداة. وعندما يقرب يوم الراحة من نهايته، فانه هو الذي يقود هذه الارواح نفسها، عندما تكفر عن ذنوبها، الى مقر سعادتها الاخير. وترافق الصلاة امام النار بفعلٍ تفسره التقاليد تفاسير عدة، اذ يلزم في هذه اللحظة، ثني اصابع اليد اليمنى الاربعة، باستثناء الاصبع الاكبر، وتعريضها لضوء اللهب، وتركيز النظر على الاظافر مدة طويلة. وتعطي المذاهب الصوفية، على الخصوص، «الزُّهَرْ» (الكتاب II 207 ب و208 ب)، لهذا العمل، بعدا باطنيا. اذ تعتبر هذه اللحظة لحظة «الانتقال من المقدس الى الدنيوي». وتحول فيها قدرة ايادي النار الالهية المقدسة الى نار الملائكة التي تدبر الايام العادية... وفي هذه اللحظة تتقدم في الدار الدنيا، اربع عربات واربع كتائب لاستقبال ضوء النار المقدس، وهو ما يسمى بانوار النار...». وكان جدي يكتفي بان يقول لي : «انظر جيدا وسترى صورة النبي اليا»، وياما نظرت، وما كان للنبي اليا ان يظهر امام ناظري (5).

5 – يعد ظهور صورة طيف من الاطياف او ملاك من الملائكة على سطح عاكس، من العمليات الاساسية في السحر. وتستعمل لهذا الغرض، في المجتمع اليهودي المغربي، اكواب من الماء وشفرات لماعة من الذهب او الفضة او مرايا «سحرية» او مجرد ظفر صقيل مذهون.

III – اعياد الحج الثلاثة

يتعلق الامر هنا بثلاثة مناسك يرجع اصلها الى العهد التوراتي، وكان اليهود يحجون اثناءها الى القدس ثلاث مرات في السنة، لزيارة الهيكل، حيث تقام القرابين الشعائرية والهدايا تبعا لما جاء في النصوص التوراتية (الخروج XXIII 16–17) «وثلاث مرات تعيّد لي في السنة، احفظ عيد الفطير، سبعة ايام تأكل فطيرا كما امرتك، في شهر الاسبال (شهر «لَفرِك» كما يترجم في النص باللهجة المغربية) لا نك فيه خرجت من مصر. ولا تحضروا امامي فارغين، وعيد حصاد بواكير غلاتك التي تزرعها في الصحراء وعيد الاستغلال عند نهاية السنة عندما تجمع غلاتك من الصحراء، ثلاث مرات في السنة تحضر جميع ذكرانك امام الرب الاله...»

العيد الاول عيد «الفصح» اليهودي، والثاني هو العيد المسمى اسابيع (شَفُعُوت) ويصادف التاريخ الذي يظن انه كان فترة نزول التوراة على طور سيناء. والثالث هو عيد «سكوت» (الخيام).

وتخلد هذه المناسك الفصول الثلاثة : الربيع والصيف والخريف. كما تخلد ثلاث فترات رئيسية في التقويم الفلاحي. وقد اصبح لهذه الاعياد الثلاثة، سواء في الارض المقدسة، او في الشتات، منذ الفي سنة، دلالة نسكية، بل تصوفية. دون ان ينسى ما كانت تخلده من مناسبات تاريخية. يضاف الى ذلك، البعد الفلكلوري الذي اصطبغت به، حيث يبرز العرف المحلي، والمتخيل الاجتماعي، وعبقريات المحيط، وهي جميعا تأخذ حصة الاسد من هذه التظاهرات التي تميز الاحتفالات الثلاثة الكبرى.

1 – الفصـــح

يَعرف هذا العيد عند الطوائف المغربية، إعدادا طويلا ودقيقا. اذ يبدأ اعداده في الواقع في الصيف الذي قبله، عند جمع القمح الخاص بصنع الفطائر، جمعا مراقبا مراقبة خاصة، ويحفظ بكل عناية من الرطوبة، بعيدا عن كل شيىء يمكن ان يجعله غير ملائم للفصح. ويكثف هذا الاعداد عندما يبقى للفصح حوالي ثلاثين يوما. ويعد صنع «المَصُّوت» (الفطائر، الرْغَايْف) كما تسمى باللغة المتداولة، في حد ذاته عملية معقدة. اذ تفحص النساء (واحيانا الاطفال) القمح حبة حبة في الغربال، لازالة الحصى وحباة الشعير وكل حبة مسوسة، ويباشر بتنظيف المطحنة والفرن حسب الطريقة الدينية، كما يمتح الماء في الوقت الملائم (في غروب الشمس)، ويحفظ في الاواني الموصوفة (في الجرار الجديدة المغطاة بنسيج دقيق)، ويراقب

العجين مراقبة دقيقة، ثم تنضج الفطائر مباشرة قبل ان تظهر عليها اية علامة للتخمر.

ويلزم التقيد تقيدا شديدا من جهة اخرى، بعدد هائل من القواعد والاوامر، وينبغي

تطبيقها تبعا لطقس حددته الشريعة والعرف والعادة، خصوصا تلك التي تتعلق بنظافة البيت : فالجدران مطلية بالكلس ومصارع الابواب والنوافذ مغسولة وادوات المطبخ جديدة او مطهرة بالنار او الماء الساخن الخ... ويمر الكل بدقة شديدة حسب شريعة الطهارة (كَشْرُوتْ الْكَشِيرْ، في لغة يهود المغرب)، قبل حلول الفصح الذي يستقبل بلباس جديد في اللحظة الاحتفالية من الليلة الاولى.

أ – ليلة الفصح : «السّدِرْ» وَ«الْهَكّدَهْ»

يحتفي بذكرى الفصح اليهودي بين 14 و22 نيسان، اي مدة ثمانية ايام، وهي المدة الشرعية القانونية للعيد في الشتات (سبعة ايام في الارض المقدسة). ومع ذلك فان الليلة الاولى ليلة «السّدِر» هي التي تكون الفترة المهمة واللحظة الطقوسية المفضلة، تلك التي تكرس، تبعا لتقليد جد خاص، لاحياء ذكرى حدث رئيسي في التاريخ اليهودي، الا وهو الخروج من مصر، وتحرير الشعب العبري من الطغيان الفرعوني (انظر سفر الخروج الاصحاح XII). ويتم ذلك بقراءة «الهَكَدَهْ» (قصة الخروج من مصر) و«السّدِر» (الترتيب او التوالي)،وهو مجموع الاربعة عشر طقسا المتعلقة بليلة الفصح،وترتب حسب تقليد موصوف في الشريعة، وتكوّن قراءة «الهكّده» الطقس الخامس منها، وهو الذي يهيمن في الواقع على هذا الاحتفال. وتحتل معجزة الخروج من مصر، مكانا جد مهم في الكتاب المقدس، اذ يربطها بالاحداث الاكثر بروزا في تاريخ العبرانيين، ويجعل منها الدافع الرئيسي للوصايا الاساسية في الشريعة، كما يجعل منها اسس القيم الاخلاقية الكبرى للديانة اليهودية. وهكذا يرتبط نظام سرد احداث القصص التوراتي والمحيط التشريعي بفكرة التحرر والخلاص، وهي جميعا تعطي الى هذا العيد بعده الاخلاقي والروحي. ويمثل طقس عيد الفصح في شكله «ليلة السدر»، طابعا خاصا، اذ جرت العادة بان تقام كل الاحتفالات الدينية الكبرى بالبيعة، ووسط جمع المؤمنين المقدس حتى تكون مقبولة،في حين اننا نجد طقس «السّدِرْ» على العكس من ذلك، وبالرغم من اهميته، احتفالا خاصاً بالعائلة، يلعب فيه الاطفال الدور الاول، ويجري داخل البيت الذي يصبح موقتا، هيكلا حقيقيا مذبحة مائدة «السّدِرْ»، ويلعب فيه رب الاسرة دور الحبر والواعظ، ويسير الشعيرة، ويرسخ في اذهان ابنائه، التعاليم التي ترتبط بـ«معجزة الخروج من مصر». ومن المحتمل ان يكون هذا الطابع العائلي الخاص، هو اصل الخرافات المتعددة، والعادات

والاعراف التي ترافق احتفال «السدر» وكل مايرافقه من طقوس. ونظرا لجهل الاطفال والنساء باللغة العبرية، لغة العبادة، ترجمت «الهَگّدَا» الى لهجات كل البلدان التي اقامت فيها طوائف يهودية، سواء في الشرق او الغرب. وقد اوصت بهذا النهج التعليمي، كل السلطات الدينية في الشتات، وكذا في فلسطين، حيث لم تعد العبرية لغة تواصل منذ القرون الاولى من تاريخنا. وتوجد ترجمات «للهگدا» في اللغات الالمانية والانجليزية والعربية والفرنسية والايطالية والاسبانية، وفي اللغات السلافية... وتعرف في المغرب عديد من الترجمات الشفوية في العربية وفي القشتالية القديمة (نقلها مهجرو اسبانيا معهم سنة 1492)، وتوجد ترجمة بربرية بتنغير، واخرى بلغة «تَشَلْحِيت» في سوس. وهناك عديد من هذه الترجمة العربية والاسبانية، وتطبع عادة مع النص العبري. وبالفعل، فقد جرت العادة، ليلة الفصح، في كل بيت من بيوت اليهود، ان تُتبع قراءة كل فقرة من النص العبري، بترجمته للغة المحلية، وهو استعمال متبع حتى عند بعض العائلات التي لم تعد هذه اللجهة مستعملة في معاملاتها اليومية. وقد اصبحت ضرورة الترجمة، شعيرة مقدسة في تعليم النصوص التوراتية، في حين ان ترجمة «الهگده» ظلت مجرد عرف.

و«للهگاده» شعبية كبيرة لم تحظ بها بقية النصوص الدينية الاخرى. كما ان لها انتشارا هائلا لدى المجموعات اليهودية المغربية.

ب – بعض العادات المحلية

يبدأ نص «الهگّده» كالتالي : «سراعا خرجنا من مصر»، وقد جرت العادة في الصويرة وغيرها، اثناء تلاوة هذه الجملة، بإدارة طبق «السدر» ثلاث مرات على رؤوس الحاضرين، بعد ان يضعوا فيه وضعا خاصا، الفطير والعشب المر وعظم خروف (رمز للحَمَل الفصح). ويمثلون في تافلالت وفي الاطلس، مشهد «الخروج السريع من مصر» اذ يغادر الرجال دورهم وعلى اكتافهم عصا ربطت بآخرها صُرة ثم يجرون ويصيحون : «هكذا خرج اجدادنا من مصر».

وجرت العادة في المغرب، اثناء القيام بالشعيرة الرابعة التي هي «شق» احدى الفطائر الثلاث الموجودة على طبق «السدر»، ان يتلى بالعربية دون غيرها، النص التالي، الذي يصف انفلاق مياه البحر الاحمر، وهو :

«هكذا فلق الله البحر اثنى عشر مسلكا، عندما خرج اجدادنا من مصر، تحت زعامة سيدنا ونبينا موسى نسل ابراهام، عندما انتقذهم وخلصهم من الاعمال الشاقة وحررهم،

وهكذا سينقذنا ويخلصنا من هذا النفي حبا في اسمه الجليل والجلل.» ثم يسلم الاب نصف الفطير الى احد افراد العائلة الذي يخفيه في مكان مكين حتى نهاية الوجبة، وهي اللحظة التي يجب ان يأكل فيها (الشعيرة 11 من السدر (6) وبعدها يستدعى الجوعى والمحتاجون الى تناول خبز العوز والاحتفال بالفصح. وهذا هو السبب في عادة ترك الابواب مفتوحة، والتلفظ بالجملة الآتية قبل بداية الوجبة : «ليأت المعوز الى تناول...» وتنتهي تلاوة هذا النص من الفقرة الاولى بالامنية التي عمرت مايزيد على الف عام : «العام المقبل موعدنا بالقدس» «بماذا تتميز هذه الليلة عن الليالي الاخرى ؟»

يتابع النص. ويتعلق الامر هنا بـ«الاسئلة الاربع» التي يلقيها الابن على ابيه لمعرفة معنى «شعائر الفصح». وتوجد اصول هذه الاسئلة بدءاً في «العهد العتيق». ولكي نفهم السؤال الاول، علينا ان نضعه في اطاره التاريخي الذي وضع فيه، وهو عهد التلمود، وعندها لم تكن عادة تناول الخضر النيئة المغموسة في الماء المالح او الخل، قبل تناول الوجبة، معروفة. تميز هذه الليلة عن باقي اخواتها «نغطس مرتين» الكرفس في الماء المالح، والعشب المر في «لْحَرُشِيْ» (وهو مربّى خاص من الفواكه يرمز الى الطين). وتتعلق الاسئلة الثلاث الاخرى بتناول الفطير والعشب المر وطريقة وضع الشخص اثناء تناول الوجبة، اذ بدل ان يتناولها وهو جالس، فإنه يتكيء الوسائد، وهو على جانبه الايسر، انه حر. ولا يحدث هذا الا في هذه الليلة، ليلة احياء ذكرى عيد التحرر».

ويقرن الاستعمال الموالي بقراءة البلايا العشر، وكلما تلفظ باسم بلية يلقي رب الاسرة قطرة من الخمر، وربة الاسرة اخرى من الماء في اناء يفرغ فيما بعد في المجاري، او يلقى بباب المنزل. (وهو طقس يُتبع لاجتناب البلايا التي تلفظ باسمها، او رأفة بالضحايا المصريين).

وتتبع قراءة «الهگده» التي تتوقف، خلال الوجبة، بقراءة «الْهِلّل»، (التسبيح) (مزامير شكر الله، وحمده 115-118) وحَدْ گَدْيَا (مَثَل الجدي)، واغاني مختلفة بالعبرية والعربية والبربرية والقشتالية. وقد جرت العادة بان يترك باب الدار مفتوحا عند استيئناف الطقس، لكي يتمكن النبي «اليا» من الدخول (او ليظلوا على حذر حتى لا تدس جثة الطفل القتيل في المنزل، وهي الدليل المادي على الضحية الشعائرية التي كانوا يَتهِمون بها اليهودَ في البلدان المسيحية في العصور الوسطى).

6 - تتمثل هذه الشعيرة لدى بعض العائلات في مشهد «البحث والعثور» ويقوم الاب واحد ابنائه الذكور بالمشهد.

جـ - اختتام الفصح : ميمونة او «اليُمْن»

اننا هنا امام احتفال مزدوج ذي قطبين، ينفرد بمشكله الخاص به، الا وهو اصوله المبهمة وتاريخه الغامض، مثله مثل كل ما يتصل بالتظاهرات الكبرى للمتخيل الاجتماعي اليهودي المغربي، او كما هو الحال في المناسبات الاخرى المختلفة مثل (الولادة والزواج والموت).

وقد بذل الاحبار التقليديون جهدا لتبني هذا الاحتفال، جاعلين منه احتفالا دينيا، ومضفين عليه صفة طقس خاص، وصفة شرعية دعت اليها دواعي ذكرت في الآداب اليهودية التقليدية (نصوص توراتية، اساطير تلمودية وعظات...).

ونعتقد انه ينتمي اكثر فاكثر الى الصورة الاجتماعية الثقافية المغاربية، والى المحيط المحلي المباشر، كما تشهد على ذلك معظم التظاهرات الشعبية، والطقوس والاعراف والعادات التي تطبعه، والذي يظهر انها استعارت من فلكلور محلي قديم، هذا الحيز التكافلي، حيث يلتقي اليهود والمسلمون طواعية، وحيث تتجلى مظاهر التعبير عن المصير المشترك، في العديد من المناسبات المفضلة لدى كل منهم، على ارض عمرها هؤلاء واولئك،منذ اقدم العصور؛فارتبطوا بها ارتباطا وثيقا.وقد فسرت اللفظة «مَيْمُونَة»، وهو الاسم الذي يطلق على هذا الاحتفال، تفاسير عدة، واكثرها عشوائيٌ، لأنها تستعمل غالبا لتكون قاعدة للدور الايديولوجي الذي اريد اسناده الى هذا العيد. والربط بين اللفظ العربي «مِيمُونة»،والعبري «إمُونَة» (ايمان واعتقاد)، والذي هو هنا مجرد وهم،مثال على ذلك.

واذا كان الفصح ذكرى الخلاص التاريخي من النير المصري، فانه كذلك مناسبة «للايمان والاعتقاد» بالخلاص في المستقبل، في نهاية النفي، ورجوع الشعب اليهودي،كما بشر بذلك، الى ارضه. وانه بالاضافة الى ذلك، هو الدلالة التي يعطيها التقليد الربي لطقوس اليومين الاخيرين من الفصح والتي تتفق وقراءة النشيد الذي غناه موسى مع بني اسرائيل، بعد اجتياز البحر الاحمر (خروج XV) ونص الانبياء : رؤى اشعياء المبشرة بالخلاص، (الاصحاح XII/X). وارجاع اصل اللفظة الى ابن ميمون هو وهم ايضا. وقد ترك موسى بن ميمون، الذي يعتقد انه اقام بالمغرب بعد فراره من قرطبة، ايام اضطهاد الموحدين (منتصف القرن 12)، آثارا عميقة في الذاكرة اليهودية المغربية. وقد كان لهذه الحادثة ان تركت حكايات عجيبة واساطير تردد صداها عند اليهود عامة.

ولازال المظهر الاساسي الديني «الميمونة» ملاحظا في الطقس الخاص بالامسية التي يُختتم بها عيد الفصح، حيث تدمج النصوص التوراتية (الامثال) ونصوص من المشنا (فصل الآباء)

واشعار تعليمية خاصة «بشفعوت» (الزهروت) الخ... ويتضمن الطقس الذي يأتي بعد صلاة الغداة المسمى «بِرْكَتْ هَاإِلَنوتْ» (مباركة الاشجار)، التوجهَ الى الحدائق الواقعة خارج مداخل المدينة، وغالبا ما تتم شعائر هذا الطقس تحت شجرة كرم لم تنضج فاكهتها بعد، كما في الصويرة، او تحت زيتونة كما في مراكش. وذلك امتثالا لاوامر تقليد تلمودي (يرخت ب 43) يامر بالذهاب الى الحقول في شهر نيسان لاقامة الصلوات وترديد الحمد لله شكرا على عطاء الشجر وخيره.

ويتجلى المتخيل الاجتماعي اليهودي المغربي، والبعد الفولكلوري المحلي لميمونة بوضوح، في التظاهرات الشعبية المختلفة المتعددة، وفي الطقوس التي نكتفي هنا بالاشارة اليها دون تفصيل، وهي التي تتعلق اساسا بالرجوع الى الطبيعة والخلق الجديد وما هو جديد. وفي العلاقات مع المجموعات الاثنية والدينية الاخرى، وفي الاعتماد على تدخل القوى الخارقة...

ويرتبط الموضوع المركزي بالمعنى الشعبي الذي يدل عليه لفظ «ميمونة» وتسمى هي ايضا «للاميمونة» (سيدة الحظ) في عبارة المتمنيات «تَرْبْحُو وَتْسَعْدُو» التي تردد اثناء اللقاءات والزيارات والتفقدات التي تجرى طيلة الليلة واليوم الذي يليها.

واذا كان «مَيْمُون» هو ملك الجن، والقوة الخارقة التي تبت حتما في المصير، والذي يلتمس فيه الخير، فان «للا ميمونة»، هي الولية التي ترجى، بل الالوهية التي توزع الخصب والنجاح والسعادة والرخاء، وهما معا بالاضافة الى ما سبق، مقصد المجموعتين الدينيتين المتجاورتين : اليهود والمسلمين.

ولقد ارتبطت السعادة والرخاء في هذا الفصل بإعادة الخلق والتجدد، ويمكن ان نرى فيه رمزه ومادته في البيوت المزينة بالاخضرار، وعلى «الطاولة المقامة» التي اعدتها سيدة البيت بمناسبة هذه الليلة العظيمة،وعليها : السمك وسنابل الشعير والقمح وعروش الفول والخس والفواكه والحلوى والحليب واللبن والسمن والعسل واناء مملوء بدقيق القمح، واكواب مليئة بزيت صاف تلمع فيها الحلي وقطع الذهب والفضة. وقد جرت العادة، في اغلب الاحوال، ان يقدم الجيران المسلمون كل هذه الامور، لتكون عربونا على الصداقة، كما جرت العادة بان يتبادلوا الهدايا في مختلف المناسبات.

ويقوم الاب، او الجد اذ كان لايزال على قيد الحياة، بعد رجوعه من البيعة، حيث صلى صلاة المساء «عَرْفيت» باول طقس، وهو مباركة افراد العائلة فردا فردا، وذلك بوضع يده اليسرى على الرأس، في حين يقدم لهم باليد اليمنى ورقة من الخس مغموسة في العسل، فجرعة من الحليب. ثم يأتي دور الشعيرة الثانية، وهي شعيرة تمثل اعادة الخلق والبدء، ذلك

الذي يعيد اسطورة العودة الابدية، والتي تتمثل في تهييء خميرة جديدة، وهي عجين يترك عدة ايام ليختمر تخمرا طبيعيا دون ان يضاف اليه اي نوع من انواع الخميرة. ويحتمل ان تؤكل اثناء هذه الايام، في شكل خبز لم يختمر عجينه او لم يتمم اختماره. ويخلط الدقيق بالماء في قصعة من طين او نحاس احمر، حيث يضع كل فرد يده في العجين، ويرمي بقطعة حلي او ذهب او فضة، بينما يردد الرجال في جو من الجلبة نشيدا بالعبرية او العربية او القشتالية او البربرية. وتزغرد النساء، وترفع اصوات بهجتهن الصاخبة. ثم يغطي الكل بخرقة من صوف او منديل من حرير... وجرت العادة بان يكون العشاء من فطائر «مَفْلِيطَا» بالسمن والعسل وتقدم للضيوف والقادمين كمية من حلوى من اللوز والزبيب (تسمى في الصويرة مسا بانس والحلوى، وفي مكناس لمرونة...). وترتدي النساء داخل البيت ملابس العرس التقليدية الفاخرة «الْكَسْوَة لَكْبِيرة»، كما تتزين الفتيات باجمل حليهن. وفي الواقع،فإن في هذا المساء، مساء ميمونة، مساء المصير، و«مَزَّلْ طُوفْ» (الحظ السعيد) يتم اختيار الازواج.

وتجدر الاشارة الى ان العادة توصي بان يسكب الحليب على اعتاب كل الغرف، وانه يسمح للاطفال بان يجلدوا اباءهم بفروع من اغصان الشجر او بسيوف قديمة.

وفي الخارج، انه الكرنڤال، الاحتفال الكبير : جماعة نشيطة من الشباب تقطع دروب الملاح، وفساتين الفتيات المرقشة تنافس لباس الشباب التنكري، يافعين وكهولا، جميعا يتنكرون في هذه المناسبة، في ثياب النساء، او يتبخترون في لباس عربي، يحملون الطربوش او الشاشية الحمراء، ويرتدون الجلباب الملون، او «فرجية» من نسيج طبيعي ذات عقد من حرير، واحذية (بلغة) بيضاء او صفراء.

وهكذا يحاول اليهود ابداء الرغبة العميقة في التحرر الاجتماعي والسياسي، وذلك بالقيام بعملية التنكر هذه التي يحاولون بها التشبه، عن طريق اللباس، بالجار البورجوازي المسلم، هذه الرغبة التي تتلاءم والحالة هذه، مع الخلاص الديني والمسياني. ويظهر ان لهذا العيد الكرنڤال علاقة بعيد «سُلْطَان الطُّلْبَة». ومن المستغرب ان ينعقد هذا العيد في نفس الفترة بفاس، في اوساط الطلبة، لاحياء ذكرى انتصار السلطان المؤسس للدولة العلوية (في القرن 17) على ابن مشعل رئيس قبيلة اليهود الذي روع المسلمين في نواحي تازة، انظر :

P. de Cénivel, Légende du Juif Ibn Mesh al et la fête du Sultan des Tolbas, à Fès, Hesperis V, 1925, P. 137/218.

وتتابع الاحتفالات الى آخر الليل. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، تهيىء زيارات الحدائق والرحلات الى البوادي، حيث يتخذ المحتفلون اماكن قرب المياه، تبعا لما أمرت به

لشريعة (قرب عين الماء او الابار او الجداول). ويتناولون الوجبات فوق العشب. اما في المدن الساحلية، فانهم يفضلون النزول الى البحر حيث يغطسون الاقدام في الماء، ويتناولون الطعام فوق الصخور او على الرمال في جو يملؤه الغناء والرقص. انها ايضا طريقة يحيون بها عودة الربيع، فيقتحمون الخضرة والطبيعة النضرة التي لا وجود لها بتاتا بين جدران الملاح المغلقة، انها محاولة مؤقتة لتحطيم الاسوار العالية التي يعيشون داخلها، وانها ايضا لمظهر يظهرون به، بالرغم من ظروف عيشهم المعتادة، ليدلوا على انهم لا يختلفون عن الاخرين، وانهم يرتبطون بالارض وبكل ما خلق الله. ويشهد هذا ايضا، على التوافق القائم مع المحيط الفكري وهو ما يلاحظ زيادة على ذلك، في الاعراف والتظاهرات الشعبية والمتشابهة في المجتمع العربي البربري المسلم، وفي التشابه الطقوسي المدهش الخاص بالماء،(وفي المناسبات السنوية الاخرى التي يحتفل فيها بالنار) كما سنرى ذلك. وستكرر طقوس الماء هذه (الاستحمام والنضح الاجباري) عند اليهود، في عيد «شڤعوت» (الاسابيع) الذي يصادف اذ ذاك عيد «العَنْصَرة» الذي يعرف هو كذلك طقوسا خاصة بالنار والماء.

ولايعترض المسلمون على اجتياح اليهود لحقولهم، وما بها من عيون ماء ومجاري، لانهم يعتبرون هذه الزيارات في هذه الحالة، علامة على البركة، وضمانا لسنة ممطرة تحمل عطاء وافرا، بل تعد احيانا هذه التنزهات مقدما، فيدعي اليهود لزيارة ضيع اصدقائهم وجيرانهم المسلمين، لاحياء عيدهم الريفي «ميمونة» ولاحياء نزهاتهم وشربهم، كما تشهد على ذلك شهادات من مراكش ووزان وصفرو وتافلالت واماكن اخرى... وتتردد في هذا الصدد، اساطير وحكايات لطيفة تتحدث عن الظروف التي ينقب فيها المسلمون عن موارد ماء، لتكون خاصة بمكان يلهو فيه اليهود يوم «ميمونة»، ونكتفي هنا بهذه الحكاية :

«كان لاحد المتعجرفين المسلمين، يسمى لجودي، بنت فاتنة واشتدت به الرغبة ذات مساء فاغتصب بنته، وفي اليوم التالي تراءت له فداحة جريمته، فاستفتى شيوخ القبيلة وشيوخ القبائل الاخرى القريبة، في الطريقة التي يمكنه بها ان يتوب ويغفر له، فكان جوابهم : عليك ان تشق بنفسك ساقية طولها مسيرة اربعة ايام، فهذا هو العمل الكفيل بمحو خطيئتك. وبدأ الجودي شق الساقية الى ان انهى العمل. وهذه الساقية هي التي تجر الماء من العين التي تسقي مدينة الصويرة، التي يسكنها كما هو معروف، كثير من اليهود، ولهذه العين يتجه اليهود للتنزه في عيد «ميمونة» عندما لا يذهبون الى البحر.»

ومن اللازم علينا ان نختتم الحديث عن ازدواجية احتفال نهاية الفصح اليهودي هذا، وعن ثنائية هذا العيد المدعو «ميمونة»، حيث نلاحظ اولا تجلي البعد التاريخي المسياني،

والخلاص الذي جعل منه احتفاءا دينيا يهوديا، وثانيا، ارادة الاندماج في المحيط الاجتماعي الثقافي، والارتباط قدوة بما هو محلي، بالارض وبالآفاق وبالمحيط الطبيعي الذي يعرفه هولاء السكان.

ونجد المسلم في غالب الاحيان، مشاركا ومساهما باوفر نصيب في احياء هذه الطقوس التي تطبع هذا الاحتفال، وفي الاعداد لهذا العيد، وما يجري فيه من اعمال، ويوجد احيانا في قلب هذا الطقس الذي يلعب فيه دور البطل بل النموذج المثالي.

وتعد «ميمونة»، كباقي التظاهرات الفلكلورية التي تعرفها اليهودية، مثلها مثل كل الاعمال الادبية الشعبية والشفوية التي ابدعها هولاء اليهود، عاملا مكملا وتضامنيا داخل المجموعة اليهودية نفسها من جهة، وداخل الاطار العام لباقي السكان دون تمييز اثني او ديني من جهة اخرى. وبالرغم من ان اليهود التقليديين كانوا يرغبون في اضفاء صفة اليهودية على هذا العيد، تبقى ميمونة مجالا لتأكيد الروابط العميقة التى تربط الاقلية اليهودية بالاكثرية المسلمة، ودليلا على وجود ارضية للوفاق، حيث تتواجد المجموعتان وتلتقي هنا، كما في الاحتفالات الاخرى المشابهة المتميزة بطقوس متشابهة، انه تأثير متبادل، علينا ان نأخذه بعين الاعتبار. ان ميمونة تكون احد عناصر المساواة الرائعة والتعايش المنسجم، وهي خلاصة سلم دام قرابة الفي سنة، على هذه الارض المعطاء من المغرب.

وفي الختام، علينا ان نلاحظ ان «ميمونة» هي العيد اليهودي المغربي (المحلي) الوحيد، الذي احتفظت به الطائفة المغربية، وحملته معها الى اماكن استقرارها الجديدة في فرنسا وكندا وفي امريكا الجنوبية، فقد حمل منه المهاجرون معهم ذكراه،واحيوه في كل مكان بابهة وعظمة بل اصبح له في اسرائيل طابع العيد الوطني، فاتخذ منه المقيم الاشكنازي نفسه عيدا له، دون أية افكار سياسية مسبقة.

2 – عيد الاسابيع (شَفُعُوت)

ينبغي التفرقة بين الاحتفال الديني، مع ماله من طقوس وشعائر تعطي لهذا العيد صداه اليهودي العام من جهة، وبين العرف والعادة المستوحيين من الطابع المحلي الذي يغرف من مناهل المتخيل الاجتماعي التي تعطيه طابعه المحلي اليهودي – المغربي من جهة اخرى. ومن البديهي ان يرتبط الاحتفال الديني بالمقومات الفلكلورية، ارتباطا وثيقا في الاحتفال بالعيد. ولنتناول من هذه المقومات بعض افكارها الرئيسية الكبرى وبواعثها الهامة :

يعتبر عيدُ شڤعوت «عيدَ نزول التوراة» ويتناول مفهومه هذا، كل ما له من رمز صوفي وطقوس خاصة، وما يختص به من اعراف الاطعمة، وبالخصوص، ما يتعلق بالشعائر الشعبية الخاصة بالماء وبالتطهير المرتبط بقراءة «الازهروت».

أ – نزول التوراة «مَتَنْ تُورَهْ»

سنتعرض الى المواضيع المتعلقة بنزول التوراة وتجلي الاله على طور سيناء، وما ارتبط به من تظاهرات كبرى، وبالعهد المعقود بين الله وشعبه في «ذلك اليوم السادس من شهر سيوان من العام 2446 من بدء الخليقة (7)». ولن تتعرض، كمعظم الادبيات التي كتبت بعد العهد القديم، الى الطابع الموسمي لهذا العيد، ومكانه في التقويم الفلاحي الذي عزته اليه التوارة، باعتباره عيدا للبواكير والحصاد.

ولم يهتم المؤلفون المغاربة انفسهم (شعراء ومفسرين ووعاظا) قط بهاتيك الاعتبارات، وقد استوحوا جوهر مادتهم من ادبيات ما قبل العهد القديم، وبالخصوص «المِدْرَاش» ومن علم رموز «الزهار» ومن «القبالة» (التصوف) على مذهب لوريا، طبقا للتقاليد المتبعة منذ ان استحود علم الباطن والادبيات الصوفية على النصوص المقدسة والطقوس، لطبعها (غير انه تلزم الاشارة الى ان الرعيل الاول من سكان المستوطنات اليهودية (القبوتس) قد احيى التقاليد التوراتية، وجدد المدلول الفلاحي الذي اعطى لهذه العيد، منذ نهاية القرن الاخير).

وقد عنون احد الشعراء المغاربة من مكناس، من النصف الثاني من القرن 18، مجموعة من الاشعار الخاصة «بشفعوت» (الاسابيع) «وقول هَتُورْ»، ومضمون هذا العنوان متعدد المعاني، فهو حرفيا يعني صوت القمرية (طائر)، كما جاء في نشيد الاناشيد (II 12). ولكنه يعني ايضا، يضيف المؤلف، صوت الروح القدس، الذي تردد على طور سيناء، ممليا الوصايا العشر، وموحيا التوراة. ولفظة «تُوره» (التوراة) تتضمن بالاضافة الى ذلك، كلمة تُورْ (الطائر) الموجودة في العنوان. ويدل الموقف امام طور سيناء من جهة اخرى على الاتصال الذي حدث بين الله وبين بني اسرائيل، ويؤكد اخلاص الحب المتبادل الذي تعتبر القمرية رمزاً له. وقد وصف شاعر مغربي آخر من فاس، عاش بعد الشاعر المذكور (القرن 17–18) وهو يعقوب ابنسور، مشهد طور سيناء قائلا :

7 – يؤرخ المؤرخون لتجلي طور سيناء بالقرن 13 ق م. اما التاريخ المذكور هنا فهو من باب ما جاء في الاساطير، وقد اخذ اعتمادا على ما كتبه شاعر فلسطيني، ظهر في القرن 16، وهو اسرائيل نجارا من «زِمِرُوتْ يِسْرَائيل» (اغاني اسرائيل). فنيزيا 1599، الورقة 114 (عقد زواج الاسابيع) وسنتعرض له في ايجاز.

صخرتي متألقة والوحي يهبط على سيناء
واسمه المقدس يبارك بكل حب ارواح الناجين من شعبي
ومن علياء سمائه قد امال جَلَد مجده
واستوى ينشر السحاب على الطور حيث اختار عرشه
وقد خط على الواح الصخر شريعة من نار لشعب وحيد
فلتاتوا الى رواقه مغنين مسبحين يا اخواني /يا ايها الذين يومنون بما اومن.

وقد بسط يعقوب ابنسور في قطعة اخرى في اسلوب اكثر سذاجة، نتيجة لِما اوحت له الاساطير، فكرة، مجمل القول انهاأصيلة، اذا ما قورنت بتقاليد اخرى غيرها : عندما تردد صوت العلي على طور سيناء ملزما بني اسرائيل بالخضوع للشريعة التي سينزلها على موسى، تشبث هؤلاء بحضور الحضرة نفسه امامهم، رافضين اي وسيط انساني.

وقد اخذنا من هذه القطعة الشعرية الطويلة، وهي من نوع الموشحات، قفلها واواخر مقطوعتيها اللتين هما عبارة عن ترديد لجواب القفل :

انتم جميعا يا اخواني، ابناء عهدنا، اسمعوا شريعة الهَنا.

فيجيبون : من فم رجل مثلنا شبيهنا، لانريد ان نسمع شيئا، لن نسمع الا من فم جلال عزتنا.

ليس هذا هو الذي طلبنا، اجابوا، نريد ان نرى مالكنا.

فقد فصل الشاعر فكرة التوراة «(التوراه) الاولية»، في قصيدة اخرى نظمها لتغنى في الوقت الذي تُخرج فيه لفائف الشريعة من التابوت المقدس، وقد وصفها فيها كالتالي : «مجللة بالعزة والجلال،... قبل ان يخلق اي مخلوق، طفل الخالق الاول المغنج... كلماتها من عسل لذيذ، اكثر عذوبة من رحيق الأزهار، واكرم من الجواهر، مصفاة من قطرات المر...»

وتُمجد قصيدة شعرية تعليمية اخلاقية، نظمت لتتلى اثناء الطواف بلفائف الشريعة، في البيعة، التوراةَ وتصف تعاليمها، وقد اقتبست لحنها من اغنية اسبانية تبدأ بهذه الكلمات : «متفتحة كانت الوردة...»

وتنشد معها اغنية عبرية اسبانية، تتناول نفس الموضوع السابق وتغنى في البيعة، طبقا لتقليد اتخذته الطوائف المهجرة ذات الاصل القشتالي منذ تاريخ قديم. ولقد ادرجنا نص هذه الغنوة الكامل، وهي اغنية تتكون من افتتاحية وسبع رباعيات، في كتابنا الشعر اليهودي في الغرب الاسلامي (ص 353-354).

ب – الرمز الصوفي لـ«شفْعوت» : تِقُّونْ (تقويم) و«كْتُوبَهْ» (عقد زواج)

– «التقون» «السلوك من أجل اقامة تناسق شامل».

توجد لحظات مفضلة للقيام بالطقوس الصوفية مثل احياء السهرات، وهي جلسات ليلية تخصص «لقراءات» صوفية، مثل سهرة «منتصف الليل» (تِقُّونْ حَصُوتْ) التي تذكر بنفي «الشخينة» (الحضرة الالهية) وسهرات «هُشْعَنَهْ رَبَهْ» (الاتكال التام) لليلة السابعة من الفصح، والليلة الاولى من شفْعوت، وتتميز ايضا «بِتِقُّون» (بتقويم)، وهو طقس خاص واحتفال بـ«التقويم» او صيرورة «اعادة بناء» التناسق العلوي، وهو احد مظاهر تأثير القبالة، مدرسة اسحق لوريا، ومظهر من مظاهر انتشار التعليم والعادات والاعراف التي نشأت في الحلقات الفلسطينية بصفد، لدى الطوائف المغربية. انها الليلة المسماة «بلِيلَةْ لَقْرَايَا» في العامية المحلية، وتحيى السهرة حتى مطلع الفجر، فتقرأ نصوص مختارة من العهد القديم، ومن «المشنا» و«الزهار»، وترتل الاناشيد ايضا في البيعة او في بيت من البيوت، ويعد هذا الاحتفال ايضا احتفالا شعبيا للغاية، لانه مناسبة يتفقه فيها الاطفال كذلك، بمشاركتهم في المآدب الصغيرة التي ترافقه، اذ يوزع الشاي والقهوة والفواكه المجففة والحلويات طوال الليل.

وليس بين فكرة العهد الالهي مع جماعة بني اسرائيل، وفكرة اتحاد الزواج، بالنسبة للقباليين الا خطوة واحدة. ويحكي «الزهار» ان الربي سيمون بريوحاي واصحابه كانوا قد اعطوا بعدا صوفيا ومدلولا باطنيا، ذوي اهمية كبرى، لليلة الاولى من هذا العيد، انه في تلك الليلة بالذات، تستعد الخطيبة للزواج الذي سيتم في الغداة، وهذا تعبير نص الزهار (زهار I 8 أ) : «كان الربي سيمون جالسا يدرس التوراة في تلك الليلة، حيث كانت الخطيبة تستعد للاتحاد ببعلها. لأننا علمنا ان على كل حاشية ابناء قصر الخطيبة ان يبقوا بجانب هذه الاخيرة، طيلة تلك الليلة التي تستعد فيها لتلتحق الغداة ببعلها لتظلهما قبة بيت الزوجية. وعليهم ان يتمتعوا معها بزينتها التي تعدها، يعني ان ينكبوا على درس التوراة، بدءا من اسفار الإخماس الى اسفار الانبياء، ومن الانبياء الى المكتوبات. يفسرون الآيات، ويتعمقون في اسرار الحكمة. فتلك حقيقة، هي اعداداتها وافراحها وحليها. وعندها تدخل الخطيبة ووصيفاتها يتبعنها، فتتباهى وتمرح كل تلك الليلة. ولا يدخل احد الغداة بهو رواق الزوجية الا في رفقتها، واولائك الرفقاء والرفيقات هم الذين نسميهم «ابناء العرس». وما ان تدخل الخطيبة رواق الزوجية، حتى يناديهم القدوس تبارك وتعالى، ويباركهم ويحليهم بتيجان الخطيبة. ان السعادة نصيبهم. وكان الربي سيمون وصحبته يعظمون تلك الليلة بالالحان والاناشيد. وكل واحد

منهم يفسر اقوال الشريعة تفسيرا جديدا، ويعطيها بعدا لم يسبقه اليه احد. لقد كان الربي سعيدا هو وكل اصحابه».

وتتكون حلية الخطيبة، كما جاء في تفسير من تفاسير اشعياء الأصحاح III، من اربع وعشرين حلية. يقول «الزهر» ان هذه الحلية ليست الا اسفار العهد القديم الاربعة والعشرين. وكل من انكب في تلك الليلة على قراءة نصوص مختارة مقتناة من الاسفار الاربعة والعشرين المقدسة، واشتغل بتفسيرها، ليضعها في سياق اسرار عيد «شڤعوت»، فانه يساهم في كسوة الخطيبة، ويبرهن على انه قمين بمقاسمتها فرحتها.

– «لَكْتُوبه» : عقد الزواج

ويجد مفهوم اتحاد الله باسرائيل عن طريق القِران، مثل هذا الصدى في الروح اليهودية عامة، وعند القباليين على الخصوص. ويتضح هذا المفهوم في اسلوب جذاب وفي صورته الحقيقية، في طقس اليوم الثاني من ليلة «تيقون»،وفي اليوم الاول من «شفعوت»، وذلك في قراءة «الكتوبه» (عقد الزواج) طبقا للاصول المذكورة في التشريع الربي.

ولقد سبق أن تعرضنا لهذه المقطوعة الشعرية الصوفية، قطعة «لَكْتُوبه» (عقد الزواج) التي نظمها اسرائيل نجارا للاحتفاء بالزواج الرمزي،زواج «الْحَتَنْ» (العريس) الاله، و«العذراء اسرائيل). وتعد هذه القطعة التي لا زالت تغنى الى اليوم في البيع السفردية، قبل قراءة الوصايا العشر، امام تابوت التوراة المفتوح، عقدا نموذجيا مريحا، يحدد صيغ وشروط هذا القِران.

ولا يكتفى، ابدا، في البيعة المغربية بقراءة هذا النص وحده، اذ تتلى في اليوم الثاني من هذا العيد، «كِتُوبوت» (عقود) مشابهة. وهي اعمال شعرية لشعراء محليين، خصوصا مقطوعة الربي رفائيل. م. الباز، وهي على غرار مقطوعة اسرائيل نجارا.

لقد ذُكرت واجبات الزوجين ومساهمة كل منهما، وعدت وحددت ووثقت بكل عناية. وتخصص آداب الوعظ التي تسهم في ثقافة المتأدب المغربي، خطبا وعظية في هذا الموضوع. ويلخص احد الاباء (8) ذلك في ما يأتي :

«لقد تعهد الاله منذ اللحظة التي اختار فيها بني اسرائيل لوضعه توراته بين ايديهم، ان يقوم بواجب الزوج نحوهم حسب مقتضيات الهلخا (التشريع الربي)، وهذا الواجب

8 – انظر على الخصوص، كتاب ازرياح بن افرايم بيكو، وهو حبر من ايطاليا (القرن 16–17) : «بِنَهُ لِعِتِيمْ» (ادراك ازمنة العبادة). وفيه مجموع من المواعيظ، خاص «بشڤعوت» يحمل عنوانا له مغزاه عِتْ دُدِيمْ (زمان العشق). ولا تخلو خزانة من خزائن المتأدبين بالمغرب من هذا الكتاب.

يتمثل في عشرة اشياء، جاء ذكر ثلاث منها في التوراة نفسها وهي : ان يطعم اسرائيل ويكسوها وان يقترن بها اقتران الزوجية. وتتمثل الواجبات الاخرى في شفائها اذا مرضت، وفي تحريرها من يد مغتصبيها اذا سبيت، وفي دفنها اذا ماتت، وان يسكنها السكن اللائق بها، وان يضمن عيشها وعيش بناتها اذا مات الزوج نفسه، وان يفكر في توفير المهر للابناء الذكور... ويتابع المؤلف، لقد سميت اسرائيل عشر مرات، في النص المقدس باسم «كَلَّهْ» (خطيبة العروس)، وست مرات في نشيد الاناشيد، واربع مرات في اسفار الانبياء...»

ويدور هذا الطقس كله حول حدث ذي اهمية كبرى، وهو تجلي الاله على طور سيناء، الذي ليس له اية دلالة عند القباليين، الا الاتحاد الصوفي للاله مع اسرائيل.

وعليه فانه للحفاظ على حنين ذكرى «شفْعوت» القديمة حية، خصص هذا الطقس لهذا الاحتفال بعض الذكرى من حياة الحقول، فكانت تسرد في المناسبة فقرات من التوراة، من لفائف الشريعة، تلك التي تتعرض لهدية البواكير. ويتلى سفر «روت» تلاوة جماعية، وهو السفر الذي يتحدث عن حياة قدماء العبريين أيام الحصاد. والواقع ان الانشودة الرعوية لروت المآبية، وبوز من بيت لحم، هي ايضا نشيد غزلي يحكي تاريخ الملك داوود، الذي هو نفسه، كان نتيجة قِران روت ببوز.

ويعتقد التقليد انه مات في نفس اليوم وانه في نفس اليوم كذلك انجب الملك المخلص القادم. وتُذكِّر الخضرة في البيت وفي البيعة، كما تذكر الاعراف الخاصة بالاطعمة والتطهر وطقوس الماء ايضا، بالتاريخ البعيد والميتولوجية المحلية.

ب – بعض العادات الخاصة بالطعام

جرت العادة ان يؤكل الطعام الذي يكوّن فيه العسل والحليب، وهما رمز للتوراة، القسم الاوفر. وهناك وجبة اخرى تقليدية ذات طعم لذيذ (أو هذا على اي حال ما احتفظ به في ذاكرتي شخصيا، وهي «الشَّعْرِيَة». وتعد اعدادا خاصا : فقبل اسبوع من «شفْعوت»، يفُتل العجين كما تفتل الصوف لتنسج منه خراريم من «الشعرية» فوق الغربال، ثم تترك لتجف في الشمس، وتفك في ليلة العيد، لتطبخ في اليوم التالي في مرق من لحم الخروف، فتقدم في وجبة الغداء، وقد ذرت فوقها القرفة ووضع بها عقيد من البصل والزبيب.

جـ – «أزْهَرُوث» (نذير) وتطهير، طقوس الماء الشعبية

«أزْهَرُوت» (ومفردها «أزْهَرَهْ» (انذار) وهي نوع من انواع «البِيُوطْ» (الشعر لتعليمي. وهو شعر ديني. وتعرِض هذه «زهروت» تعاليمَ التوراة الثلاثة عشر وستمائة، مقسمة

ومرتبة الى ما هو امر والى ما هو نهي.

وقد ازدهر هذا النوع من الشعر المقفى في اسبانيا العصر الوسيط، على يد شعراء مثل سلمون بن كَبِرُول ويهودا اللاوي واسحق بن روبن البرشلوني وغيرهم. وحظي شعرهم هذا بمكانة لائقة في شعائر عيد «شفُعوت». وقد احتفظت طقوس يهود المغرب الكبير والمغاربة منهم على الخصوص، «بازهروت» اسحق البرشلوني، واستعملتها في طقس «الْمِنْحَة» (صلاة الهدية) التي تقام في ما بعد الظهر، حيث يقرأ كل مؤمن فقرة، واي واحد ارتكب خطأً مهما كان، اثناء قراءته، الا وصحح له الجمع حينا خطأه وهم يصيحون : «اعد اعد اعد... انك لا تعرف شيئا!» ويرشونه بالماء. وما أتعس من كانت خاتمة القصيدة نصيبه. لأنه يبل بالماء كلية، اذ جرت العادة ان يذهب كل واحد الى الصلاة وقد ملأ وعاءه بل سطله، وهناك دلاء وجرار مليئة بالماء انتظارا لنهاية الصلاة. وانه لصراع حذر بين المشاركين في هذا النوع من اللعب الشعري، حتى ينجو كل واحد منهم من هذا الابتلال المفروض الذي يطبع نهاية هذا الطقس. وغالبا ما تعرف الضحية مقدما وتعين، فيتغامز المتآمرون ويحسبون ويعدون حتى تكون النهاية من نصيب المتآمر عليه... على اي، فان اللعب ينتهي في جو من المرح، ويتلقى كبش الفداء، جزاءا له على حظه السيىء، هدية مالية غداة يوم العيد.

ولا يقع هذا التطهير الا في البيعة. وتتكرر الطقوس الشعبية التي تميز «ميمونة»، هنا في «شفُعوت»، لتزامن الطقوس الشبيهة بها تلك التي يعرفها المحيط الاسلامي في هذه الفترة من السنة، حيث يحتفل بـ«الْعَنْصَرَه»، عيد انقلاب الشمس الصيفي، بالرش بالماء والاستحمام الذي يفرض على بعض الاشخاص... ويمكن ان تفسر لفظة «الْعَنْصَرَهْ» نفسها، كما يرى ذلك بعض فقهاء اللغة، باعتبارها صيغة ترجع الى اللفظة العبرية : «عَصَرَهْ» «عَصِرِتْ» التي تعني «الدعوة» اي تجمع العامة لاحياء الاحتفال الديني، وهو في هذه الحالة، «شَفُعُوتْ»، او اليوم الثامن من «سكوت» (عيد المظلات) «شميني عصرت» كما يدل على ذلك تفسير احد النصوص الربية الذي يعود تاريخه الى عهود التلمود (القرن 5 م). ويملأ الاطفال دروب الملاح وهم يحملون شبه مضخات صغيرة ومرشات كبيرة، صنعت من قصدير ابيض، ورشاشات صنعها الصناع باعداد كبيرة ليلة العيد، وتباع بعشرة قروش. فيتعاركون بالرشاشات ليعودوا الى دورهم وقد ابتلوا من قمة الرأس الى اخمص القدمين. ويتخذ الطقس بعدا آخر عندما تمر جماعة السقاة (الْكَرَّابَهْ) لترش صحون الدور، فيتسابق السكان الى ضرابيز الطوابق العليا وتفرغ «الجماعة» الماء على الارض بواسطة قرن ثور، وتسكب عليهم اوعية الماء من اعلى، ويرمى لهم بالخبز وببعض النقود.

3 – عيد سكوت (المظلات)
– المظلة وباقة اصناف النباتات الاربعة ونيران الفرح

يخلد هذا الاحتفال الفترة التي قضاها العبرانيون تحت الخيام الهشة في الصحراء منذ ان خرجوا من مصر الى ان دخلوا ارض الميعاد. وعلى اي حال، فهذا هو المعنى الذي تعطيه التوراة الى هذا العيد. وقد اضاف هذا الاحتفال، ككل الاحتفالات الاخرى الى ما يمكن ان نطلق عليه، دلالته التاريخية الاولى، دلالات اخرى اضافت مع الزمان طقوسا وعادات واعرافا كان من الضروري ان تقتبس من المحيط ومن المتولوجيا المحلية.

أ – «السُّكَّهْ» (المظلة) والسعف (الباقة المفتولة)

بمجرد ما ينتهي صوم يوم الغفران (كيبُّور) وفي نفس مساء هذا اليوم المرعب، يرشم محيط «السكة» (المظلة) بالموسى، في السطوح او في صحون الدور. ويشرع في الصباح الباكر من الغداة في بنائها. ويتجه اليهود في الصويرة الى باب دكالة، حيث ينتظرون امام السوق، باعة القصب والرتم. ويجب ان تتخذ الحيطة الشديدة في صنع السعف والباقة المفتولة التي تتكون من اربعة انواع، وهي : سعف النخيل المزين بالجرين الملون، وثلاثة عروش من الريحان، وعرشان من الصفصاف وغصن الاترج الصافي الغير الملوث. ونجد في الآداب الربية المحلية، والاشعار نفسها، مثل اشعار داوود حسين، ويعقوب ابنسور، اوصاف المظلة الدقيقة التي يجب ان يكون بناؤها موافقا لشروط دقيقة جدا وصفتها الشريعة في ادق دقائقها. وينبغي ان يزين هذا السكن المؤقت والهش، «بالمخمل الثمين، ويجهز بمتكىء وثير غني وناعم، حتى يستقر فيه المحتفلون ويتناولوا الوجبات الاربع عشرة في الايام السبعة التي يستغرقها العيد طبقا للشريعة. ويستريحون وينكبون على الدرس... ويقومون فيه بـ«مِصْوَ لَوْلَب» (فريضة السعف)، يعني تحريك الباقة الشعائرية ذات الانواع النباتية الاربعة، وهي راية الظفر ورمز النصر...»

فمن جهة، يتجلى البعد الشمولي لهذا العيد، في التذكير بطقوس هيكل القدس حيث كانوا يقدمون قربانا، سبعين ثورا، والعدد سبعون يمثل عدد سبعين امة، وهي التي تسكن العالم. ويتجلى من جهة اخرى في النصوص المقدسة التي تقرأ في هذا العيد، وهي نصوص تحدد المهمة الدينية للشعب اليهودي، وهذه المهمة هي السبب الاوحد لاختيار شعب اسرائيل.

ولم يهملوا المظهر الزراعي لعيد جمع المحاصيل هذا، عكس ما يلاحظ فيما يخص «شفعوت» الذي تجاهلوا طابعه الموسمي تجاهلا تاما. ويستوحي المؤلفون هنا، كما في باقي المواضيع، مادة ابداعهم الادبي، من القواعد الثابتة للثقافة الّربية ، وبالخصوص من التلمود و«المدرشيم» و«الملحة».

وقد ذُكر الرمز الصوفي لهذا العيد وطقوسه في عديد من النصوص الاخرى. وتعد القصيدة الشعرية التي نظمها داوود حسين، وهو من شعراء مكناس، والتي خص بها هذا الاحتفال الديني، تقديما رائعا لمأساة كونية تظهر فيها شخصيات «الضيوف الأولياء السبعة»، وهم سبعة ابطال توراتية، حولتها «الزهار» و«القبالة» الى نماذج مثالية للتصوف. فتقيم بالتتابع في هذه «السُّكَّهْ» (الخيمة) الارضية، طيلة ايام العيد السبعة، حيث يمثلون الشخصيات الرئيسية، او يستقبلون بالتناوب، في الخيمة العلوية، بحضور الرَّابْ همونا سَبَا الذي يدبر المراسيم، وبجانب سيد العوالم الذي يتصفون بصفاته المتجسمة في «السفروت» السبع، الشيوخَ ووجهاء الامم السبعين (9).

ويبدو الاثر الصوفي ايضا جليا في وصف اللولب (باقة من اربعة انواع من النباتات) وفي الرمز «السيفروتي» لمكوناته، وفي البواعث الباطنية للمفهوم التوراتي الذي هو مرجعه (اللاويون الاصحاح الثالث والعشرون، 40)

ب – «هُشْعَنَهْ ربه»

احيت مدرسة صفد القبالية في القرن السادس عشر، اول مرة، ليلة القراءة الساهرة هذه، التي تستغرق ليلة اليوم السابع كله، مع «تِقُونِها» وما تستلزم من «إصلاح واعادة للتوافق الشامِل»، مثلها مثل ليالي «شَفُعُوت وبّصَحْ». وهي ليلة مبجلة هنا في المغرب، كما في غيره. ويحضرها كذلك الاطفال الذين يسهرون، كما يسهر اخوانهم الاكبر منهم سنا، والذين يغادرون من حين لآخر جماعة الكبار متسللين الى الخارج ليرقبوا السماء لعلهم يباغتون اللحظة التي تنكشف فيها في تلك الليلة، فتحقق متمنياتهم. وما اسعد اؤلائك الذين يصادفون هذا الحظ.

وبعد صلاة الصبح (شَحْرِيتْ) يقومون بطقس خاص يجلدون فيه اديم الارض بحزمة من الْعَرَبْ (عروش الصفصاف).

9 – «الضيوف السبعة الاولياء» هم الآباء الثلاثة ابراهام واسحق ويعقوب بالاضافة الى اربعة اعلام مذكورين في التوراة، ولهم جميعا مكانة سامية، وهم بالتتابع موسى وهارون ويوسف وداود. ام الرّاب هَمُّونًا سَبَا فهو شخصية غريبة جاء ذكرها في كتاب الزهر. ويزعمون انه شيخ الباطنية، ويظهر غالبا في صورة رجل بسيط يسوق حمر تلامذة الراب شمعون بريوحاي. وكان هؤلاء التلامذة يلجؤون بالضرورة دائما الى علمه الغزير.

وتسهر النساء كذلك في مطبخهن امام فرنهن لاعداد طعام خاص بذلك اليوم، وهو يختلف باختلاف اعراف وعادات العائلات : انه «الكُسْكس» عند البعض، وهو طعام تقليدي يستعمل لاحياء عيد «السكه» ليلة العيد الاولى. وهو عند البعض الآخر، طعام طريف وغير معروف على نطاق واسع لدى اليهود سكان المدن الكبرى، ولكنه معروف اكثر في المحيط البربري، انها «تَلَخْشَهْ»، وهي حساء من الفول المكثف،مسقي بزيت «ارْكَّان» او زيت الزيتون.

جـ - سِمْحَهْ تُورَهْ - (فرحة التوراة)

يشكل «عيد التوراة» نهايةَ «سكوت» الحقيقية (اليوم التاسع عند يهود الشتات، واليوم الثامن في الارض المقدسة). وهو على هذا النحو، تجديد لعيد الاسابيع، مع قليل من الاحتفائية، وكثير من التعظيم ومظاهر الفرح : تكون فيه اماكن الصلاة مزينة بالفوانيس، ويطوف المصلون حول «المِقْرَأ»، وهو الصندوق العالي الذي يوجد بالبيعة، ويرقصون بـ«السفريم» (لفائف التوراة). اما الاطفال فانهم يشتدون بالايدي. ويغني الجميع بالمناسبة اغاني مختلفة بالعبرية، واللهجة العربية - اليهودية، والبربرية او القشتالية. ثم توزع الحلويات والفواكه المجففة... انه ايضا يوم «الْحَتَنِيمْ» (عرسان السنة) او يوم قرائتي التوراة المفضلتين، وهما القراءة التي يقرأ فيها آخر فصل من فصول التوراة، او بالاحرى التي يفتتح بها الدور السنوي للقراءات الاسبوعية. فتمجد التوراة، ويُكال لجمع المؤمنين بالبيعة، ما يستحق من تقدير، كبارا وصغارا،اولائك الذين دعوا في ذلك اليوم لالقاء درس التوراة وقراءة قسم منها. ويُذكِّر هذا الطقس الذي لازال متبعا، نظرا لعدة اعتبارات، بحفل زواج، كما يحدث ذلك في المناسبات المشابهة التي تكون فيها التوراة موضوع تقدير واحترام، كما هو الشأن في الاحتفال الذي يصاحب «مناسبة هدية لفائف التوراة» (حِنُّوخْ سِفِرْ تُورَه). ويحمل السفر بعد وجبة المناسبة، مثل العروس، من دار واهبه الى البيعة التي اهدي لها، فيقطع الموكب الذي يتصدره الاحبار وعلية الطائفة، الحّي اليهودي، وهم يرتلون تراتيل بالعبرية ويغنون اغاني باللهجة المحلية.

د - «تِبْرَيَانُوت» او نيران المباهج

«تِبْرِيانُوت » لفظ ذو غنة بربرية يعني في الصويرة، طقس النار الذي يمارس في المساء الاخير من ايام عيد «سكوت». واللفظة المستعملة في مراكش، هي، تَمِزّْكَتْ .ففيه تفك المظلة ويستخدم سقفها المكون من سعف النخيل او الرتم، لاضرام نار المباهج. يدعو الاب

اولاده الى القفز فوقها مرددا كثيرا من الصلوات والتعازيم. وقد عرف بربر الاطلس الكبير والمتوسط، كباقي المجتمعات الاخرى من اهالي المغرب، طقس نيران المباهج، واستعملوه في اوقات مدار الشمس. وكان اليهود يُشعلون النار في الساحات، ومفترقات الطرق والحقول، ويَحرقون النباتات ذات الطيب الكثير (الزعتر شجرة الحياة) فيعرضون انفسهم الى الدخان، ويعرضون اليه الاطفال على الخصوص، ويقفزن ويقفزون فوق النار سبع مرات، ويطوفون حولها ويقومون بنفس مناسك الطواف التي يقوم بها الحجاج المسلمون حول الكعبة. ويشبه ايضا «الْهَقَفُوت» (الطوافَ) اليهودي، وقد سبقت الاشارة الى هذا الطواف اعلاه، عندما تحدثنا عن الاحتفال الذي يصاحب دفن الاثقياء. وتعرض احد الكتاب اليهود من القرن 11، الى عرف كان يميز فترة الاعتدال الربيعي، وهو عبارة عن تسلية تسمى باللغة الآرامية (لغة التلمود) «مِشْوَرْتَا دي بُورَا» (القفز عَلى [ركاب] بوريم)، قال : «كانوا يستعملون بالقيروان نيرانا عظيمة ليلة «بوريم»، كما كانوا يفعلون في بابل وفارس، ويقفزون فوق اللهب. وكانوا يستعملون في الفترة ما بين هيكل القدس الثاني وبداية القرن الاول الميلادي، طقوسا تستعمل فيها المياه، وتسمى «سِمْحَتْ بِتْ هَشْاِقَهْ» (فرحة الاستقاء والسقي) ذاك الذي يمارس في الفترة الاخيرة من «سكوت». ويختلف هذا الطقس في ايامنا هذه عن طقس آخر يعرف بـ«الاستسقاء».

هـ - صلاة الاستسقاء

يسمى هذا الطقس الخاص باليوم الاخير من سكوت «تِقُّونْ هَگِشِيمْ» (صلاة الاستسقاء) ففي بداية فصل الشتاء، «يبتهلون الى الله الحي القيوم ليفتح خزائن السماء لكي تخصب الارض...»

ويمكن ان تقام صلوات الاستسقاء ايضا اثناء فصل الشتاء او الربيع في حالة الجفاف. وتقام هذه الصلوات في نفس الوقت التي تقام فيها صلاة الاستسقاء التي يقوم بها المسلمون في مثل هذه الظروف. وتصحب هذه الصلاة طقوس حددتها المعتقدات، كما تصحبها عادات شعبية محلية، واحتفالات تمثيلية، تختلف تفاصيها تبعا للجهات التي تكون مجموعة المغرب الكبير وساكنيه. ومن الافكار الاساسية لهذا الاحتفال، ان الغيث يصيب الارض بفضل ما يستحقه الاثقياء. والحاصل انها الفكرة التي تتردد في وثائق الاحبار القديمة والحديثة، وهي نفسها التي تتردد في ادبيات المسلمين الوعظية. وعليه فان اول من يقصد للاستسقاء (10)، هم كبار الاولياء الشفعاء، وجموع الاولياء المحليين (يهودا ومسلمين).

10 - انظر اعلاه، في الفصل الخاص بالختان، ص 56 ما يتعلق بالتوسل الى ولي صفرو اليهودي، وطقس الدم الذي يرافق هذا التوسل في فترات الجفاف.

IV احتفالان تذكاريان
«حَنُوكَهْ» و«بُورِيمْ»

1 - «حَنُوكَهْ»

المعنى الحرفي لهذا اللفظ، الذي جرت العادة بان يطلق على العيد نفسه هو التدشين. وهو في الواقع، يخلد الاحتفال التاريخي والديني، لانتصار المكابين على الاغريق، وتدشين هيكل القدس الذي عاد لخدمة الاله اسرائيل، بعد ان دنسته الاوثان وعبادة الوثنيين. وانه ايضا «عيد الانوار» وذلك بسبب تحقيق معجزة اخرى وهي : ان قارورة من زيت طاهر، كانت كافية لانارة الشمعدان ن مدة ايام العيد الثمانية. انها نوع من انواع فيض الزيت، او هذا على الاقل، ما حكته النصوص التي تناقلتها التقاليد، والتي احتفظت بها الذاكرة اليهودية منذ الفي سنة.

ويحتفى بهذا النوع من الاعياد كذلك، باعداد الطعام اعدادا يخضع لطقوس خاصة، في الافراح واللهو، وهي جميعا تغرف من مصادر المتخيل والعرف والعادة التي نمت في فضاء الشتات. ولليهودية المغربية طقوسها الخاصة بهذا العيد.

أ - حنوكه : احتفال تاريخي وديني

يلاحظ بُعد هذا العيد في ابداع احد العلماء الكبار اليهود الفاسيين من ادباء القرن 17–18، وسبق ان ذكرناه مرارا في مؤلفنا هذا، انه يعقوب ابنسور، وقد نظم ست قصائد خاصة باحياء هذا الاحتفال التاريخي الديني. وبالرغم من اختلاف حجم هذه القصائد، فانها نظمت على نفس النمط، اذ تبدأ باستهلال وتنتهي بخاتمة موضوعهما نفس المواضيع العادية التي يتناولها هذان القسما ن من القول. وتتناول البنية العامة لكل قصيدة موضوعين اساسين بالتعاقب، وقد يطول احدهما وقد يقصر الاخر دون سبب بيّن : وهما سرد مختصر للملحمة الاشمونيين من جهة، ومن جهة ثانية، احياء ذكرى العيد بما يخلدها من مآثر، وذلك باشعال الانوار مدة ثمانية ايام، كما جاء ذلك في التوراة، وبالطقوس الخاصة بالمناسبات الدينية الكبرى، واخيرا بالتظاهرات الفلكلورية والافراح التي تصاحب هذا النوع من الاحتفالات. واليكم نصا ذا لازمة، نظمه صاحبه على غرار الشعر العربي المسمى الموشح :

استهلال :

ساغني اجمل الغناء، لذلك الذي يسكن عرش السماء.

فقد كلل بالغار الاشمونيين، كلل سلالة الاحبار.
المقطع الاول
لقد هاجمني العظماء، كل جيش انطوشيوس
لقد ارادوا محقي، السادة والامراء
غير ان الصخرة [العزة]، طرسي الحامي، سقاهم كأس السم الزعاف.
فاخذهم الدوار، لقد تاهوا مثل الوحوش الضارية
فغرقوا في بحر الظلمات.
لازمـــة
لقد كلل بالغار الاشمونيين، كلل سلالة الاحبار.
المقطع الثاني
لذلك امر الشيوخ باشعال الفوانيس وامروا بان لا تستعمل لاي شيىء غير ذلك(11).
ستكون انوارا لتمتع العين.
في المداخيل (مداخيل البيوت) في الابواب (ابواب المدينة).
وستوضع متراصة
حتى تشهد على المعجزة والعجائب، امام اعين الناس.

وجاء سرد الاحداث في مقطوعة اخرى، اطول من الاولى واكثر تفصيلا، حيث تتعرض للمراسيم التي سنها انطوشيوس، ولموت نيكانور، ولاندحار الجيش السوري والى انتصار الاشمونيين، وتطهير الهيكل، والى اعياد التدشين. واليكم المقطع الاول منها :

عشاقك يا الاه، ابناء الرجل البسيط هم (12).
وعندما اثقل كاهلهم طغيان اليونان القاسي
كنت بجانبهم في لحظات ضيقهم
وقدت معاركهم وناصرتهم في قضيتهم

ب – الاسفنج بالعسل وتسليات الاطفال

جرت العادة، ولو مرة واحدة على الاقل، خلال مدة الثمانية ايام التي تستغرقها «حنوكه»، بان يتناول اليهود، في كل بيوت الصويرة والضواحي الاخرى الساحلية المغربية،

11 – يمنع حسب الشريعة ان تستعمل هذه الانوار في غير الاضاءة.
12 – هذه صفة تنطبق على يعقوب كما جاء ذلك في التكوين. الاصحاح XXV، الاية 27

الاسفنج بالعسل. وعليه فاهم ما يشغل بعض الاوساط، هو اعداد هذه الاكلة اللذيذة بكميات كبيرة، لتتناول منها العائلة كلها، ولتوزع على الاقارب والاصدقاء، كما تقدم ايضا للفقراء واطفال المدارس في شكل معروف (صدقة).

وقبل هذه المناسبة بايام، يعد كيس من الدقيق الخالص، وصفيحة من الزيت، ويحتفظ بهما في المطبخ. ويعد العجين في جفان (القصرية) كبار حيث يترك الى ان يختمر، وقد غطي بثوب شفاف. وبعد ليلة ساهرة يشرع في قلي العجين المدور في مقلى كبيرة، توضع فوق «المَجْمَرْ»، فيهتز وينتفخ ثم يأخذ وهجه الذهبي. وقد يدعو الامر لاعداد هذه الاكلة اللذيذة إعدادا جيدا، الى استخدام «سفاج» مشهور بجودة صنعه. فتملأ الأواني بالاسفنج وتوضع معها اوعية العسل فيحملها الاطفال الكبار او الخدم والخادمات لتوزع بين الدور دارا بعد اخرى...

وتعد «حنوكه» ايضا مناسبة للالعاب وتسلية الاطفال. واذا كان الصناع النحاسون يصنعون لهذا العيد الشمعدان الشرعي، وهو الشمعدان ذو العروش التسعة، التي يوضع بها الزيت وفتيل الصوف او القطن، فانهم يصنعون ايضا نماذج صغيرة او بدائية للاطفال الذين كثيرا ما يصنعون شمعدانهم من طين او من عجين يعرفه الكل بالجنوب المغربي، وهو التفال (زِگمُونَا) المتبقي الملتصق بحجر الرحي، بعد تقطير الزيت الصافية العطرة، زيت «اركان». كما يلعب هؤلاء الاطفال ايضا بالغضاريف واللعب والادوات المختلفة الاشكال، المصنوعة من معدن ابيض، او المصبوغة بالاحمر والاخضر والتي تشترى بقروش معدودات عند صفائحي «قْزَاذْرِي» الحي.

2 -« بوريم» او عيد الحظ

يخلد هذا الاحتفال في اليوم الرابع عشر من شهر آدار، واقعة جاء ذكرها في التوراة في سفر استير، تلك هي قصة الملكة استير زوجة اسوريوس، وابيها مردخاي اللذين انقذا اليهود من مؤامرة كان قد دبرها هامان في فارس،قبل خمسة وعشرين قرنا. وتفتتح المناسبة في يوم السبت السابق عن العيد، وهو السبت المسمى «شَبَتْ زِخُورْ» (سبت الذكرى)، بطقس خاص يتلى فيه : «مِي كَمُوخَا» (من مثلك [يا إلاه]) وهي قصيدة لشاعر اندلسي عاش في العصر الوسيط، انها قطعة حماسية جرت العادة بان تقرأها الطوائف المغربية في صلاة الصباح، في لغتها العبرية الاصلية وفي الترجمة العربية (13).

13 – انظر في موضوع الآداب الخاصة بهذا الاحتفال الافتتاحي واحتفال «بُورِيم» مؤلفاتنا :
Pédagogie Juive en Terre d'Islam, p 121, Poésie juive en Occident musulman, p 343/346, et Littératures dialectales et populaires juives en Occident musulman, p 185/206 et 405.

وتدمج قراءة سفر استر (قِرِأة مِكِّلَةْ)،في هذه الشعيرة التي تقام في اليوم الرابع عشر من آدار، بدءا من المساء، تذكارا بالحدث التاريخي، في صلوات الشكر «بِرْكَتْ هَمَزوُّن» (مباركة النعمة) التي تتبع وليمة «بوريم»،وبالخصوص، في الوليمة الكبرى التقليدية التي تقام قبل غروب الشمس. وتجدر الاشارة هنا، الى العملية العتيقة الخاصة بكأس بوريم «تَسَتْ بُورِيمْ» تلك التي ظل العمل جاريا بها حتى السنوات الاخيرة، وهي تنقُّل هذه الكأس بين المؤمنين اثناء صلاة الصباح،لكي يلقي فيها كل واحد من الحضور ما استطاع. ويقدم ما جمع لـ«نِسْتَرِيم» (مستحقيه) من اليهود، وهم عامة الفقراء المجهولين. وكانت تجمع هذه الأقساط ليفتدى بها الاسرى قديما. ويعطى في هذه المناسبة ايضا، نصف ريال، هو مقدار نصف «شِيقِل» المذكور في التوراة، ليقدم للطوائف المغربية في فلسطين، اولئك الذين يبعثون دوريا احبارهم المتجولين ليجمعوا ما تيسر من هذه الصدقة الخاصة. ويتجمع الشحاذون بدورهم في هذا اليوم امام ابواب البيع لياخذوا ما استحقوه من الصدقة.

وتغص طرقات الملاح في ذلك اليوم، وينادي الصناع باصوات صاخبة، لتصفية بضاعة لعبهم الرخيصة، باثمان بخسة. ويشتد الزحام امام معروضات الحلويات الملونة، كما يشتد ايضا امام موائد لعب الورق والنرد. والجدير بالذكر، انه لا يسمح بلعب القمار الا في «بُوريم» وهو عيد «الحظ»... اما في الدور فانه الاعداد الكبير لحفل «الافراط»...

ويعد عيد «البوريم» ايضا، مناسبة للابداع الادبي الخصب، الذي يتمثل في مستويين، اولهما يتجلى في المعارف التوراتية والعلوم الربية من جهة، (اشعار بالعبرية والارامية)، وثانيهما، في المعارف الشفوية والشعبية وفي التعبير الدارج من جهة اخرى. (مقطوعات هزلية وهجائية ومعارضات بالعربية والبربرية والقشتالية)،وتشهد هذه الآداب على البعد الديني بل الصوفي لهذا العيد،وفي نفس الوقت،على طقوس استمدت اصولها من العرف المحلي والعادات والفلكلور.

أ – البعد الصوفي الديني للعيد

من بين اول هذه المظاهر نذكر قصيدة الشاعر يعقوب ابنسور (من فاس القرن 17–18) الذي يربط الاهتمامات الدينية والصوفية بفخامة الاحتفال المميز لاختتام بوريم. ويحدد المؤلف نفسه معنى هذا الاحتفال ومراميه في مقدمة قصيرة، يقول : «نظمت في لغة «التّرْگُومْ» (الارامية) تبعا لمثل شعبي يقول :لا يستطيع العربيد الثمل التعبير الا في لغة التّرْگُومْ. وبوريم على الخصوص هو ساعة «سِعُودَة المِنْحَة» وهي الوجبة التي يختتم بها العيد ، انها الوقت

الافضل للسكر والعربدة. تتألف القصيدة بالاضافة الى الاستهلال الذي هو اللازمة، من خمسة عشر مقطعا، وهو نفس رقم القيمة العددية لحروف احد اسماء الاله وهو ي ه (يَهْ) المتمثل، حسب مذهب لوريا القبالي، في سر طعام «بوريم»، فالكلمات «أخِيلَهْ» «شِتِيَهْ» («الطعام» وَ«الشراب») تتحول بعد تعاور حرفي الياء واللام في «أخِيلَهْ» لتصبح «أخَلْ يَهْ (أكل الله). وفي «شِتِيَهْ» لتصبح «شَتْ يَهْ» (شرب الله)، وهي عمليات ترمز الى دفق قوى تفيض من العقل».

ويستقي يعقوب ابنسور هنا من مذهب لوريا في «التيقون» (التقويم) كما جاء في كتاب «شَعَرْ هَكَفَنُوتْ» (باب المقاصد) في فصل تفسير «هبُّورِيم» في الفقرة «مِصْوَتْ سِعُودَتْ بُّورِيمْ» (فريضة مأدبة بوريم) (طبعة سلونيك 1852 ورقة 158 د. وتساهم المأدبة الصوفية في عملية «التّقونْ» وما يرمز اليه، في ضمان دفق قوى العقل الثلاثة المختفية في «زِعِيرْ أَنْبِينْ» (الوجه الصغير)،وهكذا تتحد القوى الممكنة الوجود، المتمثلة في «حُخْمَة» (الحكمة) و«بِنَهْ» (الادراك) «وَدَعَهْ» (المعرفة) في اتحاد محكم مع كل عوالم المراقي. ولم يكن الانشغال الصوفي والتاملات الاشراقية غريبة عن احتفالات بوريم هذه. وعلينا ان لاننسى ان اي فعل في الوجود مهما كان ضئيلا، فانه حسب التشريع «هلخه» والتصوف «قبله» اليهوديين، لا يخلو من مدلول ديني وبعد روحي. وان القيام به يهدف الى «الاتحاد بالروح القدس وبحضرته (شخينه) رغبة ورهبة ليتحد يَهْ بـ وَهْ اتحادا كاملا». ويعد وجوب الانشراح والاكل المفرط والشرب حتى السكر، احدى خصائص هذا العيد، ولا تمتنع الطوائف اليهودية بالمغرب، في مثل هذه المناسبة وغيرها من المناسبات، عن الافراط في شرب المشروبات الروحية و«مَاحْيَه» على الخصوص. وهكذا يبالغون في التقيد بما جاء في وصية ربانية تعتمد هي الاخرى على فقرة تلمودية (مِجِلَّهْ 7 ب) تقول : «انه من واجب كل فرد ان يشرب حتى العربدة في عيد بوريم، بحيث لا يستطيع ان يميز بين قولهم «ليلعن هامان» وقولهم «ليبارك مردخان».

يقول يوسف كارو، صاحب كتاب التشريع الربي «شلحان عروخ» (المائدة المهيأة) : لقد كان الخمر اداة لتحقيق كل معجزات عيد «بوريم». ففي حفلة الشرب ابعدت وَشْتي (سفر استيرا I 10) واخذت استير مكانها. وفي حفل الشرب ايضا تحدد سقوط هامان (سفر استير VII 2 و7–8)، ولذلك نصح الشيوخ بالشرب حتى السكر في ذلك اليوم.

والحاصل ان استهلال مقطوعة يعقوب ابنسور، تقتبس من قصيدة غنائية تدور مواضيعها حول الموسيقى والغناء والحب والخمر. وقد كتبت هي كذلك بالارامية، وتبدأ بهذه العبارة التي لها مغزاها : «لقد حرم علينا شرب الماء مدة عيد بُّوريم».

ويشغل السرد التاريخي اربعة مقاطع، بينما تتناول باقي المقطوعة، الوصف المفصل للاحتفال وللمأدبة والشرب. وبالرغم من فعل السكر، تبقى مع ذلك مرارة النفي ماثلة للعيان، فتعقد الامال في ان تحدث النهاية التي هي : العودة الى ارض القداسة والحب :

ان ايام بوريم هي الايام التي يتوجب فيها على الانسان ان يشرب حتى السكر. انها ايام بوريم انها تذكر بالعهد الذي حقق فيه الله الحي، المعجزات والآيات والعلامات التي جعلنا عليها شهودا.

لقد اشفق علينا وخلصنا من كل مفتر علينا، ومن كل مشنع /لقد تصدى لاعدائنا وقطعهم اربا اربا.

وقبل ان يصب علينا هامان جام غضبه، صبت عليه عيوننا انتقامنا، فعلق في المشنقة التي نصبها، وحرص على صلابة عودها.

غضب الله على كل ابنائه العشرة، فأتم عليهم اللعنة والطرد.

وحبا منه وفضلا وهب لنا الاستطاعة على البهجة واطالة مدة الوليمة بما تزخر به من ماكولات ومن متعة السكر ايضا.

لحم سمين مشوي، وافراخ محشية /وحمام وانواع اخرى من الطيور وغ. خمور وتوابل بكثرة، سماني وحجل وتدرج مطبوخ، مع الحبوب متبل بالتوابل والعطور.

لحم مبخر مع خمر لذيذ ومشروب متلالىء، حمدا لله على نصر العلي الذي بفضله يجازي كل خير.

قليل من خبزك تثني وتكسر، تمزج الشراب وتشرب حتى العربدة، الى ان لا تستطيع التمييز بين لعن وبورك. هكذا امر الشيوخ الحكماء...»

ب - معارضات ساخرة وفلكلور

عرف الابداع الادبي الشفوي والشعبي والدارج في المغرب، وفي المغرب الكبير بصفة عامة، عددا كبيرا من الكتابات الهزلية الساخرة، وكلها تختص بفلكلور «بوريم»، وتركز على شخصيتي هامان وزريش، اللذين تناولتهما «كِتُوبَهْ» (عقد زواج) هجائية، تنعى فيها الموت نعيا، في مرثية «هَشْكَفَهْ» هزلية. ويعود هذا العنصر الادبي من فلكلور «بوريم»، الى تقاليد قديمة يظهر ان جذورها تمتد بعيدا في تاريخ اليهودية. انها احد المواضيع المفضلة في ادب المعارضات الساخرة اليهودية.

وقد كتبت في بداية القرن 14 بين 1319 و1332 ثلاث هزليات جعلت من هذا الفن نوعا ادبيا حقيقيا (وهي مَسِخِةْ بُوريم [قناع بوريم] لقلونيموس بن قلونيموس. ومِكِلاَّل

سِلاَّرِيمْ وسفر حَبَقُوق هَنَّفِي المنسوب الى ليفي بن جرسون. ولاول مرة يجازف علماء ذوو شهرة كبيرة باستعمال الآداب التلمودية في اغراض الدعابة واللهو. وقد ترجمت وشرحت كثير من النوادر، وعديد من مختلف العادات التي ترتبط بعيد (بوريم) في اسلوب التلمود الرصين.

وظهرت اثنتان وثلاثون هزلية في النصف الاول من القرن الخامس عشر بجنوب فرنسا، وتتشكل من مراسيم وقرارات سنها ملك «بوريم» سيد «طائفة فيني Vigne» الاعظم. وقد اصبح هذا الملك المؤقت، كذلك موضوع مسرحية من مسرحيات «بوريم» مجهولة المؤلف. ويظهر انها كتبت بجنوب فرنسا في القرن 15. وطبقا لهذه الهزلية ذات الاسلوب التلمودي، فان على كل مدينة يهودية ان تختار ملك بوريم شهرا قبل العيد، وتخول له السلطة المطلقة على حياة وممتلكات رعاياه. ومن الممكن ان يقترن ظهور هذه الشخصية في الآداب الساخرة اليهودية، وما يصاحبها من تظاهرات، بعيد سلطان الطلبة الذي بدأ الاحتفال به بعد ظهور هذه الشخصية. وتجري أحداث الاحتفال به في فاس في فصل الربيع. وينبغي ان نسجل ان مشاركة اليهود كانت تتم بتقديم هدية هزلية (14).

وازدهرت في القرن 17–18 كتابة الوصايا والادعية الهزلية، من ذلك مجموعة من الهزليات كتبها دافيد رفائيل بوليدو، وطبعت سنة 1703 بليڤورن، ومجموع تذكار لـ«بوريم» لمردخاي كلورني من مودينا، حوالي 1781.

وتوجد ايضا بعض من هذه الاداب في اللهجة اليهودية الاسبانية. ان المقطوعات التي اثارت انتباهنا، هي تلك التي احتفظت بها ذاكرة يهود المغرب، والتي ظلت حية حتى لدى اقرب الاجيال الينا. واسلوب النصوص التي تهمنا، وهي التي تتناول موضوعا هزليا يعكس هما من هموم الطائفة دون ان يتطرق الى المجالات المقدسة الدينية، اسلوب مهلهل، ولغتها اقرب الى لغة الحديث المحلية، لغة العامة التي هي لغة الملاح. وقد يكون هم المؤلف الاول هو تعليم هولاء، غير انه من المؤكد ان هدفه كان هو تسليتهم واضحاكهم باحاديث ماجنة وعنيفة، اضطرت نخبة الاحبار الى ادانتها باسم الاخلاق، او لمجرد الرصانة والحذر. وزيادة على بساطة اسلوب هذه النصوص وشعبية لغتها، فانها خالية من اية صبغة فكرية، ولا يمكن ان تصنف في الابداع الادبي الا تجاوزا.

14 – بدأ الاحتفال بهذه المناسبة في بداية ملك مولاي الرشيد، وهو او ملك علوي (1660–1672) وقد درس هذا الموضوع Pierre de CENVAL في مؤلفه :

«La légende du juif Ibn Mech'al et la fête du Sultan des Tolba à Fès». Hespéris, 1925 (2) pp 137-218.

انها سيل من اللعن والشتم والتهكم، يصب على هامان، رمز الطغيان والكراهية الذي يوصم بالخزي والعار. ولما كانت لغة المؤلف العربية فقيرة في معجم أوصاف العنف والقدح، فانه اقتبس جلها من لغته العبرية. وقد كان اختيار المؤلف للسجع، وتفضيله للجناس، سببا في خلو النص من اي تأمل،او افكار اصيلة،او معارضة ذكية،او دعابة بريئة.

غير انه اذا كانت هذه النصوص، من وجهة النظر الادبية فقيرة، ولا تمثل الا ضحالة في الفكر، فانها مع ذلك تشهد على معرفة لها اهميتها في الدرس العربي، والاساطير اليهودية القديمة التي تدور حول بوريم. فقد اعتمدت مصادر توراتية وتلمودية وادبيات «مَدْرَشِيَة» عديدة. ففسرتها واسهبت الحديث فيها، واحيانا حرفتها لتوافق الظروف والاوضاع البيئية. زيادة على ذلك، فانها تطلعنا على اعراف وعادات، كان يهود المغرب حتى عهد قريب، يحيون بها هذه الواقعة الكبرى في التاريخ اليهودي.

ولاشك ان الذي سنتعرض له هنا، هو هذا المظهر الاخير الذي ردده حرفيا، هذا النوع من الادب،انه الاحتفال الشعبي، بهذا العيد. وقد تميز الاحتفال «ببوريم» عند طوائف يهود المغرب، وعند غيرهم من الطوائف الاخرى، بالافراط في الملذاتِ والمآكل. اذ يتنافس الحلويون وربات البيوت بما أوتوا من مهارة وخيال، في تنويع طرق اعدادهم للحلويات، خصوصا تلك التي تصنع من العسل مثل (الْمَقْرُود والشَّبَّاكِيَّة والحلوى) وانواع اخرى من الفستق واللوز، ومن سكريات ذات الوان زاهية. ومن مأكل مثل الدجاج ولحم الخروف المحشي. ويصاحب كل هذه الماكولات،فيض غزير من «ماحيا» والخمر.

وكانت التسلية المفضلة عند الكبار، هي اللعب بالنرد او الورق. اما الاطفال الذين كانوا يحصلون بهذه المناسبة، على بعض النقود (الْقَرَادَا)، فانهم كانوا يشترون من الصفاح اليهودي بالملاح، العابا ذات ضجيج، مثل الناي و«الزَّوَّايَة» و«شرّقْرَاق». وكان يسر الجميع ان يشارك بضرب الارض بالقدم، او بقرع عصيتي لفائف سفر «استير»، كلما تردد اسم هامان، اثناء قراءة هذا السفر.

وكانوا يحيون هذه المناسبة في البوادي المغربية، خصوصا في سوس، ناحية امنتانوت، كما اخبرنا من عاش ذلك، بركوب الخيل. ولم يستعملوا «المكحلة» كما جرت العادة بذلك، بل كانوا يستعملون بنادق بارود قصيرة. وكانت هذه التظاهرة التي تدور وقائعها بعد الوجبة قبل غروب الشمس، وهي وجبة يكثرون فيها شرب «ماحيا» احيانا، تنتهي نهاية مأساوية. وانقطع الاحتفال على هذا الوجه، بُعيد الحماية، وبعد اخماد ثورات المناطق الجنوبية، وبعد تقنين حمل السلاح او منعه.

جـ - اعياد «بُورِيم» المغربية الخاصة

ونظرا لان «بوريم» لم يعد منحصرا في تخليد اليوم الرابع عشر من آدار من كل سنة، حيث كان يخلد ذكرى الاحداث التي جاء ذكرها في سفر استير من التوراة، بل اصبح رمزا للنجاه، فان طوائف المغرب، كغيرها من الطوائف الاخرى، اتخذت لها اعياد «بوريم» اخرى خاصة او محلية، وتسمى اسماء مختلفة، مثل «بوريم» سبستيانو، المسمى ايضا «بوريم» النَّصَارى او بوريم المسيحيين. وهو عيد بدأ الاحتفال به بعد معركة الملوك الثلاثة، وانتصار السلطان مولاي عبد المالك على الدن سبستيان، ملك البرتغال، في الرابع من غشت سنة 1578 بالقصر الكبير، بوادي المخازن. ويحتفل بهذا الحدث كل سنة، خصوصا في طنجة وتطوان وفاس، وذلك بتوزيع الصدقات، وبالقيام بطقوس خاصة تتضمن مقطوعات شعرية تليق بالمناسبة، كما تقرأ فيها «مِكِّلَه» تذكر بالحدث.

وعرفت مدينة طنجة كذلك «بوريمات» خاصة، مثل ذلك المسمى «بوريم Las Bombas، وذلك في 21 آب من كل سنة، وهو مناسبة تذكر بنجاة اليهود في ذلك اليوم من سنة 1844، من القصف الذي صبه الاسطول الفرنسي على مدينة طنجة. ولمدينة مكناس ايضا «بوريمها» المحلي : بوريم «المعگاز» الذي شهد سنة 1862 هزيمة عدو اليهود والشرفاء العلويين المشترك، الثائر الجيلالي المعگاز. ويحتفل كذلك يهود الدار البيضاء «ببوريم» هتلر، في الثاني من كسلاو، بدءا من سنة 1943، وذلك تخليدا لنزول الحلفاء بشمال افريقيا. وختاما فاننا نذكر «بوريم» الجزائر او «بوريم» ادوم، في الرابع من حسوان، ويخلدا احدى وقائع الحرب الاسبانية الجزائرية، في بداية القرن 16، وانهزام Charles-Quint وغرق اسطوله في عرض البحر امام المدينة. ويقال ان هذا الاخير، كان ينوي ان يمسّح اليهود بعد انتصاره.

ونسجل ايضا، حتى نبين تداخل العلاقات الثقافية اليهودية الاسلامية، ان خاتمة احدى هذه المقطوعات الهزلية، المكتوبة باللهجة اليهودية - العربية، وهي «كتوبة هامان» : (عقد زواج هامان) كانت قد اشركت كفارا غير الذين ذكروا في التوراة، وهم فرعون وبلعام وبلاق في مشروع هامان المشؤوم. وتوجد اساطير كثيرة في هذا الموضوع، وفي الادبين العربي والعبري، والادبان معا يتبادلان التاثير والتأثر. ويعد هامان، حسب المصادر الاسلامية، من حاشية فرعون، حيث ساهم في كثير من احداث تاريخ العبريين، خصوصا تلك الاحداث الواقعة بعد الخروج من مصر، المذكورة في الشروح الاولى من سفر الخروج. وكذا نجد

في القرآن (XL 24–25) هامان بصحبة فرعون وقارون، وقد افترى هذا الاخير وهامان على موسى، وارادا هلاكه ومن تبعه من بني اسرائيل.

ونلاحظ هنا، ان التوراة قد تعرضت في الاصحاح السادس عشر من سفر الاعداد، لواقعة مناهضة اتباع قارون (قورح) لموسى، ونقرأ في السورة القرآنية (XXIX 38) : وقارون وفرعون وهامان... فكلا اخذنا بذنبه» وقد جاء ذكر قارون مع هامان ايضا في اداب الوعظ اليهودي (برشيت ربا XXXI، 2، XXXIII، 5 واعداد ربا X، 7 وعلى الخصوص في XXII، 6) حيث يلاحظ ان المتواطئين معا كانا غنيين غناءا مفرطا، ومتكبرين تكبرا كبيرا، وهلكا بسبب كبريائهما وغناهما. وقد روى الطبري المفسر المؤرخ (839–923) في كتابه جامع البيان في تفسير القرآن،حديثا مفاده ان هامان كان وزير فرعون الاعظم، وكلفه هذا الاخير ببناء صرح لعله يستطيع به ان يبلغ اسباب السماء، فيتمكن من قتل اله موسى.

ويزودنا المقطع الاخير من هذه «لَكْتُوبه» (عقد) بالخبر عن سبب كتابة هذه القصيدة الهزلية المعدة للتسلية اكثر مما هي معدة للتثقيف، اذ يلتمس فيه المؤلف كذلك، على طريق التلميح لا التصريح، من قرائه ومن سماحتهم، ان يحصلوا على نص قصيدته (حتى يتمكن هو ايضا من الاحتفال المناسب لمعجزة بوريم) : اسمعوا يا اخوتي قصيدتي، اضحكوا وامرحوا!

ولتكن بين ايدي كل منكم طوال مدة الافراح
وشكرا وحبا لمردخاي واستير اللذين خلصانا!

v أيام الشؤم التاسع من آب

اذا عرف اليهود ايام الزهو، فانهم عرفوا كذلك ايام الشؤم، اياما بدون افراح او كما يسميها احد الشعراء الفاسيين المغاربة : «الايام غير المرغوب فيها» في مقابل «الايام والاعياد المرغوب فيها». والمقصود هنا بالضبط، تلك الاحداث الكبرى التي حددت المصير اليهودي قبل الفي سنة ونصف الالف، والتي طبعت وجوده منذ ذلك الوقت، واعني تخريب البابليين للهيكل الاول بالقدس، وخرابه الثاني الذي احدث على يد الرومان، وزوال الدولة العبرية والنفي وما نتج عنه من تشتت، خصوصا بعد الحرب اليهودية الرومانية في بادية التاريخ الميلادي. وقد ظلت ذكرى هاتين الكارثتين الوطنيتين تعيش برغم الزمان، وبكل اصرار، في قلب وذاكرة اليهود، خصوصا منهم يهود الطوائف الارتودوكسية والتقليدية التي تُحيي ذكرى هذه الاحداث المأساوية من تاريخ اليهود، وهي التاسع من آب بالحداد والصوم وبطقس

خاص، يلعب فيه النحيب الدور الاساسي، لانه يعبر ببكائياته وشكواه عن الحزن والالم العميقين.

1 - اسابيع الشدة الثلاثة : شعائر وعادات

ان 9 آب هو ختام ونهاية فترة الاسابيع المشؤومة الثلاثة هذه، تلك التي تبتدأ في 17 تموز (تَسْعَ اصْغِيرَة)، وهي فترة تسمى فترة الشدة، كما يحدد ذلك التعبير العبري بدقة : «بينْ هَمِصَّرِيمْ» (بين الضيق والشدة)، والتي يعبر عنها في اللهجة اليهودية - العربية باللفظتين المتقابلتين «اتْسَاعِي».انهما يوما الصوم والحداد والشكوى : «تَسْعَ لَكْبِيرَة» و«تَسْعَ اصْغِيرَة». وفي هذا الفصل الشديد الشؤم، تهيج القوى المعادية والطبيعية وفوق الطبيعة، فيضاف الى قيظ الصيف الشديد، والرياح الشريرة، عمل الشياطين المرعب والجنون جالبي وصانعي الشر. ويعتقد ان هؤلاء الشياطين يتصرفون بمطلق الحرية في فترة الحداد هذه. وهي فترة تشعر فيها الانسانية بكلومها اكثر من اي وقت آخر، خصوصا الأطفال الذين يجب ان لا يعاقبوا اي عقاب جسدي. وخلال هذه الاسابيع الثلاثة، يتعرض الكبار ايضا الى كل انواع المخاطر في صحتهم واعمالهم. ولهذا تتخذ في هذه الفترة كل الحيطة والحذر.

ويتوقف ذبح المواشي مدة الايام التسعة الاولى من شهر آب. ويرفع الجزارون مداهم ويتجنبون استعمالها. وتسمى هذه العادة «ارْفُودْ اسْكِينْ». وكذلك تخفي ربة البيت سكاكينها وتبعدها عن يد الاطفال. وعليه فلا تؤكل اللحوم طيلة هذه الاسابيع الطويلة، باستثناء يوم السبت. وكان سكان الملاح في ذلك الوقت يتوزعون الى ثلاث مجموعات تبعا للعادات وطقوس الاطعمة، فيسمح للعائلات المدعوة «طْرِيينْ» (نظيفون) بتناول اللحم الطري، و«الْخَانْزِينْ» (وسخون) لا يتناولون الا اللحم المملح النتن او الخليع. و«الْمَزْيْتِينْ»، وكان هؤلاء في هذه الفترة، لا يطبخون الا بالزيت. ويعود استعمال هذه العادات ودلالاتها الى عديد من الاساطير التي ترجع اصولها الى زمان خراب هيكل القدس، والخروج من مصر. وسنرى ان هاذين الحدثين الكبيرين في المصير اليهودي، هما اللذان كانا يكونان مدار المراثي والبكائيات التي تتناول المواضيع والاسباب التي تميز بين ليالي الفصح البهيجة، وليلة التاسع من آب المشؤومة.

ويعتبر طعام ما بعد الصوم، نوعا من الطعام الجنائزي، وهو عبارة عن حساء من العدس والبيض المسلوق. ومن اليهود من يذر عليه الرماد بدل الملح. وتطفأ الانوار وتقلب الكراسي

اثناء صلاة الغروب في البيعة، وتقام الصلوات في انوار خافتة، ويجلس الحاضرون على الارض او فوق الحصير، وتقرأ لفيفة إيخا (المراثي) من التوراة، وتغنى اغاني الحزن ولا يضع المصلون في الغداة، اثناء صلاة الصبح «شِحْرِت»، «التَفيلينْ» (اشساع الجلد)، ولا يتوشحون «بطَلِتْ» (وشاح الصلاة)، ويقلب غلاف التوراة المخملي، ولا توضع يد الفضة اثناء قراءة النصوص التوراتية لمتابعة السطور، ويذر الشماس قليلا من الرماد فوق لفائف التوراة، كما يذر الحاضرون قليلا منه على رؤوسهم.

وفي المقبرة، ترش النساء القبور بالجير، فيبدأن بقبور الاقارب ثم الصلحاء فالاولياء، في حين ترفع الباكيات اناتهن وصيحاتهن وتفجعاتهن. ويبكر رجال الجماعة المقدسة «حِبْرَه قِدُوشَه» ويجتمعون في المقبرة للقيام بدفن المكتوبات الكنسية في «لَكْنِيزَةْ» (مخزن) بعد ان قضوا الليل كله تطوافا في المدينة، ينتقلون بين اماكن الدرس والصلاة، ليجمعوا كل نسخ التوراة القديمة، وكل اوراق الشعائر المهلهلة، وكل ورقة مطبوعة او مخطوطة بالعبرية، وكل الكتابات، مهما كانت، مثل التعاويذ والرسائل العائلية والتجارية، وحيث ما خط حرف من حروف اللغة المقدسة. كل هذه الاوراق المذخرة كل السنة في الاكياس وفي الخزائن، تجمع في ذلك اليوم التاسع من آب، لترمس طبقا للاصول المتبعة، في مقابر المدينة، كما يدفن الاتقياء والصالحون، طبقا لطقس خاص، ومع كل ما تستحقه الكتابات المقدسة من دلائل الاحترام والتقدير (16). وجرت العادة ان يتقاذف الناس في شوارع الملاح، باحفان من العناب، وهو فاكهة تظهر في هذا الفصل (اما في اوربا فقد جرت العادة بان يجلدوا بعضهم بعضا باغصان من القراص او العليق)، كما توزع الصدقات على الفقراء، و«الْقَرْدَه» (قطعة نقدية) والالعاب على الاطفال. اما الكبار فيلعبون الورق، كما يفعلون عادة في عيد «بوريم». وعند حلول المساء، يقطع الصوم، او بالاحرى، يحل، كما يقال ذلك باللهجة المحلية «حَلْ الصُّومْ» بتناول حساء من القمح المجروش (الهريسة او الَحْسُوّة دَالقَمْحْ)، فتناول الشاي المنعنع مع حلوى خاصة مصنوعة من الجنجلان او من العجين المخلوط بماء محلي. (حلوى العجين). ثم يقدم العشاء في آخر المساء، وهو عبارة عن وجبة من القرعة والبصل المطبوخ مع بقايا من اللحم المقدد او الخليع.

16 – تعد هذه المكتوبة المكنوزة، كنزا مستورا لا ينفذ، ولم يستغله بعد الباحثون عن الوثائق اليهودية. وتعد «كِنيزَة» القاهرة من اشهر «لكْنِيزَاتْ» اذ اكتشف فيها اواخر القرن الاخير مستودع من الوثائق يتكون من الآف من الاوراق المخطوطة بالعبرية والعربية بخط عبري، ظلت هناك طيلة قرون عديدة، وهو اكتشاف ذو اهمية قصوى يمكن مقارنته بما احدثه اكتشاف لفائف البحر الميت نظرا لما كان له من تأثير كبير في الدراسات اليهودية في مجال العلوم التوراتية، و«المدراشية». وتتعلق هذه الوثائق في واقع الامر، بتاريخ وحضارة البحر الابيض المتوسط في العصر الوسيط، كما يدل على ذلك العمل الضخم الذي قام به S.D. Goitein في مؤلفه ، وهو مؤلف في ثلاثة مجلدات ضخام ظهر في السبعينات. The Mediterranean Society

2 - شعائر التاسع من آب، مراثي وبكائيات

تتضمن طقوس اليوم التاسع من آب، علاوة على قراءات ايام الاسبوع العادية التي تحذف منها في ذلك اليوم، على الخصوص، نصوص التضرع والتوبة، قراءة سفر ايوب ونصوصا من الانبياء(هفطروت) تخص المناسبة، وتترجم الى الآرامية او اللهجة المحلية العربية والقشتالية والبربرية. غير ان ما يهيمن على هذه الطقوس، هو النوع الشعري المسمى «قينة» (بكائية)، وفيه تعاد اساسا ذكرى الأحداث المؤلمة في تاريخ اليهود، تلك المشار اليها اعلاه (خراب هيكل القدس)، وكذلك المأساة التي عرفها اليهود السّفَرَدِيم، وهي الطرد من شبه الجزيرة الايبيرية سنة 1492/1498، والتي تعتبر بمثابة خراب ثالث، ونفي ثالث بعد هزيمتهم الاولى على يد نبوخد نصر، والثانية على يد تيتوس. ومن البكائيات الاكثر شهرة، صهيونيات يهودا اللاوي، التي ادمجتها البيع السفردية والشرقية في طقوسها، ومراثي اليعزر كالي، التي اصبحت جزءا من طقوس المجتمع الاشكنازي.

لقد اغنى الشعراء اليهود المغاربة هذا النوع من الشعر بعدد هائل من المنظومات، وكان لكل طائفة، واحيانا لكل بيعة، مجموعة من هذه الاشعار، نظمها شعراء محليون، واصبحت بفعل العرف طقوسا اضافية خاصة بفترات الشؤم هذه التي تمتد ما بين 17 تموز و9 آب. ولقد ساهم يعقوب ابنسور (فاس القرن 17-18) في هذا النوع من الشعر البكائي بمجموعة مؤلفة من مائة وخمس وعشرين مقطوعة. جمعت في ديوانه المعنون بـ ايام بلا افراح.

ومما لاشك فيه ان هذه المقطوعات، ما هي الا محاكاة لنماذج وامثلة اقرتها التقاليد، واقتبست مادتها الادبية من منبع الافكار والنماذج المتراكمة في مؤلفات هذا النوع من الاشعار، التي كتبت في الماضي القريب او البعيد. وهي مع ذلك الوسيلة الوحيدة للتعبير عن هذا الاحساس الشبه المرضى، وهو الاحساس بالاهانات والآلام الفردية والجماعية التي تعرضت لها طائفة بني اسرائيل، والاداة الفريدة للتعبير عن الاحساس لتعاسة الماضي ونكبات الحاضر.

ان لواقع الحال في غالب الاحيان، طعم مراثي ارمياء المر والمزامير. وقد امتزج الماضي والحاضر في شعر البكاء. و«القينة» هي النوع الذي يعبر اصدق تعبير عن آلام قلوب اليهود التي مزقتها المآسي التاريخية، تلك التي اذرفت من العيون الدمع على مر الزمان، كما يتجلى فيها عناء قساوة الحياة اليومية. وكانت هذه الاغاني الكئيبة، تضطرم بفيض مكثف من الانفعال العميق، ونشعر فيها احيانا بمسحة من حزن مسج هادىء ورائق، واحيانا ترتج من الالم والغضب والكراهية. وكلها تنتهي نهاية واحدة، هي الامل الذي يتكرر في كل خواتم الشعر

اليهودي، وهذا الامل هو : الخلاص واعادة بناء هيكل القدس واقامة مدينة صهيون القديمة ومجد اسرائيل الوطني.

اما فيما يتعلق بشكل وتقنيات القصيدة فان «القينة» تتبع احيانا ايقاع القصيدة البطيء الرتيب، او المقطوعات المقطعية ذات الادوار الطويلة المتدرجة التي تتخلها لازمات، او تتمفصل بعديد من الرجوع والترددات. واحيانا تنتج على منوال منظومات عروضية قصيرة ذات سرعة تستعمل ابياتا مقفاة ومجزأة، وبحورا عربية مثل المتقارب والخفيف والبسيط. وكلها ترتبط بالايقاع السريع والحركات القصيرة الخفيفة التي تميز الاغاني البكائية (تَمْرُورِيمْ مفردها تَمْرُور)، تلك التي يشير اليها الناظم في بداية بكائياته. ولغة هذه البكائيات هي هنا اللغة العبرية، باستثناء البكائية الاولى، فانها باللغة الآرامية. وقد استغل فيها الشاعر كل الادوات القابلة للمساهمة في بناء القصيدة البكائية في عرض المراثي الشعرية الايقاعية المصاحبة للحركات الطقوسية التي تقوم بها النساء الباكيات حول المحمل الجنائزي.

وتدرك هذه العناية بالاسلوب، في التموجات غير العادية لبعض انواع طرق القول والعلامات اللغوية، وفي تكرار الوحدات الموضوعية ذات الدلالة، وفي القوالب المعجمية والتركيبية، والاستعمال المبالغ فيه احيانا للمتماثلات الصوتية والجناس والشجع والتضاد الخ...
وقد ابرع الشعراء اليهود في هذا النوع الشعري بصفة عامة، لانه يعكس ما في النفس المكلومة ليهودي عانى من القدر والقلق الدائم ويعكس ما تعانيه مجموعة بشرية لم تنج من الاضطهاد والنكبات طوال قرون. وصارعت دون توقف للحفاظ على هويتها وديمومتها المادية والروحية. ويحكى انه حدث ان سلطانا استدعى مغنيين يهودا ومسلمين ليتباروا في الشعر والموسيقى، ولم يكن المسلمون اقل قدرة من منافسيهم في الانواع الشعرية المختلفة والغناء الاندلسي. اخذ اليأس يدب في قلوب اليهود الذين بدؤوا يشعرون بان النصر لن يكون من نصيبهم،فلم يجدوا امامهم الا شعر «القينة» وهو الذي حقق نجاحهم،واخيرا تفوقوا بفضل هذا الشعر على منافسيهم المسلمين.

وتقتبس بكائيات «قنوت» يعقوب ابنسور، الحانها من بكائيات شعائر معينة من شعائر التاسع من آب، كما استفاد المؤلف ايضا من تقاليد موسيقية محلية، وبالخصوص من بكائيات كتبت باللغة القشتالية، ذكرها في ابيات استفتح بها منظوماته البكائية، وبين انه نظمها على شكل «تمرور» (بكائية) على لحن...» وقد سجلنا من هذه المجموعة، بعض البكائيات (تَمْرُوريم) القشتالية كتبت في النص باحرف عبرية وهذه واحدة منها :

اية بلية بليتي ! اي الم عميق !
اية بلية سيداتي مثل الموت !
آه كم هي مضنية هذه الالام
كما يفصل الظفر عن اللحم، كذاك يفصل الخطيب عن خطيبته.
اي ألم عميق !

وتعرضت قصيدتان من بين القصائد الاربع والعشرين التي نظمها يعقوب ابنسور، بمناسبة هذه الايام المشؤومة التي هي التاسع من آب، للمصير المؤلم الذي آل اليه امراء ورجال احرار يهود، سقطوا في ايادي اعدائهم. وقد استعمل الشاعر في هاتين القصيدتين، الجناس الادبي والتماثلات الصوتية، والكلمات المتشابهة اللفظ المختلفة المعنى، واللفظ الواحد المتعدد المعاني، ويكون هذا اللفظ في الغالب قافية متضمنة لاستشهاد توراتي يتكرر مرتين في آخر المقطعين المتتابعين.

وقد اخذنا هذين البيتين من القصيدة الاولى، وهما البيتان الاخيران من المقطع الثالث والرابع :

سقطوا في مهاوي السجون /في حفر الارض في كهوف الصخور (حورِيمْ حُفَر)
غرقوا في مهاوي النفي، جميعا، امراء واحرار (حورِيم) = أحرار

وقد بكى ايضا موسى ابنسور، وهو شاعر معاصر للاول ومن نفس عائلته، في مجموعة من البكائيات عنوانها : «زِخِرْ لَحُرْبَانْ» (ذكرى الخراب) (خراب هيكل القدس)، مأساة خراب القدس، وزوال دولة اسرائيل التي ظلت في الذاكرة طيلة الفي سنة. وقد قال المؤلف في فقرة افتتح بها هذه المجموعة من البكائيات التي اضاف اليها بعض المراثي : «رتبت هنا بعض «القِينوت» التي نظمتها في موضوع الخراب ونفي الحضرة الالهية، وجلائنا الذي طال به الامد، وفي موضوع بؤس الشعب المتزايد، وفي موضوع ثقل الضرائب والمكوس والسخرة، وفي موضوع الشدة والضيق اللذين تعاني منهما أمة اسرائيل. ليعجل الله بالخاتمة وليعجل ببعث مخلصنا وبإعادة بيت الهنا وبمجدنا...!»

لقد استفاد شاعرنا المغربي من نموذج بعض البكائيات التي نظمت لشعائر 9 آب، وحاكي نوعا ادبيا آخر مشابها، عرف عند شعراء «البِيُوطْ» اليهود الفلسطينيين، فاستغل كل ادوات التضاد، لتصبح الحالات المتناقضة متوازية، تلك التي تخلد احزان التاسع من آب، والاخرى التي تخلد الافراح، مثل اعياد الفصح وعيد الخيام. وقد بدأ موسى ابنسور، منذ

البداية، في عنوان احدى مجموعته الاولى البكائية، باسلوب التلاعب بالحروف والالفاظ، ذلك الاسلوب الذي يستعمل مختصرات الحروف وحساب الجمّل، بدل الكلمات. وبهذه الطريقة يتحول «حَكْ هَمَصُوتْ» (عيد الفطر، الفصح) و«حَكْ سُكُوتْ» (عيد الخيام) الى «حَكْ صُمُوتْ» (ذكرى الصوم) وحَكْ «صُقُوت» (ذكرى الفواجع). وبنفس الحيلة، واعتمادا على وضع حرف العين وهو حلقي، بدل حرف الحاء الحاء وهو حلقي ايضا، يصبح «حَكْ بِصَحْ» (عيد الفصح) «حَكْ بِشَعْ» (ذكرى الخطيئة)*.

وهذا النوع من التلاعب اللفظي معروف قديما، وتعود اصوله الى طرق الكتابة الخاصة بالتلمود و«المدرشيم» والشروح التوراتية الاخرى التي لم تدرج في محتوى التلمود، والتي اتخذ منها الشاعر اليهودي الفلسطيني في القرنين 5 و6 مناهجه البلاغية.

ولم يعد خافيا دور منهج التفسير التلمودي والقواعد المنهجية الربية بصفة عامّة، في الاستنباطات الشعرية وفي الآداب «الهَلَخية» و«الهَگّدِية» (الفقهية والتاريخية الاسطورية). وما ان تهذب هذه النماذج التي هي اساسا منطقية، وما ان تزال عنها صفتها النثرية ودقة الجدل المعد للاسلوب التشريعي واللغة الفقهية، حتى تصبح لدى شعراء «البِيُوطْ» مادة ثمينة يصوغون منها ادوات اسلوبهم الذي هو نسيج وحده، والذي يُستجيب لاحتياجات الخطاب الشعري والمقتضيات الفنية.

ولكي نوضح كلامنا، فاننا سنتناول بالتحديد، مثال البكائية (القينة)، لنحلل ابنيتها ونوضح العلاقات الصميمية التي بين «المِدْرَاش» (تفاسير) و«البُيُوط» (القصيدة). وكان الشاعر اليهودي الفلسطيني يلجأ، ليبكي بؤس الذات الوطنية وخراب هيكل القدس، الى تقنية «المدراش» الادبية التي اتضح ان بلاغتها وطرقها المتعددة لعرض افكارها، كانت صالحة للتعبير عن الآم اليهود الذين مزقتهم المأساة الكبرى. وتستعمل البكائية «القينة»، بنجاح وتفوق، ضروبا من الاساليب المستعملة في كتابات «المدراش». ومن هذه الضروب ضرب التضاد، وهو بالنظر الى ذلك، اسلوب تعبيري غني بوجه خاص. والتضاد هنا وضع حدثين وحالتين تختلفان اختلافا كاملا بطبيعتهما ومجرياتهما ونتائجهما، وضعا متقابلا. وتدور مجموعة

* اراد المؤلف ان يقدم مثالا للتلاعب بالحروف والالفاظ، لكي يضع المتناقضات في تواز، فبين ان الشاعر يضع عيد الفطر وعيد الخيام، وهما مناسبتان تحييان ذكرى لافراح، في مقابل ايام الصوم وذكرى الشدائد، وهما مناسبتان تحييان ذكرى الاحزان، وذلك اعتمادا على تغيير الحروف فقط، فحك (عيد) «همصوت» (الفطير) = افراح، اكتفى الشاعر بوضع الصاد قبل الميم لتصبح صموت = صوم = احزان، وفي حك سكوت (خيام) = افراح اكتفى بتغيير س فاصبحت حرف ص وك فأصبحت ق، اي صقوت = شدائد، وكذا تغيير حروف بصح = افراح فتصبح ص ش، وخ ع = بشع = خطيئة. المترجم

كاملة من البكائيات، حول موضوع المقابلة بين عيد «بصح» وذكرى التاسع من آب. وتكون طريقة النظم احيانا جد بسيطة، اذ تتكون من جمع آيتين توراتيتين متضادتين في سطرين متتابعين، مثل وضع الآية الثلاثين من الاصحاح الرابع عشر من سفر الخروج، مع الآية الرابع عشرة من الاصحاح الاول من مراثي ارمياء*، وهكذا في كل المقطوعة.

وقد تنظم القصيدة بكثير من الحذق والتعقيد، فتتصدى حينئذ لموضوعي الخروج من مصر، ومغادرة القدس نفيا الى بابل، عن طريق التلويح. وتظهر شخصيتا موسى وارمياء المتعاصرين، البطلين كل على طريقته، انطلاقا من هذين الحدثين اللذين طبعا التاريخ اليهودي، في لوحات حيث المعتم الكثيف يحادي الوهاج الساطع. والقطعة تكون احيانا عبارة عن بيتين متتابعين بدون انقطاع، واحيانا، عبارة عن منظومة طويلة تضم مجموعة مقاطع، كل منها تتألف من ثلاثة او اربعة اشطر ايقاعية، وهي جميعا، سواء النوع الاول ام الثاني، تستعمل القافية وترمز لناظمها بحروف اسطرها الاولى. عندما نعود الى عمل موسى ابنسور الشعري، فاننا نقول بان بكائياته، هي عبارة عن انواع من القول، مما يدور في المواضيع المتناولة في هذا النوع من الشعر. ولقد سبق ان تحدثنا عن اشعار ابن عمه يعقوب ابنسور، لكن بالرغم من القرابة التي بين الشاعرين، وبالرغم من معاصرتهما وانتسابهما الى نفس المحيط الاجتماعي والثقافي، فاننا نلاحظ فروقا كبيرة في اعمالهما الشعرية. وقد تميز يعقوب ابنسور، وهو واعظ ذو موهبة كبيرة، وفقيه شهير، بنوع من الكلاسيكية التي فرضتها عليه مهامه، وصلاته مع رفاقه الاحبار، وتأثيره الذي يمارسه على جماهير يهود الطوائف المغربية. انه شخصية جذابة قوية، طبعت عصرها واجيال المتأدبين الذين جاءوا بعده. ولم يعرف موسى ابنسور نفس ذيوع السيط الربي، ويحتمل انه لم ينهج النهج الروحي المشابه لذلك الذي سار عليه قريبه، ويكاد ينحصر تجديده في توجهاته التي قصرها على التصوف الذي صبغ مجموع نتاجاته الفكرية، مع ان نتاج معاصريه لم يكن خاليا من الباطنية القبالية. ويظهر ان الفكر الثقافي، التلمودي التقليدي عنده كان قد افسح المجال الى احساس عميق، يتجلى في نوع من السريالية الحدسية، في ضبابية من التعبير الخفي التلميح، المقتضب بل الغامض، نتيجة لاستعماله الفاظا توراتية لم ترد في لغة التوراه الا مرة واحدة. وان انتقاء الصور واختيار المجازات والخيالات واللغة والاسلوب، وتقنية التأليف نفسها، كل هذه العناصر الادبية، تحمل بدون شك، دلائل

* جاء في الاية 30 من الاصحاح الرابع عشر من سفر الخروج : «فخلص الرب في ذلك اليوم اسرائيل من يد المصريين، ونظر اسرائيل المصريين امواتا على شاطىء البحر». وفي الاية الرابع عشرة من الاصحاح الاول من مراثي ارمياء جاء على لسان القدس : «شد نير ذنوبي بيده، اثقل غِلّه عنقي، نزع قوتي، دفعني السيد الى ايد لا استطيع ان اقاومها». المترجم

المعرفة والعلوم الربية الشائعة، غير ان المؤلّف يشهد كذلك على بعض الاصالة، ويبقى مطبوعا بطابع روح وشخصية جذابتين لعدة وجوه. وقد اقتبسنا هذا المقطع من البكائية الاولى من هذا النوع من «القنوت» (بكائيات) وهو :

سأكثر من البكاء مثل نواح هدد رمون (زكرياء XII، 11)*
احشائي تهدر /وعروق قلبي تزمجر
اذرف الدمع مرتعدا كما يُذَرُّ الكمون (اشعياء، XXVII، 25)**
تجري دموعي كسيول الاودية /ياليث راسي تحول مياها جارية (ارمياء IX،1)***
سأصبح رأس السقاة /سأملأ اواني بدون نهاية، وستفيض بذلك كأسي.

ويمكننا ان نربط بين شعر الابتهال «تّحِنُوت» والاعتراف «وِدُّويِمْ» والعظات «تُوخَحُوت» وبين جنس «القينة» الشعري. وقد نظم الشعراء اليهود المغاربة الكثير ايضا من هذا النوع، مقتبسين النسق الايقاعي، وايقاع ونغم القصائد الاندلسية، والغنوة القشتالية. والقصائد التي يضمها ديوان موسى ابنسور من هذا النوع، فهي حينا تستحضر عهود «المِسِيِ» المخلص، وحينا آخر هي عبارة عن ابتهالات لاستعجال الخلاص، ومرة ثالثة تصور الصراع ضد اغراءات الميل الى الشر. وهي حوار الروح مع الجسد، فينفتح احدهما عن الآخر معترفا منتحبا. ويشرح المؤلف ذلك في ديباجة احدى هذه الابتهالات كالتالي :

«انتهيت ذلك اليوم من ترتيب بعض «القينوت» (البكائيات) و«التحنوت» (الابتهالات) و«التوخحوت» (العظات) التي نظمتها لنفسي ولمن هم في عمري، حتى يصدق قول الكتاب : «خذوا معكم كلاما وارجعوا الى الرب (هوشع XIV، 3). تسلحوا بالصلوات والابتهالات، ربما ينكسر العارض الذي يكونه فينا وفي لحمنا، قلبُ الحجر. فيحيد الشرير عن طريقه، والظالم عن مكائده، يعود الى الخالق فيرحمه، الى الهنا الذي يجزل الغفران (اشعياء LV، 7).

ويردد ابداع موسى ابنسور الشعري هذا، صدى التصوف الذي ورد من الشرق، على الخصوص، من مدرسة صفد الصوفية. ويَشهد على ذلك الاقتباس الكثير من نماذج اسرائيل

* جاء في سفر زكرياء الاصحاح XII الاية 11 : «في ذلك اليوم يعظم النواح في اورشليم كنوح هدد رمون في بقعة مجدون (اسم مكان)

** جاء في سفر اشعياء الاصحاح XXVIII الاية 25 : «24 كل يوم يحرث الحارث ليزرع ويكرب ويمهد ارضه (25) اليس انه اذا سوى وجهَهَا يبذر... ويذر الكمون...»

*** جاء في سفر ارمياء الاصحاح IX الاية 1 : «من لرأسي بمياه ولعيني بينبوع دموع فابكي نهارا وليلا على قتلى بنت شعبي» المترجم

نجارا، والاختيار الواضح لمواضيع اشعاره وافكاره المنتقاة،ورمز اليمامة الذي نجده في عديد من هذه الاشعار، كهذه مثلا :

ايتها اليمامة الغارقة في سبات النفي
انفضي عنك الغبار
واصدحي بالالحان والتسابيح
الله الحي يسبح بالالحان

3 – الستية، او صوم ستة ايام دون انقطاع

اهدى احد الشعراء من عائلة ابنسور، من الفرع التطواني، وهو يهودا ابنسور، قصيدة وعظية حديثة، نظمت حوالي منتصف القرن 19، الى احد اتقياء هذه المدينة العلماء، الذي صام هذه الايام الستة المسماة بالعبرية «تَعَنِيتْ هَفْسَقَا» (صوم فترة الايام الستة) دون انقطاع، كما تقول العبارة التي قدم بها للقصيدة. وتتناول المقطوعة موضوع اغراء النزوع الى الشر الذي يبطله الصوم، وتبدأ هكذا :

يا اصدقائي واخوتي واقربائي /ابكوا معي خطاياي التي لا تحصى /لقد ازل قدمي عدوُّ الشمال (17) العنيد بنصائحه الخبيثة /لقد اوقعني في شراكه مثل طائر، اخذت ولم يأت احد لنجدتي.

واذا ذكرنا هنا هذه المقطوعة الوعظية،فاننا نفعل ذلك لانها تتعرض لطقس لا يعرفه الا القليل. ويقوم بهذا الطقس اناس اتقياء، ويسمى بالعبرية «تَعَنِيتْ هَفْسَقَا» (صوم فترة الايام الستة). ولتسميته باللهجة المغربية «السَّتِّي» دلالة كبرى. وتعني في الواقع التخلي عن الاكل والشرب نهائيا مدة ستة ايام متوالية ليلا ونهارا. ويبدأ الصوم يوم الاحد عند السحر، وينتهي يوم الجمعة مساءا، عند غروب الشمس، باحتفال مناسب وطقوس خاصة. (انظر ما تقدم فصل التعليم ص 59).

(17) – الشمال (صفون) هو مكان الشر واصل الدنس انظر :
G. Scholem, Origines de la kabale, p 170-310
وقارن بسفر ارمياء الاصحاح الاول لاية 14 : «من الشمال يأتي الشر»، وهو تلميح لغزو الاشوريين والبابليين،وهما شعبان شماليان كانا عدوي دولتي اسرائيل ويهودا. وانظر كذلك سفر يوئيل الاصحاح II اية 20 : «(عدُوُّ) الشمال سابعده عنكم».

VI الايام الرهيبة
رأس السنة ويوم الغفران

تبلغ لحظات الطقوس ذروتها مع الايام الرهيبة العشرة «يَمِيمْ نُورَئِيم». وتسمى ايضا، نظرا لوظيفتها الخاصة في الحياة الدينية : «ايام الرجوع الى النفس العشر، وايام التوبة»، وهي فترة يبلغ فيها الاحتفال اوجه، وقطباهاهما رأس السنة وعيد السنة الجديدة من جهة، ويوم «كِبُّورْ» (يوم تلقي الغفران)،وهو يوم اعتراف وصوم وندم، من جهة اخرى.

1 – اربعون يوما من الزهد

الحاصل ان رأس السنة هي نهاية فترة من الزهد تستغرق كل الشهر السابق، شهر ايلول، آخر شهر من السنة. ويسمى : «شهر الرحمة والتوبة»، وتعبر لفظة ايلول نفسها عن المودة التي بين الله والانسان، كما نجد في احد النصوص المغربية، لانه يتركب من الحروف الاولى التي يتكون منها هذا الاعتراف الرائع : «انا لحبيبي وحبيبي لي». المقتبس من نشيد الاناشيد، والتي يجب علينا هنا ان نتصور ما يتضمنه من رمزية وتصوف (18).

ويبدأ الاعداد ليوم «الحساب الكبير الرهيب» منذ بداية شهر ايول، وهو يوم تقوم فيه اعمال الانسان بين يدي عدالة السماء. وتعتبر هذه الفترة التي تمتد الى «يوم كِبُّور» (الغفران)، مناسبة للتشدد في التقيد بما تأمر به الشريعة. وهي ايضا الفترة التي تدعى فترة «سِلِيحُوت» (الغفران)، وهي عبارة عن جلسات ليلية تعقد لـ«صلوات التوبة» يوميا في الساعات التي تسبق الفجر، مدة الفترة المسماة «السهرة الثالثة»، حيث يستيقظ الملاح ويمتلأ حيوية، وتزدحم البيع بالمومنين كبارا وصغارا، وكلهم جاءوا للاشتراك في هذا الطقس.

وكنت انا نفسي، بعد السنة التي بلغت فيها سن الرشد الديني، اذهب لايقاظ رفاقي في «اليشِيفَه» والمدرسة، قاطعا ازقة مدينة الصويرة المظلمة (حيث كان يعيش اليهود والمسلمون في سلام)، وكنت اطرق ابواب المنازل وبيدي زجاجة «لَفْنَارْ» التي بها شمعة مضيئة. وكانوا يسهرون الليلة كلها مرة في الاسبوع، وهي ليلة تكرس لطقس خاص يسمى «تِقُّونْ كَرِيتْ»

18 – تكون الحروف العبرية الاربعة الاولى لكلمات العبارة : انا لحبيبي وحبيبي لي، اسم الشهر «إِلُولْ» فالحرف الاول من انا = «أني» هو الف قطع والحرف الثاني من الكلمة لحبيبي = «لِدُودِي»، هو لام الجر. والحرف الثالث من الكلمة وحبيبي = «ودِودِي»، هو واو العطف. والحرف الرابع من اللفظة «لي» = لي، هو لام الجر التي دخلت على ياء النسبة. والمجموع إِلُولْ= اسم الشهر. المترجم

[التوقي من الداهم] وهو طقس الهدف منه حفظ من يقوم به من موت داهم (كَرِيتْ) تكون عادة هي جزاء بعض الكبائر.

2 – فك النذر وصلاة النذر

في ليلة رأس السنة والغفران بعد صلاة الصباح، تبدأ اجراءات طقس «التحلل من النذر»* فتصلح ذات البين بين الجيران والاصدقاء، وتصفى النزاعات التي حدثت اثناء السنة ولم تحل. ويعاد احياء هذا الطقس بابهة في ذروة شعائر «كبور» اثناء اهم الطقوس واكثرها اثارة وهو طقس صلاة النذر «كُل نِذْرْ». فيعلن ثلاثة من اقدم شيوخ البيعة الذين يؤهلهم ورعهم وعلمهم، عن التحلل من الوعود والايمان والالتزامات التي اخذها الحاضرون على انفسهم طوال السنة. يعلنون ذلك امام التابوت المقدس المفتوح، ثلاث مرات، فيرتلون، وهم في ثيابهم البيض، وقد تلفعوا بوشاح الصلاة، العبارات المستعملة في هذه المناسبة، متهدجي الأصوات، مبتلي العيون. وقد جرت عادة طوائفنا بالمغرب، ان تقيم مباشرة بعد صلاة النذر، صلاة خاصة حتى يحفظ الله السلطان ويديم أمن وازدهار مملكته.

3 – الجَلْد واغتسال التطهير

جرت العادة ان يجلد الاشقياء في ليلة «كبور»، ويقوم بالجلد احد احبار البيعة، تبعا لقواعد محددة حددها الشرع. ويقع الجلد بسوط خاص، وعدد الجلدات تسع وثلاثون جلدة، يجلد بها ظهر الشخص وهو عار. عدد هذه الجلدات هو نفس عدد كلمات الآية الثامنة والثلاثين من الاصحاح الثامن والسبعين، الثلاثة عشر، مضروب في ثلاث مرات. وجاء في هذه الآية صفات الحلم والرحمة الالهية**. وبمجرد انهاء الجلد، يتوجه الشخص الى اغتسال التطهير. على الانسان ان يستعد «ليحيى حياة الملائكة»، كما جاء في احد نصوص التلمود.

4 – «كَبُّروتْ» (الفداء)

انه فداء الخطايا التي ترتكب خلال السنة، انه ثمن الفدية يحول الى قيمة حقيقية بما يقدم من قربان التكفير المتمثل في الدواجن التي تنقل اليها خطايا المخطىء، وهي عادة سارية لدى مجمل العائلات اليهودية المغربية، وترجع اصولها بعيدا في ذاكرتهم الاجتماعية الدينية.

* وهو عمل يقوم به الاحبار، المترجم
** الآية هي : «اما هو فرؤوف يغفر الاثم ولا يهلك، وكثيرا ما رد غضبه ولم ينزل كل سخطه». المترجم

ويذكر احد نصوص «المِدْراش» القديمة الذي يستحضره المؤلفون اليهود المغاربة، هذه العادة، مضيفا ان الدواجن تعتبر بمثابة بديل عن «كبش الفداء» الذي كان يقدم قربانا ايام هيكل القدس، استغفارا لخطايا اسرائيل. ويمر «الشوحط»، الحبر المعين لذبح الدجاج، في الليلة السابقة لليلة يوم «كبور»، في منتصف الليل، متنقلا من عائلة الى اخرى، ليقوم بالذبح، ويضحي بديك لكل ذكر طفلا كان او رجلا، وبدجاجة لكل طفلة او امرأة. فبعد ان يختبر الطائر ليتأكد من صلاحيته للفدية، يتناوله بيده اليمنى، ويديره مرارا على رأس الشخص المعني، وهو يردد اسمه، ويردد العبارة الآتية قبل ذبحه قائلا : «انه فداك، وبديل لك، والتكفير عما قمت به من خطايا، قد ذبح هذا الذيك (او الدجاجة اذا كان المعني انثى) لتتمكن من ان تحيا حياة طويلة هادئة مطمئنة». وسرعان ما يردم الدم بالرماد او التراب، كما تصف ذلك هذه الشعيرة. وتصبح الطيور المذبوحة طعاما تتناوله العائلة، ويقدم احدها عادة لفقير من الفقراء.

5 - اعراف وطقوس الاطعمة «ورقة العسل»

اذا كان يوم الغفران مناسبة لكبح الشهوات،والصوم ومعاناة كل انواع الندم، فان احتفال رأس السنة، على العكس من ذلك، مناسبة للاكل والشرب والمتعة، كما جاء ذلك في الشريعة والعرف. غير ان الطعام في هذه الحالة، يحمل كثيرا من علامات الخير. ويلاحظ هذا في طقوس الاطعمة التي تميز اول وجبة في نفس ليلة العيد الاولى، والتي تتضح دلالاتها المتعددة في الطقس الذي يتبع مباشرة صلاة «القِدُّوش» (مباركة الخمر) وطقس مباركة الخبز «مُوصِيّ». ونجد الدلائل على هذا فيما يسمى بالدارجة المغربية، وهذه تسمية جد مناسبة، «وَرْقَةْ لَعْسَلْ» التي كانت تأتي الى عهد قريب من الارض المقدسة، مع متمنيات رأس السنة الجديدة، وكانت هذه المتمنيات غالبا ما تطبع محليا في المغرب في كل رأس سنة، ومعها هذه العبارة : «لتبدأ هذه السنة مباركة». وهي خاتمة شعر ديني يتلى في البيعة اثناء صلاة المغرب.

ونشير الى ان خمر التقديس تكون اجباريا بيضاء مصنوعة من العنب الابيض الذي تعصره ربة البيت بيديها البيضاوين. اما الخمرة الحمراء، فانها تبعد عن مائدة الطعام في ذلك المساء، لان اللون الاحمر في الحقيقة هو رمز الشدة، بينما اللون الابيض يرمز الى الرحمة. ويغطس خبز التبريك في العسل وليس في الملح، كما هو الحال دائما. وللعسل اهمية كبرى في طعام هذه الامسية، انه يرمز الى النعمة والصلاح الصوفي والفأل الحسن.

وتحضر في ورقة العسل، في ترتيب معين، المواد التي يجب ان تتناول اجباريا قبل الوجبة، وكل مادة من هذه المواد عبارة عن رمز وفأل، والاسم الذي يدل عليها يحمل خاصية

معينة، وله خصوصية ذات اهمية كبرى. ويتظافر معناه الحرفي، والتلفظ به، والصلوات التي تتلى قبل تناوله، والاسم الذي يطلق عليه، مع عملية الاكل نفسها لتعطي لهذا الطقس كامل معناه وبعده التاريخي الروحي والصوفي، بل الاسطوري الكوني.

وعليه يغمس الشخص ربع تفاحة في العسل والجميع يردد العبارة المختصرة : «ليكن لديك مقبولا سيدنا الهنا...، ولتكن السنة الجديدة من بدايتها الى نهايتها، سنة سعيدة وحلوة مثل العسل...» وعندها يغيب المتمثل لهذا الامر، في تأمله الصوفي لاسم الرب الاسمى.

وتلفظ العبارة الآتية مع تناول التمر المجني في نفس السنة، والعبارة هي : «لتُقبل لديك سيدنا الهنا، لنزدهر مثل النخلة (التمر)، لتغفر (تمحق، يتم) خطايانا، ولتحفظنا مما يدبره اعداؤنا

من مكر وعداوة، وممن يخاصمنا، وخصوصا من نزواتنا...

ولنلاحظ هنا استعمال اللفظين المتقاربين في الصوت، وهما : «التمر» (النخيل)، ومؤدى «القضاء والمحق»، المعبر عنه بالفعل العبري يتامو*. ويتمنى المرء هذه الامنية وهو يبتلع بعض حبات الرمان قائلا : «لتكن طيبة سيدنا الهنا، ولتتكاثر فضائلنا وحسناتنا كما تتكاثر حباة الرمان...». وللتأمل الباطني هنا، كما في مواضيع اخرى، دور هام، خصوصا اذا ما تذكرنا التأويل الصوفي الذي يعطيه القباليون المغاربة انفسهم، الى نص نشيد الاناشيد، حيث ذكرت حبات الرمان في مواقف عديدة.

ويفعلون نفس الشيء بحبات الجلجلان والحلبة والخضر التي لاسمائها (العبرية والعربية) دلالات رمزية وصوفية :

فالقرعة (قِرا / قَرع تدل على نوع من الخضر وعلى القرع التمزيق والقراءة).
الكُرّاث** (كَرْتِ / كَرَتْ) تدل على نوع من الخضر وعلى القطع.
الشمندر*** (سَلْقا / سَلَق) تدل على نوع الخضر وعلى الاقتلاع والاستئصال.

وينتهي هذا الطقس برأس الخروف الذي يبتلع كل واحد من الحضور قطعة منه، ليستحضر امتحان ابراهيم الذي دعاه ربه ليضحي بابنه اسحق. (انظر سفر التكوين الاصحاح الثاني والعشرين)، ويقدمه على المذبح، حيث ابدل في الاخير بكبش ظهر لابراهيم في الدغل. ولا ينبغي ان ننسى ايضا بهذه المناسبة، تلك الامنية التي تعني : «لتكن دائما في الرأس وليس في الذيل...»

* الظاهر ان الجملة الاصلية في العبارة بالعبرية، كانت هكذا : لنزدهر مثل «التمر» (وتعني في العبرية النخلة و«تم» – (وهو نفس الفعل العبري تعمم : انتهى) – خطايانا... والمقصود المقابلة بين التّمْ...ر والتّم (القضاء). المترجم

** بالدراجة المغربية «الْحَرّيف» المترجم

*** بالدارجة المغربية «الْبَرْبَة»

وتجدر الاشارة الى ان خضر هذا الطقس تعد جزءا من «اسْبَعْ خْضَري» التي هي خضر الكسكس، وهو اجود طعام تقليدي في هذه الفترة التي تتوالى اعيادها. وهو في الواقع وجبة رأس السنة وليلة «كِبُّور» و«سُكُوتْ».

6 - بعض الشعائر وصوت البوق (قرن الوعل)

بالاضافة الى الطقس الشائع الذي يكون الصلوات المعروفة منذ اقدم الازمنة، فان يهود المغرب، مثل معظم اخوانهم يهود الاندلس والبحر الابيض المتوسط ويهود الشرق، يُدخلون في طقوس رأس السنة و«كبور»، عددا كبيرا من المقطوعات الشعرية التي نظمها، خصيصا لهذه المناسبات، مشاهير شعراء العصر الذهبي الاندلسي المغربي، الذين ينتسبون اليهم بكثير من الاعتزاز، مثل يهودا اللاوي وسلمون بن گبرول وموسى بن عزرا وغيرهم...

ونذكر هنا، من بين تلك المقطوعات، نوعا من الشعر يسمى شعر «العَقدة» (القربان) الذي يخلد ذكرى الامتحان الكبير الذي امتحن به ابراهيم، الا وهو تقريبه ابنه اسحق.ومن اشهر هذه الاشعار، «العَقِيدَةُ» التي نظمها يهودا ابن سموئل بن عباس المغربي،؛وهو عالم وشاعر مغربي كان يعيش في القرن 12 بفاس ثم الاندلس فبغداد. وما هذه القصيدة التي اصبحت جزءا لايتجزأ من شعائر يهود الغرب والشرق الاسلاميين، في شكلها الخارجي، الا مختصرا لقصة «قربان» اسحاق التوراتية، مطعمة بعناصر تعود الى عالم اساطير «المدراش». انها في حقيقة الامر بكائية مؤثرة يعبر فيها الشاعر الاب المكلوم عن آلامه العميقة، باكيا موت ابنه موتا روحيا لانه اعتنق الاسلام.

ولن نتناول من مجموع هذه الطقوس الخاصة الا بعض العناصر والاحداث التي لها خصوصياتها، من هذه الخصوصيات.

- ان «قربان» اسحق يتردد في قراءة النص التوراتي الخاص برأس السنة، الاصحاح الثاني والشعرين من سفر التكوين، الذي يروي محنة ابراهيم هذه.

- ان رأس السنة يسمى بعديد من الاسماء، في آداب العهد القديم، والمصنفات الدينية التي كتبت فيما بعد، مثل يوم النفخ (يُومْ تِرُوعَهْ) يوم الذكرى (يوم هَزِّخَرُونْ). يوم الدين (يُومْ هَدِّينْ).

النفخ في الصور :

كنت دائما مفتونا ايام صباي، بطريقة صنع الصور الذي يصنع من قرن كبش يختار من بين عدد كبير من القرون، وكان جدي يختاره من المسلخ في يوم من ايام شهر ايلول، وكنت ارقبه ساعات طويلة، لان العملية كانت تستغرق وقتا طويلا، وكانت جد معقدة، لازلت اتذكرها لحد الان، خصوصا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار، الادوات المحدودة التي كانت تتوفر لديه، فقد كان يضعه على النار، ثم يفرغه بعناية، ثم ينظفه ويسويه ويجلبه، ثم يثقبه ليصنع له «فما دقيقا»، كما كان يقول، وبعد الف تحول وتحول بين يديه الخبيرتين، تصبح هذه الاداة الثمينة بعد عديد من التجارب صالحة لتحل مكانها بين ادوات العبادة ولتلعب، في هذه المناسبات السامية من اوقات صلوات الايام الرهيبة، دور الوسيط بين الانسان وخالقه، ما دامت هي الوسيلة التي تصل بواسطتها مجموعة الاصوات المقدسة - التي هي «تِقعُوتْ» (النفخ) و«شِفْرِيمْ» (صوت متقطع) و«تْروعَه» (الصيحة) - الى السماء، امام اعتاب العرش الالهي.

وقد عزا الاحبار المغاربة، نقلا عن سعديا كْؤون الفيومي (عاش في مصر في القرن 10) عديداً من المهام لصوت «الشُّوفَرْ» (الصور /البوق) وارجعوا التعاليم المتعلقة به، تلك التي جاءت في العهد القديم، الى علل لها اهميتها القصوى لدى المومن، منها : اعلان سيادة الله في هذا اليوم الذي يخلد ذكرى الخلق، هذا الخلق الذي تم، كما جاء في التلمود، في يوم «رُوشْ هَشَنَّهْ» (رأس السنة)، ويذكر بتجلي الرب ونزول التوراه على جبل سينا، وببعثات الانبياء، وبذكرى قربان اسحق، وبتخريب بيت المقدس، وباستحضار يوم الدين الاخير، وبالخلاص. كما يذكر باصوات «صُور» آخر، تلك التي ينفخها المسيح في اليوم المنتظر، وفي يوم البعث. ومن جهة اخرى، فان صوت «الصور» يريع القلوب، ويحث الناس على التوبة الخ...

الصلاة الزائدة (النافلة)

وتعد صلاة «المُوسَفْ» (النافلة)، من اهم لحظات صلاة الصبح «شَحْرِيتْ». وتهيمن ثلاثة مواضيع على هذه الصلاة النافلة الخاصة بعيد رأس السنة، وتتمثل في ثلاث كلمات اساسية : «مَلْكُوت» (مُلْك) زِخْرُنُوتْ (ذكرى) «شُوفَرُوتْ» (نفخ الصور). وقد فسرت هذه

المواضيع في كثير من نصوص العهد القديم، الماخوذة بالتوالي من التوراة واسفار الانبياء والمكتوبات*. وتعلن نصوص الملك، سيادة الله : «يسود الرب وتمتد مملكته على كل شيء (مزامير الاصحاح 103 الاية 19). وتمجد نصوص الذكرى (زخرنوت)، العناية الالهية، ومالها من اثر في مصير العالم : «ستتذكر كل الاعمال، وستتذكر كل مخلوق منذ ابد الابدين، لن يخفى عن عينك شيء، ولن يهمل اي شيء امام عرش مجدك». اما فيما يتعلق بنصوص «شُوفَرُوتْ» (نفخ الصُّور)، فانها تذكر على الخصوص، بمشهد تجلي الرب على طور سيناء، وما رافق ذلك من مشاهد عظيمة : «كانت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل، وصوت بوق» (شُوفَر» شديد جدا... فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا، وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت». (خروج XIX الاية 16 و19).وتذكر هذه النصوص ايضا بطبيعة الحال، بفريضة النفخ في قرن الوعل.

7 – شعيرة ابعاد الخطايا : «وَتِشْلَخْ» (سترمي)

وبعد الظهر، من يوم رأس السنة، يتوجه اليهود في جماعات صغيرة نحو شاطىء البحر في المدن الساحلية، والى الآبار او بجوانب السواقي والانهار، في الاماكن الاخرى، فيقومون بالاعمال الطقوسية التي تمثل ابعاد الخطايا، ويقومون في نفس الوقت، بشعيرة خاصة، يرددون اثناءها الدعاء المأخوذ من النص التوراتي، سفر اينحا، الاصحاح السابع، الآية 19، وهو : «ستقذف بكل خطاياهم في ظلمات البحر»، ويقذف باي شيء في الماء، وغالبا ما يقذفون الحصى، وتقلب الجيوب، وتنفض ذيول الجلابيب ويعود الجميع الى دورهم، وقد تخففوا من اثقال الخطايا.

8 – احتفال يوم «كِبُّور». «سِدِرْ» (العمل المقدس لليوم المقدس)

تتألف صلاة يوم «كِبور» النافلة، من عنصر ذي اهمية كبرى، يعتبر اساسيا في كل شعائر هذا اليوم الرهيب. انه «سِدِرْ هَعَفُودَهْ» وهو عبارة عن مجموعة نصوص نثرية مسجوعة، واشعار تصف بتفصيل، «الطقس الرباني» الخاص بيوم الكفارة في كل دقائقه، اي تصف

* يتكون العهد القديم من ثلاثة اقسام كبرى هي التوراة والانبياء والمكتوبات ويطلق على الجميع في العربية تجاوزا : التوراة. (المترجم)

القربان والطقوس والاعمال التي كان يقوم بها الحبر الاعظم في هيكل القدس. وقد رقيت هنا نصوص المشنى، التي تناولت هذا الموضوع نثرا، في فصل «يُومَا»، الى شعر رفيع اقتبس منه شعراء القرن الاول اليهود بفلسطين، واحفادهم الاندلسيون في العصر الذهبي، حليته العروضية لصناعة نوع ادبي يسمى هو كذلك «عَقُودَهْ» انه تراتيل حماسية، تتعرض الى احداث «الخدمة المقدسة»،ويعبر فيها عن الحنين الى عهود خلت، وعن الرغبة والأمل في لقاء زمان المجد القديم البعيد، الذي اختفى مع خراب الهيكل، وانقطاع خدمة الرب. ويعتقد ان التاريخ نفسه قد توقف منذ هذه المأساة الوطنية، ولن يعود الى مجراه الطبيعي الا مع مجيىء المخلص. يعود الشاعر الى الماضي ليمجد الذكريات الخالدة، كما يحمله خياله كذلك نحو المستقبل متمنيا الخلاص والعودة الى مجد الاصول الخلاب.

تبدأ «العقوده» بمختصر قصير لقصة خلق العالم : رسوم متناقضة للوحة من الظل والضوء،تقدم مختارات من التجانس المزدوج، وتردد صدى الصفحات الاولى من سفر التكوين مثل «تُهُو» و«بُهُو» (خراب يباب) والارض والسماء، والليل والنهار، والهواء والماء، والحيوان وانواعه المختلفة، والعالم المرئي وعالم الخفاء. ويتابع السرد بقصة خلق الانسان، وتقدم الانسانية الى عهد الاباء وميلاد شعب اسرائيل وتاريخه، حتى تكليف هارون واحفاده الذين تحملوا الوظيفة الدينية من بعده.

يقول MIRCEA Eliad ان هذا التجديد الدوري للعالم في الديانة اليهودية : «يتجسم في سيناريو معرفي كان يرمز فيه الطقس الرئيسي الى اعادة نشوء العالم، وتنصيب يهوه ملكا على العالم،كما كان يعرض انتصاره على اعدائه، وهم قوى العدم، وفي نفس الوقت الاعداء التاريخيون لاسرائيل... وكانت نتيجة هذا الانتصار هي تجديد الخلق والاصطفاء والعهد...» (Aspects du mythes).وقد بين Wensinck من جهته، ان «سيناريو شعيرة العام الجديد تلك التي يعبر بها عن الانتقال من العدم الى الكون، هي التي تطابق احداثا تاريخية معينة مثل الخروج واجتياز البحر الاحمر وغزو كنعان والنفي البابلي والرجوع من النفي...» (the Semitic NewYear and the origin of Eschatologie).أما G.scholem فانه ابان في الادب القبالي نفس هذه الافكار والمواضيع بقوله «كان التيار المصلح يهدف الى العودة وبعث الحالة التي كانت قد انتهت، ولكنها ظلت دائما تعيش في الشعور كمثال اسمى. ويمكن ان نقول بان هذا التيار، كان قد التفت الى الماضي بصفته كان معروفا في خيال وذاكرة شعب كامل كحقيقة مجسدة. ويرتبط هنا الامل بالماضي، بمقتضى الرغبة في بناء الاشياء كما كانت عليه في الاصل وكما تمثلت في حياة الأجداد».

وتجدر الاشارة الى ان احدى العلامات المميزة «للعقوده» هي نبرتها الكونية. اذ أصبحت المناسك التي يقوم بها الحبر الاعظم، المسماة «عفودة»، تجري وكأنها امتداد لمشهد ذي آفاق ملحمية. والغريب انه لم تعد تظهر في هذا المشهد لاصورة القدس، ولا ارض اسرائيل ولا المجتمع اليهودي الذي يحل بها، وكأن احفاد هارون يتحركون باسم الانسانية جمعاء.

وتعد طقوس رأس السنة و«كِبُّور»، كباقي طقوس الصلوات اليهودية بصفة عامة، موضوعَ القبالة المفضل. ويجد فيها التصوف شكله المعروف الكلاسيكي، سواء في العدد العديد من الاشعار الشعائرية التي كان ناظموها هم انفسهم متصوفة، او في التآويل الباطنية التي كانت هذه الطقوس موضوعا لها.

وقد نظم العديد من التراتيل والاغاني التي تنسب الى هذا الادب المسمى «بالطقوس العلوية»، للاحتفاء بهذه الايام الرهيبة. واشهرها على الاطلاق، هي هذه الصلوات المرتبة على الحروف الهجائية التي ادرجت في طقس هذه المناسبة، وتسمى «انشودة الملائكة» وتبدأ كالتالي : «الجلال والوفاء خالدان ابد الابدين»

وتستعمل كل هذه الآداب اسلوبا رمزيا خاصا، ولكنه معقد، لانه يعتمد معرفة عميقة، بالعلوم الربية . فعندما يسرد شاعر من القرون 5–6، وهو يوسي بن يوسي، في «عقودته»، تاريخ الكون، منذ بداية الخلق حتى كهنوتية هارون، فانه لا يسمى الاشخاص باسمائها التي جاءت في التوراة، ولكنه يسميها بمجموعة من العبارات والاوصاف الخاصة، والمختصرات بحيث لا يلحظ العلاقة الموجودة بين الابطال والشخصيات البارزة في التوراة، الا من كان له المام كبير بالآداب التوراتية والتلمودية والكتابات «المدرَشية»، وكذا نفس الامر بالنسبة لبعض المفاهيم، مثل سماء وارض وماء وشريعة وحية ونار الخ... فيطلق مثلا على ابراهيم، الاب الاعلى، في هذه المصطلحات الرمزية، احيانا : «الأب المبتلى» واخرى، «اب الكثرة» (من الشعوب) و«اصل او ارومة الشجرة» و«العدل اساس الكون». ويطلق على اسحاق : «اغصان الشيخوخة». وعلى يعقوب : «الرجل البسيط».ويحل محل السماء : «عرش» «المقام» «الغلالة». ويطلق على الارض : «المنضدة» و«مكان النسيان». وعلى الماء : «الكمية» المحددة». وعلى جهنم : «المبتلعة». وعلى التوراة «المعلم والمتعلم». وعلى جماعة بني اسرائيل : «المصطفى» الخ...

ولحظة يوم «كبُّور» التي تنتظر على أحر من الجمر.هي تلك التي تبدأ عندما «تلمس الشمس قمم الاشجار». انه في هذه اللحظة بالضبط، يبدأ طقس «النِّعيلَهْ» (الختم)، ويتميز على الخصوص بقراءة البركة الكهنوتية الرسمية، وبنفختين اثنتين في «الصُّور»،على المؤمنين ان

يستمعوا إليهما بكل ورع وهم يلفعون ابناءهم في «الطليت» (وشاح الصلاة) وهذا «الختم» هو الذي يعلن نهاية الندم، والافطار بعد الصوم.

VII سنة الاشجار الجديدة، «طاو بشباط»*

يعرف الدين اليهودي سنة اخرى جديدة، تلك هي سنة الاشجار، وتأتي في عز فصل الشتاء في 15 من شهر شباط. وتسمى لهذا السبب «بطاو بشباط» (الخامس عشر من شهر شباط). وتعود اصولها الى تاريخ بعيد، اذ جاء ذكرها في الفصول الاولى من فصول المشنى والتلمود، تلك المتعلقة برأس السنة، حيث قيل : «لقد اختير هذا التاريخ، لان كمية كبيرة من امطار السنة تتهاطل قبل شهر شباط، والاشجار التي تزهر بعد هذه المدة بقليل، تعد غلالها، (لاخراج الاعشار)، غلالا للسنة اللاحقة...». لم يعد هذا السبب قائما، ولم يعد هناك موجب لقبوله. وقد اثارت مناسبة «رأس سنة الشجر» في القرن 16، انتباه قباليي مدرسة صفد، فاعطاها اسحق لوريا وتلامذته، دلالة باطنية، مستعملين الخامس عشر من شهر شباط، ليجعلوا منه لحظة طقوسية، يقصد منها الاستدلال على مشاركة الانسان في بَهجة الشجر، ويوما يمتاز بتناول اكبر كمية ممكنة من الفواكه والحبوب، وهي كلها جماع من رموز تفسرها نصوص صوفية نعرفها من بعض الكتب، مثل كتابي «حِنْدَتْ يميم» و«بِرِي عِصْ هَدَرْ»، وهما مؤلفان تعرضا بالاضافة الى هذا الموضوع، الى التاريخ والاسطورة وما يمتزج بهما من اعراف وعادات.

«طاو بشباط» (الخامس عشر من شهر شباط) ليس احتفالا مميزا، وليس عيدا يحتفل به كل اليهود، وله مع ذلك عند بعض العائلات المغربية صفة احتفال يحمل طابع الوفرة والغنى، وهما الوفرة والغنى اللذان يتجليان في تنوع النتاج المصطف فوق طاولة اعدت ببذخ، وهذا النتاج هو الانواع السبعة التي يرددها العهد القديم والتي تذكّر بالارض الموعودة : «ارض القمح والشعير والكرم والتين والرمان، ارض الزيت الولود والنخيل المتمر» (سفر التثنية، الاصحاح 8 الاية 8)، وعشرات من انواع الحبوب والقطانيات المقلية الاخرى، وخصوصا فواكه الفصل الطازجة، او فواكه الفصول الاخرى التي جففت بعناية، واحتفظ

* القيمة العددية للطاء في العبرية هي 9، وقيمة الواو 6، فيكون المجموع 15، وشباط شهر من اشهر السنة اليهودية. والمعنى، الخامس عشر من شهر شباط. (المترجم)

بها كل السنة، لهذه اللحظة المفضلة (من البرتقال الى التفاح ومن العناب الطازج الى فصوص الخروب العسلية الخ...) وخبز القمح والشعير و«غريبات» الذرى والخمر الاحمر والابيض و«مَاحْيَا» والعسل او التين، والحلويات.. الخ. وللاطفال حظهم في هذا العيد، وكذا للفقراء، ذلك ان اليهود يعتنون كثيرا باعداد رزيمات تحتوي قليلا من كل مما عرض فوق المائدة، وتقدم لهؤلاء واولئك مصحوبة بالدعوات والمتمنيات الطيبة.[19]

19 – نذكر هنا بسنة جديدة خاصة بالملوك، تلك التي تصادف، كما جاء ذلك في نصوص العهد القديم، اول شهر نيسان، وهو شهر ذكرى الفصح والخروج من مصر. وهناك رأس سنة اخرى، ويقع في اول ايلول، وهو تاريخ اخراج اعشار المواشي، وتحتفل التقاليد اليهودية، تبعا لما جاء في التلمود، بمجموع اربع احتفالات تخص السنة الجديدة، وكلها تقع في السنة الفعلية الواحدة. ولا يحتفل الآن الا باثنين منها فقط.

الخاتمة

تعتبر الخاتمة، خلاصة ونتيجة ووقفة تأمل في آن واحد، وبداية مشروع كذلك، بمعنى اني اود في نهاية هذا الوصف، وصف مجتمع يهودي عاش في ارض الاسلام واصبح في ذمة التاريخ، ان اتناول باختصار، بعض خصائص هذا المجتمع، لاحدد بعض جوانبه واهميته، ثم أتابع بحثي بجولة سريعة في الحاضر، وبنظرة تأملية إجمالية فيما أسميه بتاريخانية المحيط اليهودي المغربي - الثقافي.

1 – الوفاء المزدوج

حافظت المجتمعات اليهودية – الاسلامية، الى غاية القرن التاسع عشر، بالنسبة للجزائر وتونس، والى حدود القرن العشرين بالنسبة للمغرب، على استمرارية حضارية واسلوب في العيش، وثقافة عرفها اجدادهم منذ نهاية القرن الخامس عشر، بعد افول العصر الذهبي الاندلسي وانطواء البلد على نفسه. ومرت اربعة قرون دون ان تحمل اي تغيير يذكر بالنسبة للسكان، او الى المظاهر الثقافية او الى المحيط الاجتماعي – الاقتصادي، والحياة اليومية. انها مشاهد ثابتة، ووجوه متشابهة على الدوام. وظل الشعور بالركوض المطلق سائدا الى عقود متأخرة في المغرب، اكثر من اي بلد اسلامي آخر. وربما كان السبب في هذا يعود الى الاتجاه التقليدي الاسلامي الذي ترسخ بميل البرابرة الى التحفظ.

ويمكننا، في غالب الاحيان، ان نكتفي، لنعرف ما كانت عليه حالة البلد طيلة قرون سابقة، بالنظر الى ما هو حولنا. وقد تكون جولة في عين المكان، افضل الف مرة من قضاء يوم كامل للتنقيب في بطون الكتب.

وفيما يتعلق بالمجتمع اليهودي، فانه ايضا عرف نفس المصير بما فيه الكفاية، فبعد ازدهار ورخاء العصر الذهبي الاندلسي – المغربي، توالت فترات الضعف الحديثة، وعلى الخصوص، تلك القريبة منا، والتي سبقها مجيء الغرب واكتساح حضارته وثقافته. ويعود سبب التدهور السريع نسبيا ليهود ارض الاسلام النشيطين، عموما، لامور سياسية واقتصادية واجتماعية، وهي جميعا تمس الى حد كبير، مصير مجموع العالم الاسلامي. ومع ذلك، فلقد عرفت الطوائف اليهودية بالمغرب وضعا شاقا بوجه خاص، نتيجة لاسباب متنوعة، من بينها : انعزال

البلد نفسه عن كل حضارة غربية، وتقوقع اليهود داخل الملاح، بالاضافة الى ظروف الذمي المتدهورة.

لا شك ان كلا من المجتمعين اليهودي والاسلامي، كان يعيش عيشة تختلف عن الآخر فكل منهما غيور على هويته ومتشبث بايمانه ومعتقداته. غير اننا نلاحظ في المسار التاريخي الذي يرسم الحياة اليهودية في هذا البلد، فضاءا من التقارب حيث يلتقي المجتمعان ويتعايشان في طمأنينة وسلام. ونلاحظ ايضا مواطن التلاقي المفضلة، حيث تتجلى مساواة حقيقية في حضن اللغة، وتماثل البُني الذهنية. وقد لاحظنا ذلك في طي صفحات هذا الكتاب. وتتضح وتتحقق هذه المساواة على مستوى الحياة اليومية، والاهتمامات الاقتصادية، وفي افضل لحظات الوجود، والمتخيل الاجتماعي، والثقافة الشعبية التي لا تعرف حدودا دينية، ولا مواجهات ايديولوجية وطنية، ولا شعورا دينيا. ويبدو ان اللحظات الشعائرية هي نفسها كانت مطبوعة بقدر لا يستهان به من التوفيقية، كما تشهد على ذلك بعض العادات وبعض التقاليد والممارسات التي لوحظت اثناء الاحتفالات الدينية الكبرى والاعياد العائلية.

اننا هنا، كما هو الشأن في مجالات اخرى، امام مجتمع يهودي ذي قطبين، وهوية اجتماعية ثقافية اصيلة، وشخصية يهودية – مغربية متعددة الجوانب. انه مجتمع ذو وفاء مزدوج : وفاء لليهودية باكملها، تلك التي يحتفظ معها بعلاقات متينة وخلاّقة، وبالاخص في مجال الفكر وتياراته الكبرى، و«الانسانيات» اليهودية عموما. ووفاء للبيئة المحلية والتاريخية والجغرافية، لانه جزء لا يتجزأ منها، وللمحيط الاجتماعي والثقافي واللغوي للغرب الاسلامي، والعالم الاندلسي – المغربي القديم.

2 – طائفة ممزقة :

ونتعرض باختصار شديد، الى ما اصطلح على تسميته بـ«مرحلة التحولات»، والتي تتصادف هنا، مع مجيىء الحماية الفرنسية (1912–1956) وتوغل الغرب وحضارته في مجتمع لا زالت تسوده علائم القرون الوسطى. ولم يستطع اي من الدارسين ان يتحدث عن التحرر والاستئصال دون ان يخلط في ذلك. لقد صدرت احكام متسرعة دون روية فيما يتعلق باتصال اليهودي المغربي بالمجتمع الاوربي ونمط عيشه واقتصاده وثقافته، فادعت ان هذا الاتصال كان نتيجة طموحه من اجل العيش على «النمط الاوربي»، وتبني مظاهره الخارجية تلك التي تميز «المعّمر». انه التغريب السطحي والمبتسر، والانفصام عن الماضي، والتمزق وضياع الهوية. كما ادعت ان الطائفة اليهودية في المغرب لم تكن في وضع مريح تماما نظرا لما

كانت عليه، نتيجة تيارات مختلفة واتجاهات متعارضة من توزع بين انواع من الوفاء يستحيل التوفيق بينها.

وكل هذا في حقيقة الامر، لم يكن يمس الا شريحة محدودة في المجتمع اليهودي المغربي، تلك التي تخص بعض العائلات التي كانت تتمتع دائما بالامتيازات في المدن الكبرى، والتي استطاع ابناؤها ان ينالوا حظا وافرا من التعليم، لما كانت تتوفر عليه من وضع ملائم في المجال الاقتصادي والمهن الحرة. اما الجمهور العريض فانه لم يتعرض الا قليلا للمشاكل الناتجة عن التغريب والتعلم، تلك التي اقلقت نخبة الاقلية المثقفة والغنية.

ولقد ظل هذا الجمهور العريض في معظمه، غريبا عن اغراءات الغرب، متجاهلا الجدل الذي كان يملأ اعمدة الصحافة اليهودية المغربية، او ما كان ينشر في منشورات اخرى لم تكن دائما سليمة الطوية. وظل مرتبطا بقيمه اليهودية التلقيدية، وفيا لطموحاته ليجد نفسه، عندما تأتي المناسبة، مستعدا ليهاجر في اعداد غفيرة الى اسرائيل، بغض النظر عن الاعتبارات الحالية للسياسة، خاضعا لغرائز مسيانية روحية، ليحقق بذلك حلما يعود الى مايزيد على الف سنة.

ومن وراء عالم من الفضاء شفاف الا انه خادع، مما يجعل الشاهد غير المجرب يتخذه على انه حقيقة صادقة، استطاع اليهودي المغربي ان يمارس حياة داخلية لاينقصها لا الفرح الهادىء، ولا التفاؤل، بل لا تنقصها حتى التطلعات الروحية التي تعزيه عن مرارة الوجود والتي تجعله يقول مع مؤلف المزامير : «ان هذه تعزيتي في بؤسي» المزامير (CXIX، 50). اما فيما يتعلق باستعداده للالتحاق بموطن اجداده، فانه يمكننا ان ندعم صدق هذه القضية اعتمادا على وثائق حقيقية، وآداب محلية زاخرة، تثبت ان اليهودية المغربية في مجملها، بصفتها ظلت تنتظر العهد المسياني، وكانت اكثر تهيئا لتقبل الايديولوجية الصهيونية، من يهودية اوربا الغربية، او يهودية اوربا الوسطى او الشرقية.

بعد قيام دولة اسرائيل (1948) واستقلال المغرب (1956) بدأنا نشاهد تمزق الطائفة وهجرة الاغلبية الساحقة من افرادها. وهكذا حكم بالاختفاء نهائيا، على مجتمع ظل مستقرا في البلد منذ ما يقرب من الفي سنة، فأقام بمدنه الشهيرة وبالمناطق السهلية الفلاحية وهضاب الاطلس وتخوم الصحراء. ولم يبق الآن من بين 250000 نسمة من السكان اليهود الذين كانوا يسكنون الملاح ويتساكنون كذلك مع المسلمين في احياء بعض المدن، ومع الاوربيين في الاحياء الجديدة بالمدن الكبيرة، في الوقت الحاضر، ما بين 1950–1960، الا اقل من 20000 نسمة، وقد تمركز اغلبهم في العاصمة الاقتصادية، الدار البيضاء.

واختارت بعض المجموعات فرنسا وكندا وامريكا اللاتينية موطنا هاجرت اليه، واتجهت الاغلبية الساحقة الى «ارض الميعاد» عن طواعية، وكونت مع جماعات اخرى من اليهود الشرقيين، مجتمعا منفصلا متميزا عن المجموعة الاشكنازية التي جاءت من اوربا الوسطى او الشرقية. انه مجتمع البروليتاريين و«سود» «اسرائيل الدرجة الثانية»، الذي يشكل في واقعه الطرف الثاني لـ«بيض» المؤسسة المسيطرة التي كانت تستقطب منها، منذ الانتداب البريطاني، الطبقة القائدة والسياسية ونخب الثروة والثقافة.

كيف تم هذا الاندثار لليهودية المغربية ؟ وما هي البواعث الرئيسية للرحيل الفردي والجماعي، هذه التي، تجلت في موجات تهجير كبرى ؟

يزودنا الادب الربي المحلي، والاحداث القريبة، بكثير من التفاصيل الهامة عن هذه «التموجات الهائلة» لليهود المغاربة، وعن بواعثها. لقد كان اليهود المغاربة يغادرون باستمرار البلاد في الماضي، افرادا وجماعات، في اتجاه الشرق على الخصوص، وحتى الهجرات الداخلية نفسها، لم تكن ناتجة، فقط عن صرامة القوانين الاجتماعية والاقتصادية التي تحكم تنقلات السكان في المجتمعات المتطورة، او في المجتمعات التي هي في طريق النمو.

لم ينقطع ابدا، خلال كل القرون، تيار الهجرة في اتجاه فلسطين، وهو تيار كان يغتني بوفود الطلاب الوافدين على «اليشِفوت» او بوفود الحجاج الذين كانوا يذهبون لقضاء بقية عمرهم في الارض المقدسة. وكان البحث عن الثروة، والآمل في أمن اكثر، وتحرر اجتماعي وقانوني اعظم، يقود مئات من اليهود المغاربة، في القرن التاسع عشر، الى ان يهاجروا، وان يدرجوا على خرائط ترحالهم – بجانب وجهتهم التقليدية التي هي القدس وطبريا – أماكن اكثر بعدا مثل الولايات المتحدة الامريكية والارجنتين والبرازيل او البيرو. ولم يكن اغلب هولاء المهاجرين بحاجة ليذهبوا بعيدا اذ كانوا يستقرون في اغلب الاحيان في البلد المجاور، الجزائر التي اصبحت تحت السيطرة الفرنسية منذ 1830 او في جبل طارق، المركز الرئيسي للتبادل التجاري بين انجلترا والمغرب. ولقد سبق ان تتبعنا اعلاه، الرحلتين الافريقية والاوروبية التي قام بهما حبران من الجنوب المغربي، وتحدثنا عن مغامراتهما وتجوالهما. كانت الهجرة في اتجاه الارض المقدسة نادرة خلال العقود الخمسة الاولى من القرن العشرين، وهي المرحلة التي اقيمت فيها الحماية الفرنسية بالمغرب (والانتداب البريطاني بفلسطين) ومع ذلك فقد ظهرت بوادر مجموعات صهيونية بطنجة وتطوان والصويرة وفاس ومراكش منذ بداية القرن. ثم ظهرت بعد ذلك بزمان في الدار البيضاء. وعند قيام دولة اسرائيل سنة 1948، كانت مختلف الحركات «الكِيبُوتْزِيَة» والاحزاب السياسية الاسرائيلية ممثلة في المغرب بواسطة مبعوثين

كانوا يحملون معهم صراعهم ومنافساتهم ونزاعاتهم من اجل النفوذ. وكانت الدار البيضاء مقر «الْكَادِيمَا» وهي المكتب الذي كان ينظم الهجرة رسميا. ولقد هجرت مجموعات كبرى من جماهير المدن الفقيرة، ويلاحظ انهم كانوا يفضلون الشباب «عَلَيْتْ هَنُّوعَرْ» وسكان الجنوب المغربي وجبال الاطلس، لانهم كانوا يرون في هؤلاء القدرة على تأسيس المستعمرات الزراعية، الامر الذي لا يقدر عليه سكان المدن.

وكانت هجرة جماعات الاطلس والجنوب المغربي، ما بين 1952 و1956 وفي السنوات التالية، تخضع لاهداف محددة وتتم حسب طرق ممنهجة.

ولم يكن سكان هذه المناطق البعيدة عن المراكز العمرانية الكبرى، يعدون انفسهم للسفر، ولم يتسابقوا للتسجيل في مكاتب الوكالة اليهودية ضمن قوائم المغادرين، كما يعتقد وكما يزعمون، بل كانوا ينتظرون في ملاحهم المنعزل، الى ان تأتي الوكالة اليهم لاخذهم ونقلهم جماعة الى ما وراء الحدود المغربية بعد مرور قصير بالدار البيضاء او مراكش. ولم تكن تستغرق العملية اكثر من ليلة او ليلتين في بعض الحالات المعينة، ويتم تحضيرها بدقة متناهية «وكنت صدفة شاهدا على ذهاب مباغث لسكان امزميز في جبال الاطلس الكبير». وتم نقل هؤلاء السكان الذين ترسخ فيهم طابع اليهودية المغربية، والذين ظلوا على هامش الحضارة الغربية على الرغم من كل المجهودات التعليمية التي قامت بها، في هذه المناطق، الرابطة الاسرائيلية العالمية، نقلا دون تمهيد الى ارض الميعاد. وربما كان من المفيد ان نتابعهم عن كثب، في بلد استقبالهم، لنعرف ردود فعلهم تجاه اوضاع حياتهم الجديدة، لو سمح لنا الوقت والمكان، حتى نتحدث عن هذه المغامرة المثيرة.

لقد منح المغرب المستقل على يد ملكه محمد الخامس-الذي سبق له ان عارض، سنة 1940، تطبيق قانون Vichy، المعادي لليهود، على ارض مملكته الشريفة - لليهودي المغربي وضعا قانونيا مساويا للوضع القانوني المخول للمغربي المسلم، وانعم عليه بحق المواطنة وبنفس الحقوق والواجبات. وكان بإمكان هذه الوضعية ان ترضي رغبات اليهودي وتحقق طموحاته الغالية جدا، غير ان التطبيق الكامل لها، بدا منذ البداية غير قابل للتنفيذ، على الاقل في بعض المجالات. وبالاضافة الى ذلك، فان تضامن المغرب مع البلدان العربية الاخرى، وما نتج عن ذلك من عداء صريح تجاه اسرائيل من جهة، وتعاطف اليهودي الطبيعي مع اسرائيل باعتباره مواطنا لها بالقوة، من جهة أخرى، خلقا جوا من التشكك والريبة، وهذا امر لم يساعد على انشاء علاقات عادية بين عنصري السكان يهودا ومسلمين.
وفضلا عن ذلك، بدأ المغرب ينهج، شيئا فشيئا نهج اقتصاد البلدان المتخلفة، (او في طريق

النمو)،هو نظام اقتصادي لا ينسجم معه اليهودي،لان عليه بمقتضى هذا النظام ان يتخلى شيئا فشيئا عن دوره التقليدي المتمثل في الوسيط التجاري، فدفعته دينامية الى أماكن اخرى لاسيما وان اخطار تأرجح السياسيات الدولية، والخوف من احتمال تغيُّرٍ في موقف النظام نحوه، لم تساعده على تجذره واستقراره، وهما شيئان يطمح اليهما بكل قواه، وعليه فانه محكوم عليه بان يبحث عن مواطن اكثر موالمة.

لقد امتدت حركة الهجرة التي مست الشرائح الفقيرة من السكان، اثناء السنوات الاولى من الاستقلال،تدريجيا عن طريق العدوى، الى الطبقات الميسورة نسبيا، وانتهت في آخر المطاف بهجرة العائلات الاكثر غنى. وكانت عملية تقلص حجم الطائفة اليهودية بالمغرب بطيئة جدا اذا ما قورنت بالطوائف الاخرى بالمغرب العربي او بالمشرق، ولكن الم تكن نهاية المطاف هي هي ؟

ولنعد الى بعض سمات هذه الصيرورة،صيرورة التحلل بدءا من العقد الاول الذي تلا الاعلان عن الاستقلال.

كانت تبدو الهجرة تجاه اسرائيل اولا، ظاهرة طبيعية، لذلك توافد عليها اليهود المغاربة، شأنهم في ذلك شأن اخوانهم في بلدان الشتات الاخرى منذ قيام الدولة. ولقد تتابعت الحركة خلال السنوات الاخيرة من الحماية، ما دام سيرها كان خاضعا فقط، للمنظمات التي كانت تُمثل الوكالة اليهودية في عين المكان، وبالاخص مكتب «الكَادِيمَا». (التهجير)

وعندما حصل المغرب على استقلاله، تزايدت حركة الهجرة خلال الستة الاشهر الاولى ثم توقفت: نتيجة استتباب النظام الجديد،وكذلك نتيجة للضغوطات التي مارستها الجامعة العربية على السلطات المغربية، وكان على المغرب ان ينضم اليها فيما بعد،ويبرهن على تضامنه معها.

ومع ذلك، لم تنقطع حركة التنقل بين المغرب واسرائيل واسرائيل والمغرب ابدا، وذلك بطرق مختلفة.وتمثلت حركة التنقل من اسرائيل الى المغرب في رجوع بعض العائلات رجوعا نهائيا، غير انها كانت في معظمها زيارات سياحية وعائلية، وكانت الضرورة تدعو افرادا من نفس العائلة،وجيرانا من نفس المنزل،او من نفس الزقاق الى اللقاء مهما كانت العراقيل.

ويتداخل المظهر السياسي للظاهرة مع مظهرها البسيكولوجي، ولا يتميز عنه الا بصعوبة. وهكذا فان اندماج الطائفة اليهودية في العائلة المغربية الكبيرة، اندماجا كان يعتقد انه ممكن بل ومرغوب فيه، في جو تسوده الثقة والغبطة ، وهو جو ساد نتيجة للتصريحات

المتعددة الواعدة بالمساواة والحرية، تلك التي أعلن عنها، سواء جلالة الملك محمد الخامس او زعماء الاحزاب السياسية والتي لم تتحقق على ارض الواقع وأصبحت اسطورة على الرغم من المجهودات التي بذلها ذوو النوايا الحسنة، والارادات الطيبة اولئك الذين حاولوا التقريب بين عنصرين من السكان المغاربة داخل جمعية اطلق عليها اسم «الوفاق» والتي لم تلبث ان حلت. ولم تستطع الحياة المشتركة منذ القدم على نفس الارض، ولا القرابة اللغوية، ولا العادات، ان تعوض انعدام الثقة والتنافرات على اختلاف انواعها والمصالح الخاصة. كما لم تستطع لتتغلب على المشاكل الناتجة عن وجود الدولة اليهودية والعداء المشترك الذي أجمعت عليه الدول العربية المتضامنة تجاه اسرائيل، وهو عداء تغذيه دعاية سفارات الشرق العربي المقيمة بالمغرب، والاذاعة الوطنية نفسها.

اما ما يتعلق بمشكل حريات التنقل، وهو امر كانت الطائفة اليهودية شديدة الحساسية بالنسبة اليه، فينبغي ان نعترف ان موقف القصر، بل والسلطات المحلية المكلفة بتسليم جوازات السفر ايضا، لم يكن موقفا موحدا دائما، اذ كانت هناك فترات تتميز بالتشدد واخرى بالتسامح. وكانت هذه الحركة المتأرجحة، والتي كانت تخضع لاعتبارات سياسية عامة تنعكس على الحالة النفسية للسكان اليهود، فهم بين الامل واليأس، واليأس والامل. وانتهى هذا الوضع بخلق حالة من الحيرة والخيبة حتى لدى الافراد الذين لم يكن لديهم ريب، فاخذوا يفكرون في اعداد مشروع الرحيل. وتصبح حركات الهجرة السرية بديلا في الفترات الصعبة، وعلى الخصوص في الفترات المتميزة بوقف مفاجىء للهجرة المعلنة، وعندها تجري اجراءات الرحيل في ظروف جد سيئة قد تنتج عنها احيانا، حوادث مأساوية، كما يدل على ذلك غرق سفينة Pisces في يناير 1961، وقد اثار اختفاء 43 من ركابها، شعورا من الالم والحسرة، سواء في المغرب.او لدى اليهود عامة.وعلى اثر هذه الحادثة المؤلمة.،وبعد الصفقة التي تمت تحت ضغط اليهودية الامريكية، سمحت الحكومة المغربية باستئناف الهجرة الرسمية.

وظهرت بعض تخوفات اليهود بعد تولي مولاي الحسن الثاني، غير انها سرعان ما اختفت، وعاشت اليهودية المغربية في حالة من الطمأنينة، بل وفي غبطة لم تكن لتحلم بها قبل سنوات قلائل، مهما كان عطف ورعاية صاحب الجلالة محمد الخامس، ذلك العطف الذي لايشك فيه حتى بعد زيارة الرئيس عبد الناصر المشهورة للمغرب.وفي الواقع فان شخصية الحسن الثاني، في نظر رعاياه اليهود، هي الضمان الوحيد للحريات المثبتة في الدستور، هذا الدستور الذي صوت عليه يهود المغرب بالاجماع، وبالاخص، تلك الحرية المتمثلة في التنقل، والتي يعيرها اليهود اهمية قصوى.واصبح اليهودي المغربي، في عهد الحسن الثاني، يغادر

البلد ويعود اليه كما يحلو له. وأزيلت العرقلة الكبرى التي هي الحصول على جواز السفر تماما. واصبح لليهود «ممثلوهم المنتخبون» في الهيئات التمثيلية، فمنهم نائب، واعضاء في المجالس البلدية، ونواب للرئيس، واعضاء مكاتب الغرف التجارية. وتستفيد الدواوين الوزارية من كفاءات العديد من الموظفين السامين اليهود. ويبدو ان يهودي الشارع نفسه وهو المواطن العادي، قد تخلى عن كل عقده بل اصبح يتمتع بحياة مطمئنة في انتظار رحيل محتمل.

ويبدو واضحا ان ما يناقض فترات القلق التي عرفت سابقا والتي عالقة بالاذهان ان تسمع ان المغرب هو البلد الذي يعيش فيه اليهودي ملكا، وانه ارض موعودة حقا. واذا كانت الحرب الاسرائيلية العربية لسنة 1967، حرب ستة ايام، قد عجلت بالرحيل، فان الحياة لم تلبث ان اخذت مجراها الطبيعي فيما بعد، وان كانت تتزعزع من وقت لآخر باحداث داخلية او خارجية، وتتوالى عليها فترات من القلق والطمأنينة. وقد استقرت الوضعية على ما هي عليه في السنوات العشر الاخيرة.

3 - استقبال وتوجيه المهاجرين في اسرائيل

واجهت موجات المهاجرين الذين اسرعوا الى اسرائيل مشاكل جمة ومتعددة، و لم تتخذ الدولة الفتية في البداية، اي نوع من الاحتياطات لاستقبالهم على احسن وجه، وكانوا يحتلون في البداية المنازل المهجورة التي هاجرها اصحابها العرب خلال الحرب. وبعدها يعاد المهاجرون «العُوليِمْ» الجدد لِ«مَعبروت»معسكرات العبور) وهي عبارة عن خيم واكواخ وبيوت قصدير، وكلها مساكن رديئة ومجمع للاوبئة وسوء التغذية والذعارة والاجرام، وتصبح جحيما للوحل والغبار اذا حل الشتاء او اثقل الصيف. هذا بالاضافة الى الفقر المعنوي والمادي، والذي لا يمكن للمهاجر ان يخرج منه الا بعد اقامة طويلة ومؤلمة تدوم شهورا او عدة سنوات، حسب لون المعني بالامر، «ابيض» او «اسود» غنيا او فقيرا. ولقد اتسعت هذه المعسكرات اتساعا عظيما، وكان عددها سنة 1952 احد عشر معسكرا، يسكنها 250000 من المعوزين.

وبعد ان اختفت هذه المعسكرات في بداية الستينات، انتقل سكانها، وقد تكاثروا بازدياد عدد كبير من المهاجرين الجدد، وتجمع 15% منهم في وسط مدن اسرائيل الرئيسية وهي القدس، وتل - ابيب، ويافا، وحيفا. ووجه الباقي، وهم الاغلبية الساحقة، الى مناطق ومدن التنمية «عَرْهَپِتُوح» وقرى تعاونيات المهاجرين «المُوشَابِيمْ». وتقع مدن التنمية في النقب ومناطق الحدود (بئر السبع ودمونة وقرية گات وبتْ شِأنْ وقرية شمونة ومعالوت الخ) وقد تم تخطيطها من اجل التخفيف من كثافة السكان في السهل الساحلي، وتأمين التوزيع الجغرافي

للسكان، ولتضمن في نفس الوقت، دفاعا جيدا للبلاد بوصفها حزاما يحمي المدن. وتتكون الاغلبية الساحقة لهؤلاء السكان، من يهود يعود اصلهم الى بلدان المغرب الكبير وبالخصوص، الى المغرب. وكان اليهود المغاربة هم الذين اسسوا اكثر من مائة من «المُوشَابِيم» (القرى التعاونية) في النقب والجليل، وفي تخوم البلاد (نوعام ويشريش وافيفيم ودبوراه الخ).

ولم تتم اقامة توزيع المهاجرين الجدد بدون صعوبات، كما انه لم يتم تعمير مناطق التنمية، بواسطة العملية المسماة (من الباخرة الى القرية)، دون عويل ودون دموع، وكما يقول السكان الاوائل «بدِيمُونا» ان اصل تسمية قريتهم مشتق من العربية والعبرية «دمعة». وكان الوافدون يرفضون دائما النزول من الشاحنات التي كانت تنقلهم من الميناء الى مقر اقامتهم، وهو مكان خال.وضعه موظفو التخطيط الحضري في الحسبان،ليجعلوا منه قرية او مدينة. لاشك ان اجراءات تعمير اسرائيل،هي التي كونت المظهر الاجتماعي لهذه الاسرائيل،وانه في جحيم «معسكرات العبور» «مَعَابَرُوت»،واحياء المدن الكبرى الفقيرة كأحياء كتمون بالقدس وهَاتِيكوا بتل - ابيب، ووادي سليب بحيفا) تم تحديد مناطق ما يسمى بـ«اسرائيل الثانية» اي المجتمع اليهودي المسمى بالسيفرادي والشرقي، حيث يكوِّن المهاجرون المغاربة، وفيض ذريتهم، الجزءَ الاكبر [illegible]،ولم يجد هؤلاء،وهم في معظمهم كانوا قد اتجهوا الى صهيون في حمية مسانية، واختاروا العيش في اسرائيل بصفتها ارضا مختارة وليست ارضا للجوء، اي استقبال حار في ارض الاجداد.

ويعترف في الدوائر الحكومية بحقيقة التفاوتات الكبرى التي ترجع اسبابها الى الاصل الجغرافي او الاثني. وهناك وعي بوجود هوة بداخل المجتمع الاسرائيلي، حيث يعتبر الشرقيون مجموعة غير مرغوب فيها واصبح الحديث عنهم بالشكل الآتي لا يثير اية غرابة، فهم : شرائح اجتماعية متخلفة، وعائلات متعددة الاطفال، وسكان معوزون، وجماعات في حاجة الى مساعدة الخ..» واذا كان هناك فقر في اسرائيل، فان الفقراء هم الشرقيون الذين يعيشون في مساكن رديئة، وهم الذين يعانون سوء التغذية.

ويشكل انعدام التعليم والتربية الذي يكاد ينحصر في الطوائف الشرقية بطبيعة الحال، خطورة جسيمة بسبب نتائجه الوخيمة على حياة الفرد والجماعة.

وقلما تشعر هذه الطوائف بانها تساهم مساهمة فعالة فيما بنجز من انجازات في البلد، باستثناء زمن الحرب.وفترات الخدمة العسكرية الطويلة التي يستدعون خلالها للقيام بنفس الواجبات التي يقوم بها الآخرون. ان هؤلاء الشرقيين يشعرون بأنهم مواطنون من المرتبة الثانية.

4 - المحيط الثقافي ليهود المغرب والشرق

لا يعنينا هنا ان نفتح الملف الكبير «لاسرائيل الثانية». او ان نتعرض لعواقبه الضخمة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، وهي جميعا مشاكل متراكمة تزعج وتقلق الرأي العام في الشتات بل وايضا في اسرائيل، حيث تحرف احيانا عن مواضيعها الحقيقية، وتصبح موضوعا للتوتر والمواجهات الداخلية بين الطوائف.

وسوف ينحصر حديثنا حول القضايا التي تطرحها مواضيع الثقافة والتعليم والتربية بالنسبة لليهودي السيفر ادي والشرقي واليهودي المغربي خصوصا. ومن المفروض ان تخصص لها مكانة خاصة ضمن الحاجيات الحيوية التي لا غنى عنها للانسان، وان كانت في نهاية الامر، وكما يبدو لنا، تصب جميعا في حاجيات الإخبار والتربية والثقافة. وتعتبر المتعة الفكرية والروحية عند الرجل الفقير، كما يفترض ان تكون كذلك عند المحظوظين الاغنياء، اهم شيء واقدسه. وانه لمن الطبيعي ان تكون الامكانيات المتعددة التي يتيحها الحصول على العلم والمعرفة والتكوين، قادرة على ان تمكن من وسائل التأثير والقوة، وفي اعلا المستويات، وان تكون الوسيلة الحقة للترقي الاجتماعي.

ويمكن أن يعرف اليهودي المشرقي والسيفرادي نفسه، بصفته يهوديا كما عرف KAFKA ذاته بالنسبة ليهود الغرب في احدى رسائله إلى ميلينا قائلا: **«ينبغي أن أكتسب كل شيء، ليس فقط الحاضر والمستقبل، بل الماضي أيضا، هذا الشيء الذي يتلقى منه الانسان نصيبه، ينبغي علي كذلك اكتسابه، ويمكن أن يكون ذلك أصعب مهمة، وإذا كانت الأرض تدور يمينا ولا أدري إذا كانت تفعل - ينبغي علي أن أدور شمالا لكي ألحق الماضي»**

ومن اللازم ان يُعرّف، في الاطار السياسي والاجتماعي والثقافي الحالي الاسرائيلي حيث استقرت الاغلبية العظمى من الشتات، تلك المسماة الشرقية، بهؤلاء اليهود الذين ظل فكرهم وتاريخهم مهمشا، مع انه قمين بان يعرّف وينشر في اوساط الناس.

ويجدر بنا في هذا الصدد، ان نتأمل قليلا تاريخانية المحيط الثقافي اليهودي. واذا كان تاريخ اغلبية الشعوب والحضارات مسجلا في وثائقهم الوطنية والمحلية، وفي الوقائع والحوليات الرسمية، فان الطوائف اليهودية على العكس من ذلك، لم تترك ما يشبه هذه الشهادات، نظرا لتوزعها بين الامم، اهتمامها بالحفاظ على مقوماتها الدينية بل والجسدية دون غيرها. وينبغي اذا، من اجل كتابة تاريخ اليهودية على العموم، وتاريخ العالم السيفر ادي والشرقي على الخصوص، القيام ببحث منهجي للوثيقة في مجمل الفكر اليهودي، للاستفادة من كل اشكال التعبير التي تعتبر في حد ذاتها بعضا من مضمون وجود هؤلاء اليهود.

ولا ينبغي ان يعتبر او يدرس الابداع الادبي المكتوب والشفاهي، سواء باللغة العبرية او اللهجات المحلية، في حد ذاته، باعتبار قيمته الذاتية او باعتباره ما هية منفردة أو كنها معزولا، ولكن يجب ان يوخذ كجزء لا يتجزأ من شمولية اجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بمجمل التاريخ. فكل ابداع ادبي، وكل فكر يعتبر مصدرا من مصادر التاريخ: فاختبار صور التعبير وكل انماطه وانواعه، ووضعها تحت مبضع ادوات البحث والتحليل والنقد المعروفة، والتفسير الصحيح لنتائج هذا الاختبار، كل هذا يكون عناصر «كتابة التاريخ».

ويشكل الفكر القانوني وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والدينية وعلى الخصوص تلك التي نقلتها الينا الفتاوي والمراسيم والشعر الديني، والدنيوي، والكتابات التفسيرية، والخطابية بل والكتابات الصوفية والقبالية، والادب الشعبي المنقول شفويا من اللهجات المحلية (اليهودية العربية والبربرية والقشتالية)، كل هذا، يشكل الاسس الرئيسية لاية مقاربة شاملة للوجود اليهودي وفي مختلف مستويات التحليل. لقد تحدثنا هنا، كما هو الحال في مكان آخر، عندما تعلق الامر، بحقيقة يهود الغرب الاسلامي، عن هذه اليهودية المغربية التي كانت تعتبر الى عهد قريب، عاطلة من اي ماض، والتي انطلقت توّا لاعادة ذاكرتها الجماعية وهويتها ووعيها بانتمائها الى فئة اثنية وبيئة ثقافية تخصها وتميزها بين صفوة من الثقافات والاثنيات والعقليات التي تكون العالم اليهودي.

ولقد اتخذت حاليا، مبادرات في اسرائيل وفي غيرها، لتشجيع وتطوير الابحاث والدراسات حول هذه اليهودية الشرقية والسيفرادية، لدراسة تاريخها طوال خمسة قرون الاخيرة. وعلينا ان نأمل انجازات حقيقية في هذا الصدد، وفي اقرب الآجال. وفي الحقيقة، فانه قد حان الاوان، لنفض الغبار عن هذه القرون المعتمة من تاريخ وفكر الشتات الشرقي وهذا ميدان هام من العالم اليهودي ومن ثقافته التي ظلت بعيدا عن العلم والبحث، ومقصاة من الدراسة والتعليم.

ويستجيب الاهتمام الخاص، في المرحلة الحالية، باليهودية في العالم السيفرادي والشرقي (1) لرغبات وحاجات عميقة. مع ان الموقف العادي منها كان الى عهد قريب موقفا

1 – انعقدت اول ندوة عالمية تتعلق بيهود افريقيا الشمالية، تحت اشراف مركز البحث الخاص بيهود افريقيا الشمالية، ما بين 5 و8 ابريل 1978 بمعهد «بن صيفي» بالقدس. واقام عديد من المعاهد العليا اياما دراسية خاصة بيهود البلدان الاسلامية والذين ترجع اصولهم الى الغرب الاسلامي. ووضعت جامعة حيفا مخططا لخلق كرسي لدراسة حضارة يهود البلدان الاسلامية، تمكنت شخصيا من حضور تدشينه مدة الثلاثة اشهر الاولى من السنة الجامعية 77–1978، وقد اشرف عليه مجموعة من اساتذة التاريخ والآداب اليهوديين بالغرب الاسلامي : الفترة ما بعد الخروج من الاندلس 1492.

ومن جهة اخرى، فان وزارة التربية (اسرائيل) خلقت لجنة لادخال التراث الثقافي الاندلسي والشرقي في المناهج التعليمية...) وجعلتها تابعة لها. واقامت مؤسسة جديدة تسمى «مِسْكت يُرو شَلاَيم» اول ندوة عالمية لدراسة التراث الثقافي لليهودية الشرقية ويهود الغرب الاسلامي، بالقدس، ما بين 20 و30 يونيه 1978.

سلبيا تماما. وتجاهلته الطوائف اليهودية الاوربية والاشكنازية. وكان اليهودي الشرقي والسيفرادي نفسه، سواء على مستوى العامة او الخاصة، يمارس بالنسبة لاصوله وثقافته نوعا من الرقابة الذاتية بل تتحول احيانا هذه الرقابة الى التخريب الذاتي. وكان هذا اليهودي يتنكر لماضيه، ويخفي قيمه الموروثة عن ابائه واجداده، معتقدا انه من غير المفيد ان يكشف عنها، اما جهلا او عن عدم ادراك، او استحياء من الحالة التي هو عليها.

واننا نشاهد اليوم يقظة وعي سيفرادي وشرقي، وعي بانتماء الى فئة اثنية وبيئة ثقافية مختلفين. ونجد هذه الظاهرة في المعيش اليومي لطوائف اسرائيل وفي الشتات. وفضلا عن ذلك، فان البحث عن الهوية السيفرادية والشرقية الذي كان يعتبر بادىء ذي بدء، عملا من اعمال التخريب ورغبة في الانشقاق، اصبح من الآن فصاعدا، ينظر اليه على انه مشروع وبناء. واذا كنا نلح فيما يتعلق بنا على الضرورة والحاجة الملحة لمباشرة الدراسات والابحاث حول التراث الثقافي لليهودية السيفرادية طيلة الاربعة او الخمسة قرون الأخيرة من وجهة النظر العلمية البحث، بغض النظر عن اعتبارات المجموعات الاجتماعية قبل ان يفوت الاوان، فذلك لان هذا التراث هو جزء لا يتجزأ من الفكر اليهودي الشامل من جهة، ولانه يساهم في المعرفة الجيدة للعالم العربي - الاسلامي، ومجتمع حوض البحر الابيض المتوسط من جهة اخرى. وبالاضافة الى ذلك، فاننا نلمس وعيا بهذا، في المغرب العربي نفسه، حيث تبدي مجموعات البحث العلمي الجامعي، والمجلات المتخصصة والصحافة اليومية، اهتماما ظاهرا بالدراسات الخاصة بيهود المغرب وبالوثائق المتوفرة التي اصبحت تعتبر لدى بعض المغاربة المسلمين مصدرا لا يستهان به لتاريخهم، بل جزءا من فكرهم، وعلى الخصوص عندما يتعلق الامر بالآداب الشفوية والشعبية واللهجات والابداع الفني والموسيقى والغناء.

5 - الذاكرة اليهودية - المغربية

يبدو ان مصير اليهود المغاربة في البلدان الاخرى التي استقبلتهم، يختلف اختلافا بينا وسواء كان الامر يتعلق بالذين اختاروا فرنسا او اولئك الذين اختاروا كندا او فينزويلا. وكلهم يكونون طوائف على قدر هائل من الحيوية، فان اندماجهم الاجتماعي والاقتصادي يعد افضل بكثير من اندماج اخوانهم الذين هاجروا الى اسرائيل. وهم مدعوون في فرنسا، كما هو الشأن في غيرها، الى التكيف مع ثقافة المجتمع المضيف، وتتغلب رغبة تمثل الحياة الفرنسية والكندية او حياة امريكا الجنوبية، في معظم الحالات، على الشعور بالاسف عن الماضي او الاحساس

بالاستئصال. ومع ذلك نسجل في هذه المسيرة نحو التماثل، بعض جوانب المقاومة المتمثلة في : نفوذ الوسط العائلي، الذي لا يزال يمارس بعضا من تأثيره وسلطته، كما ان الارتباط باليهودية يبقى حقيقة واقعة. ومما لا شك فيه، فان اليهود المغاربة في فرنسا، هم الذين يشكلون العنصر الاكثر تدينا والاكثر حفاظا على تقاليد الطائفة، وتجذب اسرائيل مجموعات كبيرة من هؤلاء المهاجرين، الا ان جزءا هاما من يهود شمال افريقيا، يظل يفكر في اقامة نهائية في فرنسا او كندا وفينزويلا.

ويرتبط عنصر الاقلية اليهودية – المغربية في فرنسا بالثقافة والمجتمع الفرنسي، عن طريق استعمال اللغة على الخصوص، وبالممارسات اليومية العادية، وبما تشكله «الحياة الخاصة» للناس والعلاقات التي يكونها هذا العنصر مع جاره في السكن، ورفيقه في المعمل او المكتب، وشريكه او منافسه الصناعي والتجاري، وزميله في الثانوية او الجامعة الخ... ويبقى مع ذلك هذا اليهودي متجذرا في وفائه للتراث العبراني والفكر اليهودي الشامل، ومطبوعا اكثر من اي شيء آخر، باصوله المغربية ومساهمة اجداده في الثقافات الاندلسية والعربية والبربرية.

وتبقى مع ذلك، من تاريخ يعود الى الفي سنة على ارض المغرب المعطاء، ذكريات يعتز بها يهود المغرب. ومايزال صداها يتردد كذلك في روح المهاجرين المستأصلة، وتدوّي في موسيقاهم وغنائهم وفولكلورهم وشعائرهم واحتفالهم بـ«لالاميمُونَة» و«الهيلُولاَ» وفي مزاراتهم الجماعية لقبور اوليائهم المحليين، مثل (الربي عمرام بن ديوان بوزان، ومُوَالِين دَدْ بسطات الخ...) ويتردد صدى هذه الذكريات بالخصوص، عند المهاجرين المقيمين باسرائيل، كما يلاحظ ذلك في حنينهم الى البلاد، واسفهم الحزين وأُزماتهم المريرة او احزانهم، وفي كتاباتهم الغاضبة او الهادئة. وتعبر هذه الذاكرة عن نفسها بحذق، في الخلق الادبي العبري الناشيء، لدى بعض الادباء من اصل مغربي، وبالاخص في رهافة شعور الشعراء الشباب (2) الذين عبروا في آثارهم الادبية الجيدة عن الروح المكلومة والثقافة المهمشة او المهانة، وعن قساوة العيش الذي يعانيها شتات «ثان»، ذلك الشتات الذي عرفناه من قبل على ارض المغرب المعطاء، بوجه وضاء وحرارة عاطفة، كما عرفنا مشاعره في كل افراحه واتراحه.

2 – اقصد إرزبتون في كتابه : «هدية مغربية» و«كتاب النعناع» وكْبريل بن سيمون «طمأنينة المخلص ملك المغرب».

ببليوغرافيا

ABEN ṢUR Jacob, *'Et le-kol-ḥefeṣ* (recueil de poésies liturgiques), No-Amon, Alexandrie, 1893.

— *Mishpat u-ṣdaqah be-ya'aqob (Responsa)*, Tome I, Alexandrie, 1894; Tome II, Alexandrie, 1903.

ABITBOL Michel, *Témoins et Acteurs, Les Corcos et l'histoire du Maroc contemporain*, Jérusalem, 1977.

ADDISON L., *The Present State of the Jews in Barbary*, London, 1675.

Ahabat Haqadmonim (rituel des *Toshabim*, « Juifs autochtones » de Fès), Jérusalem, 1889.

AL-FASI M., *Introduction à l'étude de la littérature populaire marocaine*, La Pensée, Rabat, 1962, n° 1, pp. 61-70.

AL-ḤAYK Muḥammad ben al-Ḥusayn, *Majmû'ât al-Ḥayk* (copie reprographiée du manuscrit), Maktabat al-Rishâd, Casablanca, 1972.

ANQAWA A., *Ordonnances des Rabbins de Castille, Kerem Ḥemer* II, Livourne, 1871.

ATTAL Robert, *Les Juifs d'Afrique du Nord, Bibliographie*, Jérusalem, 1973.

AUBIN Eugène, *Le Maroc d'aujourd'hui*, Paris, 1904.

BARGES J.J., GOLDBERG D.B., *Risalat Yehudah ben Quraysh 'ila Jama'ât Yahûd Madînat Fâs*, Paris, 1857.

BARON S.W., *A Social and Religious History of the Jews* (édition anglaise et édition française, pour les cinq premiers tomes), New York, Philadelphie, 1958-1976; Paris, 1956-1964.

BELLOW Saul, *Le Don de Humbold*, Flammarion, Paris, 1978.

BENAÏM *Yosef*, *Malke Rabbanan* (Dictionnaire bio-bibliographique des Rabbins du Maroc, hébreu), Jérusalem, 1931.

BENECH José, *Essai d'explication d'un mellah*, Marrakech, 1940.

BENSIMON-DONATH Doris, *Évolution du judaïsme marocain sous le Protectorat français*, Paris-La Haye, 1968.

BERQUE J., *Structures sociales du Haut-Atlas*, Paris, 1955; *« Al Yousi », Problèmes de la culture marocaine au XVIIIe s.*, Paris, 1958.

BETTAN I., *Studies in Jewish Preaching*, Cincinnati, 1939.

BIARNAY S., *Notes d'ethnographie et de linguistique nord-africaines*, publiées par L. BRUNOT et L. LAOUST, Paris, 1924.

BLAU J., *The Emergence and Linguistic Background of Judaeo-Arabic*, Oxford University Press, 1965.

BOURRILLY J., *Éléments d'ethnographie marocaine*, publié par E. LAOUST, Paris, 1932.

BRUNOT L. et MALKA E., *Textes judéo-arabes de Fès*, Rabat, 1939.

BRUNOT Louis, *Textes arabes de Rabat*, Paris, 1931 (textes); 1952 (glossaire).

CHOTTIN A., *Tableau de la musique marocaine*, Geuthner, s.d., Paris, (Prix du Maroc 1938).

COHEN D., *Le parler arabe des Juifs de Tunis*, Vol. I, Paris-La Haye, 1964; Vol. II, 1975.

CORCOS D., *Studies in the History of the Jews of Morocco*, Jérusalem, 1976.

DE CENIVAL P., *La légende du Juif Ibn Mech'al et la fête du Sultan des Tolba à Fez*, Hespéris V, 1925, pp. 137-218.
D'ERLANGER R., *La musique arabe*, Tome V, Paris, 1949 ; Tome VI, Paris, 1959.
DOUTTÉ Edmond, *En tribu*, Paris, 1914.
— *Magie et religion*, Alger, 1909.
DOZY R., *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, Leyde-Paris, 1927 (2e édition).
DURAN Profiat, *Ma'aseh Efod*, Vienne, 1865.

ED-DER'Y Moïse b. Isaac, *Yad Moshe*, Amsterdam, 1809 ; *Ma'aseh nissim*, Amsterdam, 1818 ; *An Historical Account of the Ten Tribes...*, Londres, 1936.
EISENBETH M., *Les Juifs d'Afrique du Nord. Démographie et Onomastique*, Alger, 1936.
ELIADE Mircea, *Aspects du mythe*, Gallimard, Idées, 1963.

FERRE D., *Lexique marocain-français*, Fédala, Maroc, s. d.
FLAMAND Pierre, *Un mellah en pays berbère : Demnate*, Paris, 1952.
FOUCAULD (Ch. de), *Reconnaissance au Maroc*, Paris, 1888.

GEIGER A., *Judaism and Islam*, New York, 1970 (édition préfacée par Moshe Perlman).
GOITEIN S. D., *Juifs et Arabes*, Paris, 1957.
— *Sidre Hinukh Mitqufat ha-Geonim 'ad Bet-Harambam* (Éducation juive médiévale), Jérusalem, 1962.
— *A Mediterranean Society*, Vol. I, University of California Press, 1967 ; Vol. II, 1971 ; Vol. III, 1978.
GOLDBERG Harvey, *The Mimuna and the Minority Status of Moroccan Jews*, dans *Ethnology*, Vol. XVII, n° 1, Janvier, 1978, pp. 75-87.
GOULVEN J., *Les mellahs de Rabat-Salé*, Paris, 1927.

ḤASIN David, *Tehillah le-Dawid* (Anthologie poétique : *piyyuṭim* et *qinot*), Amsterdam, 1807, et Casablanca, 1931.
HESSE Hermann, *Le jeu des perles de verre*, Paris, 1955.
HIRSCHBERG H. Z., *Histoire des Juifs d'Afrique du Nord depuis l'Antiquité jusqu'à nos jours* (hébreu), Jérusalem, 1965 ; traduction anglaise du vol. I, Brill, 1974.

JOUIN J., *La mort de Moïse, poème en arabe dialectal marocain*, dans « *Littérature Orale Arabo-Berbère* », CNRS et EPHE, 5e Bulletin de liaison, 1971-1972, pp. 153-159.

KAFEH J., *Halikhot Teman* (La vie des Juifs à Sanaa et ses environs), Jérusalem, Inst. Ben Zvi, 1961.
KENNETH L. BROWN, *People of Salé*, Manchester University Press, 1976.
KUNDERA Milan, *La Plaisanterie*, Gallimard, Folio, 1968.

LAOUST E., *Mots et choses berbères*, Paris, 1920.
LAREDO A. I., *Les noms des Juifs du Maroc*, Madrid, 1978.
— *Les Purim de Tanger*, Hespéris XXXV, pp. 193-204.
LEGEY (Doctoresse), *Essai de folklore marocain*, Paris, 1926.
LE TOURNEAU Roger, *Fès avant le Protectorat*, Casablanca, 1949.
— *La vie quotidienne à Fès en 1900*, Paris, 1965.
LEVI-PROVENÇAL E., *Les Historiens des Chorfa*, Paris, 1922.
LOUBIGNAC Victorien, *Textes arabes des Zaer*, Paris, 1952.

MAÏMONIDE, *Le livre de la Connaissance*, trad. par NIKIPROWEZTZKY V. et ZAOUI A., Paris, P.U.F., 1961.
MALKA Élie, *Essai de folklore des Israélites du Maroc*, Paris, 1976.
MASSIGNON L., *Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc*, dans *Revue du Monde Musulman* (R.M.M.), Vol. LVIII, 1924 (2e section), Paris.

— *Le Maroc dans les premières années du XVI^e s., Tableau géographique d'après Léon L'Africain,* Alger, 1906.

MIEGE J., *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894,* Paris, 1961-1962.

MIRSKY A., *Ha-piyyuṭ she-ba-tefillah,* Tarbuth, XVIII, 1964.

— *Reshit ha-piyyuṭ, Jérusalem,* 1965.

— *Shire Yiṣḥaq Ibn Kalfon,* Jérusalem, Inst. Bialik, 1961.

OHANA Raphaël, *Mar' eh'hayeladim* (médecine et magie), Jérusalem, 1900.

PELLAT Ch., *Nemrod et Abraham dans le parler arabe des Juifs de Debdou,* dans *Hespéris* XXXIX, 1952, 1[er] et 2[e] trim., pp. 121-147.

PERES H., *La poésie andalouse en arabe classique au XI[e] s.,* Paris, A. Maisonneuve, 1937 et 1953.

PEREṢ Yehudah ben Yosef, *Peraḥ Lebanon,* Berlin, 1712.

QORIAT Isaac, *Naḥalat Abot,* Livourne, 1898.

SCHOLEM G., *Major Trends in Jewish Mysticism,* New York, 1946... Édition française, Paris, 1950... (Les Grands Courants de la Mystique juive).

— *Les origines de la kabbale,* Paris, 1966.

SCHIRMANN H. Y., *Ha-shirah ha-'ibrit bi-Sfarad u-bi Probans* (La poésie hébraïque en Espagne et en Provence, hébreu), Jérusalem, Tel-Aviv, 1954-1956, Tomes I et II.

SCHWARTZBAUM H., *Mimeqor Yisra'el we-Yishma'el, « The folkloristic aspects of Judaism and Islam »,* (hébreu), Tel-Aviv, 1975.

SEMACH Y. D., *Le Saint d'Ouezzan, Ribbi 'Amram ben Diwan et les Saints Juifs du Maroc,* extrait du *« Bulletin de l'Enseignement Public du Maroc »,* Mars, 1937 (24[e] année), pp. 1-21.

SLOUSCH N., *Étude sur l'histoire des Juifs et du judaïsme au Maroc,* dans *Archives Marocaines,* Paris, 1905-1906.

— *Les Juifs de Debdou,* dans Revue du Monde Musulman, Vol. XXII, 1913.

SONNECK C., *Chants arabes du Maghreb. Étude sur le dialecte et la poésie populaire de l'Afrique du Nord* (I, texte arabe), Paris, 1902.

SOUSTELLE Jacques, *La vie quotidienne des Aztèques,* Paris, 1955.

TADJOURI R., *Le mariage juif à Salé,* Hespéris III, 1923, 3[e] tr., pp. 393-420.

TAHAR A., *La poésie populaire algérienne (malḥun). Rythme, mètre et formes,* Alger, 1975 (arabe).

TERRASSE Henri, *Histoire du Maroc,* Casablanca, 1949-1950.

TOLEDANO J. M., *Ner Hama'arab* (Histoire des Juifs du Maroc, hébreu), Jérusalem, 1911.

— *'Oṣar Gnazim,* Jérusalem, 1960.

VAJDA G., *Introduction à la pensée juive du Moyen Age,* Paris, 1947.

— *Un recueil de textes historiques judéo-marocains,* collection Hespéris, n° XII, Paris, 1951.

— *Juifs et musulmans selon le Ḥadit* dans *Journal Asiatique* (J. A.) CCXXIX, 57-127.

VALÉRY P., *Cahiers,* Éd. de la Pléiade, 1974.

— *Œuvres,* Bibl. de la Pléiade, 1957.

VASSEL E., *La littérature populaire des Israélites Tunisiens,* Paris, 1907.

VOINOT L., *Pèlerinages judéo-musulmans du Maroc,* Paris, 1948.

WENSICK A. J., *The Semitic New Year and the Origin of Eschatology,* Acta Orientalia I, 1923, pp. 159-199.

WESTERMARCK Edward, *Les cérémonies du mariage au Maroc* (traduction française par ARIN J.), Paris, 1921.

— *Ritual and Belief in Morocco*, Londres, 1926 et New York, 1968, 2 volumes.

YA'RI Abraham, *Shluḥe 'Ereṣ - Yisra'el...* (Les Rabbins Émissaires Palestiniens, hébreu), Jérusalem, 1951.

— *Moïse ben Isaac Edre'y et ses livres* (hébreu), dans *Kiryat Sefer*, XXXIII, 1958, pp. 521-528.

YELLIN D., *Torat ha-shirah ha-sfardit* (Introduction à la poésie hébraïque de la période espagnole), Jérusalem, 1940.

ZAFRANI H., *Langues juives du Maroc*, dans *R.O.M.M.*, n° 4, 1967, pp. 175-188.

— *Mi-Kamokha*, dans *Journal Asiatique* (J. A.), CCLIII/2, 1964, pp. 97-104.

— *Une histoire de Job en judéo-arabe du Maroc*, dans *Revue des Études Islamiques* (R.E.I.), XXVI/2, 1968, pp. 279-316.

— *La parodie dans la littérature judéo-arabe et le folklore de Purim au Maroc*, dans R.E.J., CXXVIII/4, 1969, pp. 377-393.

— *Notes sur G. Vajda, Inscriptions Antiques du Maroc, Inscriptions hébraïques*, C.N.R.S., 1966, dans R.E.J., CXXVII/1, 1968, pp. 125-126.

— *Une qeṣṣa de Tinghir, Hymne à Bar Yoḥay*, dans R.E.J., CXXVII/4, 1968, pp. 366-382.

— *Les Communautés du Todgha*, dans R.E.J., CXXXIII/1 et 2, 1964, pp. 191-198.

— *Pédagogie juive en Terre d'Islam*, Paris, 1969.

— *Une version berbère de la Haggadah de Pesaḥ. Texte de Tinrhir du Todrha* (Maroc). Supplément aux Comptes rendus du G.L.E.C.S., 2 tomes, Paris, 1970 (en collaboration avec Mme P. PERNET-GALAND).

— Dans *Encyclopaedia Judaica*, Édition Keter, Jérusalem, 1971, cinq articles :

— *Abitbol Saul, Amor ; Ankawa Raphael ; Arrobas Isaac and family ; Ḥagiz family ; North African Jewish Dialects.*

— Dans *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, *Judéo-berbère* (langue et littérature), *Qiṣṣa*, *Mallâḥ*.

— *Les Juifs du Maroc. Vie sociale, économique et religieuse, Études de Taqqanot et Responsa*, Paris, 1972.

— *Littératures populaires et dialectales juives en Occident Musulman*, Paris, 1980.

— *Poésie juive en Occident Musulman*, Paris, 1977.

— *Problèmes monétaires du Maroc dans la littérature juridique (Taqqanot et Responsa) des rabbins marocains*, J.A., CCLXII/1 et 2, 1974, 37-46 ; Revue Historique 55, juillet-septembre 1974, 73-80.

Zohar, Éditions de Przemysl, 1880 ; Lublin, 1881 ; Wilna, 1894.

REVUES

Bulletin de l'Éducation Publique au Maroc (B.E.P.M.), Rabat.

Hesperis, *Hesperis-Tamuda*, Rabat.

Journal Asiatique, Paris.

Revue des Études Islamiques (R.E.I.), Paris.

Revue des Études Juives (R.E.J.), Paris.

Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée (R.O.M.M.), Aix-en-Provence.

Sefarad, Revista... de Estudios Hebraicos y Oriente Proximo, Madrid.

ENCYCLOPÉDIES

Encyclopédie de l'Islam, 1re et 2e édition, Leyde-Paris, 1913-1942 ; 1954-...

Encyclopaedia Judaica (E.J.), Jérusalem, 1971.

Jewish Encyclopedia (J.E.), New York, 1901-1909.

الفهرست

الفصل الثالث: المجتمع اليهودي المغربي ـ الطائفة

الفصل الرابع : الحياة الاقتصادية

الفصل الخامس: الحياة الفكرية: ثقافة ودين

الفصل السادس: الحياة الدينية والشعائرية